الجمهورية العربية السورية
جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

التطور التاريخي للعلاقات الألمانية العثمانية

ما بين (١٢٩٣هـ-١٣٢٧هـ/١٨٧٦-١٩٠٩م)

الأطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ

(دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية)

إعداد الطالبة

سهام محمد هنداوي

إشراف

الأستاذ الدكتور محمد الأحمد

دمشق
١٤٣٥هـ-٢٠١٤م

إهداء

إلى من كان أكبر عون لي بعد الله...
والدي الحبيب
وإلى من باتت تدعو لي وترعاني بحنانها...
أمي الغالية
إلى من هم سندي في هذه الحياة...
أخوتي وأخواتي
إلى من هم أملي ومستقبلي وإلى من أتمنى لهم كل التميز في الحياة....
أبناء أخوتي وأخواتي

سهام

المحتويات

مقدمة ٣

الفصل الأول

تمهيد

- لمحة عن تاريخ المسألة الشرقية (١٧٧٤-١٨٧٠)..... ١٥
- أهم أحداثها:
أولاً: معاهدة قينارجه (١١٨٧هـ-١٧٧٤م)..... ١٦
ثانياً: الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١م):..... ١٩
ثالثاً: دولة محمد علي (مصر):..... ٢٣
- الاصلاحات الداخلية:..... ٢٤
أ- الجيش..... ٢٥
ب- الناحية العلمية والثقافية في مصر ٢٥
ج- الناحية الاقتصادية..... ٢٥
- حروب محمد علي:..... ٢٦
أ- حروبه في شبه الجزيرة العربية (١٨١١-١٨١٨). ٢٦
ب- حروبه في السودان (١٨٢٠). ٢٧
ج- حروبه في اليونان (١٨٢٢-١٨٢٧م)..... ٢٧
د- حروبه في بلاد الشام (١٨٣١-١٨٤١م). ٢٨
رابعاً: حوادث لبنان (١٨٤٥-١٨٦٠)..... ٣٠
خامساً: حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦م)..... ٣٣
- أسباب الحرب ومجرياتها ونتائجها. ٣٥

الأوضاع الداخلية

في كلٍّ من الدولة العثمانية وألمانيا

في تلك المرحلة

- أولاً الأوضاع الداخلية في الدولة العثمانية:..... ٣٨
أ- تسلم عبد الحميد الثاني الحكم..... ٣٨
ب- سياسة عبد الحميد الثاني الداخلية:..... ٤٠
أ- إعلان الدستور (١٨٧٦م)..... ٤٠
ب- إعلان تأسيس المجلس العمومي..... ٤٢
ج- الإصلاحات الداخلية في الدولة العثمانية في عهد عبد الحميد الثاني..... ٤٣
ج- سياسة عبد الحميد الخارجية:..... ٤٥
١- تمردات وثورات البلقان..... ٤٦

٢- الحرب الروسية العثمانية..... ٤٨
٣- مؤتمر برلين (١٣٠٥هـ-١٨٨٧م)..... ٥١
– ثانياً الأوضاع الداخلية في الإمبراطورية الألمانية: ٥٦
١- من هو بسمارك؟ وكيف وصل إلى المستشارية في ألمانيا؟..... ٥٧
٢- الطريق إلى الوحدة الألمانية (سياسة بسمارك لتحقيق الوحدة الألمانية). ٥٨
أ- الحرب مع النمسا (١٨٦٦م)..... ٥٩
ب- الحرب مع فرنسا (١٨٧٠م)..... ٦١
ج- قيام الإمبراطورية الألمانية (١٨٧١م)..... ٦٣

الفصل الثاني

العلاقات السياسية والعسكرية (الألمانية-العثمانية)

ومظاهر التقارب الألماني العثماني

أولاً - أسباب التقارب الألماني العثماني..... ٦٦
أ- أسباب متعلقة بالأوضاع الألمانية ٦٧
ب- أسباب متعلقة بالداخل العثماني..... ٦٩
ثانياً - مظاهر التقارب الألماني العثماني..... ٧٠
أ- زيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني للدولة العثمانية: ٧١
١) أصداء المرحلة الإمبراطورية الثانية وأهدافها..... ٧٣
٢) التحضيرات للرحلة..... ٧٦
٣) محطات الرحلة..... ٧٩
- الإمبراطور في الآستانة /١٧ تشرين الأول ١٨٩٨ حتى ٢٢ تشرين الأول ١٨٩٨م٧٩
- الإمبراطور في فلسطين /٢٥ تشرين الأول/ إلى /٤ تشرين الثاني ١٨٩٨م. ٨٠
- الإمبراطور في بيروت /٥ تشرين الثاني/ إلى /٧ تشرين الثاني ١٨٩٨م. ٨٣
- الإمبراطور في دمشق /٧ تشرين الثاني/ حتى /١٠ تشرين الثاني ١٨٩٨م/..... ٨٤
- الإمبراطور في بعلبك في /١٠ تشرين الثاني والعودة إلى ألمانيا من بيروت في /١٢ تشرين الثاني ١٨٩٨/..... ٨٦
ب- البعثات العسكرية والدور الألماني في تدريب الجيش العثماني: ٨٧
١) لمحة عن نشأة الجيش العثماني وتطوره حتى فترة الدراسة..... ٨٧
٢) أولى المحاولات الجادة لتطوير وإصلاح الجيش العثماني..... ٩١
٣) تطور الجيش العثماني بعد إعلان التنظيمات (١٨٣٩م). ٩٣
٤) الدور الألماني في تدريب الجيش العثماني في عهد عبد الحميد الثاني (البعثات العسكرية). ٩٣
أ- التعاون العسكري الألماني -العثماني فترة بسمارك..... ٩٩
ب- التعاون العسكري الألماني-العثماني فترة الإمبراطور غليوم الثاني. .. ١٠٣
١) سياسة غليوم العسكرية تجاه الدولة العثمانية. ١٠٦
٢) الضباط الألمان في الدولة العثمانية. ١٠٩
٣) الضباط العثمانيون في ألمانيا. ١١١
٤) السلاح الألماني في الدولة العثمانية..... ١١٢

الفصل الثالث

العلاقات الاقتصادية

الألمانية-العثمانية

أولاً - الاتفاقيات والامتيازات التجارية
١- العملة العثمانية والأوروبية ١٢٠
٢- التقدم الاقتصادي والصناعي الألماني ١٢٢
٣- موقف ألمانيا من الدولة العثمانية ١٢٤
٤- موقف السلطان عبد الحميد من ألمانيا ١٢٨
ثانياً - المشروعات الاقتصادية الألمانية-العثمانية المشتركة ١٣١
١- خطوط الملاحة ١٣١
٢- البيوتات التجارية ١٣٢
٣- المنشآت العمرانية ١٣٢
٤- التجارة والمصارف ١٣٣
٥- الاتصالات والتنقيب على المعادن ١٣٦
٦- القروض المالية ١٣٧
٧- المشروعات الصناعية ١٣٨
ثالثاً - خط حديد بغداد: B.B.B – ١٩٠٣ ..... ١٣٨
١- الخطوط الحديدية في الدولة العثمانية ١٣٨
٢- فكرة خط بغداد ١٤٠
٣- توقيع العقد: آذار ١٩٠٣ ..... ١٤١
٤- مسار خط بغداد ومعلومات عن الخط ١٤٢
٥- موقف روسيا وفرنسا وإيران ١٤٧
٦- أهم بنود العقد ١٤٧
٧- مراحل تنفيذ الخط وتعثُّرها ..... ؟
٨- آثار الخط ومصيره ١٤٩
رابعاً - الخط الحديدي الحجازي ١٥١
١- أفكار الخط الأوليَّة ١٥١
٢- تنفيذ الخط ١٥٣
٣- التمويل المسالي ١٥٣
٤- معارضة فرنسا وإنكلترا للمشروع ١٥٦
٥- إدارة الخط الحديدي الحجازي ومرافقه ١٥٧
٦- الأمور الفنيّة ١٦١
٧- مراحل إنجاز الخط ١٦٢
٨- أجور الركاب ١٦٥
٩- تدشين الخط ١٩٠٨ ..... ١٦٦
١٠- آثار الخط الخيّرة إسلامياً وعالميًّا ١٦٧
الملاحق
- رحلة خالد العظم بالقطار سنة ١٩١٥ ..... ١٧١
- وثائق تاريخية عن طبيعة العمل بالخط ١٧٢

الفصل الرابع

العلاقات الاجتماعية بين الدولتين (العلاقات الألمانية - الفلسطينية)

أولاً -المستعمرات الألمانيّة في فلسطين ١٧٧
١- المقدمة ١٧٧
٢- المستعمرات والمؤسسات البروتستانتيَّة ١٧٩
٣- المستعمرات والمؤسسات الكاثوليكية ١٨٧
ثانياً - المستعمرات اليهودية - الألمانية في فلسطين ١٩٠
١- الألمان واليهود وفلسطين ١٩٠
٢- المستعمرات اليهودية والهجرات الأولى ١٩٤
٣- السلطان واليهود والألمان ٢٠١
٤- هرتزل ومؤتمر بال والدولة اليهودية ٢٠٥
٥- لقاء هرتزل مع السلطان والإمبراطور ٢١٢
ثالثاً - العلاقات الثقافية والعلميَّة ٢٢١
١- الجمعيات الثقافية الألمانية ٢٢١
٢- التنقيب عن الآثار ٢٢٢
٣- المستشرقون الألمان ٢٢٦
رابعاً - الألمان وطرق التبشير ٢٣٠
١- نظرة الألمان للإسلام ٢٣٠
٢- المدارس وأهدافها التبشيرية ٢٣٢
٣- المستشفيات ودور الأيتام والطريق المفضل للمبشرين ٢٣٣

الفصل الخامس

التقارب العثماني - الألماني

موقف الدول الكبرى - نتائجه وعواقبه

أولاً - موقف الدول الكبرى من التقارب العثماني-الألماني ٢٤٤
٥- موقف إنكلترا ٢٤٤
٦- موقف روسيا ٢٥٥
٧- موقف فرنسا ١٦٤
٨- موقف إيطاليا ٢٧٤
ثانياً - نتائج التقارب وعواقبه ٢٧٨
أ- على الدولة العثمانية ٢٧٩
ب- على ألمانيا ٢٨٤
ج- ألمانيا في الميزان ٢٨٦
الخاتمة ٢٩٢
الملحق: الوثائق والصور ٢٩٦
المصادر والمراجع ٣٣٠

الباب

مُقدِّمة

تمثل الفترة موضوع البحث (١٣٢٧/١٢٩٣#-١٩٠٩/١٨٧٠م) فترة هامة جدًّا على الصعيد التاريخي لتطور علاقة الدولة العثمانية بالدول الأوروبية على جميع الأصعدة، وخاصّة علاقة الدولة العثمانية بألمانية تلك القوة الاستعمارية الناشئة على الساحة الدولية.

فلقد كانت حينها الدولة العثمانية تعيش مرحلة خطيرة جدًّا من صراعها مع القوى الاستعمارية العظمى في تلك المرحلة، من حيث الحفاظ على كيانها ووجودها، فقد تسابقت هذه القوى فيما بينها من أجل السيطرة على أكبر قدرٍ ممكن من ممتلكات «الرجل المريض» الدولة العثمانية.

وأمام هذه التحديات وقف أحد أكثر سلاطين بني عثمان إثارة للجدل والخلاف وهو السلطان عبد الحميد الثاني (١٣٢٧/١٢٩٣ـ-١٩٠٩/١٨٧٦م) والذي اختلفت الآراء حول حقيقة مواقفه من المشكلات التي واجهت دولته في تلك المرحلة، وكيفية التصدي لها.

وبالمقابل ظهرت ألمانية كقوة سياسية جديدة منافسة على الساحة الدولية بزعامة شخصية عُرفت بالذكاء والحنكة والدهاء السياسي اتفق الجميع على تسميته «الرجل الحديدي» ألا وهو «بسمارك» والذي سعي ليجعل من دولته قوة عظمى في أوروبا والعالم، ثم جاءت شخصية ألمانيّة أكثر طموحاً وتطلعاً للتميز الألماني والتفوق في العالم وهو الإمبراطور «غليوم الثاني». ولقد كان لهذا الإمبراطور آراء سياسية مميزة دفعت بألمانيا إلى أن تتصدر الساحة الدولية في تلك الحقبة، وكانت بالفعل قوة سياسية يحسب لها حساب، والذي انتهى به الأمر إلى دفع ألمانيا إلى تكوين حلف سياسي عالمي أفضى بها إلى خوض حرب عالمية (١٩١٤-١٩١٨) خرجت منها مهزومة أمام قوى الاستعمار القديم[١].

وانطلاقاً من هذه المعطيات انبثقت أهمية موضوع البحث هذا حول حقيقة وطبيعة العلاقات الألمانية العثمانية في هذه المرحلة التاريخية المذكورة بمختلف جوانبها، لاسيما النقاط التالية :

١- الأمرالأول :أهمية الدولة العثمانية وألمانية والعلاقات المتبادلة بينهما، باعتبار أن الدولة العثمانية كانت تمثل أكبر تجمع بشري للمسلمين الذين بلغ عددهم في تلك المرحلة ما يقارب ثلاثمئة مليون مسلم، والتي كانت تمثل كياناً يعتبره البعض استمراراً للخلافة الإسلامية التي بدأت بعد وفاة محمد ^.

---

(١) قوى الاستعمار القديم: إذا جاز التعبير عن قوى الاستعمار في تلك المرحلة الممثلة بـ(فرنسا - انكلترا - روسيا).

والأمر الثاني: أنه في تلك المرحلة كانت الدولة العثمانية تمر بأخطر مراحل انحطاطها وتقسيمها والتآمر الدولي من أجل القضاء على أكبر إمبراطورية ودولة عرفها التاريخ، فلقد ازدادت التنافسات بين الدول الاستعمارية الكبرى (فرنسا-انكلترا-روسيا) من أجل اسقاط هذه الدولة واقتسام أملاكها فيما بينها.

أما الأمر الثالث: فهو أهمية ألمانيا تلك الدولة التي نجح زعيمها «بسمارك» في توحيد ولاياتها (٣٦) وتشكيل الإمبراطورية الألمانية وتقديمها للعالم باعتبارها دولة قوية (سياسياً وعسكرياً واقتصادياً) قادرة على استلام زمام المبادرة في تحقيق التوازن الدولي في تلك المرحلة من خلال امتلاك صمام الأمان في القارة الأوربية وتأجيل قيام حروب فيما بينها، ومنع حدوث هذه الحروب بين الدول العظمى (فرنسا-انكلترا-روسيا....) في كثير من الأحيان في تلك المرحلة (مؤتمر لبرلين وتزعم ألمانيا له ١٨٧٨م).

٢- الأهمية التاريخية للفترة الزمنية موضوع البحث (١٨٧٦-١٩٠٩م):

ترتبط أهمية هذه المرحلة بالطبع بأهمية أحداثها على كل المستويات: العثمانية، الأوروبية عامة ، الألمانية خاصة، وحتى العربية منها. فمن أهم هذه الأحداث التي مرت على الدولة العثمانية، الحرب الروسية-العثمانية (١٨٧٦) والحرب اليونانية-العثمانية (١٨٩٧) وانعكاس نتائج هذه الحروب على الدولة العثمانية من تدخلات وتداعيات داخلية، وقيام ثورات ضدها الحكم العثماني في كثيرٍ من المناطق الخاضعة للسيطرة العثمانية، وخاصة مناطق البلقان وما نتج عن هذه التمردات من ردة فعل عثمانية بالقيام بالعديد من المذابح والمجازر خاصة ضد الأرمن.

وكان من ردات الفعل العثمانية أيضاً على هذه الأحداث، قيام الدولة العثمانية بعدة محاولات للإصلاح الدستوري، فقد حاول السلطان عبد الحميد الثاني تحقيق شيءٍ من الديمقراطية داخل بلاده، وذلك استجابة لضغوط الدول الأوربية التي كانت تنادي بتحقيق العدالة والمساواة بين مختلف الفئات والطوائف الدينية داخل الدولة العثمانية، ولكن كل هذا المحاولات باءت بالفشل (ربما بسبب العقلية العثمانية،....).

ومن هنا كان الباب الأخطر الذي دخلت منه المشكلات الكبرى التي قوضت أركان الدولة العثمانية، وأدت بها إلى السقوط في النهاية، ومن أهم هذه المشكلات موضوع الامتيازات الأجنبية وازديادها في المرحلة الأخيرة من عمر الدولة التي هي موضوع بحثنا.

أما بالنسبة للأحداث على الصعيد الأوروبي والعالمي، فقد كان أهمها التنافس الاستعماري بين الدول الكبرى، إذ سعت كل دولة إلى تأسيس إمبراطوريتها الاستعمارية ، في مناطق كثيرة من العالم (العالم الجديد-أفريقيا-آسيا) على حساب دماء الشعوب وقوتها وعلى حساب القوى السياسية الصغرى في العالم، فلم يكد ينتهي القرن التاسع عشر إلا وقد أصبحت هذه الدول (فرنسا-انكلترا-روسيا-إيطاليا-ألمانيا) من أكثر دول العالم تقدماً (اقتصادياً وسياسياً) وذلك بسبب سيطرتها على مقدرات الشعوب وخيراتها، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الصراع الاستعماري المحموم هو خوض حرب دموية هي الحرب العالمية الأولى التي أزهقت الكثير من الأرواح والأبرياء في العالم، وأدت إلى نشر ثقافة القوة العسكرية والتنافس من أجل التسابق بين هذه القوى الاستعمارية من أجل امتلاك

أكثر أسلحة العالم فتكاً وقتلاً ودماراً، وإلى أن تكون الشعوب هي الضحية الوحيدة لهذا الصراع المحموم الذي مازال مستمراً إلى يومنا هذا. بالرغم من تبدل الأقنعة لوجوه استعمارية قديمة ألفناها وحفظناها كشعوب مقهورة عبر التاريخ.

ومن هذه المعطيات السابقة الذكر وإدراكي للأهمية التاريخية والزمنية لهذه الفترة فضلا عن ذلك الفضول المعرفي والرغبة في تقديم دراسة متواضعة في تحليل الأحداث وفهم الوقائع وحل أهم الإشكاليات المتعلقة بموضوع المبحث.

والغاية الثانية هي التعرف على أهم منعكسات هذه الأحداث على المنطقة العربية، وأخيراً وليس آخراً كان لتشجيع (الأستاذ المشرف الدكتور محمد الأحمد) ولغالبية أساتذة الاختصاص في قسم التاريخ وخاصة (الأستاذ الدكتور محمود علي عامر) و(الأستاذة الدكتورة نجاح محمد) و(الأستاذة الدكتورة سمر بهلوان) الدور الأهم في المضي قدماً في دراسة هذا الموضوع .

أهداف البحث:

أمَّا عن أهداف البحث فهي بالدرجة الأولى دراسة وفهم طبيعة العلاقات الألمانية-العثمانية وأسباب توطدها في تلك المرحلة التاريخية باعتبار أن هذه العلاقات لم يتم دراستها والتعمق في تفاصيلها من قبل بشكل تفصيلي أكاديمي آمل أن يكون في بحثي هذا، حيث أن الدراسات السابقة إما أفردت جزءاً صغيراً جدًّا لذكر هذه العلاقات أو التركيز على دراسة العلاقات للدولة العثمانية مع الدول الأوروبية الأخرى من مثل العلاقات مع (روسيا-فرنسا-انكلترا) وكان يأتي ذكر العلاقات مع ألمانيا بشكل فقرات صغيرة مرفقة مع هذه الدراسات المذكورة.

هذا هو الهدف العام للبحث أما الأهداف الأخرى فهي:

١- التوصل إلى حقيقة المواقف الألمانية من المشكلات التي تعرضت لها الدولة العثمانية في أواخر أيامها وأسبابها .

٢- التركيز على مشروع خط الحديد (***B.B.B.***)(بغداد .بيزنطة.برلين) وحقيقة إنشائه-دوره-خطورته-إيجابياته-سلبياته في المنطقة وتأثيره عليها.

٣- دراسة أولى الهجرات اليهودية الألمانية إلى فلسطين وتأسيس المؤسسات والمدارس الدينية والمستعمرات الألمانية في تلك الفترة والدور الذي لعبته ألمانية كدولة في دعم هذه المستعمرات وتشجيع هذه الهجرات.

٤- حقيقة الدعم الاقتصادي والسياسي والعسكري الذي قدمته ألمانيا للدولة العثمانية وغاية هذا الدعم.

٥- التركيز على زيارات الإمبراطور غليوم الثاني للدولة العثمانية وإقامة علاقة الصداقة بينه وبين السلطان عبد الحميد الثاني، والغاية الحقيقية من هذه الزيارات وأهدافها.

وقد اعتمد البحث على المنهج التاريخي بشقيه الوصفي والتحليلي بالاستعانة بالجانب النقدي والتركيز بشكل خاص على الجانب التحليلي للأحداث التاريخية، وبما أن البحث سيعتمد على مجموعة من المصادر المختلفة التي تتضمن معلومات عن العلاقات بين القوى الكبرى في تلك المرحلة، وأمام ضرورة كشف تطور الأحداث وتغيرها من مرحلة إلى أخرى لأغنى ذلك عن استخدام الطريقة الوصفية في البحث.

وباعتبار أن دراسة العلاقات الدولية بشكل عام مسألة شائكة ومعقدة وبخاصة فيما يتعلق بكشف حقيقة هذه العلاقات وغايتها، كان لابد من القيام بموازنة بين هذه العلاقات بعضها ببعض ومقارنتها وإيصالها بشكل وصفي واضح للقارئ.

وأما عن فصول البحث، فلقد تضمن البحث المعنون ب(التطور التاريخي للعلاقات الألمانية-العثمانية ما بين (١٢٩٣هـ/١٣٢٧-١٨٦٧/١٩٠٩م) خمسة فصول:

١- الفصل الأول: الأوضاع الداخلية في كل من الدولة العثمانية وألمانية في تلك المرحلة، حيث بدأ الفصل بدراسة تمهيدية للفترة الزمنية السابقة وظهور المسألة الشرقية وأهم أحداثها ثم استعراض أهم أحداث المرحلة الزمنية فترة الدراسة في الدولة العثمانية، وكيف تسلم السلطان عبد الحميد الثاني الحكم وأهم الأعمال التي قام بها والأحداث التي جرت وعصفت بدولته على الصعيدين الداخلي والخارجي، ثم دراسة أهم أوضاع الإمبراطورية الألمانية خلال فترة الدراسة وقيام بسمارك بتوحيد الإمبراطورية الألمانية، وأيضاً سياسته على الصعيدين (الداخلي والخارجي) ثم تسلّم الإمبراطور غليوم الثاني للحكم في ألمانيا.

٢- الفصل الثاني: العلاقات السياسية والعسكرية ومظاهر التقارب الألماني-العثماني في تلك المرحلة: (أسباب هذا التقارب-مظاهره-المعاهدات والاتفاقيات العسكرية-التبادل العسكري وتوريد السلاح الألماني والخبراء العسكريين الألمان للجيش العثماني-زيارات الإمبراطور غليوم الثاني وتفاصيل هذه الزيارات وحقيقتها والغاية منها).

٣- الفصل الثالث: العلاقات الاقتصادية الألمانية-العثمانية: من حيث دراسة الفصل المشاريع الاقتصادية بين الدولتين وخاصة مشاريع سكة الحديد (مشروع ***B.B.B.***) وتبادل البضائع والتجارة بين الطرفين.

٤- الفصل الرابع: العلاقات الاجتماعية بين الدولتين (العلاقات الألمانية - الفلسطينية): استعرضت أهم الجاليات الألمانية في الدولة العثمانية، وخاصة اليهودية منها، والتركيز على المؤسسات الدينية التي بناها المهاجرون الألمان اليهود في فلسطين، ودعم الإمبراطورية الألمانية لها، والتركيز على دراسة مشروع هرتزل الصهيوني الاستيطاني في فلسطين وعلاقة هرتزل بالإمبراطور الألماني غليوم الثاني.

٥- أما الفصل الخامس والأخير فقد عنون (نتائج الدور الاستعماري الألماني في المنطقة، ومواقف الدول الأوروبية من مسألة التقارب الألماني-العثماني) وقد تضمن مواقف كلٍ من (فرنسا-بريطانيا-إيطاليا-روسيا) من هذه العلاقات، كما تضمن نتائج هذه العلاقات والمكاسب التي حصل عليها كل طرف من الآخر.

وختم البحث بخاتمة تضمنت خلاصة النتائج التي توصل إليها البحث.

دراسة لأهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها البحث:

١) وثائق الأرشيف العثماني (استنبول):

كانت من أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث هي الوثائق العثمانية التي وفقني الله في السفر إلى استنبول والحصول على بعضها من الأرشيف العثماني هناك، عدد الوثائق خمسة وعشرون وثيقة تضمنت مواضيع (سياسية-اقتصادية-فلسطين) خاصة بالبحث، حيث تم تصويرها وترجمتها، فعلى الرغم من تعلمي اللغة التركية لحد ما، فقد واجهت صعوبة شديدة في ترجمتها فاستعنت ببعض الأصدقاء والمترجمين المختصين وترجمة جزء جيد منها استخدمتها في البحث.

٢) وثائق الأرشيف العثماني (دمشق):

أما في المرتبة الثانية فكانت بعض الوثائق العثمانية الموجودة في دار الوثائق في

دمشق والتي استفدت منها بشكل جيد وخاصة في الفصل الثالث والرابع، وكانت أسهل في استخدامها في البحث بالنسبة لي فقد كانت مترجمة ومحفوظة في سجلات خاصة في دار الوثائق.

٣) **مذكراتي السياسية-السلطان عبد الحميد الثاني:**

طبعة مؤسسة الرسالة بيروت (١٩٧٧) وكذلك النسخة للمذكرات التي قدمها وترجمها (د.محمد حرب) وهو من الكتب الهامة في البحث حيث اعتمد البحث عليه في كثير من الفقرات من أجل توثيق المعلومة وأخذ الشهادة التاريخية من صاحب العلاقة.

٤) **مذكرات الإمبراطور غليوم الثاني:**

نقله إلى العربية (أسعد داغر ومحب الدين الخطيب)، المطبعة السلفية، القاهرة، (١٣٤١ـ) تضمنت المذكرات معلومات هامة جدًّا، وخاصة فيما يتعلق بموقف الإمبراطور من سياسة بسمارك والدولة العثمانية والدول الأخرى وكذلك تفاصيل الرحلة الإمبراطورية إلى الدولة العثمانية.

٥) **مذكرات تيودور هرتزل:**

ترجمه أنيس صايغ، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت ١٩٦٨، كانت من المصادر الأساسية في الفصل الرابع وخاصة فيما يتعلق بهرتزل ومخططاته الصهيونية.

٦) **كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية: تأليف محمد فريد بك المحامي:**

وهو من المصادر الهامة التي لا يمكن لأي باحث في التاريخ العثماني أن يستغني عنها، وكذلك كتاب **(تاريخ الدولة العثمانية، للأمير شكيب أرسلان)**.

٧) **كتاب الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية: بقلم إبراهيم الأسود، تقديم خيري الذهبي:**

وهو مصدر هام للحديث عن تفاصيل الرحلة الإمبراطورية (زيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني لدمشق في ١٤/ تشرين الأول/١٨٩٨).

٨) **عصر السلطان عبد الحميد الثاني:**

وهي من الدوريات الهامة التي اعتمد البحث عليها حيث بلغ عددها خمسة عشر عدداً وهي دورية أصدرتها مكتبة الهاشمية في دمشق للعام (١٣٥٨ـ/١٩٣٩).

أما المراجع الهامة التي اعتمد عليها البحث (ما بين عربية وأجنبية)فهي:

١) **ألمانية والإسلام في القرنين التاسع عشر والعشرين: تأليف عبد الرؤوف سنو، دار الفرات-بيروت، ٢٠٠٧م** يعد الكتاب من أهم الكتب التاريخية في الوطن العربي التي درست تاريخ هذه المرحلة وطبيعة العلاقات الألمانية-العثمانية وتفاصيلها، ولقد أبدع المؤلف في شرح التفاصيل حيث اعتمد بشكل كبير على الوثائق الألمانية والعثمانية وقد كان الكتاب من أهم المراجع التي اعتمدت عليها في بحثي هذا.

٢) **العلاقات الألمانية-الفلسطينية (من إنشاء مطرانية القدس البروتستانتية وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، تأليف على محافظة، بيروت، ١٩٨١**، والكتاب ثاني أهم مرجع اعتمد عليه البحث بشكل كبير، حيث أوردت فيه تفاصيل هامة عن طبيعة العلاقات الألمانية-العثمانية، موضوع البحث.

٣) **دراسات في تاريخ أوروبة في العصر الحديث (تأليف راغب العلي، عبد الكافي**

الصطوف، وطليعة الصياح) منشورات جامعة دمشق، أفادني الكتاب بشكل كبير في فهمي لتاريخ الدول الأوروبية وخاصة ألمانية في تلك المرحلة بالإضافة إلى كتب أخرى عربية مثل: (**تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، عمر عبد العزيز عمر)، وكتاب (أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية) تأليف هربرت فيشتر، ترجمة زينب عصمت راشد وأحمد عبد الرحيم مصطفى.**

٤) **كتاب (***iki Dost Hükümdar Sultan II AbdülHamid Kaiser II Wilhelm***)** (الحكومتان الصديقتان): وهو من أهم المراجع الأجنبية التي استخدمتها في البحث، فقد كتب الكتاب باللغتين الألمانية والتركية وساعدني الأستاذ الدكتور المشرف محمد الأحمد مشكوراً في ترجمة أجزاء من هذا الكتاب واستخدمتها في أقسام كثيرة من البحث والكتاب يتحدث عن علاقة الصداقة التي ربطت السلطان عبد الحميد الثاني بالإمبراطور غليوم الثاني والزيارة الإمبراطورية للدولة العثمانية.

٥) **كتاب (***Türk-Alman ilişkileri, Kazim Karabekir***) العلاقات الألمانية التركية،** وهو كتاب باللغة التركية ويتحدث عن العلاقات الألمانية العثمانية منذ بداية نشأة الدولة العثمانية وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى، وقد أفرد المؤلف فصلاً كاملاً من العلاقات الألمانية التركية فترة حكم عبد الحميد الثاني.

٦) **كتاب (***Osmanli imperator luğúnda Alman Nüfuzu***)** كتاب يتحدث عن النفوذ الألماني في الدولة العثمانية وهو باللغة التركية للمؤلف: ألبير أورتايلي.

٧) **كتاب الدولة العثمانية (تاريخ وحضارة)** للمؤلف أكمل الدين أوغلي، كتاب من مجلدين من الكتب الهامة التي فصلت عن التاريخ العثماني بالجانبين الحضاري والسياسي.

٨) **الدولة العثمانية (دولة إسلامية مفترى عليها)** كتاب للدكتور عبد العزيز محمد الشناوي بأربعة أجزاء، مكتبة الأنجلو المصرية.

٩) **كتاب (تاريخ الألمان)** المؤلف فايت فالنتين، كتاب مترجم للغة العربية، المركز الثقافي الألماني (غوته) دمشق.

وهناك الكثير الكثير من المراجع العربية والتركية والإنكليزية والمقالات والمجلات التي اعتمدها البحث ،وأما عن الصعوبات فلقد واجهتني عقبات كثيرة أثناء عملية البحث جعلتني في كثير من الأحيان أظن أنه من الاستحالة إتمام هذه الرسالة وإخراجها على الصورة المقبولة، فهناك المشكلات على الصعيد الشخصي، والمشكلات على الصعيد العام وما تواجه بلدي الحبيبة سوريا من جراح وآلام انعكست آلامها على نفسيتي وكتاباتي ورغبتي في العمل والبحث، ولقد أخذت من صمودها وثباتها مثلاً وعبرة لكي أصمد وأثبت قدر المستطاع وأقدم عملاً عسى أن يكون في يوم من الأيام ذا فائدة، عندما - بعون الله - تتعافى أمي وحبيبتي سوريا ونبدأ - بعون الله - عملية البناء والنهوض من جديد.

وأخيراً وليس آخراً أتوجه بالشكر الكبير والجزيل لله أولاً ولأهلي ثانياً الذين رغم كل الآلام العذابات والهموم كانوا لي أكبر معين بعد الله في الاستمرار وحثي على المتابعة في دراستي وتحصيلي العلمي.

والشكر الكبير المحمل بالعرفان بالجميل إلى دكتوري المشرف

الأستاذ الدكتور محمد الأحمد

الذي صبر علي صبراً لا حدود له والذي كان مشجعاً ورافعاً لمعنوياتي في لحظات

الإحباط واليأس.

ولن أنسى الأساتذة الكرام (الدكتور محمود عامر) بشكل خاص، و(الدكتورة نجاح محمد) و(الدكتورة سمر بهلوان) والذين لم يبخلوا علي في أي لحظة بالمشورة والنصيحة.

والشكر الموصول لجميع أساتذتي المحترمين في قسم التاريخ، وكذلك الشكر الجزيل لمكتبة الأسد والعاملين بها وشكر خاص جداً لمجمع اللغة العربية في دمشق والأصدقاء الأساتذة العاملين به لدعمهم الدائم لي وقيامهم بعملية التدقيق اللغوي للرسالة، وتنقيحها وتوجيههم الدائم لي.

كما أتوجه بالشكر إلى العاملين بدار الوثائق في دمشق وكذلك العاملين بالأرشيف العثماني باستنبول ومكتبة (***Isam***) باستنبول لمساعدتهم الكبيرة لي أثناء وجودي في استنبول وكذلك الشكر والامتنان لأصدقائي الأتراك الذين ما بخلوا علي بالمساعدة أثناء وجودي في تركيا.

وأخيراً أشكر حبيبتي سوريا التي ألهمتني الصمود بصمودها الأسطوري وأقول لها حماك الله.

واعتذر عن التقصير في إعطاء هذا البحث حقه الكامل في الدراسة والتمحيص وهذا جهدي والحمد والمنة لله رب العالمين.

سهام محمد هنداوي

دمشق ٢٠١٣/١١/٧

الفصل الأول

تمهيد

أولا-لمحة عن تاريخ المسألة الشرقية (١٧٧٤-١٨٧٦).

وأهم أحداثها:

١-معاهدة قينارجه (١١٨٧هـ-١٧٧٤م)

٢- الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨/١٨٠١م):

٣- دولة محمد علي (١٨٠٥ /١٨٤١م):

- الاصلاحات الداخلية:

أ- الجيش.

ب- الناحية العلمية والثقافية في مصر

ج- الناحية الاقتصادية.

- حروب محمد علي:

أ- حروبه في شبه الجزيرة العربية (١٨١١-١٨١٨).

ب- حروبه في السودان (١٨٢٠).

ج- حروبه في اليونان (١٨٢٢-١٨٢٧م).

د- حروبه في بلاد الشام (١٨٣١-١٨٤١م).

٤- حوادث لبنان (١٨٤٥-١٨٦٠)

٥- حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦م)

- أسباب الحرب ومجرياتها ونتائجها.

ثانيا:الأوضاع الداخلية
في كلٍّ من الدولة العثمانية وألمانيا
في تلك المرحلة

١- الأوضاع الداخلية في الدولة العثمانية:

أ- تسلم عبد الحميد الثاني الحكم.

ب- سياسة عبد الحميد الثاني الداخلية:

- **إعلان الدستور (١٢٩٣هـ-١٨٧٦م).**
- **إعلان تأسيس المجلس العمومي.**
- **الإصلاحات الداخلية في الدولة العثمانية في عهد عبد الحميد الثاني**

ج- سياسة عبد الحميد الخارجية:

١- تمردات وثورات البلقان.

٢- الحرب الروسية العثمانية.

٣- مؤتمر برلين (١٣٠٥هـ-١٨٨٧م).

٢- الأوضاع الداخلية في الإمبراطورية الألمانية:

أ-من هو بسمارك؟ وكيف وصل إلى المستشارية في ألمانيا؟

ب-الطريق إلى الوحدة الألمانية (سياسة بسمارك لتحقيق الوحدة الألمانية).

١-الحرب مع النمسا (١٢٨٣ه-١٨٦٦م).
٢-الحرب مع فرنسا (١٢٨٧ه-١٨٧٠م).
٣-قيام الإمبراطورية الألمانية (١٢٨٨ه-١٨٧١م).

تمهيد

- لمحة عن تاريخ المسألة الشرقية (1188/1287هـ-١٧٧٤/١٨٧٠م)

يمكننا أن نُعرِّف المسألة الشرقية بأنها عبارة عن المشكلات والأزمات التي حدثت في الدولة العثمانية نتيجة ضعفها والاطماع الأوروبية بممتلكاتها وتدخل هذه الدول في شؤونها.

ويتطابق هذا المصطلح «المسألة الشرقية» مع جملة من الأحداث التي وقعت بين عامي (١٧٧٤-معاهدة كوتشوك-قينارجه) (***kainarja***) و١٩٢٣ (معاهدة لوزان«***Lusan***»)[١] كنتائج وإجراء عملي تنفيذي لاقتسام مواقع النفوذ .وبرز التنافس واضحاً في هذه المرحلة بين الدول الأوروبية الكبرى على أن تصل كل واحدة منهم إلى غايتها وأهدافها على حساب السلطنة العثمانية:فمثلاً روسيا تدخلت بحجة حمايتها للمسيحيين الأرثوذكس والسلاف وكانت ترمي إلى مد سيطرتها على البلقان والوصول إلى البحر المتوسط والإنكليز يسعون إلى تأمين طريق الهند وبالتالي إلى السيطرة على الممر الذي يفصل البحر المتوسط عن المحيط الهندي، ومن هنا جاء اهتمامها بالبلدان العربية التي تقع ضمن تلك المنطقة.

وأما الفرنسيون فكانوا يريدون الدفاع عن مواقعهم التجارية والثقافية لدى مسيحيي المشرق وبذلك كانوا يجدون أنفسهم في حالة مواجهة بحسب الظروف مع كل من الروس والإنكليز والنمسا.

أما النمسا فكانت خائفة من توسع النفوذ الروسي في البلقان ويحاولون إقامة سد هناك، وخاصة في البوسنة والهرسك.

وأما ألمانيا التي ظهرت في وقت متأخر من هذه المرحلة، فكانت اهتماماتها بالدولة العثمانية منطلقة من سياسة (***Drang Nach Osten***): وتعني (الاندفاع نحو الشرق)[٢].

وفيما يلي نستعرض أهم هذه المشكلات في تلك المرحلة:

أولاً: معاهدة قينارجة[٣] (***kainarja***) ١١٨٧هـ-١٧٧٤م: واستيلاء روسيا على بلاد القرم:

---

(١) روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، جزآن، ت، بشير السباعي، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ١٩٩٣، ج٢، ص(٥).

(٢) روبير مانتران، المرجع نفسه، ص(٥).

(٣) قينارجة (***Kajnarja***): وتقع إلى الجنوب الشرقي في سيلستريافي بلغاريا. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العليَّة العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، ط٩، دار النفائس، بيروت، ص٣٤٢.

تولى السلطان عبد الحميد الأول[١] الحكم في الدولة العثمانية بعد وفاة أخيه مصطفى الثالث[٢]، وكانت الفوضى تعم البلاد، ثورات في الداخل وحروب في الخارج، فلم يكد السلطان يجلس على عرشه حتى أعلنت روسيا الحرب على السلطنة، وذلك انتقاماً لهزائمها الماضية[٣]، واستطاعت أن تحقق نصراً على العثمانيين في مدينة فارنا (***Varna***)[٤] في شرقي بلغاريا على البحر الأسود، فاضطر السلطان وصدره الأعظم إلى طلب الصلح والمفاوضة، وتم ذلك في مدينة قينارجة في بلغاريا (١١٨٧هـ-١٧٧٤م)[٥]، ووفق هذه المعاهدة - انسلخت بلاد القرم[٦] وبلاد بوجاق[٧]، وبلاد قوبان عن السلطنة العثمانية، واستولت روسيا على كيلبورم، وقلعة ويني، وآزوف[٨]، كما حصلت روسيا على على حق الملاحة في البحر الأسود كما حصلت على حق حماية المسيحيين الأرثوذكس وكنائسهم في الدولة العثمانية، أما الدولة العثمانية فقد عادت لها الأفلاق والبغدان[٩]، ولكن مع الاعتراف لروسيا بحق التدخل في شؤون هذه الإمارات عند الضرورة[١٠].

وكان يحكم روسيا في حينئذ القيصرة، كاترين الثانية (١٧٦٢-١٧٩٦م)، وذلك بعد تخلصها من زوجها بطرس الثالث، وكانت ألمانية الأصل مثقفة. وبالرغم من انتصارها على العثمانيين وفرضها معاهدة قينارجة عليهم لم تستطع أن تحقق حلمها في الاتجاه نحو الجنوب، وتقسيم الدولة العثمانية وذلك بسبب موقف كل من إنكلترا وفرنسا بالحفاظ على تماسك الإمبراطورية العثمانية ولمنع روسيا من الوصول إلى المياه الدافئة[١١].

وكان من أخطر نتائج معاهدة (قينارجة) هو استيلاء روسيا على بلاد القرم، فعلى حسب تعبير «هامر» مؤرخ السلطنة العثمانية: «من بعد هذه المعاهدة صار السلم والحرب

---

(١) عبد الحميد الأول: هو ابن السلطان أحمد الثالث ولد سنة (١١٣٧هـ -١٧٢٤م) وقضى مدة حكم أخيه مصطفى الثالث محجوزاً في سواتيه استلم الحكم ما بين (١١٨٧–١٢٠٣هـ)=(١٧٧٣-١٧٨٨م) مدة حكمه ١٥ سنة وثمانية شهور تولى بعده سليم الثالث.(محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، المصدر السابق، ص٣٤١، ص٣٦٢).

(٢) السلطان مصطفى الثالث: وهو السلطان رقم (٢٦) ولد سنة ١١٢٩ وجلس سنة ١١٧١ الموافقة سنة ١٧٥٧م بالغاً من العمر ٤٢ سنة ومدة سلطته ١٦ سنة من معاصريه: ملك ألمانيا وبروسيا، ولويس الخامس عشر ملك فرنسا، وجورج الثاني ملك بريطانيا. إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية (التحفة الحلبية)، ط٢، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ص١٧٧، وص١٨٤.

(٣) شكيب أرسلان، تاريخ الدولة العثمانية، الطبعة الأولى، دمشق، ٢٠٠١م، ص٢٥٥٠

(٤) فارنا: مدينة ساحلية في شرقي بلغاريا على البحر الأسود.

(٥) محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٢٠٠٣م، ص(٣٤٩).

(٦) بلاد القرم: شبه جزيرة في البحر الأسود (سواحل أوكرانيا حالياً). ***http//wikipedia.org***.

(٧) بلاد البوجاق (***Bucak***): بلدة في تركية الآسيوية (الأناضول) في ولاية «قره مان» (لواء تكه). س. موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص١٧١.

(٨) آزوف (***Azov***): وتقع في الشمال الشرقي في بحر آزوف ويطلق اسم (بحر آزوف) على الخليج الكبير الواقع شمال البحر الأسود. محمد فريد بك المحامي، المصدر السابق، ص٢٨٦.

(٩) الأفلاق والبغدان: هي المنطقة الشرقية من رومانيا المتاخمة لحدود الاتحاد السوفيتي والكائنة بين نهري بروت (***Prut***) وسيرت (***Siret***). محمد فريد بك، المصدر نفسه، ص١٧٣.

(١٠) محمد فريد بك، المصدر نفسه، (انظر مواد المعاهدة كاملة، ص٣٤٢إلى ص٣٥٧)، شكيب أرسلان، تاريخ الدولة العثمانية، المصدر السابق، ص٢٥٥.

(١١) عبد الكافي الصطوف، وراغب العلي وطليعة الصياح، دراسات في تاريخ أوروبا في العصر الحديث، منشورات جامعة دمشق، (١٤١٩هـ -١٩٩٨م)، ص(٢٩١).

مع الدولة العثمانية في قبضة روسيا، وقلما وجدت معاهدة على تركيا أشأم منها»[١].

فالقيصرة الروسية كاترين (***Catherin II***) لم تكتف بما حصلت عليه من خلال هذه المعاهدة، بل أخذت تبث رجالها في بلاد القرم، وتعمل على نشر الفتن والدسائس فيها، وكان أن فاجأت العثمانيين بإرسال جيش تعداده (٧٠) ألف جندي ضاربة بعرض الحائط ما جاء بمعاهدة (قينارجة)من احترام الطرفين لحدود بعضهما البعض[٢].

وباعتبار أن السلطان العثماني ودولته كانوا في مرحلة من الضعف لا تسمح لهم بالمقاومة نجحت فرنسا التي دخلت للتوسط بين الطرفين بإقناع السلطان بالموافقة على ضم القرم إلى روسيا، وتجنيب السلطنة خوض حرب قد تكون عاقبتها وخيمة عليها، وبذلك وافق السلطان سنة١١٨٨#-١٧٧٤مم على ضم القرم إلى روسيا، وبالرغم من ذلك استمرت روسيا بمحاولاتها إشعال الحروب والفتن في منطقة البحر الأسود والأفلاق والبغدان وذلك لتهييج المسيحيين فيها على الدولة العثمانية[٣].

وبنتيجة ذلك في سنة (١١٩٩#-١٧٨٤م) اعترف الباب العالي بسيطرة روسيا على بلاد القرم والقوبان رسمياً[٤].

وفي سنة ١٧٨٧م دخلت كاترين بلاد القرم، وأقيمت لها الاحتفالات والزينات، وأقواس النصر التي كتب عليها (الطريق إلى بيزنطة)، وكان هذا بمثابة إعلان للحرب ضد السلطنة العثمانية.

وبالنتيجة أعلنت النمسا الحرب على الدولة العثمانية بمساعدة روسيا سنة (١٢٠٣هـ-١٧٨٨م) وحاول الإمبراطور الروسي جوزيف الثاني (***Jozif II***)[٥] الاستيلاء على مدينة بلغراد[٦] ولكن الجيش العثماني كان له بالمرصاد، وحقق العثمانيون نصراً حاسماًً عليه، وبعد ذلك بقليل توفي السلطان عبد الحميد الأول (١٢٠٣هـ-١٧٨٩م)[٧]، ولكن مآسي الدولة الدولة العثمانية لم تنته بوفاته، بل ستتطور من سيء إلى أسوأ كما سنرى لاحقاً.

---

(١) شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص٢٥٥.
(٢) محمد الصلابي، المرجع السابق، ص٣٥٢.
(٣) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص٣٦٠-٣٦١.
(٤) شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص٢٥٦.
(٥) الإمبراطور جوزيف الثاني:هو ابن الإمبراطورة ماريا تريزا من زوجها الأول الدوق دي لورين التي تسمى فيما بعد فرانسوا الأول.ولد سنة١٧٤١م وتولى الحكم سنة١٧٦٥م ولكن لم يمارس صلاحيات ملكه حتى وفاة أبيه سنة١٧٨٠م، أعماله الداخلية:ألغى استعباد الفلاحين، أبطل التعذيب، أجاز الطلاق والزواج المدنيين، منح الحرية الدينية لجميع رعاياه، توفي سنة١٧٩٠م.وهو أخو الملكة ماري انطوانيت زوجة لويس السادس عشر ملك فرنسا التي قتلها الفرنسيين سنة ١٧٩٣م وقتلوا زوجها وأخته ايليزابيث وغيرهم أثناء الثورة الفرنسية.محمد فريد بك، المصدر السابق، ص٣٦٢.
(٦) مدينة بلغراد: ومعناها المدينة البيضاء، مدينة حصينة على نهر الطونة بالقرب من مصب نهر (ساف) وهي عاصمة مملكة الصرب الآن، بينها وبين الآستانة طريق حديدي طوله ثمانمئة متر. محمد فريد بك، المصدر نفسه، ص١٥٥، ١٥٦.
(٧) محمد فريد بك، المصدر نفسه، ص٣٦١-٣٦٢.ومحمد الصلابي، المرجع السابق، ص٣٥٢.

ثانياً: الحملة الفرنسية على مصر (١٢١٣/١٢١٦هـ-١٧٩٨/١٨٠١م):

كان سلطان الدولة العثمانية في تلك الفترة (السلطان سليم الثالث)[١]، وكانت السلطنة في أسوأ حالاتها ورحى الحرب دائرة بلا انقطاع وخاصة مع روسيا والنمسا ونجح الروس باحتلال معظم بلاد الأفلاق والبغدان وبسارابيا[٢]، والنمساويين نجحوا في دخول مدينة بلغراد وبلاد الصرب.

ولكن أخطر ما واجه هذا السلطان في فترة حكمه هو مجيء الحملة الفرنسية على مصر (١٢١٣هـ-١٧٩٨م).

وقبل الخوض في دراسة تفاصيل هذه الحملة، لا بد من إلقاء نظرة سريعة على أوضاع فرنسا الداخلية قبيل الحملة بقليل.

كانت قد قامت الثورة الفرنسية في ١٤تموز ١٢٠٤#-١٧٨٩مم والتي يعدها الكثير من المؤرخين نقطة تحول هامة في التاريخ الأوروبي بل في تاريخ العالم كله، فلقد بدلت الثورة أحوال فرنسا فقضت على حكم أسرة آل بوربون (***Bourbons***)[٣] بإعدام الملك لويس السادس عشر(***Louis XVI***)[٤] سنة١٢٠٨#-١٧٩٣م.

كما قضت الثورة الفرنسية على النظام الاجتماعي القائم على أساس الامتيازات الأرستقراطية التي تضم النبلاء ورجال الدين ، أما في المناطق الأوروبية فقد لقي شعار الثورة الفرنسية (حرية، إخاء، مساواة) استنكاراً من قبل الأنظمة الملكية الحاكمة في أوروبا، ونتج عن ذلك سلسلة من الحروب الطويلة بين حكومة الثورة الفرنسية والملكيات الأوروبية استمرت من سنة ١٢٠٧#-١٧٩٢م وحتى سقوط نابليون بونابرت (***Napoléon Bonaparte***) في معركة واترلو في حزيران سنة ١٢٣١#-١٨١٥م[٥].

وبالعودة إلى فرنسا وإلى مرحلة قبيل الحملة الفرنسية على مصر، فقد تم إعلان الجمهورية الأولى فيها سنة ١٢٠٧#-١٧٩٢م.

وفي سنة ١٢١٠#-١٧٩٥مم انتهى عهد المؤتمر الوطني وبدأ عهد الإدارة الذي استمر حتى سنة١٧٩٩م، وقد واجهت هذه الإدارة بعض المشكلات الداخلية والخارجية ولكنها نجحت عن طريق تحقيق بعض الانجازات العسكرية والدبلوماسية في أوروبا من أن تغطي على هذه المشكلات، كما نجحت الإدارة في حسم أمورها السياسية والعسكرية مع معظم خصومها (بروسيا-توسكانيا ....) ولم يبق لها سوى دولتين كانتا من أكبر المعادين لروح الثورة الفرنسية وهما بريطانيا البروتستانتية والنمسا الكاثوليكية[٦].

كما نجح نابليون في عقد مجموعة من المعاهدات مع كل من ألمانيا والإمبراطورية

---

(١) السلطان سليم الثالث: هو ابن السلطان مصطفى الثالث المولود سنة/١١٧٥هـ - ١٧٦٢م/ حكم مدة ١٩عام، عزل عن الحكم سنة/١٢٢٢هـ - ١٨٠٧م/، وتوفي سنة/١٢٢٣هـ - ١٨٠٨م/وولي بعده مصطفى الرابع.محمد فريد بك،المصدر السابق، ص٣٦٣حتى ٣٩٣.

(٢) محمد فريد بك، المصدر نفسه، ص٣٦٣.

(٣) أسرة آل البوربون: اسم أسرة مالكة فرنسية حكم أفرادها فرنسا وإسبانيا ونابولي، يرجع اسم الأسرة إلى بلدة صغيرة بوسط فرنسا تعرف باسم «بوبون لا رشامبو»، حكم ملوك هذه الأسرة بين عامي (١٥٨٩ و١٧٩٢م). الموسوعة العربية، ٢٥ جزء، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م. ج٥ ص٢٢٨.

(٤) لويس السادس عشر: (١٧٥٤-١٧٩٣م) هو حفيد لويس الخامس عشر، وقد تولى العرش عام ١٧٧٤م. الموسوعة العربية، المرجع السابق، ج٢١، ص٢٣٣.

(٥) عبد الكافي الصطوف، تاريخ أوروبا المعاصر، المرجع السابق ص٧-٨.

(٦) عبد الكافي الصطوف، المرجع نفسه، ص٣٨-٣٩.

النمساوية ومع البابا مزق فيها شمل التحالف الأوروبي وتصفيته وهي (مؤتمر راشتاد) (***Rachtad***) مع ألمانيا، صلح (كامبو فورميو) (***Campo Formao***) مع الإمبراطورية النمساوية ومعاهدة (تولنتينو) (***Tolento***) ١٢١٢#-١٧٩٧مم مع البابا، وهكذا لم يبق أمام إدارة الحكومة ونابليون سوى بريطانيا.

وبعد أن حقق نابليون بونابرت العديد من الانتصارات في إيطاليا ضد النمسا، اكتسب شعبية كبيرة داخل فرنسا وخارجها، وأصبح يشكل خطراً حقيقياً يهدد حكومة الإدارة، لذلك راحت تسعى للتخلص منه، وباعتبار أن بريطانيا كانت الدولة الأوروبية الوحيدة في حالة صراع وتنافس كبير مع فرنسا فكانت تتحين الفرص للإيقاع بها.

وكانت مصر هي الهدف من قبل حكومة الإدارة من أجل توجيه ضربتها القاسمة لانكلترا وضرب مصالحها على طريق الهند[١]، وبالتالي قطع طرق المواصلات بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند والشرق الأقصى.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إبعاد نابليون الطموح عن مسرح الأحداث في فرنسا[٢]، وخاصة أن نابليون وجد في الحملة حلمه الذي يمكن أن يحقق من خلاله مطامعه الشخصية وأحلامه في الوصول إلى القسطنطينية عن طريق احتلال مصر وبلاد الشام.كما فعل الاسكندر الكبير، وإنشاء إمبراطورية فرنسية في المشرق تكون تعويضاً عما خسرته فرنسا في حروبها مع بريطانيا في السنين السابقة[٣].

– الفرنسيون في مصر:

في ١٢نيسان ١٧٩٨م-١٢١٣# صدر أمر حكومة الإدارة لنابليون بتجهيز حملة عسكرية من أجل غزو مصر، أقلعت الحملة من ميناء طولون[٤] بسرية كاملة باتجاه مصر في ١٩أيلول ١٧٩٨ احتلت في طريقها جزيرة مالطة[٥]،في ١٠حزيران من العام نفسه وصل نابليون الإسكندرية في أول تموز ١٧٩٨م-١٢١٤# ثم تابع زحفه إلى القاهرة حيث خاض ضد المماليك معركة أمبابا في ٢١تموز ١٧٩٨م ودخل القاهرة مع جيوشه بعد أن أعلن فيها أنه أتى حليف للباب العالي لتوطيد سلطته ومحاربة المماليك العاصين لأوامره[٦].

لأوامره[٦].

ولم يكد نابليون يصل القاهرة حتى وصلته أنباء غرق الأسطول الفرنسي على سواحل الإسكندرية، على يد قائد الأسطول الانكليزي نيلسون[٧] (***Nelson***) وذلك في موقعة أبي قير

---

(١) عبد الكافي الصطوف، المرجع السابق ، ص٤٩.

(٢) عبد الكريم رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، منشورات جامعة دمشق، ط٦، /١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م/، ص٣٠٧.

(٣) عبد الكافي الصطوف، المرجع السابق، ص٥٠. وأحمد طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، منشورات جامعة دمشق، ط١٤١٨/٥هـ - ١٩٩٧م/، ص٢٩-٣٠. وعبد الكريم رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، المرجع السابق، ص٣٠٨.

(٤) ميناء طولون: مدينة شهيرة في جنوب فرنسا على البحر المتوسط وهي مرسى هام للسفن الحربية. محمد فريد بك، المصدر السابق، ص٢٣٨.

(٥) مالطة: جزيرة صغيرة في البحر المتوسط بالقرب من ساحل إيطاليا وأفريقيا، تنازعت عليها الكثير من القوى عبر التاريخ (فينيقيين ورومانيين) في سنة ١٨٠٠ احتلها الإنكليز ليسودوا على البحر المتوسط. محمد فريد بك، المصدر نفسه، ص٢٠٦.

(٦) محمد قنديل البقلي، المختار من تاريخ الجبرتي، جزآن، ط٢ (١٤١٣ـ-١٩٩٣م)، الهيئة العامة للكتب الإسكندرية، ج١، ص٢٣٩، ٢٤٠. ومحمد فريد بك، المصدر نفسه ، ص٣٧٢-٣٧٣.

(٧) نيلسون: ولد سنة ١٧٥٨م ودخل البحرية، عين وكيل أميرال في سنة ١٨٩٧؟ وفي سنة ١٧٩٨ حاول الاستيلاء على جزيرة تنديف إحدى جزر كناريا التابعة لإسبانيا ولم ينجح، وقتل في سنة ١٨٠٥ في إحدى المعارك

قير البحرية (آب-١٧٩٨م)[١].

وزاد وضع نابليون في مصر سوءً بعد قيام ثورة القاهرة ضده في ٢١تشرين الأول ١٧٩٨م وبالرغم من نجاحه في القضاء عليها بالقوة فقد ازدادت الأخطار المحدقة بالفرنسيين من قبل الانكليز في البحر الذين فرضوا حصاراً على سواحل مصر والمماليك الهاربين في الصعيد وبلاد الشام وخطر الثورات الشعبية داخل مصر، ثم أخيراً الخطر العثماني والذي تبدى في أنباء قدوم جيش عثماني بري عبر بلاد الشام، لذلك كان لابد له من التوجه إلى بلاد الشام من أجل قطع الطريق على الجيش العثماني، وإقامة منطقة عازلة بينه وبين العثمانيين في الأناضول.

في ٢٢شباط ١٧٩٩م-١٢١٤# احتل الفرنسيون قلعة العريش وسقطت يافا بأيديهم في ٧ آذار وقام نابليون بإعدام ألفين من أفراد حامية يافا[٢] مبرهناً على وحشيته وهمجيته الاستعمارية، ثم حاصر عكا في آذار من نفس العام والتي كان واليها في ذلك الوقت أحمد باشا الجزار، وقد ساعد الجزار بحراً الأميرالان الانكليزيان (سدني سميث) (***Sydney Smith***) و(فيليبو) (***Filippo***) بالدفاع عنها وإيقاف زحف نابليون، ومع تفشي مرض الطاعون بين جنود نابليون، وفقدانه الكثير من جنوده اضطر نابليون إلى الانسحاب والعودة إلى القاهرة، وأثناء عودته خاض معركة أبي قير البرية ضد العثمانيين وانتصر عليهم فيها في٢٥ تموز١٧٩٩م[٣]، ولكن هذا لم يحسن من أحوال الحملة ومع وصول أنباء من أوروبا عن قيام تحالف أوروبي ضد فرنسا أدى ذلك إلى مغادرته مصر سراً وحل مكانه في الحملة القائد كليبر (***Clipper***)، وأمام الظروف السيئة للحملة والحصار الانكليزي والعثماني لها لم يجد هذا القائد سبيلاً للخروج من هذه الأزمة إلا الدخول في مفاوضات للصلح مع الانكليز والعثمانيين، وهكذا اتفق مع الباب العالي والأميرال سدني سميث في ٢٤ أيار سنة ١٨٠٠م -١٢١٥# على أن تنسحب العساكر الفرنسية بسلاحها على سفن انكليزية[٤].

ولكن ما لبث الانكليز أن طلبوا من كليبر أن يسلم جيشه كأسرى حرب فرفض كليبر ذلك، وعاد إلى مصر ليجدها في حالة تمرد، فقام بقصفها بالمدافع، واستمرت أعماله الحربية فيها عشرة أيام، ليكون هذا الفعل الوحشي سبباً في قتله على يد الشاب السوري سليمان الحلبي في ١٤حزيران ١٨٠٠، وبذلك حل مكانه القائد الفرنسي مينو[٥] (***Mino***) والذي عقد اتفاقاً مع الانكليز والعثمانيين، انسحب بموجبه الفرنسيون من مصر في آب سنة ١٨٠١م-١٢١٦#، وبذلك نقل أكثر من عشرين ألف فرنسي من القاهرة والإسكندرية إلى فرنسا على متن السفن الانكليزية، وانتهت بذلك هذه الحملة عسكرياً ولكن نتائجها السياسية امتدت لفترات طويلة فيما بعد وكان لها العديد من النتائج، ومنها ظهور شخصية غيرت

مع فرنسا وإسبانيا ودفن في لوندره. محمد فريد بك، المصدر نفسه، ص٣٧٤.

(١) عبد الكريم رافق، المشرق العربي في العهد العماني، المرجع السابق، ص٣٠٨.

(٢) عبد الكريم رافق، المرجع نفسه، ص٣٠٨. ومحمد قنديل البقلي، المختار من تاريخ الجبرتي، ج١، ص٢٩٣.

(٣) محمد قنديل البقلي وقد أورد الجبرتي أن نابليون (في ١٧ آب ١٧٩٩ خرج كبير الفرنسيين مسافراً الليل وخفى أمره على الناس)، المرجع السابق، ج١، ص٣٢٤، ٣٢٦.

(٤) وللتوسع في بنود الاتفاق بين الإنكليز والفرنسيين، انظر: محمد قنديل البقلي، المرجع السابق، ج١، من ص٣٣٣ حتى ص٣٣٧، ومحمد فريد بك، المصدر السابق، ص٣٧٧.

(٥) محمد فريد بك، المصدر نفسه ، ص٢٣٧.

صورة مصر ألا وهي شخصية محمد علي[١].

ثالثاً: دولة محمد علي (مصر):

بعد خروج الفرنسيين من مصر (١٨٠١م-١٢١٦#) تصارعت قوى متعددة من أجل السيطرة عليها، الدولة العثمانية التي كانت تريد إعادة السيطرة عليها من جديد، والانكليز الذين وجدوا في الفراغ الذي تركه الفرنسيين فرصة سانحة للسيطرة على مصر وتأمين مواصلاتهم على طريق الهند، أما الفئة الثالثة فهم المماليك الذين أظهرت الحملة مدى ضعفهم وعدم قدرتهم على حماية مصر من الأخطار الخارجية الأمر الذي أفقد ثقة الشعب المصري بهم[٢]، ووسط هذه الظروف والصراعات التي شهدتها مصر بين هذه القوى وخاصة المماليك والعثمانيين بين عامي (١٢٢٠/١٢١٨#-١٨٠٥/١٨٠٣م) ظهرت شخصية محمد علي قائد الفرقة الألبانية التي أتت مع الجيش العثماني الذي أرسل إلى مصر من أجل إخراج الفرنسيين منها، استفاد محمد علي من سوء إدارة المماليك، وكسب تأييد الأهالي في مصر، وتأييد علمائها الذين ألحوا على السلطان من أجل تسليمه مقاليد الحكم في مصر[٣]، فرضي السلطان بذلك وقام بإصدار فرمان يقضي بتولية محمد علي على مصر بدءاً من (ربيع الأول سنة١٢٢٠هـ-١٨حزيران سنة١٨٠٥م). استطاع محمد علي أن يوطد لحكمه في الفترة بين (١٨٠٥ – ١٨١١م) وذلك بالتصدي لأطماع كل من المماليك والانكليز والذين تحالفوا مع بعضهم البعض ضد محمد علي فاحتل القائد الانكليزي فريزر ميناء الإسكندرية في (٢٠-٢١ آذار ١٨٠٧م)، ووقف إلى جانبه المماليك بزعامة محمد بك الألفي، وكانت الأسباب الحقيقية للسياسة انكلترا هذا هو إرغام السلطان العثماني التخلي عن محالفة الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت الذي حقق انتصارات كبيرة في أوروبا بين عامي (١٨٠٥-١٨٠٦م)، ولقد نجح محمد علي بالتصدي للانكليز وحلفائهم بمساعدة جنوده الألبان والمصريين الذين توافدوا من الجهات القريبة إلى قرية الحماد وانتصروا عليهم[٤].

وبذلك نجح محمد علي باشا في اخراج الانكليز من مصر بموجب ميثاق ١٤أيلول ١٨٠٧م-١٢٢٢#[٥]، ولقد زاد هذا النصر من شعبية محمد علي في مصر.

وبعد خروج الانكليز حلفاء المماليك في مصر التفت محمد علي إلى المماليك ونجح في القضاء عليهم في مذبحة القلعة التي جرت أثناء توديع ابنه طوسون من أجل السفر للقضاء على الوهابيين في شبه الجزيرة العربية ١٢٢٦#-١٨١١م[٦].

أما بالنسبة لعلماء مصر في الداخل فقد استطاع محمد علي أن يستميلهم ويكسبهم في صفه، كما كسب رضا السلطان العثماني، فأصبح من أهم ولاة الدولة العثمانية، وغدا من أهم أذرعها وأقواها من أجل إخماد حركات العصيان والتمرد التي تقوم ضدها.

---

(١) عبد الكافي الصطوف، المرجع السابق، ص٥١-٥٢.
(٢) أحمد طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، المرجع السابق، ص٤٧-٤٨.
(٣) عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص٢٨٥-٢٨٦.
(٤) أحمد طربين، المرجع السابق، ص٥٠-٥١.
(٥) عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص٢٨٦-٢٨٧.
(٦) روبير مانتران، المرجع السابق، ص٣٢.

– الإصلاحات الداخلية:

كان هدف محمد علي منذ توليه مصر العمل على تحديثها وتطويرها على النمط الأوروبي وذلك كسباً لتشجيع دول أوروبا له وخاصة حليفته فرنسا التي اعتمد بشكل كبير على رجالها من أجل بناء أسس دولته القوية المتقدمة اقتصادياً وعلمياً وعسكرياً[١].

فبالنسبة للجيش:

زودته فرنسا بالسلاح واستقدم الضباط والخبراء العسكريين لتدريب جيشه، والخبراء والفنيين من اجل إنشاء الصناعات الحربية (معامل الأسلحة والذخيرة)، كما أرسل محمد علي البعثات إلى أوروبا وخاصة فرنسا من أجل إتمام الدراسة العسكرية وأنشأ المدارس العسكرية في مصر وأنشأ نظارة للحربية عرفت باسم «ديوان الجهادية» وفرض الجندية الإلزامية[٢]، أما الأسطول فلقد بلغ عدد القطع البحرية لديه حوالي ثلاثين قطعة وشيد داراً لصناعة السفن الحربية في الإسكندرية[٣].

أما الناحية العلمية والثقافية في مصر:

فقد أولاها محمد علي أهمية خاصة، فأنشأ المدارس الابتدائية والعليا (الهندسة عام ١٢٣٢# -١٨١٦م، الطب١٢٤٣#-١٨٢٧م)ومدارس للصيدلة واللغات والفنون وكان الطلاب يدرسون على نفقة الحكومة كما استقدم الخبراء وأرسل بعثات طلابية إلى أوروبا وبخاصة فرنسا ابتداءً من عام ١٢٢٤#-١٨٠٩م وتم تنظيمها عام ١٢٤٢#-١٨٢٦م، وأشهر هذه البعثات تلك التي ترأسها رفاعة رفعت الطهطاوي[٤]، أُسست أول مطبعة في عهده (مطبعة بولاق ١٢٣٧#-١٨٢١م-، وصدرت أول صحيفة في عهده الوقائع ١٢٤٤#-١٨٢٨م)[٥].

أما بالنسبة إلى الجانب الاقتصادي:

فقد قام محمد علي بمسح الأراضي وتوزيعها على الفلاحين ليزرعوها لحسابه فهو الذي يحدد نوع الزراعة ويحتكر المحصول، بعد أن يمد الفلاحين بالآلات والمواشي، وكذلك قام ببناء الترع والجسور أشهرها القناطر الخيرية، كما ازدهرت زراعة القطن في عهده، وأسست في عهده مصانع النسيج المختلفة والحبال وسبك الحديد وإنتاج السكر، كما احتكر التجارة ونظم المواصلات بين أوروبا والهند عن طريق السويس وشق ترعة

---

(١) سيف الدين الكاتب، أطلس التاريخ الحديث، دار الشروق العربي، لبنان بيروت، ط٢/١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م/، ص١١٢.

(٢) روبير مانتران، المرجع السابق، ص٣٣. وعبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص٢٩٠

(٣) أحمد طربين، المرجع السابق، ص٥٩.

(٤) رفاعة الطهطاوي: (١٢١٦-١٢٩٠هـ/١٨٠١-١٨٧٣م) مفكر مصري من أركان نهضة مصر الفكرية الحديثة، ولد في طهطا في صعيد مصر فقصد القاهرة وتعلم في الأزهر، أرسلته الحكومة المصرية إماماً للصلاة والوعظ (١٨٢٦-١٨٣١م) مع بعثة من الشبان أوفدتهم إلى فرنسا لتلقي العلوم الحديثة، درس رفاعة الفرنسية وقرأ الجغرافيا والتاريخ، أنشأ جريدة «الوقائع» وترجم العديد من الكتب عن الفرنسية أسس مدرسة «الألسن» ويعد الطهطاوي من أركان النهضة العلمية العربية توفي بالقاهرة. (الموسوعة العربية العالمية ج١١، ص٢٤٣).

(٥) أحمد طربين، المرجع السابق، ص٦٨ إلى ٧١. وعبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص٢٩٠-٢٩١.

المحمودية بين الإسكندرية وفرع رشيد[١].

– حروب محمد علي:

وبعد تحقيقه للاستقرار والازدهار الداخلي توجه محمد علي من أجل تحقيق حلمه في بناء دولة عربية عصرية قوية، فخاض أربعة حروب كان البعض منها بتكليف من السلطان العثماني، والبعض الآخر بطموح شخصي منه من أجل التوسع وهي كالتالي:

حروبه في شبه الجزيرة العربية(١٢٢٦/١٢٣٤هـ-١٨١١-١٨١٨م):

في مطلع القرن التاسع عشر ازداد نفوذ الوهابيين في الجزيرة العربية، وسيطروا على المدينة المنورة والأماكن المقدسة وشكل ذلك خطراً كبيراً هدد كيان الدولة العثمانية، وسيادتها على العالم الإسلامي، ولذلك رأى السلطان محمود الثاني[٢] أنه من الضروري التخلص من هذه الفئة فقام بتكليف واليه محمد علي بمهمة محاربة الوهابيين والقضاء عليهم[٣].

وقد كانت هذه الحرب فرصة سانحة لمحمد علي من أجل إثبات جدارته وقدرته العسكرية أمام السلطان وأمام حلفائه الفرنسيين، وأيضا من أجل التخلص من خصومه الألبان الذين زجهم في هذه الحرب والمماليك الذين دبر لهم مذبحة القلعة سابقة الذكر (١٨١١م)، أما هدفه الأخير فكان توسعياً بغية بناء دولة عربية تضم أكبر رقعة جغرافية من البلاد العربية والبداية هي شبه الجزيرة العربية (الحجاز)[٤].

فشل طوسون (١٨١١م) في حسم الأمور العسكرية مع الوهابيين لصالحه لذلك توجه محمد علي بنفسه إلى الحجاز وهزم الوهابيين في سنة (١٨١٤م) لكنه توقف قبل الوصول إلى عاصمتهم الدرعية[٥]، وعاد إلى مصر بسبب المؤامرات التي كانت تحاك ضده من قبل العثمانيين، ووصول أنباء عن عودة نابليون من منفاه في جزيرة ألبا[٦]، كان الحسم النهائي لهذه الحرب على يد إبراهيم باشا الذي استأنف القتال مع الوهابيين سنة (١٢٣٢#-١٨١٦م)، فتمكن من احتلال الدرعية والقضاء على نفوذ الوهابين في الحجاز سنة (١٨١٨م)، قام السلطان بتعيين إبراهيم باشا والياً على الحجاز والحبشة مكافئة له لقضائه على الوهابين، وبذلك بسط محمد علي نفوذه على الحجاز واليمن حتى سنة (١٢٥٦#-١٨٤٠م).

حروبه في السودان(١٢٣٨/١٢٤٣هـ-١٨٢٢/١٨٢٧م):

توجه محمد علي بجيوشه إلى السودان (١٢٣٦#-١٨٢٠م) لأهداف متعددة:

أولاً: للقضاء على بقايا المماليك الذين هربوا إلى الجنوب بعد أحداث (١٨١١م) وأسسوا إمارة لهم في دنقلة[٧].

---

(١) سيف الدين الكاتب، أطلس التاريخ الحديث، المرجع السابق، ص١١٢-١١٣.

(٢) السلطان محمود الثاني: السلطان رقم (٣٠) ابن السلطان عبد الحميد الأول، ولد سنة ١١٩٩هـ وجلس سنة ١٢٢٣، الموافق سنة ١٨٠٨م، بالغاً من العمر ٢٤ سنة، مدة سلطنته اثنان وثلاثون سنة. إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، المصدر السابق، ص٢٠٦.

(٣) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص٤٠٥-٤٠٦.

(٤) عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص٢٩٢.

(٥) الدرعية: تقع في منطقة نجد في شبه الجزيرة العربية.

(٦) جزيرة ألبا: تقع بالقرب من إيطاليا.

(٧) دنقلة: تقع في المديرية الشمالية في السودان، وهي في قلب بلاد النوبة إلى الشمال الغربي في الخرطوم. آمنة أبو حجر، موسوعة المدن العربية، دار أسامة، ط١، ٢٠٠٣، ص٢١٠.

ثانياً: تنشيط التجارة والاقتصاد بين مصر والسودان.
ثالثاً: تجنيد العبيد السودانيين في جيشه الجديد.
رابعاً: الاستيلاء على مناجم الذهب في أفريقيا الوسطى.

تسلم قيادة الحملة إلى السودان (١٨٢٠م) ابنه إسماعيل الذي أخضع القبائل السودانية في دنقلة لحكم المصريين ثم تابع محمد بك خسرو الدفتردار (١٢٣٧#-١٨٢١م) الزحف نحو دارفور وضمها لدولة محمد علي وبذلك دخلت المدنية والحضارة إلى السودان بهذا الحكم[١].

حروبه في اليونان (١٨٢٢ – ١٨٢٧م):

شارك محمد علي في حرب الدولة العثمانية على اليونان التي أعلنت حرب استقلالها عن الدولة العثمانية سنة (١٢٣٨#-١٨٢٢م). بدأ التمرد في جزيرة كريت[٢] (١٨٢٢م) ثم تبعتها شبه جزيرة المورة سنة (١٢٤٠#-١٨٢٤م)[٣]، تدخلت الدول الأوروبية إلى جانب اليونان وطلبت من السلطان العثماني إيقاف هذه الحرب خوفاً من استغلال روسيا لهذا الوضع والاستفادة منه، رفض السلطان المطالب الأوروبية واستمر في حربه ضد اليونان بمساعدة واليه محمد علي الذي وعده بإعطائه حكم جزيرة المورة وكريت كمكافأة له في حال النصر.

وأمام الضغط الروسي اعترف السلطان العثماني باستقلال اليونان (١٢٤٤#-١٨٢٨م) وخاصة بعد معركة نفارينو (١٢٤٣#-١٨٢٧م) التي هزم فيها الأسطولين العثماني والمصري أمام الأساطيل الأوروبية[٤].

وفي آب (١٨٢٨م) سحب محمد علي جيوشه من شبه جزيرة المورة ليتفرغ لخوض حربه التوسعية الأهم في بلاد الشام.

حروبه في بلاد الشام (١٢٤٧/١٢٥٧هـ-١٨٣١/١٨٤١م):

شكلت بلاد الشام أهمية كبيرة بالنسبة لدولة محمد علي المستقبلية في المشرق، فبالإضافة إلى الأهمية الاقتصادية وحاجة محمد علي لموارد بلاد الشام من أخشاب وحرير وجلود ومعادن، فهناك الأهمية الإستراتيجية. كانت الفرصة مواتية لمحمد علي أثناء انشغال السلطان العثماني بثورة البوسنة، فاتخذ من خلافه مع والي عكا عبد الله باشا حول هرب الفلاحين الذين التجؤوا إليه هرباً من الجندية ودفع الضرائب، ذريعة من أجل شن حربه على بلاد الشام (١٨٣١م)[٥].

تحركت القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا أواخر تشرين الأول سنة (١٨٣١م) قاصدةً بلاد الشام عن طريق العريش[٦] وعن طريق البر في آن واحد باتجاه عكا[١].

---

(١) عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص٢٩٣.وأحمد طربين، المرجع السابق، ص٨٩
(٢) جزيرة كريت: تقع في البحر المتوسط ذات موقع حربي هام؛ لأنها تقع عند مدخل أرخبيل اليونان، وتتحكم بمضيق الدردنيل. محمد فريد بك، المصدر السابق، ص٢٣٤، ٢٣٥.
(٣) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص٤١٢.
(٤) عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص٢٩٦-٢٩٧، للتوسع انظر، محمد فريد بك، المصدر السابق، ص٤١٦ إلى ٤٢٨.
(٥) عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص٢٩٦.
(٦) العريش: تقع مدينة العريش على ساحل البحر المتوسط في أقصى الشمال الشرقي من مصر في شبه جزيرة سيناء، آمنة أبو حجر، موسوعة المدن العربية، المرجع السابق، ص٥٠٢.

استولى إبراهيم باشا على غزة[٢] ..... ويافا[٣] وسقطت عكا[٤] بعد حصار لمدة ستة أشهر أيار (١٨٣٢م)، ثم دخل دمشق وهزم القوات العثمانية التي كانت بقيادة والي حلب (عثمان باشا) عند حمص واستولى على حماه وحلب ووصل بقواته حتى أضنة[٥] وطرسوس[٦] ومرعش[٧] وقيصرية[٨] وبعد انتصاره على العثمانيين في قونيه[٩] كانون الأول (١٨٣٢م) أصبح طريق الآستانة مفتوحاً أمام الجيش المصري، وهذا ما أقلق الدول الأوروبية وخاصة روسيا التي سارعت إلى إرسال أسطولها إلى البوسفور بحجة حماية الدولة العثمانية.

أخاف هذا العمل الدول الأوروبية الأخرى (فرنسا وانكلترا) اللتان ضغطتا على محمد علي من أجل عقد صلح مع السلطان العثماني وانتهت المفاوضات بإعلان اتفاقية «كوتاهية»[١٠] سنة (١٢٤٩#-١٨٣٣م)، التي أعطت محمد علي حكم بلاد الشام وإقليم أضنه بالإضافة لحكم مصر والحجاز وجزيرة كريت مقابل انسحاب القوات المصرية من الأناضول. أما روسيا فقد عقدت مع السلطان معاهدة هجومية دفاعية «هنكار أسكله سي» (***Hancar Askalasi***) تعهدت فيها روسيا بالدفاع عن الدولة العثمانية في حال تعرضت لأي هجوم أو اعتداء خارجي[١١]، أما السلطان فقد تعهد بفتح مضائق البوسفور والدردنيل أمام الأسطول الروسي[١٢].

ولكن ما لبث أن تجدد القتال بين الطرفين المصري والعثماني سنة (١٢٥٥#-١٨٣٩م) بالقرب من بلدة نصيبين[١٣] وانتهت المعركة بانتصار المصريين انتصاراً ساحقاً على القوات

---

(١) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص٤٤٩.

(٢) غزة: تقع على البحر المتوسط في أقصى جنوب الساحل الفلسطيني، بناها الكنعانيون. آمنة أبو حجر، موسوعة المدن العربية، المرجع السابق، ص٣٩٥.

(٣) يافا: مدينة فلسطينية تجارية تقع على المتوسط، بناها الكنعانيون، احتلها نابليون عام ١٧٩٩، وارتكب فيها مجزرة راح ضحيتها ٥٠٠٠ شهيد، قامت بها ثورة يافا عام ١٩٢٠ على اليهود، وثورة ١٩٢٢ وثورة ١٩٣٣ و١٩٣٦. آمنة أبو حجر، المرجع نفسه، ص٤٠٥، ٤٠٦.

(٤) عكا: تقع على ساحل البحر المتوسط وهي مدينة فلسطينية، تحطمت على أسواها القوية حملة نابليون الشهيرة ١٧٩٨م ووضعت تحت الانتداب البريطاني ١٩١٨ واحتلها اليهود ١٩٤٨. آمنة أبو حجر، المرجع نفسه، ص٣٩٢-٣٩٤.

(٥) أضنه (***Adana***): مدينة تقع في الأناضول مركز ولاية أضنة على نهر سيون على بعد ٢٥كم من البحر المتوسط. س.موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، المصدر السابق، ص٣٧.

(٦) طرسوس (***Tarsosüss***): تقع في الأناضول مركز لواء طرسوس في ولاية أضنة، مركز تجاري هام فيها آثار تعود للعصور القديمة والوسطى، بناها الملك الآشوري «ساردانابال»، مع نهاية القرن العاشر الميلادي، استولى عليها العرب المسلمون، في طرسوس مسقط رأس للرسول الكبير «بولس القديس». س.موستراس، المصدر نفسه، ص٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠.

(٧) مرعش (***Merasch***): تقع في الأناضول التركية، مركز لواء مرعش، ولاية أضنة. س.موستراس، المصدر نفسه، ص٤٦١.

(٨) قيصرية (***Kaissariye***): تقع في الأناضول التركية، مركز لواء قيصرية ولاية بوزادوف، الاسم أطلقه عليها القياصرة الأوائل. س.موستراس، المصدر نفسه، ص٤١٤.

(٩) قونيه (***Konia***): تقع في الأناضول التركية، مركز لواء قونية، في ولاية «جره مان» في عام ١٠٧٤م أصبحت مقر الإمبراطورية التركية السلجوقية في آسية الصغرى. س.موستراس، مصدر نفسه، ص٤١٢.

(١٠) كوتاهية (***Kutahia***): تقع في الأناضول، مركز لواء كوتاهية، وسلطان أونو، في ولاية «جداوندكار» نسبت عند سفح هضبة بين نهري «أطرة نوس جاپي» و«بورسك جاپي». س.موستراس، مصدر نفسه، ص٤٢٨، ٤٢٩.

(١١) محمد فريد بك، المصدر السابق، من ص٤٤٩ حتى ص٤٥١.

(١٢) سيف الدين الكاتب، أطلس التاريخ الحديث، المرجع السابق، ص١١٣.

(١٣) نصيبين (***Nizibin***): تقع في الأناضول، في ولاية كردستان، لواء ماردين، على أحد روافد نهر الفرات. س.موستراس، المصدر السابق،ص٤٧٩.

العثمانية التي هربت مخلفةً ورائها (١٦٦مدفعاً وعشرين ألف بندقية وغيرها من الذخائر والمؤن) غنمها المصريون[١]، بعد هذه الأحداث أرسلت الدول الأوروبية مذكرة اشتركت فيها كل من انكلترا وفرنسا وروسيا والنمسا.

تضمنت الطلب من السلطان عدم إبرام أي معاهدة مع محمد علي دون موافقة هذه الدول، كما عقدت هذه الدول فيما بينها ما عدا فرنسا سنة (١٢٥٦#-١٨٤٠م) معاهدة لندن وأهم ما جاء فيها إعطاء حكم مصر وراثياً لمحمد علي بالإضافة لولاية عكا مدى الحياة، وإذا لم يقبل بهذا خلال عشرة أيام تسحب منه عكا وإذا تأخر عشرة أيام أخرى للسلطان العثماني الحق باتخاذ الإجراء المناسب ضده. وبتحريض من فرنسا رفض محمد علي هذه المعاهدة، فأرسلت الدول الأوروبية (انكلترا والنمسا) بالإضافة للدولة العثمانية، أسطولاً إلى سواحل بلاد الشام واحتلت عكا وحرضت الأهالي في الشام ضد الحكم المصري، فما كان من محمد علي إلا الانسحاب من بلاد الشام أمام هذه الضغوطات وانتهت الأزمة بتوقيع معاهدة لندن (١٨٤١م) بين الدول الأوروبية والعثمانيين من جهة ومحمد علي من جهة ثانية وأهم ما جاء فيها قبول محمد علي بحكم مصر وراثيا والانسحاب بشكل كامل من بلاد الشام[٢].

رابعاً: حوادث لبنان (١٢٦٢/١٢٧٧هـ-١٨٤٥/١٨٦٠م):

ظهر التنافس جلياً بين القوى المتصارعة على النفوذ في لبنان وملئ الفراغ الذي تركه خروج محمد علي (الحكم المصري) من المنطقة.

فلقد حرصت الدول الأوروبية على أن يكون لها موطئ قدم في هذه البلاد، وكذلك عملت الدولة العثمانية على فرض سيطرتها التامة على جبل لبنان، ولا ننسى طبعاً الأمراء المحليون الذين كانوا دائماً يحاولون استغلال أي ظرف من أجل إبراز نفوذهم، وفرضه في الجبل، ومحاولة الاستقلال عن الدولة العثمانية[٣].

نجحت انكلترا في إيصال حليفها الأمير بشير الشهابي الثالث إلى إمارة الجبل، وذلك خلفاً للأمير بشير الشهابي الثاني.

لم يرض أصحاب الإقطاعيات من مشايخ الدروز على إمارة بشير الشهابي الثاني، وذلك بسبب سوء معاملته لهم، فقرروا خلع الأمير من منصبه، فانتصر له مسيحيو الجبل لأنه منهم، فقامت بين الفريقين عدة وقائع في دير القمر وهي ما عرف بالحركة الأولى (١٢٥٧هـ - ١٨٤١م)[٤].

وبسبب هذه الاضطرابات قامت السلطات العثمانية بعزل الأمير بشير الشهابي وذلك بهدف إخماد الفتن، وعينت بدلاً عنه والياً عثمانياً[٥]، ولكن الدروز والموارنة عارضوه، فاضطرت الدولة العثمانية إلى عزله، وقررت تقسيم الجبل إلى منطقتين سنة (١٢٥٨هـ-١٨٤٢م)، يحكم المنطقة الشمالية قائم مقام ماروني، والمنطقة الجنوبية قائم مقام درزي يفصل بين المنطقتين طريق دمشق – بيروت[٦]، وحوت كل منهما على مناطق مختلطة،

---

(١) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص٤٥٣.
(٢) محمد فريد بك، المصدر نفسه، من ص٤٦٨ حتى ص٤٧٦، وعبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص٣٠٣.
(٣) توفيق برو، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، منشورات جامعة حلب، /١٤١١هـ - ١٩٩٠م/، ص٩٨.
(٤) شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص٢٨٩.
(٥) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص٤٧٨.
(٦) عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص٣١٢. (توضيح: جعلت الدولة العثمانية الأمير أحمد عباس

لكن هذه الحلول فشلت في إخماد نار الفتنة في الجبل بل عملت في كثير من الأحيان إلى زيادة اشتعال هذه النار بين الطائفتين (الدرزية والمارونية)، وإلى حدوث فتن دموية طائفية[١].

ولقد كان للدول الأوروبية كما أسلفنا وتدخلها في شؤون الجبل دوراً كبيراً في تغذية روح الفتنة الطائفية بين فئات الجبل المختلفة، وإثارتها ضد بعضها البعض، ونجحت في زيادة حدة الخلاف بينها، وذلك من خلال دعم كل دولة أجنبية لفئة من هذه الفئات، وتحريضها ضد الأخرى، فأيد الانكليز الدروز والفرنسيون الموارنة، وروسيا أيدت الأرثوذكس، واستغل العثمانيون الوضع لإعادة السيطرة على المنطقة.بدأت المذابح في مناطق لبنان الجنوبي المختلطة بالمارونيين والدروز، وتكررت على فترات متقطعة بين عامي (١٨٤٥-١٨٦٠م)[٢].

وسرعان ما انتقلت هذه المذابح من لبنان إلى دمشق وكادت أن تصل الأمور إلى مراحل سيئة جداً لولا تدخل وجهاء دمشق وفي مقدمتهم الأمير عبد القادر الجزائري[٣]، الذين نجحوا في إخماد هذه الفتنة وإيقافها عند هذا الحد[٤].

ولقد كان لهذه الأحداث آثار على المنطقة فمنها إرسال نابليون الثالث[٥] إمبراطور فرنسا حملة إلى لبنان بقيت فيه ستة أشهر وذلك لحماية الموارنة في الجبل[٦]، ثم جاءت لجنة دولية إلى الجبل لدراسة وضعه، وانتهت بوضع نظام خاص به، تضمن منحه استقلالاً ذاتياً على أن يحكمه متصرف مسيحي عثماني بموجب نظام إداري خاص، يوضع تحت رقابة دولية، وتشكيل متصرفية جبل لبنان المرتبطة مباشرة بعاصمة الدولة[٧].

وبذلك نستطيع القول بأن الدول الأوروبية ضمنت لنفسها وفق هذا النظام طريقاً وسبيلاً من أجل التدخل في شؤون المنطقة، وفرض سياستها فيها وبالتالي التدخل في شؤون الدولة العثمانية، وبرهنت بذلك على ازدياد التغلغل الأجنبي في المنطقة عن طريق الإرساليات التبشيرية والبعثات والامتيازات والمشاريع التي نجحت الدول الأوروبية في الحصول عليها

الأرسلاني والياً على القسم الجنوبي والأمير حيدر إسماعيل أبي اللمع والياً على القسم الشمالي وأُلحقت بلاد جبيل بباشوية طرابلس، شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص٢٨٩).

(١) أحمد طربين، المرجع السابق، ص٢٤٧.

(٢) «كان يزيد في أوارها استمرار فرنسا وانكلترا في إثارة الفتن ودعم كل منهما للطائفة الموالية لها ومدها بالسلاح.وقد اتضح من سجلات الجمارك أن (١٢٠) ألف بندقية و(٢٠) ألف مسدس قد دخلت لبنان بين عامي (١٨٥٧-١٨٦٠) عدا السلاح المستورد عن طريق التهريب». (توفيق برو، المرجع السابق، ص ٩٩-١٠٠، وعبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص٣١٣.

(٣) الأمير عبد القادر الجزائري: (١٢٢٢-١٣٠٠هـ/١٨٠٧-١٨٨٣م) عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري، أمير مجاهد، ولد في القطبة (من إيالة وهران الجزائرية) تعلم في وهران (١٢٤٦هـ-١٨٤٣م) بايعه الجزائريون على محاربة الفرنسيين، قاتل الفرنسيين خمسة عشر عاماً، استسلم عام ١٢١٣هـ/١٨٤٧م فنفوه إلى طولون، استقر في دمشق سنة ١٢١٣ وتوفي فيها. خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط١٤، الجزء الرابع، ص٤٥-٤٦.

(٤) توفيق برو، المرجع السابق، ص٩٩-١٠٠. و

Moshe maoz, Ottoman Reform in Syria and Palestine(1810–1861) Oxford, 1968, P.27–28–29.

(٥) نابليون الثالث: (١٨٠٨-١٨٧٣) إمبراطور فرنسا في الفترة عام ١٨٥٢-١٨٧٠م، ولد في باريس وهو ابن لويس، وأخوه نابليون الأول، انتخب بعد ثورة ١٨٤٨، وفي عام ١٨٥٢ أعلن نفسه إمبراطوراً بعد هزيمته أمام الألمان في معركة «سيدان» ١٨٧٠، أسقط الثوريون حكمة الإمبراطور. الموسوعة العربية العالمية ج٢٥، ١١-١٢.

(٦) توفيق برو، المرجع السابق، ص١٠٠.

(٧) أحمد طربين، المرجع السابق، ص٢٤٨.

في المنطقة وخاصة (فرنسا – بريطانيا - روسيا) مع تميز واضح للنفوذ الفرنسي الذي تفوق على غيره في هذه المنطقة.

خامساً: حرب القرم (١٢٧٣/١٢٧٠هـ-١٨٥٦/١٨٥٣م):

لم تدم فترة الهدوء النسبي بين الدول الأوروبية والدولة العثمانية أكثر من عشر سنوات حيث كانت آخر صورة للصراع بين الطرفين أزمة محمد علي مع السلطان العثماني[١]، حيث عاد هذا الصراع من جديد على السلطنة بين الدول الأوروبية العظمى من خلال ما عرف أزمة الأماكن المقدسة وحرب القرم التي نتجت عن هذه المسألة.

حاولت روسيا التدخل في شؤون الدولة العثمانية مرات عديدة فمنها تدخلها أثناء الأزمة بين محمد علي والسلطان العثماني كما حاولت التدخل بحجة حماية المسيحيين الموجودين داخل الدولة العثمانية، وانتهى الأمر أن تقترح على انكلترا عام (١٨٥٣م) فكرة تقسيم أملاك الدولة العثمانية فيما بينهم دون إشراك فرنسا بهذا الأمر، وذلك بسبب العداء بين القيصر الروسي نقولا الأول[٢] والإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث في ذلك الوقت وأيضاً بسبب محاولة فرنسا زيادة امتيازاتها في الأراضي المقدسة بدعوى حماية المسيحيين الكاثوليك فيها[٣].

رفضت انكلترا الطلب الروسي بحجة أن الوقت غير مناسب لبحث هذا الأمر، ولعل انكلترا، رأت أنه من مصلحتها الإبقاء على الدولة العثمانية كما هي، وذلك أفضل من إمكانية سيطرة روسيا على البوسفور والدردنيل في حال سقوط السلطنة[٤].

ثم ما لبث أن اشتد التنافس بين الدولتين روسيا وفرنسا وذلك بسبب مطالبة كل طرف منهما بحق الإشراف وحماية المسيحيين والأماكن المقدسة في بيت المقدس (بيت لحم وكنيسة المهد)[٥]، فادعى الإمبراطور الروسي نقولا (***Nikolas***) حق حماية المسيحيين الأرثوذكس في الدولة العثمانية، ونابليون الثالث طالب بمزيد من الحقوق والمزايا للمسيحيين الكاثوليك[٦] في السلطنة. واشتد التنافس بين الطرفين لدى الباب العالي ووصل الأمر بروسيا أن هددت بقطع علاقاتها الدبلوماسية بالدولة العثمانية، وصاغت تهديدها على شكل إنذار وجهته للدولة العثمانية، فانتهى الأمر بين الطرفين بسلسلة من المباحثات مع السلطان عبد المجيد (١٢٧٨/١٢٥٥#-١٨٦١/١٨٣٩م)[٧] والتي كان مصيرها الفشل

---

(١) أسلفنا الحديث سابقا عن هذه المشكلة.

(٢) نقولا الأول: (١٧٩٦-١٨٥٥م) كان قيصراً لروسيا من عام ١٨٢٥ حتى وفاته، عُرف بحكمه القاسي كان ابناً للقيصر «بول»، كان ضابطاً بالجيش، لذلك قاد البلاد وكأنها وحدة عسكرية، حارب العثمانيين في حرب القرم ١٨٥٣، وكانت النتيجة هزيمة روسيا وما نقولا خلال هذه الحرب. الموسوعة العربية العالمية، ج٢٥، ص٣٩٥.

(٣) برون، جفري، الحضارة الأوروبية في القرن التاسع عشر (١٨١٥-١٩١٤م)، ت، عبلة حجاب، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، نيويورك (١٩٦٣م)، ص٩٥-٩٦. ومحمد كمال الدسوقي، تاريخ أوروبا الحديث، مطبعة النهضة الجديدة، د.م، د.ت، ص١٠٠.

(٤) محمد كمال الدسوقي، تاريخ أوروبا الحديث، المرجع السابق، من ص٩٩ حتى ص١٠١.

(٥) الأماكن المقدسة في بيت المقدس: هي المسجد الأقصى وقبة الصخرة، كنيسة القيامة حائط البراق (المبكى). الموسوعة العربية العالمية، ج١٨، ص٨٢.

(٦) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، المرجع السابق، ص١٩٩.

(٧) السلطان عبد المجيد: (١٨٣٩-١٨٦١) وهو ابن السلطان محمود الثاني، عقدت في عهده معاهدة لندن (١) مع محمد علي ١٨٤٠، ومعاهدة لندن (٢) ١٨٤١، كما جرت في عهده حوادث الستين في بلاد الشام

بسبب قيام روسيا باحتلال ولايتي الدانوب[1] (في ٣ تموز ١٨٥٣م) وذلك لإجبار السلطان على قبول طلباتها. وفي الحقيقة لم تكن الناحية الدينية هي السبب الحقيقي وراء حرب القرم، ولكن كانت ستاراً اتخذته كل من فرنسا وروسيا من أجل التدخل في شؤون الدولة العثمانية والاستيلاء على أملاكها[2].

ـ أحداث الحرب ونتائجها:

بعد حادثة احتلال روسيا للأفلاق والبغدان (رومانيا) (١٢٧٠#-١٨٥٣م) تقدمت الأساطيل الانكليزية والفرنسية إلى مياه الدردنيل للضغط على روسيا من أجل الانسحاب من هاتين الولايتين، وكادت الأزمة أن تحل سلمياً بدون حرب كبرى بين الطرفين لولا قيام الأسطول الروسي بالقضاء على أسطول عثماني في البحر الأسود أواخر (تشرين الثاني ١٨٥٣م)، فلم يجد الانكليز والفرنسيون بداً من تسيير أسطولهما إلى البحر الأسود لمنع الأسطول الروسي من الخروج من موانئه وإيقافه عند حده .رفضت روسيا أية مفاوضات لإحلال السلام، فوجه الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث والملكة فيكتوريا إنذاراً نهائياً لروسيا بضرورة سحب قواتها من الأفلاق والبغدان، واحترام سيادة واستقلال السلطان العثماني[3].

رفض القيصر الروسي هذا الإنذار، وأعلن الحرب على فرنسا وانكلترا، فعقدت هاتان الدولتان حلفاً هجومياً دفاعياً مع السلطان عبد المجيد في (١٢آذار ١٨٥٤-١٢٧٠هـ)[4] وبدأ الحلفاء (انكلترا وفرنسا) في الاشتراك مع القوات العثمانية في طرد الجيوش الروسية من الأفلاق والبغدان وإجلائهم عنها[5].

تدخلت النمسا صديقة روسيا في الحرب بصفتها وسيط سلام، وأجبرت روسيا على سحب قواتها من ولايتي الدانوب، وحلت القوات النمساوية مكان القوات الروسية، وذلك كحل مؤقت حتى تنتهي الحرب، وبدأت النمسا وساطتها مرة أخرى لحل الأزمة[6].

هاجم الحلفاء (فرنسا، انكلترا، العثمانيون) شبه جزيرة القرم وانتصروا على الروس في وقائع[7] آلمة (***Alma***) وبالاكلافة (***Balclavh***) وسيباستبول (***Sebastibol***) وهي الأشهر في هذه الحرب (٢٨ كانون الأول ١٨٥٥م-١٢٧٢#).

١٨٦٠، توفي ١٢٧٧هـ ٢٥ تموز ١٨٦١م، تولى بعده الحكم السلطان عبد العزيز. شكيب أرسلان، تاريخ الدولة العثمانية، المصدر السابق، ص٢٨٨، وص٢٩٧.

(١) ولايتا الدانوب (الأفلاق والبغدان): أي مقاطعتي مولداڤيا والولايتان اللتين تعرفان الآن برومانيا، وكان يحكم كلاً منهما حاكم منتخب من الأهالي في ظل السيطرة التركية يلقب بالأمير أو الهوسبودار وقد احتلتهما روسيا عسكرياً أكثر من مرة منذ بداية القرن التاسع عشر (أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرون ١٧٨٩م-١٩٥٠) تأليف: أ.ج.جرانت وهارولد تمبرلي، ت، بهاء فهمي، د.أحمد عزت عبد الكريم.مؤسسة سجل العرب، دار الحمامي للطباعة، القاهرة، ط٦، د.ت، ص٤٢٥.

(٢) محمد كمال الدسوقي، تاريخ أوروبا الحديث، المرجع السابق، ص١٠٢.

(٣) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، المرجع السابق، ص١٩٩.

(٤) شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص٢٩٥.

(٥) محمد كمال الدسوقي، تاريخ أوروبا الحديث، المرجع السابق، ص١٠٤.

(٦) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، المرجع السابق، ص٢٠٠. وانظر:
Moshe maoz, Ottoman Reform in Syria and Palestine(1810–1861) Oxford, London1968, P.50–51.

(٧) شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص٢٩٦.ومحمد كمال الدسوقي، تاريخ أوروبا الحديث، المرجع السابق، ص١٠٥

لم تستمر الحرب طويلا بعد هزيمة الروس في موقعة سيباستبول (***Sebastibol***) وقبلت روسيا أخيراً التفاهم والتفاوض مع الحلفاء وانتهت جلسات التفاوض إلى توقيع اتفاقية باريس (٣٠ آذار ١٨٥٦م-١٢٧١#)[١]، ولقد ساعد على نجاح عقد الصلح بين الحلفاء وروسيا وفاة القيصر الروسي نقولا الأول المتحمس للحرب، وتسلم قيصر روسي آخر أقل حماساً لهذه الحرب واستمرارها وهو القيصر الروسي إسكندر الثاني، هذا بالإضافة إلى تهديد النمسا بدخول الحرب إلى جانب الحلفاء في حال عدم قبول روسيا توقيع هذا الصلح[٢].

وأما أهم ما جاء في هذه الاتفاقية فهو:

١) اعتراف جميع الأطراف بما فيهم روسيا بالاستقلال التام للدولة العثمانية، واحترام سيادتها وعدم التدخل في شؤونها الداخلية، وكما جاء فيها عدم السماح للسفن الحربية بعبور مضائق البوسفور والدردنيل، وأيضاً تقرر حرية التجارة والملاحة في مياه البحر الأسود، وجاء أيضاً تخلي روسيا عن الأفلاق والبغدان وإعادتهما للسيادة العثمانية[٣].

٢) أما نتائج هذه الحرب على السلطنة العثمانية فهو قيام السلطان عبد المجيد بإصدار «خط شريف همايوني» (١٨شباط ١٨٥٦م-١٢٧٣#)، تضمن «حق الطوائف المسيحية المختلفة في إقامة الشعائر الدينية في أراضي الدولة العثمانية، وفتح الوظائف المدنية أمام المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية، وكذلك فرض الخدمة العسكرية عليهم وقبل ذلك كانوا لا يقبلون في الجيش العثماني، ولكنهم منحوا حق البدل العسكري للإعفاء من أدائها»[٤].

٣) ولقد عبر هذا الفرمان عن أهم المحاولات الإصلاحية التي قامت بها الدولة العثمانية في تاريخها الحديث في تلك المرحلة.

إن كل حدث من هذه الأحداث السابقة والمكائد التي كانت تحاك من أجل تفكيك كيان الدولة العثمانية كانت كفيلة بإنهاء هذه الدولة والقضاء عليها، ولكن لعبت أدت المنافسات الاستعمارية بين الدول الأوربية دوراً في تأخير هذا السقوط. وإن مسلسل التآمر والتدخل في شؤون الدولة العثمانية لم يتوقف إلا عندما انتهى الأمر بسقوط الخلافة العثمانية ١٣٤٣#-١٩٢٤م وسقوط هذا الكيان الذي استمر لقرون عديدة فارضاً قوته وهيبته بين الدول الكبرى والعظمى في العالم.

وبالمجمل فإن غاية هذا التمهيد والحديث عن "المسألة الشرقية" وأهم نقاط تطور أحداثها في المنطقة هو رسم صورة مسبقة لطبيعة الصراع الدولي على الدولة العثمانية، ولتبيان مدى الضعف الذي وصلت إليه الدولة العثمانية في المرحلة التي سبقت فترة دراسة البحث، فعندما وصل السلطان عبد الحميد الثاني إلى حكم الدولة العثمانية (فترة البحث المطروحة) كانت البلاد تعاني من مشاكل كبيرة جداً، ومن ضعف شديد وقوى عظمى خارجية تزداد قوة وتزداد رغبتها في القضاء على الدولة العثمانية، وتقسيم ممتلكاتها فيما بينها بحجج وأسباب كثيرة.

وهكذا فقد كان من الضروري التمهيد لفكرة المسألة الشرقية والأطراف المتصارعة

---

(١) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، المرجع السابق، ص٢٠٠.
(٢) محمد كمال الدسوقي، تاريخ أوروبا الحديث، المرجع السابق، ص١٠٧.
(٣) شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص٢٩٦، (للتوسع انظر: محمد فريد بك، المصدر السابق، ص٥٢٣-٥٣٠)
(٤) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، المرجع السابق، ص٢٠١.

فيها قبل الخوض في الحديث عن السلطان عبد الحميد الثاني، وعلاقاته الهامة التي ربطته بالدولة الألمانية وإمبراطورها غليوم الثاني. والذي سيكون لهذه العلاقات تأثيرات كثيرة على الطرفين كما سنوضح لاحقاً.

* * *

الأوضاع الداخلية
في كلٍّ من الدولة العثمانية وألمانيا
في تلك المرحلة

- أولاً الأوضاع الداخلية في الدولة العثمانية:

أ- تسلم عبد الحميد الثاني الحكم:

بعد خلع السلطان عبد العزيز تمت مبايعة السلطان مراد كبير أولاد السلطان عبد المجيد، ولكنه لم يعمر كثيراً في السلطنة وذلك بسبب إصابته باختلال عقلي فقرر رجال الدولة إقالته عن الحكم وتسليم أخيه السلطان عبد الحميد مكانه وذلك سنة(١٢٩٤هـ - ١٨٧٦م)[١].

والسلطان عبد الحميد هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية تولى عرش الدولة في الرابعة والثلاثين من عمره[٢]، حكم مدة ثلاثة وثلاثين سنة، وهي أطول فترة حكم سلطان عثماني بعد حكم كل من السلطان سليمان الأول «القانوني»، والسلطان محمد الرابع، ولقد شغلت فترة حكمه العالم بأكمله[٣]، وما تزال شخصيته موضع جدل وخلاف بين الباحثين والمؤرخين حتى الآن.

نشأته:

ولد السلطان عبد الحميد في [١٦/شعبان/سنة ١٢٥٨هـ = ٢٢/أيلول/١٨٤٢م) ، ماتت والدته وهو في العاشرة من عمره، فاعتنت به الزوجة الثانية لأبيه؛ والتي لم يكن لها أولاد، فأحسنت تربيته ورعايته وأثرت بشخصيته[٤]. «تلقى عبد الحميد تعليماً منتظماً في القصر السلطاني على أيدي نخبة مختارة من أشهر رجالات زمنه علماً وخلقاً، وتعلم من اللغات العربية والفارسية، ودروس التاريخ، وأحب الأدب، وتعمق في علم التصوف، ونظم بعض الأشعار باللغة العثمانية، كما تدرب على استخدام معظم أنواع الأسلحة، وكان مهتماً بالسياسة

---

(١) شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص٢٩٩-٣٠٠. و ***Kemal-öke, II Abdülhamid-Siyonistler-ve-filistin. Meselesi, Istanbul, 1981, P.60.***

(٢) محمد الصلابي، المرجع السابق، ص٤٤١.

(٣) محمد علي عامر، الدولة العثمانية، تاريخ ووثائق دار الرحاب، دمشق، ط١، ص٢٠٩.

(٤) محمد علي أورخان، السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عهده، دار النيل، مصر، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص٦١.

العالمية، وتأثيرها على الإمبراطورية»[1].

كان عبد الحميد في التاسعة عشر من عمره عندما توفي والده السلطان عبد المجيد وتسلم العرش من بعده عمه عبد العزيز سنة (١٢٧٨#-١٨٦١م) ووضع مراد ولياً للعهد[2]. رافق عبد الحميد عمه السلطان عبد العزيز في زيارته إلى أوروبا التي استمرت من٢١حزيران إلى ٧ آب، التقى عبد الحميد خلالها بنابليون الثالث في فرنسا والملكة فكتوريا (***Victoria***) في انكلترا وليوبلد الثاني (***Leopold***) في بلجيكا وغليوم الأول (***William I***) في ألمانيا، وفرنسوا جوزيف (***François Josef***) في النمسا، كما أنه قبل زيارته أوروبا زار مصر برفقة عمه عبد العزيز وذلك في عهد الخديوي إسماعيل، وبذلك سنحت الفرصة لعبد الحميد أن يطلع ويتعرف في وقت مبكر من سلطنته على أهم الشخصيات السياسية التي سيقابلها أثناء حكمه في مرحلة لاحقة، وكان عمر عبد الحميد في تلك المرحلة ٢٥سنة [3].

وقد كان لهذه الزيارة تأثير كبير في سياسة عبد الحميد المستقبلية، حيث ظهر إعجابه بألمانيا، وتقدمها منذ تلك الزيارة، فقد قال عنها: «أنها دولة نظام وعسكرية وإدارة»، وهذا ما دفعه فيما بعد بالاستعانة بالألمان لتدريب جيشه، وإنشاء صداقة مع ألمانيا في فترة حكمه[4] أثرت على خط سير السياسة العثمانية والألمانية على حد سواء مستقبلاً.

وبعد خلع السلطان عبد العزيز في ١٨٧٦/٥/٣٠، ثم تولية السلطان مراد الخامس؛ والذي لم يستمر حكمه أكثر من ثلاثة أشهر بسبب إصابته بخلل في عقله.

وهكذا تم اتخاذ قرار بتنحية مراد الخامس وتولية السلطان عبد الحميد الثاني على العرش، وتمت المبايعة له في يوم الخميس (١١/شعبان/١٢٩٣هـ = ١٨٧٦/٨/٣١م) في قصر[5] «طوب قابي» (***Topkapi***) لتبدأ بعد ذلك فترة حكمه التي استمرت حوالي ثلاثة وثلاثون عاماً، والتي كانت مليئة بالتحديات والمشاكل الخارجية والداخلية كما سيتضح لاحقاً.

ب- سياسة عبد الحميد الثاني الداخلية: (أهم مميزات سياسته الداخلية):

اتسمت سياسة عبد الحميد الثاني الداخلية بعدة بسمات ومميزات عدة وطغت عليها محاولات الإصلاح في الدولة وإتمام أو ترميم النقص الذي كان في الدولة في العهود السابقة لحكمه ومن أهم ماقام به :

أ- إعلان الدستور /١٢٩٣هـ-١٨٧٦م/:

شهد التاريخ العثماني الحديث العديد من المحاولات الإصلاحية على فترات أهمها خط

---

(١) محمد الصلابي، المرجع السابق، ص٤٤١.

(٢) محمد هاشم، الكتبي، عصر السلطان عبد الحميد وأثره في الأقطار العربية /١٨٧٦-١٩٠٩/، ١٥ جزء، ط٢، المكتبة الهاشمية، دمشق، ١٩٣٩م، ج١، ص٧٢.

(٣) محمد الصلابي، المرجع السابق، من ص٤٤٣ إلى ص٤٤٤.

(٤) محمد الصلابي، المرجع السابق، ص٤٤٣.

(٥) ***Orhan Koloğlu: Avrupa Kıskacıda Abdülhamit, istanbul, 1998, P.10***. وعمر فاروق يلماز، السلطان عبد الحميد خان الثاني (من خلال الوثائق)، ترجمة طارق عبد الجليل، دار نشر عثمانلي، استانبول، ومكتبة النيل، مصر، ٢٠٠٠، ص ٣٠ .

(٦)خط شريف همايوني :وهي الأوامر الصادرة من السلاطين ،وبكتابة أيديهم ،أو ماحرره الكتاب وأفضاه السلطان ،سهيل صابان،المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ،مكتبة الملك فهد الوطنية ،الرياض ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م،ص ١٠١.

شريف كلخانة (غرفة الورد)سنة (١٢٥٥#-١٨٣٩م)، وخط شريف همايوني (٦)سنة (١٢٧٣# - ١٨٥٦م) اللذان أصدرهما السلطان عبد المجيد، ولكن أبرز هذه الإصلاحات هو إعلان الدستور العثماني سنة (١٨٧٦م) من قبل السلطان عبد الحميد الثاني، وكان الهدف من هذه الإصلاحات بشكل عام هو دعم سلطة الطبقة الحاكمة وامتصاص النقمة المحلية من جهة وإرضاء الدول الأوروبية وذلك بمنح الامتيازات للسكان غير مسلمين من جهة ثانية[١].

وبالعودة إلى إعلان الدستور سنة (١٨٧٦م)، فلقد استلم السلطان عبد الحميد السلطنة الشرعية في البلاد وأظهر لوزرائه منذ البدء رغبته في الإصلاح[٢]، «فوعد في الخطاب الذي ثبت فيه الصدر الأعظم محمد رشدي باشا في منصبه والمؤرخ في (١٠/أيلول/١٨٧٦م –٢١/شعبان /١٢٩٣هـ) بتأسيس مجلس عمومي «تكون أفعاله وآثاره مستوجبة لثقة العموم واعتمادهم ويكون موافقاً لقابلية مملكتنا وأخلاق أهلنا كافلاً بتأمين إجراء القوانين حرفاً حرفاً سواء كانت القوانين الموجودة أو التي تأسست من الآن فصاعداً»، وبذلك وعد السلطان عبد الحميد بإعلان القانون الأساسي الذي كان مدحت باشا قد حضره في عهد السلطان عبد العزيز[٣].

في (٤/ذي الحجة/١٢٩٣هـ-١٦/كانون الأول/١٨٧٦م) عزل السلطان عبد الحميد رشدي باشا عن منصب الصدارة وعين مكانه مدحت باشا فأوكل إليه مهمة صياغة الدستور، فشكل مدحت باشا لجنة مؤلفة من ستة عشر عضواً من البيروقراطيين وعشرة من العلماء وقائدين كبيرين من الجيش لوضع مشروع الدستور[٤] الذي استوحي من الدستور البلجيكي والفرنسي والانكليزي والأمريكي، وفي(٧/ذي الحجة/١٢٩٣هـ = ١٩/كانون الأول/١٨٧٦م) تم إعلان القانون الأساسي (الدستور) وذلك في مراسم خاصة أقيمت في الباب العالي[٥].

«وضع الدستور في/١١٩/مادة تضمنت حقوق السلطان في الحكم، فاعتبره القانون مقدساً وغير مسؤول عن تصرفاته أمام أحد، ومنحه حق عزل الوكلاء وتنصيبهم، وتوجيه المناصب والرتب وسك النقود باسمه، وذكر اسمه في الخطبة، وعقد المعاهدات وإعلان الحرب والعفو وتخفيف العقوبات وعقد المجلس العمومي وفضه، وباختصار فإن السلطان يتمتع بالحقوق الدستورية كأي ملك دستوري، كما تضمن القانون النص على حرية العثمانيين ومساواتهم، ونص على مسؤولية الموظفين ضمن نطاق وظائفهم»[٦]، كما نص الدستور على إقامة مجلسين هما مجلس المبعوثان (النواب) والشيوخ (الأعيان) يتمتع أعضاؤهما بالحصانة فلا يخضعون لقوانين الدولة بموجب هذه الحصانة، وتتألف السلطة التشريعية من المجلسين، كما نص على تشكيل محكمة عليا وإتباع مبدأ اللامركزية في

---

(١) عبد الكريم رافق، العرب والترك، المرجع السابق، ص٣٨٠.
(٢) أحمد سعيد البرجاوي، الإمبراطورية العثمانية، الأهلية للنشر، بيروت/١٩٩٣م/، د.ط، ص٢٥٥.
(٣) عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية/١٨٦٤-١٩١٤م/، دار المعارف بمصر، القاهرة، /١٩٦٩/، د.ط، ص٤٠.
(٤) عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ٣ أجزاء، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٥٧-٥٨.
(٥) علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، /١٩٩/، ص٢٥٠. وعبد العزيز محمد عوض، المرجع السابق، ص٤١.
(٦) عبد العزيز، محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، أربعة أجزاء، ١٩٨٦، ج٤، من ص٥٨ إلى ص٦٦.

حكم البلاد[1].

ب- إعلان تأسيس المجلس العمومي:

من أهم ما نتج عن إعلان الدستور العثماني الجديد هو تأسيس المجلس العمومي «والذي كان يتألف من هيئتين: الأولى هيئة (مجلس الشيوخ) الأعيان، والأخرى هيئة النواب (مجلس المبعوثان)» «وتجتمع كلتاهما في أول تشرين الثاني من كل عام، ويكون افتتاح وفض دورتيهما العاديتين - وتستغرقان أربعة أشهر - بإرادة سنية، وللسلطان حق دعوة المجلس العمومي وافتتاحه قبل الموعد المحدد وله حق إطالة مدة انعقاده، ويرأسه السلطان أو الصدر الأعظم نائباً عنه في المجلس العمومي، ويلقي فيه خطاباً يتضمن ما يلزم اتخاذه في المستقبل من الوسائل والتدابير فيما يتعلق بأحوال الدولة الداخلية والخارجية، ونص القانون الأساسي على أن يتمتع أعضاء المجلس العمومي بحرية إبداء الرأي والحصانة ضد التهم الموجهة إليهم بسبب آرائهم، ولا يجوز الجمع بين عضوية الأعيان والمبعوثان»[2].

تألفت الهيئة الأولى (الأعيان) من الأشخاص الذين لهم خدمات حسنة مشهورة في الدولة مثل الوزراء والولاة والمشيرين وقضاة العسكر والسفراء والبطاركة السابقين، وهؤلاء يتم تعينهم من قبل السلطان مباشرة. ولا يتجاوز عدد أعضاء هذه الهيئة ثلث أعضاء هيئة المبعوثان». وعضويتهم مدى الحياة،.وأهم اختصاصاتهم تدقيق القوانين واللوائح الصادرة عن هيئة المبعوثان ولها حق الرفض القطعي أو ردها لهيئة المبعوثان للتعديل.

أما هيئة المبعوثان: فيتم انتخاب أعضاءها بنسبة عضو واحد لكل خمسين ألف نفس من ذكور الدولة، وذلك بشكل سري ولا يجوز لعضو هيئة المبعوثان الجمع بين عضوية المجلس ووظيفة حكومية أخرى – باستثناء الوزارة – وأن يتمتع بالمتابعة العثمانية ومعرفة اللغة التركية. وينتخب رئيس هيئة المبعوثان من الهيئة نفسها ويصادق السلطان على انتخاب الرئيس ووكيله[3].

ولقد جرت انتخابات مجلس المبعوثان في الدولة العثمانية لأول مرة في (١٠/شوال /سنة ١٢٩٣هـ = ٢٨/تشرين الثاني/١٨٧٦م) وذلك بموجب التعليمات الانتخابية المؤقتة اجتمع مجلس المبعوثان العثماني والبرلمان العثماني وافتتح أول جلسة له في سراي بشكطاش وذلك في (٤/ربيع الأول/١٢٩٤هـ = ١٩/آذار/١٨٧٧م)[4]، وحضر الافتتاح السلطان عبد الحميد الثاني، وتليت خطة العرش عن لسانه ثم أخذ بعد ذلك بعقد عدة جلسات مناقشة مع النواب[5]، وترأس مجلس النواب في دورته الأولى أحمد وفيق أفندي نائب الآستانة، حيث تم المصادقة على ميزانية الدولة، ثم اجتمع حسن فهمي أفندي نائب الآستانة أيضاً، وأقر فيه قانون البلديات بعد التعديل، وكما صادق على ميزانية الدولة[6]،

---

(١) *D.Mehmet Ali Beyhani: II Abdülhamid Dönemi (Turkler. 12) Ankara 2002, P.990–991–992.*

(٢) عبد العزيز، محمد عوض، المرجع السابق، ص٤١-٤٢.

(٣) عبد العزيز، الشناوي، المرجع السابق، ج٤، ص٦١.

(٤) عبد العزيز، محمد عوض، المرجع نفسه، ص٤٣، للتوضيح من نفس مرجع:نصت المادة (١١٩)من القانون الأساسي/١٨٧٦م/ على ما يلي: «إن التعليمات المؤقتة التي ترتبت بشأن المجلس العمومي في /١٠/ شوال سنة/١٢٩٣هـ/تبقى أحكامها جارية إلى نهاية اجتماع المجلس المذكور الأول، وبعد ذلك يصبح حكمها باطلاً».

(٥) عبد العزيز، العظمة، مرآة الشام، دار الفكر، دمشق، ط٢، /٢٠٠٢م/، ص٣٤١.

(٦) إسماعيل، سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، ت:حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت، د.ط، /١٩٨٨م/، ص٣٥٨-٣٥٩.

وبسبب احتدام المناقشات بين النواب في هذه الجلسة الأخيرة حول صلاحيات مجلس المبعوثان، وتطبيق الحكم الدستوري الفعلي في البلاد، والحد من سلطة الحكم السلطاني المطلق، وأيضاً بسبب الضغوطات الخارجية، وقرب توقع حدوث حرب في البلاد مع روسيا، كل هذا أدى إلى الاستياء الشديد لدى السلطان عبد الحميد الثاني الذي أصدر أمراً سلطانياً بتعطيل أعمال المجلس النيابي، وحل البرلمان إلى أجل غير مسمى وذلك في اليوم الذي انعقد فيه المجلس.

كما قام بتعليق أعمال الدستور، وعزل مدحت باشا عن منصبه ونفاه خارج البلاد، وعادت البلاد من جديد إلى نظام «الحكم المطلق»[١] ولكن وأمام الضغط الشعبي وبضغط من حزب الاتحاد والترقي،اضطر السلطان عبد الحميد الثاني إلى إعلان الدستور في البلاد مرة ثانية وذلك في (حزيران/١٩٠٨م-١٣٢٤هـ) حيث أعلنت فيه الحريات والعفو العام[٢]، لتشهد البلاد بعد ذلك حقبة انقلابية جديدة في تاريخها.

ج- إصلاحات داخلية أخرى في الدولة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني :

سنَّت الدولة العثمانية في عهد عبد الحميد الثاني عدداً من الأنظمة بغية إكمال النقص في التنظيمات السابقة كما أسلفنا.

وشمل الإصلاح والتطوير فترة حكم عبد الحميد جميع نواحي الحياة تقريباً في الدولة، ففي **الجانب العسكري**، حدث تقدم كبير في قوات الدولة العثمانية البرية والبحرية، حيث زود السلطان الجيش العثماني بالخبراء والمدربين العسكريين الألمان، وبعث عدداً من الضباط الأتراك إلى ألمانيا للدراسة في كلياتها الحربية[٣]، وسيفصل ذلك لاحقاً، كما أجرى إصلاحات في المدارس العسكرية في العاصمة والولايات، كما ترجم بعض الضباط العثمانيين الكتب العسكرية من اللغات الأوروبية المختلفة إلى اللغة التركية، وتحسنت الخدمات الصحية للجيش.

أما في الجانب العلمي والتعليمي فقد حصل توسع في إنشاء المدارس العسكرية، وزاد عدد المدارس الرشيدية[٤]، وهذه المدارس كانت تحضر للقبول في المدارس العسكرية العالية[٥] والكليات، بلغ عدد المدارس الرشيدية سنة (١٨٨٣م)، (٤٦٠)مدرسة.

وعدد طلابها (٣٠،٠٠٠) طالب وذلك في شتى أنحاء الأراضي العثمانية.

وفي سنة (١٨٩١م) أقامت الدولة شعبة (عالية) في دار المعلمين لتزويد المدارس بمدرسي الإعدادية والسلطانية[٦] في الوقت نفسه، وأنشأت الدولة فروعاً لدور المعلمين في جميع عواصم الولايات العثمانية[٧].

---

(١) عبد العزيز، محمد عوض، المرجع السابق، ص٤٥.أحمد سعيد، برجاوي، المرجع السابق، ص٢٥٥-٢٥٦.

(٢) علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤، ص٢٥٣.

(٣) عبد العزيز، محمد عوض، المرجع السابق، ص٣٩.

(٤) المدارس الرشيدية وهي مدارس من النوع المتوسط من بعد عام ١٨٦٩ كانت تأتي من حيث الدرجة فوق المدارس الأولية وتحت المدارس الإعدادية التي هي في مستوى المدارس الثانوية. (أكرم الدين أوغلي، الدولة العثمانية (تاريخ وحضارة) ت:صالح سعداوي صالح، اسطنبول، /١٩٩١م/، مجلدان، د.ط، المجلد الثاني، ص٥٣٥.

(٥) أكمل الدين، أوغلي، الدولة العثمانية (تاريخ وحضارة)، المرجع السابق، ص٥٣٧-٥٣٨.

(٦) المدارس السلطانية هي مدارس الثانوية.

(٧) أكمل الدين أوغلي، المرجع السابق، المجلد الثاني، ص٥٤١، ٥٤٢.

كما ازداد عدد المدارس الإعدادية في الدولة اعتباراً من بداية عام (١٨٧٦م)، وفي سنة (١٨٩٥م) قررت الدولة أن يكون تعليم الطلاب الفقراء في المدارس الإعدادية داخلياً ومجاناً، بلغ عدد هذه المدارس خلال العام الدراسي (١٣١١-١٣١٢هـ/١٨٩٣-١٨٩٤م) (٥٧) مدرسة وأربع وخمسون في الولايات، وثلاثة في اسطنبول، وعدد الطلاب (٦٩٨٤) طالباً، بالإضافة إلى ثماني عشر مدرسة إعدادية أخرى في اسطنبول، تسعة فيها لغير المسلمين والتسع الأخرى لدول أجنبية، كما شهد التعليم العالي تطوراً ملحوظاً، وخرّجت دار الفنون السلطانية مجموعة كبيرة من الطلاب بمختلف الاختصاصات العلمية بين عامي (١٨٧٨-١٨٨١م) وفي سنة (١٩٠٠) تأسست «دار الفنون الشاهينية» والتي تتكون من خمس كليات من بينها مدرسة الحقوق ومدرسة الطب وكانت على النمط الأوروبي للجامعات.

كما أرسلت البعثات العلمية المختلفة إلى الدول الأوروبية للتزود بالعلوم الجديدة، ولم تنسى الدولة أيضاً العناية بالمدارس المهنية فهناك مدارس البيطرة العسكرية ومدارس البيطرة المدنية ومدارس الزراعة والتي افتتحت سنة (١٨٧٨-١٨٧٩م). على يد أحمد جودت باشا الذي تسلّم نظارة التجارة والزراعة في تلك السنة، وكذلك كان هناك مدارس للصنايع، ومدارس الغابات والمعادن، ومدرسة الحقوق، ومدرسة الضياع، ومدارس الإدارة المدنية، ووظف خريجو هذه المدارس كقائم مقاميات في الأقضية ورؤساء دوائر الحكومة ومناصب «الملازم» في مجلس شورى الدولة، وسكرتاريات السفارات والقنصليات، وكذلك عيّن البعض منهم كسفراء ومستشارين ورؤساء وأعضاء في مجلس شورى الدولة، وديوان المحاسبات وأعضاؤه في مجلس الأعيان[١].

د- سياسة عبد الحميد الخارجية:

لم تكن المصاعب والمشاكل التي واجهت السلطان عبد الحميد الثاني على الصعيد الداخلي أكثر صعوبة وتحدي من الصعوبات والمشكلات التي واجهته خارجياً، فلقد قُدر لهذا السلطان أن يتسلم مقاليد الحكم في البلاد في فترة عصيبة ومضطربة في تاريخ الدولة العثمانية.

فالأوضاع كانت تغلي في البلقان، والثورات مشتعلة في البوسنة والهرسك والجبل الأسود، وفي بلغاريا. والدول الأوروبية، وروسيا تؤجج هذه الثورات وغيرها، وتمدها بالمال والسلاح والمتطوعين، وذلك من أجل الضغط على الدولة العثمانية التي بقيت وحيدة في مواجهة هذه الدول جميعاً[٢].

وكان لخروج فرنسا خاسرة من حربها مع ألمانيا سنة ١٢٨٧#-١٨٧٠م وكان لانشغال إنكلترا في الاهتمام بالمشكلات الداخلية لمستعمراتها، دوراً كبيراً في ازدياد قوة ونفوذ كلٍّ من وروسيا وألمانيا والنمسا في القارة الأوروبية، وخاصة بعد قيام بسمارك بتأليف جبهة من هذه الإمبراطوريات الثلاث، وذلك بغية عزل فرنسا لمنعها من الانتقام[٣].

وفيمايلي عرض لاهم الاحداث التي واجهت السلطان عبد الحميد الثاني على الصعيد الخارجي :

---

(١) أكمل الدين، أوغلي، المرجع السابق، المجلد الثاني، من ص٥٥ حتى ص٥٧٨. وعبد العزيز، الشناوي، المرجع السابق، ج٣، ص٢٥، ٢٦.

(٢) محمد علي، أورخان، السلطان عبد الحميد الثاني (حياته وأحداث حياته)، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط١، (١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م)، ص٧٢.

(٣) *Caesar E.farah: abdullhamid II and the Muslim world, ISAR Foudation, Istanbul, 2008, P10.*

١- تمردات وثورات البلقان.

مع بداية سنة ١٢٩٢#-١٨٧٥م بدأت القلاقل في قرية من قرى الهرسك تدعى «ستولاتس» (***Sutlats***)، ثم ما لبثت أن انتشرت إلى جميع أنحاء الهرسك ومنها إلى البوسنة[١].

وبدا الأمر وكأنه تمرد ضد ملتزمي الضرائب العثمانيين، ولكن غاية المتمردين الحقيقية هي الحصول على الاستقلال الذاتي لهذه البلاد أسوة بما حصلت عليه كلٌّ من جارتيهما، إمارة الجبل الأسود وإمارة الصرب[٢]، وطبعاً كان الأمر كله نتيجة لتحريض هاتين الإمارتين لأهل البوسنة من أجل الثورة، وربما كان للنمسا يد في هذه الفتنة إذ كانت تطمع في الاستيلاء على ولايتي البوسنة والهرسك معاً بسبب مجاورتهما لها.

وكان من الطبيعي أن تُرسل الدولة العثمانية جيوشها لقمع هذه الثورات، ومع إحراز الجيش العثماني التقدم على الثوار، واقترابها من السيطرة على الوضع هناك، شعرت النمسا أن الثورة ستنطفأ فسارعت إلى التصرف، وقامت بتحريض كلٍّ من ألمانيا وروسيا وذلك من خلال تكليف وزيرها الأول الكونت (أندراسي)، بحض هاتين الدولتين من أجل إصدار مذكرة أرسلتها الدولتان (ألمانيا وروسيا) إلى الباب العالي[٣]، وأهم ما جاء فيها:

١- إلغاء إلتزام الضرائب في الولايات التي حصل فيها التمرد.
٢- منح الحرية التامة للعبادة وإنشاء مجالس إدارية مختلطة.
٣- أن يملك المزارعون الأراضي التي يعملون بها[٤].

قبلت الدولة العثمانية المذكرة وذلك منعاً للتدخل الأجنبي في شؤون البلاد بشكل أكبر، وليس هذا فحسب بل قام السلطان بإصدار عفو عام عن جميع المتهمين والمشتركين في هذه الثورة، ولكن كل ذلك لم يرض أهالي البوسنة والهرسك، واستمروا في ثورتهم[٥]، ومما زاد الأمر سوءاً في البلاد، قيام ثورة أخرى في بلغاريا بتحريض من الدول الأوروبية، وخاصة روسيا والنمسا، وكذلك قامت إمارة الجبل الأسود بمساعدة الثورة هناك، فانتشر الدمار في كل مكان، وهاجم المسلمون والمسيحيون بعضهم البعض[٦].

قامت الدولة العثمانية على الفور بإرسال جيش قوامه (١٨) ألف جندي إلى مناطق العصيان، بقيادة عثمان باشا (الملقب قاهر الصرب) واستطاع هذا القائد هزيمة الصرب وحلفائهم، وطبعاً حينها تدخلت الدول الأوروبية وروسيا لإنقاذ حلفائها الصرب، فسارعت إلى طلب وقف القتال فوراً بين الطرفين وإلا فالحرب ستكون شاملة وواسعة (حيث أن هذه الدول قد هددت بالتدخل الفوري بقواتها في حال عدم وقف القتال بين الصرب والدولة العثمانية).

وأمام هذا التهديد اضطر الباب العالي إلى إعلانه قبول وقف القتال والموافقة على عقد مؤتمر بمشاركة الدول الأوربية العظمى وروسيا، وبطبيعة الحال فلقد كان هذا المؤتمر نتيجة لدعوة وجهتها هذه الدول لعقد هذا المؤتمر الطارئ لحل القضية في مناطق البلقان[٧].

---

(١) محمد علي، أورخان، السلطان عبد الحميد الثاني، المرجع السابق، ص٧٣.
(٢) فريد بك، المحامي، المصدر السابق، ص٦٠١، ومحمد، الصلابي، المرجع السابق، ص٤٥١.
(٣) ***Casesar E.Farah, OP-cit, P.18–19***.
(٤) روبير مانتران، المرجع السابق، ص١٤٤، وفريد بك، المحامي، المصدر السابق، ص٦٠٣، ومحمد، أورخان، المرجع السابق، ص٧٣.
(٥) فريد بك، المحامي، المصدر السابق، ص٦٠٣، وروبير مانتران، مرجع نفسه، ص١٤٥.
(٦) فريد بك، المحامي، المصدر نفسه، ص٦٠٦.

البلقان[١].

اجتمع المؤتمرون في اسطنبول في ٢٣ كانون الأول سنة ١٨٧٦-١٢٩٣# في سراي البحرية برئاسة صفوت باشا ناظر خارجية الدولة، بصفته رئيس المؤتمر، وعضوية كلٍّ من أدهم باشا سفير الدولة العثمانية ببرلين، والكونت (فرانسوا دي بورجوان) (***Francis de Bourgoin***) والكونت (دي شو وردي) (***de Shawwrde***) عن فرنسا، والبارون (وزر) (***Wzir***) ممثلاً لألمانيا، وعن إيطاليا الكونت (كورتي) (***Corti***)، والكونت (زيكي) (***Zeke***) من أشراف المجر، والبارون (كاليس) (***Callis***) النمساوي عن النمسا، والجنرال (آغنا-تيف) (***Aghna tif***) عن الدولة الروسية، واللورد (سالسبوري) (***Salisbury***) والسير (هنرن ليون) (***Henry lyons***) عن إنكلترا[٢]. وخرج المؤتمرون بعدة مقترحات أهمها:

تقسيم بلاد البلغار إلى ولايتين، ويكون ولاتها مسيحيين، وأن تشكل لجنة دولية لتنفيذ هذه القرارات، وأن تعطى هذه الامتيازات أيضاً لكلٍّ من إمارتي البوسنة والهرسك، لكن الدولة العثمانية رفضت هذه القرارات، وعقدت صلحاً منفرداً مع الصرب، سحبت بنتيجته جيوشها من منطقة التمردات مقابل اعتراف الصرب ببقاء ارتباطهم بالدولة العثمانية[٣].

٢- الحرب الروسية العثمانية.

لطالما رغبت روسيا في الوصول إلى المياه الدافئة والاستيلاء على القسطنطينية والسيطرة على طريق الهند، وذلك لعدة أسباب وعوامل (دينية واقتصادية وجغرافية).

وللوصول لهذه الغاية أطلقت ما عُرف بشعار توحيد الشعوب السلافية في جميع أنحاء أوربا تحت الزعامة الروسية، فكانت دائماً تثير الفتن هنا وهناك، وخاصة في مناطق البلقان الخاضعة للسيادة العثمانية، فلقد كانت وراء معظم الفتن والثورات التي قامت في هذه المناطق ضد الحكم العثماني[٤].

وقد أسلفنا سابقاً كيف أنها دعمت تمردات كلٍّ من إمارة الصرب والجبل الأسود والبوسنة والهرسك وبلغاريا، أو ليست هي المرجع الأساسي للأمم السلافية وخاصة الأرثوذكسية منها[٥].

ولقد كانت الفرصة سانحة في هذه الأثناء من أجل تحقيق الأحلام الروسية، وخاصة بعد رفض الدولة العثمانية لمقررات مؤتمر اسطنبول ، ورفضها أيضاً لمقررات بروتوكول لندن الذي وقعت عليه في (٣١ آذار ١٨٧٧) كلٌّ من إنكلترا وألمانيا، روسيا، فرنسا، النمسا، المجر، وإيطاليا، عرضت فيه هذه الدول شروطاً أخف على الدولة العثمانية، وتنحصر في إجراء بعض الإصلاحات في دول البلقان بالنسبة للرعايا المسيحيين، وإعطاء منطقة صغيرة للجبل الأسود، وتخفيض عدد الجنود العثمانيين على طول نهر الدانوب[٦].

وأمام هذا الرفض العثماني سارعت روسيا إلى إعلان الحرب على الدولة العثمانية،

---

(١) محمد علي، أورخان، المرجع السابق، ص٧٩.
(٢) فريد بك، المحامي، المصدر السابق، ص٦١٦، ٦١٧.
(٣) محمد، الصلابي، المرجع السابق، ص٤٥٣.
(٤) سهام، هنداوي، تاريخ دمشق في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ط١، دار رسلان، دمشق، ٢٠٠٩، ص٣٧.
(٥) شكيب، أرسلان، المصدر السابق، ص٣٠٠.
(٦) محمد علي، أورخان، المرجع السابق، ص٩١.

وذلك في (١٩ نيسان ١٨٧٧م-١٢٩٤#)، [١].

ولقد وقفت الدول الأوروبية موقف المتفرج تجاه هذه الحرب حتى إنكلترا التي اعتبرها العثمانيون حليفاً لهم، وقفت موقفاً سلبياً وانتظرت - مع غيرها - النتائجَ التي ستسفر عنها هذه الحرب[٢].

بدأت مجريات الحرب بعبور القوات الروسية نهر الدانوب من خلال الأراضي الرومانية باتجاه الأراضي العثمانية، ورداً على تقدم الروس عبر نهر الدانوب، أمر الباب العالي بإرسال بعض السفن الحربية إلى هناك لمعاقبة رومانيا على خيانتها ووقوفها إلى جانب الروس، وهذا الأمر دفع رومانيا إلى إعلان استقلالها عن الدولة العثمانية في (١٤ أيار ١٨٧٧م) والدخول رسمياً في الحرب مع روسيا ضد الدولة العثمانية.

كان الهجوم الروسي عبر جبهتين: الجبهة الشرقية والجبهة الغربية، أما الجبهة الغربية فكانت المهمة تقضي باجتياز البلقان والوصول إلى اسطنبول والمضائق بأسرع وقت. وأما على الجبهة الشرقية فكانت غاية الروس الاستيلاء على الأناضول الشرقية[٣].

نجحت القوات الروسية في الجبهة الغربية فاستولت على كلٍّ من (ترنوه ونيكوبلي) في بلغاريا، وعلى بعض النقاط المهمة والمعابر المؤدية إلى البلقان.

فلقد تحصن العثمانيون في قلعتها، وقاتلوا بضراوة ضد الروس، بقيادة القائد العثماني المشهور «عثمان باشا» الملقب «قاهر الصرب» واستمر الحصار والقتال شرساً حول هذه المدينة قرابة خمسة أشهر[٤].

ولكن مع ازدياد الأوضاع سوءاً اضطر عثمان باشا إلى الاستسلام، وقبل ذلك بشهر كان قد استسلم زميله أحمد مختار باشا على الجبهة الشرقية (جبهة الأناضول)، واضطر لتسليم (قارص) للروس، كما اضطر سليمان باشا لوقف القتال في بلغاريا[٥].

وقد شجعت الانتصارات الروسية كلٍّ من الصرب والجبل الأسود من أجل الانخراط في الحرب ضد العثمانيين، مما زاد الوضع سوءاً بالنسبة للعثمانيين، تابع الروس زحفهم باتجاه اسطنبول، واحتلوا أدرنة، ووصلوا إلى سان ستفانو، على بعد خمسين كيلومتراً من العاصمة العثمانية[٦].

وبدأ الروس التهديد باحتلال اسطنبول، أثارت هذه التهديدات مخاوف كبيرة لدى الدول الأوروبية، وخاصة إنكلترا التي قامت بإرسال قسم من أسطولها الحربي إلى اسطنبول مهددة بالتدخل بالحرب ضد الروس إذا حاولوا الدخول إلى اسطنبول[٧].

---

(١) ولكن قبل ذلك كانت قد وقعت مع رومانيا (الأفلاق والبغدان) معاهدة سرية في (١٦ نيسان ١٨٧٧م) وضعت رومانيا بموجبها جميع أسلحتها ومؤنها تحت تصرف الروس والسماح لها باستخدام أراضيها.
كما وقعت مع النمسا اتفاقية «بودابست» في (١٥ نيسان ١٨٧٧) ونصت الاتفاقية على الحياد في حال فشل مؤتمر اسطنبول في حل الأزمة مقابل حصولها على البوسنة والهرسك.
(أ.ج.جرانت وهارولد تمبرلي، أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين، الجزء الثاني، المرجع السابق، ص١٨. وعلي، حسون، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص٢٣١، محمد علي، أورخان، المرجع السابق، ص٩٣).

(٢) أ.ج. جرانت وهارولد تمبرلي، المرجع السابق، ص١٨.

(٣) روبير مانتران، المرجع السابق، ص ١٥٣.

(٤) شكيب، أرسلان، المصدر السابق، ص٣٠١.

(٥) روبير مانتران، المرجع السابق، ص ١٥٤.

(٦) للتوسع انظر فريد بك، المحامي، المصدر السابق، ص٦٢٥ إلى ص٦٥٢.

(٧) محمد علي، أورخان، المرجع السابق، ص ١٠٥.

وفي نهاية الأمر فقد أجبرت الأحداث السابقة الطرفين المتحاربين روسيا والدولة العثمانية على توقيع معاهدة سان ستيفانو في (٣ آذار ١٨٧٨م-١٢٩٦#)[١]. والتي نصت على البنود التالية:

١- استقلال إمارة الصرب مع إضافة أراضي جديدة لها.
٢- منح الاستقلال الذاتي لبلغاريا مع توسيع حدودها حتى بحر إيجه.
٣- الاعتراف باستقلال رومانيا.
٤- حصول روسيا على كلٍّ من «قارص»[٢] و«باطوم»[٣] و«أردهان»[٤].
٥- يتعهد الباب العالي بحماية الأرمن والمسيحيين والأكراد والشركس في جزيرة كريت.
٦- تتعهد الدولة العثمانية بفتح مضائق البوسفور والدردنيل، أمام السفن الروسية[٥].

لقد خرجت روسيا من هذه المعاهدة بحصة الأسد، واتضح أنها المهيمنة على مناطق البلقان وبلغاريا والمضائق، مما أثار مخاوف لدى الدول الأوربية التي اعتبرت أن روسيا قد تمادت وتعاظم نفوذها بشكل يهدد مصالحها ويخل بالتوازن الدولي. فبدأت بالضغط على روسيا من أجل إبطال هذه المعاهدة، وعقد مؤتمر دولي لبحث المسألة الشرقية، ولقد كان لإنكلترا الدور الأهم في إبطال هذه المعاهدة، حيث أنها حصلت على جزيرة قبرص مقابل هذا الدور، بموجب المعاهدة التي وقعت بين إنكلترا والدولة العثمانية في (جمادى الآخرة ١٢٩٥هـ = ١٨٧٨/٦/٤م)، حيث تنازلت الدولة العثمانية عن قبرص لإنكلترا مع بقاء تبعيتها للدولة العثمانية[٦].

٣- مؤتمر برلين (١٣٠٥هـ-١٨٧٨م).

ازداد السخط الأوروبي حدة على ما جاء في معاهدة سان ستفانو، وخاصة من قبل النمسا التي طالبت بتعديل فوري للمعاهدة، وهددت بإعلان الحرب على روسيا إذا لم يتم التعديل[٧].

وأمام هذه الضغوطات الدولية على روسيا رضخ الإمبراطور الروسي ألكسندر الثاني (***Alexander II***) للاقتراح الذي تقدم به المستشار الألماني بسمارك بعقد مؤتمر دولي لإعادة النظر في معاهدة سان ستفانو والتباحث في مجمل قضايا المسألة الشرقية.

انعقد المؤتمر في برلين برئاسة بسمارك في (١٨٧٨/٦/١٣م)، اشتركت فيه بالإضافة

---

(١) وقع المعاهدة من الجانب التركي وزير الخارجية صفوت باشا، وسفير تركيا في برلين سعد الله بك، أما من الجانب الروسي فكان يتألف من الجنرال أغناتيف «سفير روسيا السابق في اسطنبول» ونيلدوف «من حاشية القصر»، وقع صفوت باشا هذه المعاهدة التي تعد من أسوأ المعاهدات في التاريخ العثماني حتى ذلك الحين، وقعها وهو يبكي. انظر محمد علي، أورخان، المرجع السابق، ص١٠٥.

(٢) قارص (***Kars***): مدينة محصنة في الأناضول تقع على نهر قارص في ولاية أرضروم. س.موستراس، المصدر السابق، ص٣٨٠.

(٣) باطوم (***Batum***): مدينة وميناء في الأناضول مركز لواء «لازيستان» في ولاية طرابزون على البحر الأسود. س.موستراس، مصدر نفسه، ص١٤٠.

(٤) أرداهان (***Ardahan***): مدينة تركية في الأناضول في ولاية أرضروم، لواء «چلدر» على نهر ايكور (***Kour***). س.موستراس، مصدر نفسه، ص٤١.

(٥) محمد، الصلابي، المرجع السابق، ص٤٥٧. للتوسع في بنود المعاهدة يمكن الرجوع لكتاب: محمد فريد بك، المحامي، المصدر السابق، من ص٦٥٢ إلى ص٦٦٤.

(٦) فريد بك، المحامي، المصدر السابق، ص٦٧٢، ص٦٧٣.

(٧) روبير مانتران، المرجع السابق، ص ١٥٦.

إلى الدولة العثمانية وروسيا بريطانيا وألمانيا وفرنسا والنمسا والمجر وإيطاليا كما سُمح لليونان بحضور المؤتمر، أما بلغاريا فلم يُسمحْ لها بالحضور، فقد أعلنت روسيا أنها ستتكلم باسمها[١].

وبالرغم من أن المؤتمر كان برئاسة بسمارك إلا أن الموجه الحقيقي له كان المندوب البريطاني بنيامين دزرائيلي[٢].

استمر المؤتمر ٣١ يوماً عُقد خلالها عشرين جلسة أُقرت فيها (٦٤) مادة وقع عليها مندوبو الدول المجتمعة، وذلك في (١٨٧٨/٧/١٣م) أهم هذه المواد:

١- أعيدت مقدونيا إلى الدولة العثمانية بعد أن كانت قد ضُمت إلى بلغاريا في معاهدة سان ستفانو.
٢- استقلال بلغاريا وتقسيمها إلى قسمين:
- القسم الشمالي: «بلغاريا الأصلية» وجعلها إمارة ذات استقلال ذاتي على أن تدفع ضريبة سنوية للباب العالي.
- أما القسم الجنوبي: فقد تشكل منه إمارة مستقلة تحت اسم «روملي الشرقية» تحت سيادة الباب العالي على أن يكون حاكمها مسيحياً وأن توضع أسس إدارتها من قبل لجنة دولية، مع بقاء قوة روسية في بلغاريا والروملي الشرقي، وتحدد بخمسين ألف جندي.

٣- أعطيت البوسنة والهرسك و(نيى بازار) (***Nii Bazar***) للنمسا.
٤- منح رومانيا والصرب والجبل الأسود الاستقلال.
٥- إعطاء ساربيا (***Sarbaa***) في البلقان و(قارص) (***Kars***) و(أردهان) (***Ardahan***) في الأناضول لروسيا، وأجبرت على إعادة سنجق بايزيد (***Bayezid Sancak***) إلى تركيا، كما جعل ميناء باطوم (***Batum***) ميناءً حرًّا.
٦- أعطي قضاء «كوتور» (***Coutur***) العثماني الموجود في شرق مدينة «وان» (***Van***) لإيران.
٧- تتعهد الدولة العثمانية بإجراء الإصلاحات في المنطقة الشرقية من الأناضول التي كانت تسكنها أقلية أرمينية، وكذلك في الولايات المقدونية.
٨- تخفيض تعويضات الحرب المفروضة على الدولة العثمانية إلى ٨٠٢،٥٠٠،٠٠٠ فرنك ذهبي، وتقوم الدولة العثمانية بدفعها بشكل أقساط كل قسط بمقدار ٣٥٠،٠٠٠ فرنك، وقد استمر دفع هذه الأقساط طوال فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني.
٩- أعطيت تساليا لليونان، علماً بأن اليونان كانت تطالب إضافة إلى تساليا بجزيرة كريت (***Girit***) و(إيبروس) (***Eybros***)[٣].

ومن الملاحظات على قرارات هذا المؤتمر أن الدولة العثمانية كانت هي الخاسر الأكبر فيه، وقد كانت هذه الاتفاقية: «أشد وطأة وأكثر إجحافاً بحق العثمانيين من معاهدة ستفانو»، فلقد قُدر ما خسرته الدولة العثمانية من مساحتها في القسم الأوروبي ما يقارب

---

(١) محمد علي، أورخان، المرجع السابق، ص١٠٧.
(٢) بنيامين دزرائيلي (***Benjamin Disraeli***): (١٨٠٤-١٨٨١) تولى رئاسة الوزراء في بريطانيا مرتين (١٨٦٨) و(من ١٨٧٤ إلى ١٨٨٠). ***www.ar.wikipedia.org***.
(٣) محمد فريد بك، المحامي، المصدر السابق، من ص٦٧٨ حتى ص٦٩٧. ومحمد علي، أورخان، المرجع السابق، ص١٠٨.

١٦٦ ألف كيلومتر مربع كان يعيش فيها ما يقارب المليون نسمة[١]، ولا ننسى خسارتها لقبرص التي تنازلت عنها لإنكلترا.

لقد خرجت الدولة العثمانية من هذه المرحلة أضعف بكثير مما كانت عليه من قبل وبذلك بدأت مرحلة جديدة من الانهيار التي ستؤدي بالنهاية إلى السقوط.

وعلى الفور عملت الدول الأوروبية المتكالبة على أملاك الدولة العثمانية إلى استغلال هذه الظروف من أجل الحصول على مكاسب ومطامع ومستعمرات لها داخل الدولة العثمانية، فكان الاحتلال الفرنسي لتونس ١٢٩٩#-١٨٨١م ومن ثم الاحتلال الإنكليزي لمصر ١٣٠٠#-١٨٨٢م بحجة الإصلاح الداخلي في الديار المصرية[٢].

ولكن من أخطر نتائج مؤتمر برلين على الإطلاق هو إجازة تدخل الدول الأوروبية في شؤون الدولة العثمانية الداخلية بحجة الإشراف على سياسة الإصلاحات التي اشترط المؤتمر تطبيقها على مختلف الطوائف من رعايا السلطنة العثمانية[٣].

وبالنتيجة كان هذا المؤتمر تتويجاً لأخطر المشكلات السياسية الخارجية التي واجهت السلطان عبد الحميد الثاني في بداية استلام حكمه للبلاد، والذي سيكون له منعكسات كبيرة فيما بعد على سياسة عبد الحميد الخارجية، فهو سيحاول دائماً أن ينهج سياسة تقوم على التخفيف من مخاطر إعادة خوض حرب جديدة ضد الروس، أو ضد أي طرف أوروبي آخر، وذلك بسبب إدراكه لمطامع الدول الأوروبية الكبرى بدولته وأراضيها وإدراكه أن هذه الدول تتربص به وبدولته من أجل القضاء عليها وتقسيمها فيما بينها.

وأمام هذه الظروف تبرز الأسباب التي دفعت هذا السلطان من أجل تحقيق تقارب مع طرفٍ اعتبره لفترة قريبة صديقاً وحليفاً مقرباً إليه ألا وهو الإمبراطورية الألمانية التي ستكون حليفته المستقبلية ضد هذه الدول حتى قيام أحداث الحرب العالمية الأولى ١٢٣٣#-١٩١٤م.

ولكن كيف كانت الأوضاع الداخلية في ألمانيا قبل إقامة العلاقات وفيمايلي توضيح ذلك ولكن قبل إنهاء حديثنا عن أوضاع الدولة العثمانية في عهد عبد الحميد الثاني أحببت أن أورد شهادتين مختلفتين بحق السلطان عبد الحميد الثاني وللقارئ الحكم عليهما:

الشهادة الأولى هي من قبل «الآغا خان»[٤] والذي قام بزيارة خاصة للدولة العثمانية كان الهدف منها تفقد أحوال أتباع طائفته الذين كانوا يتعرضون للاضطهاد في تلك الفترة فلقد ذكر «الآغا خان» أن الكثير من أتباع الطائفة الإسماعيلية قد تعرضوا للملاحقة والسجن وإهمال شؤونهم من قبل الدولة العثمانية، ويبدو أن سبب ذلك يعود إلى تخوف الدولة العثمانية من دور هذه الأقليات في إثارة المشاكل وإحداث الثورات المتوقعة ضد الدولة العثمانية في تلك الفترة الحرجة من التاريخ العثماني، فلذلك يبدو أن الآغا خان أراد من هذه الزيارة محاولة التخفيف من مخاوف السلطان من أفعال طائفته وأتباعه. وأيضاً التخفيف من المعاملة السيئة التي يتعرض لها أبناء طائفته من قبل العثمانيين.

أما عما ذكره «الآغا خان» عن شهادته ورأيه بالسلطان عبد الحميد الثاني فهو كما

---

(١) روبير مانتران، المرجع السابق، ص١٦١.

(٢) محمد فريد بك، المحامي، المصدر السابق، ص ٦. وروبير مانتران، المرجع السابق، ص ١٦٢.

(٣) روبير مانتران، المرجع السابق، ص ١٦٢.

(٤) آغا خان: هو لقب استعمل في العصور المتأخرة للتعبير عن أئمة الشيعة الإسماعيلية النزارية وتلقب به أربعة من الأئمة وهم: آغا خان الأول وآغا خان الثاني، وآغا خان الثالث، وآغا خان الرابع. وأما الشهادة فهي للآغا خان الثالث: السلطان محمد شاه، درس في جامعة كامبردج طاف أصقاع العالم لتفقد أحوال أبناء طائفته فكانت زيارته إلى السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٠ (www.wikipedia.org).

يلي:

«كان السلطان هو الخليفة أيضاً، وبالتالي رأس الطائفة السنية في العالم الإسلامي بأجمعه وكنت أنا رأس الطائفة الإسماعيلية من الشيعة». و«كان عبد الحميد يعيش وقتئذ في خوف عصبي من الاغتيال، كان مدمناً على التدخين. وكنت أنا طيلة حياتي شديد الحساسية للسجائر، وكان السلطان مرتدياً ثوباً فضفاضاً وببطء أدركت أنه كان يخفي تحت أثوابه سلاحاً ما، وأن ثيابه كانت من النوع الذي لا يخترقه الرصاص إلى الدرجة التي كانت ممكنة تلك الأيام، وهكذا تساءلت إذا كان قد ظن أنني إنما أتيته لأقتله» ويكمل قائلاً: «وبهرني منظر آخر، ذلك أن عبد الحميد كان يتصنع في منظره إلى حد كبير، كانت لحيته تصبغ بالصباغ الأسود، وكانت شفتاه تلونان باللون القرمزي، وخداه باللون الأحمر، وحاجباه يعدلان إلى درجة مضحكة. كان يمكن أن يكون مضحكاً في سيرك، ولكن عينيه كانتا تقدحان الشرر ومع ذلك فإن هذا المكياج لم يكن تعبيراً عن تخنث، ذلك أنه كان كامل الرجولة إلى الحد الأقصى، وكان والداً لأطفال عديدين وزوجاً وحامياً محبًّا لعدد كبير من النساء».

وقال أيضاً: «ولقد قيل عن خوفه من الاغتيال حدا به إلى أن يأمر بأن يتذوق كل ذرة من الطعام عدد من الناس وهي في طريقها إليه، بما فيهم الطاهي، وإذا لم أتناول الطعام معه فإني لا استطيع أن أشهد بصحته هذه القصة»[1].

أما الشهادة الثانية بحق السلطان عبد الحميد الثاني فهي من قبل الأستاذ اللغوي فيميري الرحالة المجري؛ الذي كان يعمل أستاذاً للغة الفرنسية لأبناء السلطان عبد المجيد وبالتالي أستاذاً للسلطان عبد الحميد الثاني عندما كان في (١٦) من عمره حيث قال عنه: «أخص ما حول انتباهي إليه إشراقة الذكاء من عينيه ووجهه الشرقي الصورة والملامح فذلك من تأدبه واحتشامه أبقى له رسماً لا يمحى عن لوح ذكري». ثم يقول أنه عاد وقابله مرة ثانية بعد أن أصبح السلطان عبد الحميد خليفة للمسلمين، وكيف أنه عندما قابله لم ينساه وتذكره باللقب الذي كانوا ينعتونه به من باب الظرافة «الطبل خوجه» أي الأستاذ الأعرج. وقال: «وبلغ السلطان عبد الحميد خان السنة الثامنة والأربعين من عمره وجمع في أخلاقه أشهر أخلاق أبيه وجده فورث عن جده السلطان محمود الغيرة والسعي والهمة، وعن أبيه السلطان عبد المجيد دماثة الأخلاق ورقة القلب ولا أبالغ إذا قلت لم يقم في تاريه المشرق سلطان شرقي امتاز بحب الشغل والهمة التي لا تكل ولا تمل كالسلطان عبد الحميد، فإنه يقضي يومه من الصبح باكراً إلى أن يتناهى المساء مهتماً بقضاء أشغال الدولة ومهام السلطنة ناظراً في كل قضية مهمة وغير مهمة مستوعباً كل تفاصيلها حتى يكاد يضني صحته» وقال عنه أيضاً: «إن العلم الذي تعلمه السلطان عبد الحميد كان يسيراً وقاصراً جداً كما هو علم سائر ملوك المشرق ولكنه عوض عما ينقصه من ذلك بإرادته التي تلين الحديد وسمو الإدارك وقوة الحكم فيه وشدة الذكاء والنجابة التي تندر مثالها في غيره، فأصبح خبيراً عارفاً بأحوال سلطنته وعلاقاتها ودخائلها ومشاكلها مطلعاً حق الإطلاع على السياسة الأوربية ولا أبالغ إذا قلت أن اعتداله وحكمه على نفسه وأمياله هما اللذان حفظا أوربا من الحرب العامة وبلاياها الطامة. يشهد بذلك أنه لما تكدر صفاء البلغار طلبت إليه روسيا ودول أواسط أوربا أن يؤيد حقوقه في الروملي الشرقية قوة واقتداراً فأجابهم أن السلم خير القضاة وأولى بالإتباع واختار الصبر على الاعتداء على أن يسفك

---

(١) فاروق عثمان أباظة، آغا خان ومهمته في مصر في بداية الحرب العالمية الأولى (دراسة وثائقية)، دار المعارف، د.ت، ص٥٣، ٥٤، ٥٥...

دماء العباد ويجر الهلاك على البلاد». ومن أقواله عن عبد الحميد: «وأما ما يتهم به السلطان عبد الحميد من الاستبداد فلا أرى عليه جواباً أفضل من كلامه حيث قال لي يوماً: «إن أوربا قد عزقت أرضها ومهدت تربتها أعواماً وعصوراً حتى جاءت ما نراه فيها وأغراسها في أراضي آسيا الوعرة البائرة القاحلة، دعوني أتعهد هذه الأراضي قبلاً بما يحسنها فاقتلع أشواكها، وأرفع أحجارها، وأفلح تربتها، وأخد الأخاديد وأحفر الأقنية لإيوائها لأن أمطار آسيا قليلة نادرة ثم انقل تلك الفسيلة إليها وأكون أول من يطيب أرضها ويقر عينها بنمائها ونضارتها وغضاضتها»[1]. انتهى.

– ثانياً الأوضاع الداخلية في الإمبراطورية الألمانية:

إن من أعظم الأحداث التي شهدتها ألمانيا في تاريخها الحديث على الإطلاق هو وحدتها، ففي سنة ١٧٨٩ لم تكن تسمية ألمانيا تعني وحدة سياسية معينة، بل كانت مقسمة إلى أكثر من٣٦٠ ولاية[2]جعلها نابليون ٣٦، وهذه الولايات التي ستتوحد فيما بعد بما عُرفت بالإمبراطورية الألمانية سيكون لها بعد وحدتها دوراً كبيراً في تحريك أحداث التاريخ الحديث.

وكان من الطبيعي أن تزداد قوة هذه الدولة بعد وحدتها من جميع النواحي (الاقتصاديةو السياسيةو الاجتماعية،....) وخاصة بعد تحقيق الانتصار الفاصل على فرنسا في حرب السبعين، حيث تزايد عدد سكانها إلى (٦،٧) مليون نسمة ونمت صناعتها بشكل كبير بعد الاستفادة من الفحم الحجري القادم من الألزاس واللورين، كما ازداد نشاطها التجاري وخاصة البحري منها فزاد عدد الموانئ والسفن التجارية، وطبعاً تبع هذا التطور التجاري انتشاراً للبضائع والمنتجات الألمانية في الأسواق الأوربية حيث وصلت حصة ألمانيا من التجارة العالمية مع نهاية القرن التاسع بين ٩ إلى ١٢٪[3].

ومع الوقت أصبحت ألمانيا في مصافي الدول الأوروبية العظمى، وظهر التنافس جلياً فيما بعد بينها وبين باقي الدول الأوروبية الأخرى وخاصة في السياسة الاستعمارية التوسعية لهذه الدول والتي كان من ورائها رغبة من قبل هذه الدول السيطرة على مقدرات العالم الاقتصادية بكل أنواعها ومجالاتها.

ورافق هذا التطور الاقتصادي تطوراً سياسياً ملحوظاً، وخاصة بما يخص علاقات ألمانيا مع الدول الأوربية بشكل عام، ومع الدولة العثمانية بشكل خاص.

فلقد شهدت هذه المرحلة تقارباً قوياً بين الدولة العثمانية وألمانيا في جميع المجالات، ولكن لابد لنا قبل الدخول بتفصيل هذه العلاقات من أن نفرد قسماً من بحثنا للحديث عن شخصية سياسية قوية هي التي كانت وراء وحدة ألمانيا وقوتها وظهورها على الساحة الدولية ألا وهو بسمارك (***Bismark***)، فمن هو بسمارك؟ وما هي أهم أعماله وإصلاحاته؟ وما أهم مميزات سياسته الداخلية والخارجية؟

---

(١) جريدة المقتطف، الجزء الحادي والعشرون السنة الرابعة عشر /آب/أغسطس سنة ١٨٩٠، الموافق ١٥ ذي الحجة ١٣٠٧ـ، القاهرة، مقال الأستاذ اللغوي فيمري الرحالة المجري.

(٢) عبد الكافي الصطوف، المرجع السابق، ص١٣٦.

(٣) محمد، أحمد، الحضارة الأوربية الحديثة والمعاصرة، منشورات جامعة دمشق، (١٤٢٨، ١٤٢٩، ٢٠٠٧، ٢٠٠٩م)، ص٢٣٣.

١- من هو بسمارك؟ وكيف وصل إلى المستشارية في ألمانيا؟

ولد بسمارك في بلدة شونهاوزت (***Schönhausen***) في قلب مملكة بروسيا الحديثة سنة ١٢٣١#-١٨١٥م[١]، من عائلة من الأشراف، حيث كان والده ضابطاً بالجيش ووالدته تعمل موظفة بالدولة.

تلقى تعليمه الثانوي في برلين، في سنة (١٢٥٢#-١٨٣٦م) تخرج من كلية الحقوق محامياً من جامعة غوتنغن (***Gottingen***)، ثم أصبح نائباً في المجلس التشريعي البروسي لعام (١٢٦٦#-١٨٤٩م)[٢].

اختاره الملك فردريك وليم الرابع ليكون مندوباً عن بروسيا في البرلمان الاتحادي في فرانكفورت (أو مجلس البوندسرات) ، كما شغل منصب سفير لبلاده في عدة دول في فينيا وبطرسبرغ وباريس بين عامي (١٢٧٩/١٢٧١#-١٨٦٢/١٨٥٤م)[٣]، وكان من المؤيدين لبقاء سلطة الملك وهذا ما أكسبه رضاء الملك في ذلك الوقت.

ومن خلال ممارسته لمناصبه سابقة الذكر وتنقله بين عدة بلدان خارج ألمانيا، أدرك أن المشكلة الألمانية (أي مشكلة الوحدة) لن تحل إلا بالقوة، وأن أمر الاتفاق مع النمسا أمر مستحيل[٤]، ومن هنا بدأ التخطيط من أجل تحقيق الوحدة الألمانية.

٢- الطريق إلى الوحدة الألمانية.

إن حلم الوحدة الألمانية لم يكن خاصاً ببسمارك وحده، ولم ينتظر قدومه ليخلق، بل كان لقدوم بسمارك دور كبير في تجسيد هذا الحلم على أرض الواقع. فالحلم كان بدأ بالتطور والظهور لدى الشعب الألماني من بعد مؤتمر فيينا ١٢٣١#-١٨١٥م، وبموجب تسويات هذا المؤتمر أعطيت زعامة الولايات الألمانية لبروسيا، وبذلك أصبح لها الحق بالدفاع عن الولايات الألمانية، وبخاصة تلك التي تقع على نهر الراين، كما أبعدت هذه التسوية النمسا شيئاً فشيئاً عن سيطرتها على هذه الولايات، فكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو طريق الوحدة[٥].

أما الخطوة الثانية فكانت بإقامة وحدة اقتصادية بين الولايات الألمانية والبروسية، وذلك مع نهاية سنة ١٢٦١#-١٨٤٤م، طبعاً ما عدا الولايات الألمانية النمساوية فلم تكن ضمن هذه الوحدة[٦].

أما الخطوة اللاحقة للوحدة فكانت من خلال تشكيل مجلس وطني عقد مؤتمره لأول مرة في مدينة فرانكفورت سنة ١٢٦٥#-١٨٤٨م، حيث خرج بمقررات منها: تشكيل

---

(١) ***Theodore S.Hamerow: OT Tovan Bismarcka Historical Assessments. O.C.Heathand Company, Boston, 1962, P.2, 3***

(٢) فايت، فالنتين، تاريخ الألمان، ترجمة: د.أحمد حيدر، الأبجدية للنشر والتوزيع، دمشق، والمركز الثقافي الألماني، معهد غوته، دمشق، ط١، ١٩٩٤، ص٣١٤.

(٣) عمر، عبد العزيز عمر، تاريخ أوربا الحديث (١٨١٥-١٩١٩)، دار المعرفة، مصر، ٢٠٠٠، ص١٧٨، و راغب، العلي، وعبد الكافي، الصطوف، وطليعة، الصياح، مرجع نفسه، ص١٣٩، ١٤٠.

(٤) عمر، عبد العزيز عمر، تاريخ أوربا الحديث، المرجع السابق، ص١٧٨.

(٥) عبد العزيز، رمضان، تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ثلاثة أجزاء، ١٩٩٧، ج٢، (من ص١١٦ إلى ص١٢٢)، وزينب، عصمت راشد، تاريخ أوربا الحديث في القرن التاسع عشر، دار الفكر العربي، جزآن، القاهرة، د.ت، ج١، ص٣٦٦، ٣٦٧.

(٦) عبد الفتاح، أبو عليه، وإسماعيل، أحمد ياغي، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، من ص٢٢٩ إلى ص٣٢٠.

حكومة ألمانية لجميع الولايات استلم رئاستها الأرشيدوق يوحنا النمساوي نائب الإمبراطور، وكذلك تشكيل جيش وقوة بحرية ألمانية، وفي (٢٧ آذار ١٨٤٩م-١٢٦٦#)، أعلن تشكيل الدولة الألمانية بدون النمسا، وانتخب الإمبراطور فردريك وليم الرابع إمبراطوراً للاتحاد، والذي رفض القبول بهذا العرض، وذلك خوفاً من النمسا، وقناعته بعدم شرعية هذا المجلس[١].

ولكن الأمور لم تنتهِ عند هذا الحد، فمع قيام الوحدة الإيطالية (١٢٧٨/١٢٧٦#-١٨٦١/١٨٥٩م) عادت الأصوات لترتفع منادية بقوة من أجل تحقيق الوحدة الألمانية، واتجهت الأنظار نحو الملك البروسي غليوم الأول الذي تقدم بطلب إلى المجلس الألماني من أجل تطوير الجيش باعتبارها الخطوة الأساسية لتحقيق الوحدة، وأمام رفض المجلس لهذا الطلب، وحدوث أزمة سياسية بين المجلس والوزارة حول الأمر، لم يكن أمام الملك إلا أن يستدعي السفير البروسي في باريس بسمارك ليتولى الوزارة في تشرين الثاني ١٨٦٢م[٢].

وفور تسلم بسمارك لمهامه باشر في تنفيذ سياسته من أجل تحقيق الوحدة الألمانية، وأطلق شعار: «أن القضية الألمانية لا تحل بالخطب وقرارات الأكثرية بل بالدم والحديد»، واضعاً نصب عينيه الصدام المسلح بين النمسا وبروسيا كأسلوب وحيد لحل المشكلة الألمانية[٣].

أ- الحرب مع النمسا (١٢٨٣ه-١٨٦٦م):

كان بسمارك حاسماً أمام المعارضة التي وقفت في وجه الملك البروسي ومشروعه لإصلاح الجيش، فقد ترك للمجلس إدارة كل الأمور في البلاد كما يشاء، ما عدا ثلاثة أمور وهي: الجيش والسياسة الخارجية وتشكيل وإقالة الوزارات، كما قصد عند اختياره لأعضاء وزارته أن يكونوا من طبقة المحافظين الذين يؤمنون باتجاهاته السياسية، ويدعمونه في سياسته الخارجية والداخلية والوقوف أمام معارضيه، وعلى الفور باشرت وزارته في جمع الضرائب من أجل إنفاقها على تحسين وإصلاح الجيش[٤]، باعتباره ركيزة أساسية لتحقيق الوحدة. ووصف سياسته الخارجية لتحقيق هذا الهدف بعدم الثبات، وبالمرونة حيث ركز على تمزيق كل تكتل ممكن أن تقيمه الدول المجاورة مع الاحتفاظ لنفسه بحق عقد أي تحالف محتمل يراه[٥].

ولقد خاض بسمارك ثلاثة حروب في الثمان سنوات الأولى من بداية حكمه (١٨٦٢-١٨٧٠م)، لقناعته أن الوحدة لن تتم بدون قيام هذه الحروب.

فكانت حربه الأولى مع النمسا، واستطاع قبل خوض هذه المعركة بذكائه السياسي أن يعزل النمسا عن الدول الأوروبية فمن خلال دعمه لروسيا ضد الثورة البولندية كسب وقوف روسيا على الحياد في حال قيام حرب بين بروسيا والنمسا.

كما أنه وقع معاهدة دفاعية هجومية مع إيطاليا في (٨ نيسان ١٨٦٦م) تضمنت وقوف إيطاليا إلى جانب بروسيا في حال نشوب حرب بينها وبين النمسا مقابل حصولها على البندقية،

---

(١) عبد الفتاح، أبو عليه، وإسماعيل، أحمد ياغي، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، المرجع السابق، من ص٣٢٣ إلى ص٣٢٥.
(٢) عبد العزيز، رمضان، المرجع السابق، ج٢، من ص١٣٣ إلى ص١٣٥.
(٣) فايت، فالنتين، تاريخ الألمان، المرجع السابق، ص ٣٢٩.
(٤) زينب، عصمت راشد، تاريخ أوربا الحديث في القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص ٣٨٥، ٣٨٦.
(٥) فايت، فالنتين، المرجع السابق، ص ٣٢٩، ٣٣٠.

أما فرنسا فقد ضمن وقوفها على الحياد في حال حدوث الحرب مقابل وعود لها في مقاطعة الراين، وكذلك كان الموقف البريطاني مضمون لصالح بروسيا، وذلك بسبب أن الرأي العام البريطاني كان مؤيداً لبروسيا[١].

وبذلك يكون بسمارك قد ضمن عزلة النمسا، وأصبحت الظروف مهيئة من أجل إعلان حربه على النمسا ولكن لابد من إيجاد سبب لهذه الحرب، يظهر النمسا بموقف المعتدي على بروسيا، وتوافرت الفرصة لدى بروسيا عن طريق قضية الدوقتين (ستليزفيغ (***Stelizfag***)، وهولشتاين (***Holstein***))[٢]، فموجب معاهدة غاشتاين (***Gastein***) والتي وقعت في (٦١٤ب/ ١٨٦٥م-١٢٨٣#) أصبحت ولاية (هلشتين) للنمسا، و(شليزفيغ) لبروسيا[٣].

وفي سنة ١٢٨٤#-١٨٦٦م عرضت النمسا قضية الدوقتين على الدايت الألماني، فاعترض بسمارك واعتبر الأمر انتهاكاً لاتفاقية الغاشتاين، وقام بإرسال قواته إلى ولاية هولشتاين واحتلتها، وإثر ذلك انقطعت العلاقات بين النمسا وبروسيا. وبدأت الحرب خاطفة وسريعة بين الطرفين، فمنذ البداية استطاع البروسين تحقيق انتصار ساحق على الجيش النمساوي، واستولى على (سكسونيا (***Sachsen***) وهانوفر (***Hannover***))، وهزم الجيش النمساوي هزيمة نكراء في بوهيميا في معركة سادوا (***Sadowa***) وبذلك أصبحت الطريق نحو فيينا مفتوحاً أمام الجيش البروسي[٤]، ولكن غاية بسمارك الحقيقية لم تكن إذلال النمسا، وذلك من أجل الاستفادة من حيادها في الظروف المقبلة حسب خططه المستقبلية، بل كانت الحصول على إقرار النمسا بسيادة بروسيا على الدوقتين وعدم رفضها لقيام اتحاد ألماني شمالي تحت زعامة بروسيا[٥].

كما ظهرت حنكته وسياسته العسكرية من خلال موقفه من الحكومات الألمانية الجنوبية التي وقفت مع النمسا ضد بروسيا في هذه الحرب (وهي حكومات بافاريا، وفيرتمبرغ وبادن). فلم يعرض عليها الانضمام إلى الاتحاد الألماني الشمالي، ولم يسلبها أي أراض، فكان جزاءه على ذلك أنه لم ينتهِ شهر آب من سنة ١٨٦٦م إلا وكانت هذه الولايات قد عقدتً اتفاقية حربية مع حكومة بروسيا[٦].

ب- الحرب مع فرنسا (١٢٨٧ه-١٨٧٠م):

أما حربه الثانية فكانت مع فرنسا، فما كادت تنتهي الحرب مع النمسا حتى ولى وجهته فرنسا، وبدأ التحضير لمواجهة عسكرية مع فرنسا.

ولكن ما الحجة هذه المرة من أجل إعلانه الحرب على فرنسا، وبخاصة أن الأخيرة كانت من أهم حلفاء بروسيا في حربها مع النمسا، فجاءت مشكلة العرش الإسباني هي السبب المباشر لهذه الحرب[٧].

فقد قامت الثورة في إسبانيا ضد الملكة إيزابيلا (***Isabella***) في عام ١٨٦٨م، ووقف الجيش ضد الملكة التي لاذت بالفرار في (٣٠ أيلول ١٨٦٨م)، وأعلن الثوار نهاية حكمها

---

(١) عبد الفتاح، أبو عليه، وأحمد، ياغي، المرجع السابق، من ص٣٢٩ إلى ص٣٣٢).
(٢) عبد الفتاح، أبو عليه، وأحمد، ياغي، مرجع نفسه، ص٣٣٦، ٣٣٧.
(٣) ***Theodore S.Hamerow: The Ageof Bismark, Newyork, 1973, P.61, 62***
(٤) زينب، عصمت راشد، المرجع السابق، ج٢، ص ٣٩٥.
(٥) زينب، عصمت راشد، المرجع نفسه، ج٢، ص٣٩٢، ٣٩٥، ٣٩٦.
(٦) عبد العظيم، رمضان، المرجع السابق، ج٢، ص١٤٦، ١٤٧.
(٧) عبد العظيم، رمضان، المرجع نفسه، ج٢، ص١٤٧.

في أسبانيا وترشيح الأمير ليوبولد أوف هوهنزولرن (***Leopold of Hohenzollern Sigmaringen***)، ***prince*** قريب الملك البروسي (غليوم)، وشقيق ملك رومانيا، وقد أيد بسمارك هذا الترشيح بالرغم من رفض الإمبراطور البروسي، وقد نجح بسمارك بإقناع سيده بقبول هذا الترشيح سنة (١٨٧٠م) مع وجود معارضة شديدة من قبل فرنسا ورفضها قبول ليبولد ملكاً على إسبانيا، كما أنها أعلنت ذلك رسمياً من خلال تصريح وزير خارجيتها (***DeGramont***): «بأن إصرار بروسيا على الترشيح سوف يعني الحرب ضد فرنسا»[١].

ونجح نابليون الثالث في إفشال عملية الترشيح بمساعدة كلٍّ من إنكلترا وروسيا، وأمام تمادي الفرنسيين في توجيه التهديدات والمطالب التي لم يستطع كلٌّ من بسمارك والملك العجوز غليوم تقبلها، فلقد طلبت فرنسا من الإمبراطور البروسي بأن يرسل كتاباً خطياً إلى الإمبراطور الفرنسي يتعهد فيه بعدم التدخل بالقضية الأسبانية والاعتذار لفرنسا عن موقفها السابق[٢]، وعند هذا الحد استطاع بسمارك بذكائه السياسي أن يستغل رفض الإمبراطور البروسي للطلب الفرنسي، وأن يُظهر هذا الرفض بمثابة إهانة لفرنسا من خلال نشر نص برقية غليوم في الصحف، وهنا كان الرد الفرنسي الذي انتظره بسمارك ألا وهو إعلان فرنسا الحرب على بروسيا في (١٧ تموز ١٨٧٠م)[٣].

استطاع الجيش البروسي أن يهزم الجيش الفرنسي ويقضي عليه في شهر واحد، والسبب الرئيس وراء ذلك هو استعداد البروسيين لهذه الحرب من قبل ثلاث سنوات، أما الجيش الفرنسي فكان بأسوء حالته من الضعف وسوء الاستعداد، وزاد من سوء الأمر، مرض الإمبراطور الفرنسي وعدم كفاءة وزراء حربيته المتعاقبين (لوبوف، ***LeBoeuf***)، و(بازين، ***Bazine***)، فانهزم الجيش الفرنسي بقيادة (مكماهون، ***Macmahon***) في (فورث، ***Worth***) في الإلزاس، وأيضاً في (شبيشرن، ***Spichern***) باللورين أمام القوات البروسية.

ووقع الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث أسيراً في أيدي القوات البروسية (٢ أيلول ١٨٧٠). وبعدها بيومين يعلن قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة بزعامة (جول فافر، ***Jules favru***) ليقضي نهائياً على حكم أسرة بونابرت[٤].

وانتهت الحرب بين الطرفين بتوقيع الهدنة في (٢٨ كانون الثاني ١٨٧١م-١٢٨٨#) في فرساي، وانتخب حكومة مؤقتة في (بوردو) من أجل قبول شروط الصلح أو رفضها مع بروسيا[٥].

وبعد مفاوضات طويلة بين الطرفين وقع الطرفان ما عُرف بصلح (فرانكفورت) وأهم ما جاء فيه:

١- تحصل بروسيا على ولايتي الألزاس (***Alazas***)، واللورين (***Lorraine***).
٢- تدفع فرنسا غرامة حربية مقدارها خمسة مليارات فرنك ذهبي خلال خمس سنوات. (ولقد استطاع الفرنسيون دفعها في ثلاث سنوات).
٣- تحتل القوات الألمانية بعض أراضي فرنسا الشمالية حتى يتم دفع هذه الغرامة .

---

(١) عمر، عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص١٨٥، ١٨٦، ١٨٧.
(٢) فايت، فالنتين، المرجع السابق، ص ٣٤٠.
(٣) عبد العظيم، رمضان، المرجع السابق، ج٢، ص ١٤٨، ١٤٩، وفايت، فالنتين، المرجع السابق، ص ٣٤٠.
(٤) زينب، عصمت راشد، المرجع السابق، ج٢، من ص٤٠٧ إلى ص٤٠٩.
(٥) عمر، عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص ١٨٨. و ***Theodores S.Hamerow: The Ageof Bismark, OP.cit. P66.***

ج- قيام الإمبراطورية الألمانية (١٢٨٨ه-١٨٧١م).

كانت نهاية الحرب البروسية الفرنسية نهاية الطريق الطويل الذي بدأه بسمارك من أجل إنشاء الإمبراطورية الألمانية الموحدة، فمع نهاية هذه الحرب ثم إكمال بناء الاتحاد الألماني ففي (١٨ كانون الثاني ١٨٧١م) أعلن قيام الإمبراطورية الألمانية في بهو المرايا بقصر فرساي (أي قبل استسلام باريس بعشرة أيام) وتوج غليوم الأول إمبراطوراً على ألمانيا[١].

وانضمت الولايات الجنوبية إلى اتحاد الولايات الشمالية، واتفق حكام هذه الولايات مع بسمارك على إقامة اتحاد ألماني تكون فيه الشؤون العسكرية والخارجية موحدة، ويرأسه القيصر الألماني مع احتفاظ كل ولاية بسيادتها الكاملة في الأمور الداخلية ضمن إطار الاتحاد الألماني.

وفي (١٦ نيسان ١٨٧١م) أعلن دستور الإمبراطورية الجديدة الذي تضمن بأن يرأس السلطة التنفيذية في الاتحاد كلٌ من الإمبراطور والمستشار، وأما الهيئة التشريعية فتتكون من مجلسين هما مجلس حكومات الولايات (بندسرات) (***Badsrat***) ومجلس آخر يمثل الشعب يسمى (الرايخستاغ) (***Reichstag***)[٢].

وهكذا نجح بسمارك بتحقيق حلمه الكبير بتوحيد ألمانيا وجعلها دولة ذات قوة وسيادة في القارة العجوز، ولقد حافظ بسمارك على وحدة هذه الدولة وقوتها وعمل على حمايتها من مؤامرات الدول الأوروبية الكبرى في المنطقة خاصة فرنسا واتبع سياسة قامت على عزل فرنسا منعاً من قيامها بالانتقام من ألمانيا وقد نجح لحد كبير في ذلك، وأبعد شبح الحروب عن ألمانيا لفترة طويلة نسبياً من الزمن، استمرت حتى قيام الحرب العالمية الأولى ١٢٣٣#-١٩١٤م.

---

(١) زينب، عصمت راشد، المرجع السابق، ج٢، ص٤١٠.
(٢) راغب، العلي، وعبد الكافي، الصطوف، وطليعة، الصياح، المرجع السابق، ص ١٥١، ص١٥٢.

الفصل الثاني

العلاقات السياسية والعسكرية (الألمانية-العثمانية) ومظاهر التقارب الألماني العثماني

أولاً – أسباب التقارب الألماني العثماني

أ- الأسباب متعلقة بالأوضاع الألمانية
ب- الأسباب متعلقة بالداخل العثماني

ثانياً – مظاهر التقارب الألماني العثماني

أ- زيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني للدولة العثمانية:

١) أصداء المرحلة الإمبراطورية الثانية وأهدافها
٢) التحضيرات للرحلة.
٣) محطات الرحلة

- زيارة استانبول /١٧ تشرين الأول ١٨٩٨ حتى ٢٢ تشرين الأول ١٨٩٨م
- زيارة فلسطين /٢٥ تشرين الأول/ إلى /٤ تشرين الثاني ١٨٩٨م.
- زيارة بيروت /٥ تشرين الثاني/ إلى /٧ تشرين الثاني ١٨٩٨م.
- زيارة دمشق /٧ تشرين الثاني/ حتى /١٠ تشرين الثاني ١٨٩٨م/
- زيارة بعلبك في /١٠ تشرين الثاني والعودة إلى ألمانيا من بيروت في /١٢ تشرين الثاني ١٨٩٨/.

ب- البعثات العسكرية والدور الألماني في تدريب الجيش العثماني:

١) لمحة عن نشأة الجيش العثماني وتطوره حتى فترة الدراسة.
٢) أولى المحاولات الجادة لتطوير وإصلاح الجيش العثماني.
٣) تطور الجيش العثماني بعد إعلان التنظيمات (١٨٣٩م).
٤) الدور الألماني في تدريب الجيش العثماني في عهد عبد الحميد الثاني (البعثات العسكرية).
أ- التعاون العسكري الألماني -العثماني فترة بسمارك.
ب- التعاون العسكري الألماني-العثماني فترة الإمبراطور غليوم الثاني.
١) سياسة غليوم العسكرية تجاه الدولة العثمانية.
٢) الضباط الألمان في الدولة العثمانية.
٣) الضباط العثمانيون في ألمانيا.
٤) السلاح الألماني في الدولة العثمانية.

الفصل الثاني

العلاقات السياسية العسكرية بين الدولتين

١- أسباب التقارب الألماني العثماني:

مع بدايات القرن التاسع عشر بلغت الثورة الصناعية في أوربا والتنافس الاستعماري بين الدول الأوروبية أقصى درجاته، حيث بدأت تتشكل تكتلات سياسية جديدة على الساحة الأوروبية غايتها تحقيق أعلى نسبة ممكنة من مصالحه الشخصية وخاصة (الاستعمارية) منها دون الدخول في صراعات ومنازعات تؤدي إلى حروب فيما بين الدول الأوروبية العظمى.

ولحدٍ ما استطاعت هذه السياسة الصمود وإبعاد شبح المواجهة العسكرية بين الدول العظمى حتى انفجار الأحداث في الحرب العالمية الأولى ١٣٣٣#-١٩١٤م.

وبنظرة سريعة للخارطة السياسية الاستعمارية وتوجهاتها في تلك المرحلة نرى أن كلٌّ من فرنسا وإنكلترا ركزت جهودها الاستعمارية خارج القارة الأوروبية منعاً للمواجهة مع روسيا التي كانت أطماعها في القارة الأوروبية وخاصة البلقان ومن هنا كانت روسيا من أكبر الأخطار المهددة لكيان الدولة العثمانية التي كانت في تلك المرحلة تفقد أجزاء من جسد الأمبراطورية الذي بدأ بالانهيار وتكاثرت عليه الدول الاستعمارية لاقتسامها فيما بينها[١].

وأمام هذه الصورة ظهرت ألمانيا على الساحة الاستعمارية ولكن بحذر شديد محاولة الاستفادة من الظروف السياسية الدولية وخاصة بالنسبة للدولة العثمانية من أجل النفوذ إليها مع اختيارها أسلوباً هادئاً ودبلوماسياً لتحقيق ذلك على عكس النهج العسكري الذي اتبعته الدول الاستعمارية الأخرى، ولقد نجح هذا الأمر في تقبل الدولة العثمانية لألمانيا باعتبارها الأقل خطورة على الدولة العثمانية حسب ظن القائمين على أمرها.

فكانت الطريق شبه ممهدة بين الطرفين العثماني والألماني في تلك المرحلة من أجل إقامة علاقات أخذت طابع الود والصداقة بين الطرفين، والدعم كلٍ منهما للآخر في أزماته مع

(١) أ. جرانت، تاريخ أوربا في القرنين (١٩-٢٠)، المرجع السابق، ص(٣).

تحقيق الفائدة الاقتصادية والسياسية لكلا الطرفين، والتي بقيت قائمة ومستمرة حتى سنة ١٩١٤ وما بعد.

وفيما يلي توضيح للأسباب التي دفعت هذين البلدين للتقارب وتوثيق العلاقات بينهما بمختلف أنواعها.

أ- أسباب متعلقة بالأوضاع الألمانية؟

عندما تسلم بسمارك (***Bismarck***) المستشارية في ألمانية لم يكن يدور في خلده إلا فكرة واحدة ألا وهي تحقيق الوحدة الألمانية وقد تم له ذلك سنة ١٢٨٧#-١٨٧٠م كما أسلفنا سابقاً. وكما أن جهوده انحصرت في السنوات الثمان التالية للوحدة الألمانية من أجل العمل على إذلال إنكلترا وسحق النمسا وفرنسا وعزلهما دولياً وخلق ألمانية، وكان مدركاً أن أي طموح للتوسع خارج ألمانية كان يحتاج إلى أرضية قوية من الاقتصاد والقوة السياسية والعسكرية ولذلك كانت خطواته بطيئة نحو هذا التوسع وركز جهوده كل هذه السنوات على الشأن الألماني الداخلي مع العمل على إبراز ألمانية على الساحة الدولية كقوة سياسية معتبرة وفاعلة[١] ونجح في ذلك من خلال ترأسه لمؤتمر برلين ١٢٩٦#-١٨٧٨م والمشاركة قي التحالفات الدولية التي تضمن قوة بلاده. ولكن هل نجح بسمارك في الاستمرار بإبعاد ألمانية عن ساحة التنافس الاستعماري؟ بالتأكيد لا وذلك لعدة أسباب أهمها:

أولاً: التطور الهائل في الصناعة والتجارة الألمانية وخاصة بعد الوحدة الألمانية ١٨٧٠ وتحول ألمانية إلى دولة صناعية وتجارية عظمى[٢]، حيث بدأت طبقة البرجوازيين الألمان بالضغط على حكومة بسمارك من أجل العمل نحو إيجاد مستعمرات لألمانيا في العالم وذلك بهدف الحصول على المواد الأولية للصناعة الألمانية وكذلك أسواق تصريف لبضائعها[٣].

ثانياً: ومن الناحية السياسية فقد عمل بسمارك على عدم الوقوف في وجه طموحات روسيا في المسألة الشرقية (الدولة العثمانية)، فلقد أيد سياسة روسيا الهادفة إلى الاستيلاء على البوسفور والدردنيل في حرب (١٨٧٧-١٨٧٨) وذلك بهدف كسب روسيا وإبعادها عن التقارب مع فرنسا ولكن ذلك لم ينفعه لأن روسيا ما لبثت أن تحالفت مع فرنسا عام (١٣٠١#-١٨٨٣م) وذلك رداً على الموقف الألماني المؤيد للسياسة البريطانية-النمساوية، الداعمة للدولة العثمانية والرافضة تقسيمها.

وأمام ذلك قام بسمارك بالتقرب من الدولة العثمانية والعمل على تقويتها ودعمها سياسياً وعسكرياً، والوقوف إلى جانبها ضد الأطماع الروسية دون الدخول في تحالفات رسمية كما سنرى لاحقً[٤].

وأخيراً يمكن القول أنه بسبب تحول ألمانيا أثناء رئاسة بسمارك للوزارة إلى دولة صناعية كبرى أدى إلى نشوء أزمة اقتصادية في البلاد تمثلت بزيادة الإنتاج بما لا يتناسب مع الاستهلاك المحلي والتصدير للبلاد، وكذلك زيادة عدد السكان من (٤١ مليون نسمة

---

(١) أ. جرانت، المرجع السابق، ص(٤).

(٢) ***Kazim Karabekir, Tarih boyunca (Türk-Alman ilişkileri), Emre Yayinlari-cumhuriyet Tarihi serisi, (36), Cemberlitaş-Istanbul. 1911.***

(٣) علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية (١٨٤١-١٩٤٥)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨١، ص١٢.

(٤) عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام في القرن التاسع عشر والعشرين، دار الفرات، ط١، ٢٠٠٧، ص٢٩.

سنة ١٢٨٨#-١٨٧١م إلى ٦٥ مليون سنة ١٣٣٢#-١٩١٣م)، وازدياد عدد المهاجرين إلى العالم الجديد بين سنتي (١٨٦١-١٩١٣)، ووصوله إلى ٣,٥ مليون مهاجر كل هذه الأسباب أدت إلى رفع الأصوات المنادية بإيجاد مستعمرات ألمانية في الدولة العثمانية باعتبارها الأهم استراتيجياً واقتصادياً[١].

ولم تأتِ بداية الثمانيات من القرن التاسع عشر إلا وقد بدأت العلاقات الألمانية-العثمانية بالتطور في مختلف المجالات، وقد وصفها السياسيون الألمان بأنها من أهم عناصر تحقيق القوة السياسية والاقتصادية للدولة الألمانية الحديثة[٢]، ومن أجل تحقيق التوازن الدولي في القارة الأوربية والعالم.

ب- أسباب متعلقة بالداخل العثماني؟

(ترحيب عبد الحميد بالتقارب مع ألمانيا):

عبر تاريخ العلاقات العثمانية الأوربية كانت روسيا هي العدو التقليدي للعثمانيين فلم يكن حلم الوصول إلى المياه الدافئة والسيطرة على القسطنطينية يغيب عن خاطر الروس لحظة واحدة، واتبع الروس كل أنواع الحيل السياسية وفي كثير من الأحيان الحروب وإشعال الفتن داخل الدولة العثمانية في سبيل الحصول على هذه الغاية[٣]، ولقد عملت فرنسا على كبح طموح الروس عن طريق وقوفها في وجه أطماعهم في الدولة العثمانية، ولذلك كانت فرنسا الدولة الأكثر تميزاً في الأراضي العثمانية حتى عصر نابليون بونابرت[٤]، ثم حلت بريطانيا مكان الفرنسيين في دعم العثمانيين ولكن سرعان ما فقدت هذه المكانة وذلك بسبب احتلالها لقبرص العثمانية (١٢٩٧#-١٨٧٨م) واحتلال مصر (١٣٠٠#-١٨٨٢م) وبذلك فقدت بريطانية مصداقيتها في عيون العثمانيين وشكل ذلك فراغ في الإمبراطورية العثمانية مما مهد الطريق للألمان بالظهور على الساحة وملئ هذا الفراغ[٥].

ولقد ذكرنا سابقاً كيف كانت الأوضاع في الدولة العثمانية لدى تسلم السلطان عبد الحميد الثاني الخلافة وخاصة الأوضاع الخارجية، فلدى تسلم عبد الحميد السلطة واجهته روسيا بحربها عليه وانتزعت من الدولة العثمانية مناطق الصرب ورومانيا وبلغاريا والجبل الأسود، وفرضت وصايتها عليها وبحجة الإصلاحات تدخلت كلٍ من فرنسا وإنكلترا في شؤون الدولة العثمانية عن طريق ما عُرف بالامتيازات، وعن طريق هذه الامتيازات حاول عبد الحميد بدهائه المعروف أن يخلق المنافسة والتزاحم بين الدول المتكالبة على بلاده ولقد نجح لحد ما في إدخال الدول الأوروبية في منافسات فيما بينها حول الامتيازات في الدولة العثمانية وأبعد بذلك ولو لفترةٍ خطر انهيار الإمبراطورية العثمانية وتقسيمها بشكل نهائي بين الدول الأوروبية العظمى المتنافسة عليها[٦].

---

(١) عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص٤١.

(٢) ***Ilber ortayli: iki dost hükümdar (Sultan II Abdülhamid-Kaiser II Wilhelm, Llisaraylar, Iastanbul: 2010, Avrupa kültür baskenti, P.11.***

(٣) ***Kazim Karabekir, Tarih boyuncac Türk-Alman ilişkileri), Istanbul, 2001, P48, 99.***

(٤) ***Kazim Karabekir, op-cit, P.52, 95.***

(٥) ***H.Bayram Soy, Wilheim II, Weltpolitik and Abdülhamid II, Hacettepe university, institute of social sciences, Turkey, 2009, P3.***

(٦) محمد هاشم الكتبي، عصر السلطان عبد الحميد وأثره في الأقطار العربية، المصدر السابق، الجزء (١٤)

ويمكن القول أن سياسته الخارجية هذه كانت كردة فعل على نتائج مؤتمر برلين الذي ظهر واضحاً من خلاله نوايا الدول الأوروبية في اقتسام أملاك الدولة العثمانية فيما بينها وقد شاهد السلطان عبد الحميد كيف أن كلٍ من بريطانيا وفرنسا قد ضربت بعرض الحائط العهود والمواثيق مع الدولة العثمانية من أجل الحصول على أكبر نسبة من أملاك الإمبراطورية العثمانية وكذلك فعلت روسيا[١].

وأمام هذا المشهد المفضوح للدول الاستعمارية ومواقفها إزاء الدولة العثمانية وسلطانها، ظهرت ألمانية على الساحة من أجل أن تُظهر مد يد العون للدولة العثمانية ومحاولة مساعدتها في الوقوف في وجه هذه القوى الكبرى ووضع حد لأطماعها[٢]، وخاصة أن بسمارك هو من ترأس مؤتمر برلين (١٢٩٦#-١٨٧٨م)، فوضع حداً للتغلغل الروسي في داخل الدولة العثمانية[٣]. ومع أن ألمانيا أصبحت بمنظور روسيا من الأعداء، إلا أن عبد الحميد وجد في ألمانيا الصديق والحليف المنفذ لها في خضم هذا التدهور والضعف الكبير، وخاصة أن ألمانية حسب رأيه لم تشترك مع الدول الأوروبية في تكالبها المسعور على اقتسام أملاك العثمانيين[٤]، وإنما هدفها الوقوف إلى جانب الضحية ضد جلادها، ولكن إلى أي حد كان هذا الاعتقاد لدى السلطان واقعياً هذا ما ستظهره الأوراق التالية من هذا البحث.

٢- مظاهر التقارب الألماني العثماني:

لقد أصبحت ألمانيا الصديق المقرب والحليف المخلص للعثمانيين من حالة الانهيار التي كانت تعيشها البلاد وخاصة مع ازدياد تفكك الدولة واقتسامها بين الدول الأوروبية الكبرى. ففي هذه المرحلة تكاد تكون أملاك الدولة العثمانية تنحصرإلى حد ما في منطقة بلاد الشام وآسيا الصغرى والعراق ووسط شبه الجزيرة العربية .

ومع ذلك فيلاحظ أن السلطان عبد الحميد لم يرد أن يربط مصير دولته بطرف واحد بعينه، فلقد كانت علاقاته بغض النظر عن نوعها قائمة مع كلٍ من فرنسا وإنكلترا وروسيا وألمانيا، وكما ذكرنا سابقاً فلقد حاول هذا السلطان اللعب بورقة الامتيازات من أجل محاولة الحفاظ على هذه العلاقات وعلى حدٍ معين من نفوذ هذه الدول في بلاده دون الاستئثار بطرف دون الآخر، وأيضاً العمل على إثارة المنافسات السياسية وإثارة الشهوة الاستعمارية لديها.

ولكن مع تطور الأحداث ونتائج مؤتمر برلين الكارثية على بلاده ووضوح موقف الألمان إزاء الدولة العثمانية، كان رأي عبد الحميد أن يذهب بطريق تقوية العلاقات بكافة أنواعها مع ألمانيا والتركيز على ذلك اعتقاداً منه بنزاهة موقف الألمان لحدٍ ما، ولكن هناك من يقول أن أكثر أخطاء عبد الحميد هو الاعتماد على طرفٍ واحد في سياسته الخارجية دون الآخر، وهذا ما أدى بالبلاد إلى الاندفاع نحو الانهيار المحتوم.

وطرفٌ آخر وجد أن السلطان عبد الحميد كان من الدهاء والذكاء السياسي بحيث أنه

ص٤٣٧. و ***Caesar E farah, Abdullhamid II and the Muslim world, Istanbul, Op-cit, P12***.

(١) محمد هاشم الكتبي، المصدر السابق، ص٤٣٧، ص٤٣٨.

(٢) محمد وحيد، القول المفيد في حكم السلطان عبد الحميد، دار النيربين، دمشق، الطبعة الأولى (١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م). ص٣٢٨.

(٣) شبكة ومنتديات التاريخ العام، الصدام بين الدولة العثمانية والدول الأوربية ص٤.

(٤) محمد وحيد، القول المفيد في حكم السلطان عبد الحميد، المرجع السابق، ص٣٢٨.

لم يرتمِ بشكل كبير في الأحضان الألمانية وحاول أن يقف في وجه مخططاتها الاستعمارية المبيتة في كثير من الأحيان، وإنما كان هدفه الحقيقي من هذه العلاقات استخدامها كقوة ضغط في وجد الدول الأوروبية الاستعمارية الأخرى باعتبار ألمانية قوة سياسية واقتصادية ناشئة وهي آخر من وصل إلى الساحة الاستعمارية في العالم، ويمكن القول أن هذا التحليل هو الأصح في تفسير العلاقات بين ألمانية والعثمانيين في فترة عبد الحميد الثاني وغليوم الثاني[١].

ولقد تميزت العلاقات الألمانية-العثمانية مظاهرعدة عبرت عن طبيعة هذه العلاقات ولعل من أبرزها زيارات الإمبراطور غليوم الثاني للدولة العثمانية. وكذلك البعثات العسكرية والدور الألماني في تدريب الجيش العثماني والكثير من المعاهدات والامتيازات والمشاريع الاقتصادية في الدولة العثمانية، وفيما يلي توضيح مفصل لأهم هذه المظاهر:

أ- زيارة الإمبراطور غليوم الثاني للدولة العثمانية:

(الزيارة الثانية ١٣١٦هـ-١٨٩٨م):

لقد بلغ عدد زيارات الإمبراطور غليوم الثاني للدولة العثمانية ثلاث زيارات الزيارة الأولى كانت فور ارتقائه عرش الإمبراطورية في سنة ١٣٠٦#-١٨٨٨م[٢]، حيث وصل الإمبراطور إلى استانبول في ١٨٨٩/١١/٢-١٣٠٧#، بعد أن كان قد بدأ جولة في أنحاء أوروبا للاتصال بملوكها والتعرف إليهم[٣]، وكان عندما أبدى رغبته في زيارة استانبول لقي معارضة من مستشاره (بسمارك)، ولكنه كان مصراً على موقفه ورغبته! في إقامة علاقات مع الدولة العثمانية وذلك بحسب رؤية أيده فيها السفير الألماني في استانبول (هانز فيلد) والتي يرى فيها أن المستقبل لألمانيا في إنشاء علاقات مع الدولة العثمانية تفتح لها أبواب الشرق على مصراعيه[٤].

وكانت هذه المرة الأولى التي تطأ فيها قدم إمبراطور ألماني أرض استانبول بعد أكثر من سبعمئة عام، حيث كان آخرهم الإمبراطور (فريدريك بربروسا) (***Friedrich Barbarossa***) والذي كان قد جاءها غازياً في الحروب الصليبية، على عكس الإمبراطور غليوم الثاني الذي جاءها مبشراً بإقامة علاقات ود وصداقة مع السلطان العثماني[٥]، وطامعاً بالحصول على امتيازات اقتصادية وسياسية تُمكن للألمان وجودهم على ساحة التنافس الاستعماري في المنطقة، وطبعاً مستغلاً سوء وتدهور العلاقات بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية الأخرى (فرنسا - إنكلترا - ...) والتي بلغت أسوأ حالتها في تلك المرحلة.

أُسْتُقبِلَ الإمبراطور في السلطنة بحفاوة شديدة وأحاطت الأبهة والعظمة موكب الاستقبال لهذه الضيف المميز ويبدو أن السلطان العثماني عبد الحميد الثاني حرص حرصاً

---

(١) محمد وحيد، المرجع السابق، ص٣٢٨، ٣٢٩. ومحمد هاشم الكتبي، مصدر سابق، ص٣٢٨، ٣٢٩. وفاروق يلماز، (السلطان عبد الحميد خان المفترى عليه)، دراسة وثائقية، ترجمة طارق عبد الجليل، دار عثمانلي، استانبول، دار النيل، ط١، ٢٠٠٠، ص١٢٦.

(٢) ***Kazim Karabekir, Tarih Boyunca, op-cit, P.154–155.***

(٣) ***Ilber ortayli: opcit, P12*** . في (١٤ آب ١٨٨٨ تولى غليوم الثاني عرش ألمانيا وبهذه المناسبة) أرسل السلطان عبد الحميد الثاني هدايا ورسالة لتهنئة وتأكيد الصداقة والتعاون بين الدولتين.

(٤) محمد هاشم الكتبي، عصر السلطان عبد الحميد، المصدر السابق، ج١٥، ص٤٥٥.

(٥) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، المرجع السابق، ص٤٢٧.

شديداً على أن يبهر ضيفه بالمواكب الفخمة أثناء استقباله والحفاوة والأبهة في مراسم الاستقبال بكل مراحله[1].

ويبدو أن الزيارة الأولى هذه كانت عبارة عن خطوة تعارف بين الزعيمين، لتتبعها بعدها زيارة أخرى جاءت أكثر أهمية من حيث التجهيز وخط سيرها والمناطق التي قصدها الإمبراطور الألماني والهدف من هذه الزيارة :

١ـ أصداء الرحلة الإمبراطورية الثانية وأهدافها:

حظيت الزيارة الثانية للإمبراطور الألماني عناية واهتمام كبير من قبل الصحف العثمانية والعربية والعالمية، وكان لها صدى كبير في إصداراتها في تلك الفترة وخاصة فيما يتعلق بأهداف هذه الزيارة والغاية منها في هذا التوقيت.

وسنحاول أن نجمل بعض أهم هذه الآراء والتحليلات لبعض الصحف العربية والأجنبية:

- فمنها من اعتبر أن هذه الزيارة أتت تعبيراً عن عمق العلاقات السياسية والصداقة التي تجمع بين الدولتين الألمانية والعثمانية، وبعضها اعتبر أن هدف الزيارة هو الحج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين وتدشين كنيسة المخلص الإنجيلية الألمانية في القدس، (صحيفة لسان الحال).

وكما أن صحيفة «المؤيد» المصرية، رأت في هذه الزيارة صورة عن قيام حلف وصداقة بين الإمبراطور الألماني غليوم الثاني عظيم الغرب وعميد أوروبا، وبين السلطان عبد الحميد الثاني بوصفه «أمير المؤمنين كافة وعميد الإسلام كله»[2]. وفي تحليل ملفت لأسباب الزيارة رأى أحد الكتاب العثمانيين في مقالٍ له نشر في جريدة «المؤيد»: «إن ما يجعل الدولة العثمانية تتوجه نحو ألمانية هو تقدمها العسكري والصناعي وأطماع دول أوروبا المستعمرة في ممتلكاتها، وفي المقابل، رأى أن على ألمانية أن تسعى بدورها لكسب صداقة السلطنة لأجل ترويج تجارتها، واستخدامها كحليف في أي صراع أوروبي مقبل، واعتبر أن مصالح الدولتين تحتم عليهما دعم بعضهما البعض»[3].

وأما جريدتي «الأهرام» و«المقطم» فلقد كانتا أكثر بعداً عن المجاملة والتطبيل والتزمير لهذه الزيارة، وحاولتا أن تريا حقيقة هذه الزيارة على حقيقتها، فلقد رآتا أن هدف الألمان من إقامة هذه العلاقات مع الدولة العثمانية وبالتالي الأهداف من هذه الزيارة ما هو إلا الاستحواذ على ممتلكات الدولة العثمانية في آسيا وساحل سورية والسعي من أجل توطين الفلاحين الألمان فيها، وكذلك الهيمنة على التجارة العثمانية والحصول على أكبر عدد ممكن من الامتيازات داخل السلطنة ونهب ثرواتها، كما أكدت «الأهرام»: «إن الهدف الحقيقي من هذه الزيارة الملكية هو سياسي واقتصادي بامتياز، وإن الكلام عن صداقة أو تحالف بين الدولتين هو مجرد كلام واهم لأن غاية ألمانية تحقيق مصالحها»[4].

وأما الصحف العثمانية من مثل صحيفتي «الصباح» و«الإقدام» فلقد تابعت تفاصيل هذه الزيارة باهتمام كبير وقامت بنشر أخبارها وأخبار التحضيرات لها إن كان من الطرف الألماني أو تحضيرات الاستقبال من الطرف العثماني.

---

(١) للتوسع حول الزيارة انظر كتاب (الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية)، للمؤلف إبراهيم الأسود، صاحب جريدة لبنان، تقديم: خيري الذهبي، وزارة الثقافة، دمشق.

(٢) سنو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص٣٥٠، ٣٥١.

(٣) سنو، المرجع نفسه، ص٣٥١، ٣٥٢.

(٤) سنو، المرجع نفسه، ص٣٥٢.

ولقد اعتبرت هذه الصحف أن هذه الزيارة جاءت لتعبر عن الود والمحبة بين الشعبين الألماني والعثماني، وكذلك عن علاقة الصداقة التي تجمع بين السلطان العثماني والإمبراطور غليوم الثاني[١].

وكما نشرت صحيفة «الحقيقة» على صفحتها الرئيسية باللغتين العثمانية والألمانية ترحيباً بهذه الزيارة المباركة للإمبراطور الألماني، وكذلك رحبت صحيفة «فرُوتْ» في عددها (٦٤) ١٣٠٧/٦/٨هـ الموافق ٢/تشرين الثاني/١٨٩٨م، بهذه الزيارة للأصدقاء الألمان وتمنت لهم طيب الإقامة في السلطنة العثمانية، وتحدثت عن برنامج الزيارة حتى نهايتها في ٦/نوفمبر/١٨٩٨م[٢].

ولقد عكست هذه الصحف مدى الاهتمام الكبير والترحيب من قبل الدولة العثمانية ورعاياها للضيف الألماني الزائر وربما عقدت عليه الكثير من الآمال بعد الصدمات والضربات المتلاحقة من قبل الدول الأوروبية الأخرى.

ويمكن القول أنه مهما اختلفت التحليلات حول أهداف هذه الزيارة إلا أنه من المؤكد أن هذه الزيارة كان لها أهداف متبادلة من قبل الطرفين العثماني والألماني؛ فالإمبراطور الألماني كان يؤمن بضرورة تقوية العلاقات السياسية والاقتصادية والعمرانية وحتى العلمية مع الدولة العثمانية[٣]، وكذلك كان السلطان العثماني عبد الحميد الثاني يؤمن بضرورة إقامة علاقات مماثلة مع الإمبراطورية الألمانية واتخاذها حليف جديد ضد أعدائه من الدول الأوروبية الأخرى التي لم تترك سبيلاً للود بينها وبين السلطان العثماني.

وبالعودة إلى الإمبراطور الألماني وأهدافه الحقيقية من الزيارة فلم تكن غايته هي الحج إلى الأراضي المقدسة أو تدشين مؤسسات ألمانية فحسب، وإنما جاءت تعبيراً عن سياسة ألمانية جديدة كما أسلفنا وجهت أنظارها نحو الشرق ومد نفوذها في المنطقة وبالتالي البحث لها لمكان تحت الشمس[٤]. وجاء الإمبراطور طامعاً بالحصول على عدة امتيازات ومكاسب من خلال هذه الزيارة وأهمها:

١) الحصول على موافقة الدولة العثمانية على مشروع خط الحديد (***B.B.B***) (بيزنطة-برلين-بغداد)[٥].
٢) بناء الكنيسة الإنجيلية في القدس (***Kurtarici, Kilisesi/Hz.Isakilisesi***) وهذه الكنيسة مخصصة للمسيحيين الألمان أصحاب المذهب البروتستانتي في القدس ومن أجل حمايتهم.
٣) بناء مشفى لأتباع يوحنا، يسمى «مُرستان» في شرقي القدس[٦].

---

(١) ***Ilber ortayli: op.cit, P199-200***
(٢) ***Ilber ortayli: op.cit, P201-202***
(٣) الشناوي، المرجع السابق، ج١، ص١٧٢.
(٤) سنو، المرجع السابق، ص٣٤٩.
(٥) حسان، حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٩٩، ص١٥٢، وجورج أنطونيوس، اليقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ط٨، ١٩٨٧، ص١٤٦.
«إن الهدف من هذا المشروع هو تدعيم النفوذ الاقتصادي لألمانيا في الدولة العثمانية وأيضاً تحويل تجارة ألمانية من وإلى الشرق بواسطة هذا الخط بدآ من الاعتماد على قناة السويس لضرب المصالح البريطانية في المنطقة العربية».
(٦) ***Ilber ortayli: ikidost Hükümdar, op.cit, P191,192,193***

٤) الحصول على امتياز إنشاء مرفأ حيدر باشا إلى شركة الخطوط الحديدية الأناضولية الألمانية[١].

وفي النهاية يمكننا القول أن هذه الزيارة جاءت بمجملها من أجل تحقيق الكثير من المكاسب السياسية والاقتصادية لألمانية على حساب الدولة العثمانية، مع تحقيق بعض الدفع المعنوي للسلطان العثماني في هذه المرحلة التي تعتبر من الأوقات الصعبة التي مرت على السلطنة العثمانية كما قيل: «ولهذا يقوم غليوم الثاني بزيارة صديقه السلطان في أشد الأوقات حرجاً، والحصول على الثقة المتبادلة بين الطرفين»[٢].

و كان لهذه الزيارة من أهمية كبيرة بالنسبة للدولتين فلقد أُعدت لها تحضيرات كثيرة وأحيطت بالعناية والترتيبات على أعلى المستويات من قبل الطرفين فماذا عن أهم هذه التحضيرات.

٢- التحضيرات للرحلة الإمبراطورية:

استمرت الاتصالات بين الدولة العثمانية والدولة الألمانية من أجل التجهيز لهذه الرحلة حوالي الأربع سنوات ولقد اعتبرت حدثاً مميزاً في الدولة العثمانية[٣]، ولذلك تعاونت كل الجهات الرسمية في السلطنة من أجل القيام بالتجهيزات اللازمة قبل أو أثناء الرحلة للعمل على إنجاحها وإعطائها الأهمية القصوى والعمل على تأمين خط سير الرحلة طول فترة إقامة الإمبراطور الألماني وشملت هذه التجهيزات مراسم الاستقبال والتوديع والزينات وتجهيز مكان إقامة الإمبراطور ومرافقيه وتحديد أماكن الزيارات وأوقاتها أثناء الرحلة[٤].

غادر الإمبراطور غليوم الثاني (***Wilhelm II***) والإمبراطورة أوغستافكتوريا (***Augusta Victoria***) برلين متوجهين إلى البندقية، وفي الساعة الثانية عشرة من يوم الخميس الواقع في ١٣ تشرين الأول سنة ١٨٩٨-١٣١٦# وصل القطار الملكي إلى البندقية، واستقبل الإمبراطور وزوجته من قبل ملك إيطاليا وملكتها وبعد أن حصلا على بعض الاستراحة وحضرا مأدبة أقيمت لهما غادرا البندقية في الساعة الرابعة على متن اليخت الملكي (هوهنزولرن) (***Hohezulron***) قاصدين استانبول برفقة الدرعتين الألمانيتين «هرتا» (***Hertha***) و«هبلا» (***Hbla***) ووصل الوفد الملكي استانبول في يوم الثلاثاء ١٨ تشرين الأول ١٨٩٨م-١٣١٦#[٥].

ولقد أولى الإمبراطور الألماني لشركة كوك (***Cook company***) مهمة الإشراف على مستلزمات الرحلة على الرغم من أن السلطان عبد الحميد الثاني كان قدعرض عليه أن يقوم بكل مستلزمات الرحلةِ ولكن الإمبراطور رفض. وعلى الفور قامت الشركة بشراء كل مستلزمات الرحلة من سجاد وخيام وأوانٍ وأمنت الدواب والطهاة والخدم والمترجمين، كما رصدت الأموال اللازمة ونقلت الدواب الخاصة من برلين إلى كلٍ من فلسطين والشام لكي يركبها الإمبراطور أثناء زيارته لتلك المناطق[٦].

---

(١) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، المرجع السابق، ص٤٢٧.
(٢) ***Ilber ortayli: Ikidost Hükümdar, op.cit, P142***
(٣) حسان حلاق، المرجع السابق، ص١٥٢.
(٤) سنو، المرجع السابق، ص٣٥٣.
(٥) الكتبي، المصدر السابق، ج(١٥)، ص٤٥٨، ٤٥٩.
(٦) سنو، المرجع السابق، ص٣٥٣.

وبالرغم من ذلك فلقد عمل السلطان عبد الحميد على تجهيز أفضل ما يمكن من أجل استقبال ضيفه المميز، فأعد قصراً لضيفه في حديقة قصر يلدز على مقربة من القصر الذي نزل فيه الإمبراطور في زيارته الأولى إلى استانبول ١٣٠٧#-١٨٨٩م، غير أن الإمبراطور أقام في القصر القديم وذلك بسبب رطوبة القصر الجديد لحداثته، كما كلف السلطان منير باشا رئيس التشريفات بمهمة إعداد ترتيبات الزيارة وثم تشكيل وفد عثماني رفيع المستوى من أجل استقبال الإمبراطور عند دخوله إلى الدردنيل، تألف من رئيس مجلس الشورى ووزراء الخارجية والعدل والزراعة ورئيس الأركان «شاكر باشا» وعدد من كبار المدنيين والعسكريين[١].

أما بالنسبة لترتيبات زيارة الإمبراطور وتجواله في بلاد الشام، فلقد أمر السلطان بتشكيل وفد آخر لمرافقة الإمبراطور برئاسة المشير شاكر باشا والفريق عبد الله باشا، كما أمر والي «كريت» جودت باشا بأن يكون من بين المستقبلين للإمبراطور في فلسطين وسوريا، ولتغطية الجانب الإعلامي للرحلة أمر السلطان «أحمد رستم بك» وهو محرر في جريدتي «معلومات» و«ثروت» أن يقوم بالتحقيقات اللازمة عن الرحلة ومجرياتها، هذا بالإضافة إلى خمسة عشر مراسلاً أجنبياً وعربياً وصلوا إلى بلاد الشام للقيام بتغطية تحركات الإمبراطور أثناء رحلته إلى الدولة العثمانية[٢].

كما تم تشكيل ثلاثة لجان للإعداد لترتيبات رحلة الإمبراطور في كل من ولايتي سوريا وبيروت ومتصرفية جبل لبنان، وحددت هذه اللجان وفود الاستقبال من الرسميين والعسكريين وأعيان البلاد.

وقد بلغ عدد الجنود المستقبلين لموكب الإمبراطور ما بين (١٥٠٠٠إلى ٣٠٠٠٠) جندي، والذين حصلوا لأول مرة على ألبسة عسكرية جديدة وليس هؤلاء الجند فقط هم الذين اكتسوا بحلة جديدة بسبب الزيارة المباركة لعظيم الإمبراطورية الألمانية، كذلك كان خط مدن بلاد الشام، التي أصلحت فيها الطرقات ورصفت من جديد وطليت الجدران العامة والخاصة والحوانيت.

ففي دمشق مثلاً تم إصلاح طريق المرجة-البرامكة، كما تم إصلاح (١٠ إلى ١٢ ميل، من طرقات دمشق الداخلية والخارجية، وبلغ عدد الحوانيت التي طليت بالألوان (٥٠٠٠) والجدران حوالي ٢٠٠٠ متراً مربعاً، وكما أصلحت الطرقات في المرفأ من محطة سكة الحديد حتى محلة النهر وفرشت بالرمال في مدينة بيروت، وفي فلسطين تم رصف طريق «يافا-القدس» كما فتحت طريق جديدة من القدس إلى جبل الزيتون من أجل مرور عربة الإمبراطور، ولتسهيل مرور موكب الإمبراطور وسعت الطرقات القديمة في كلٍ من بيروت والقدس وبعلبك، وهدمت العديد من المنازل القديمة فيها لهذا السبب، كما أُعد رصيف خاص طوله «٧٠» متراً لرسو اليخت الإمبراطوري في ميناء حيفا، وحتى تم إعداد الاصطبلات من أجل الخيول في تلك المناطق[٣]، ويمكن القول أن المدن في بلاد الشام قد لبست حلة جديدة بسبب الزيارة الإمبراطورية المباركة إليها، كما أقيمت الزينات في كل أنحاء البلاد ابتداءً باستانبول انتهاءً بفلسطين، وعلقت الأعلام الألمانية-العثمانية في أنحاء السلطنة، ونصبت أقواس النصر في كل مكان، وأُمر أن تضاء الأنوار في أنحاء البلاد أثناء مرور

(١) سنو، المرجع السابق، ص٣٥٣، والكتبي، المصدر السابق، ج١٥، ص٤٥٩.
(٢) سنو، المرجع نفسه، ص٣٥٤.
(٣) سنو، المرجع نفسه، ص٣٥٦، والأسود، إبراهيم، الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية، المصدر السابق، ص٥٦، ٥٧.

الإمبراطور في كل بقعة يمر فيه موكبه، وكذلك أُمر بإطلاق الألعاب النارية احتفاءً بالضيف المميز، ومن أجل سلامة الإمبراطور فقد اتخذت إجراءات مشددة خاصة، بعد حادثة اغتيال إمبراطور النمسا وانتشار إشاعات حول احتمال اغتيال الإمبراطور الألماني في مصر أو فلسطين، فهذه من الأسباب التي أدت إلى إلغاء زيارة الإمبراطور إلى مصر أثناء هذه الزيارة[١].

ثم تعين حرس خاص لحراسة الإمبراطور مكون من «٥٠٠» من خيالة أرطغرل بقيادة الفريق «عبد الله باشا»، ووضع حوالي أربعة آلاف جندي للحراسة على الطريق من بيروت إلى دمشق، وأما في القدس فلقد وضعت ٢٥ نقطة حراسة حول المخيم الذي نزل فيه الإمبراطور، ووزع الكثير من أفراد البوليس السري العثماني والشرطة لحماية الإمبراطور في المدن السورية ومرافئها، بالإضافة إلى «١٢» من رجال البوليس السري الألماني الذين وصلوا إلى يافا والقدس، ومُنع التجار الإيطاليون واليونان من النزول في المرافئ السورية واعتقل مجموعة من الأجانب المشتبه بهم في كلٍ من استانبول وبلاد الشام وخاصة الإيطاليين وبعض أفراد جماعة «تركيا الفتاة»[٢].

٣ـ محطات الرحلة الإمبراطورية:

استغرقت زيارة الإمبراطور الألماني للسلطنة العثمانية ما يقارب الشهر من ١٦ تشرين الأول حتى ١٢ تشرين الثاني ١٨٩٨م زار خلالها الإمبراطور العديد من الأماكن في الدولة العثمانية، بدأها بزيارة استانبول ثم انتقل إلى فلسطين وزار أهم المدن فيها وخاصة القدس وبيت لحم، ومنها انتقل إلى بيروت ثم بعدها أكمل الطريق براً عبر القطار إلى دمشق فبعلبك، ثم عاد إلى بلاده عبر ميناء بيروت.

ـ الإمبراطور في استانبول ١٧ تشرين الأول ١٨٩٨ ـ١٣١٦# حتى ٢٢ تشرين الأول:

تأخرت السفينة الإمبراطورية في الرسو في ميناء استانبول بسبب هبوب عاصفة مفاجئة فوصلت في يوم الثلاثاء ١٨تشرين الأول، على الرغم من دخولها ميناء الدردنيل بحراسة البارجتين الألمانيتين «هيرتا» و«هيلا» في يوم الاثنين ٩/١٧ فاستقبله الوفد العثماني على متن اليخت السلطاني عز الدين، وسط إطلاق السفن والقلاع العثمانية نيران مدفعيتها ترحيباً بالضيف الكريم[٣].

كان السلطان عبد الحميد الثاني في مقدمة مستقبلي ضيفه مع كبار رجالات الدولة عند دولمة بغجه (***Dolma bahcesarray***)، ثم سار الموكب وسط شوارع استانبول التي امتلأت بالمستقبلين والمرحبين بالإمبراطور الألماني متجهاً إلى حديقة قصر يلدز (***Yildiz saray***) حيث قصر الإمبراطور الضيف[٤] (قصر مراسم) وأول عمل قام به الإمبراطور وزوجته بعد وصولهما هو رد الزيارة للسلطان عبد الحميد الثاني في قصره[٥]، وقد قابل

---

(١) سنو، المرجع السابق، ص٣٥٤، وحول إلغاء زيارة الإمبراطور إلى مصر، سنو، المرجع نفسه، ص٣٧٠.
(٢) سنو، المرجع نفسه، ص٣٥٤، ٣٥٥، وللتوسع أكثر من تفاصيل التجهيزات الأخرى للاستقبال الإمبراطوري، انظر سنو، المرجع نفسه، ص٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، والكتبي، المصدر السابق، الجزء الخامس عشر بالكامل حول تفاصيل التجهيزات وخطوات الاستقبال كاملة.
(٣) الكتبي، المصدر نفسه ج١٥، ص٤٦٤، ٤٦٥، والأسود، المصدر السابق، ص٢٢٨.
(٤) سنو، المرجع السابق، ص٣٢٧.
(٥) الكتبي، المصدر السابق، ج١٥، ص٤٦٩، ٤٧٠ كما ذكرت الأميرة عائشة في مذكراتها «والدي السلطان عبد الحميد الثاني» «وكيف أنه عندما زار الإمبراطور هو وزوجته السلطان في قصره، أن أختها الصغيرة

الإمبراطور الألماني السلطان العثماني ثلاث مرات خلال زيارته لاستانبول.

وكما قام الإمبراطور بجولة على أهم معالم استانبول (القرن الذهبي، أسوار المدينة، السوق الكبير، مسجد الأياصوفيا، والسلطان أحمد طبوقبو) وزار أيضاً معمل «هيريكيه» لصناعة السجاد، والمؤسسات الألمانية (السفارة الألمانية، والنادي، والمدرسة، والمستشفى).

وكانت أهم لحظات الزيارة هي حضور الإمبراطور لموكب خروج السلطان عبد الحميد الثاني لتأدية صلاة الجمعة في جامع الحميدية حيث شاهد هذا الموكب من شرفة قصره وألقى السلطان عبد الحميد التحية عليه أثناء الذهاب والعودة من الصلاة، ثم تبع ذلك عرض عسكري كبير، أراد السلطان عبد الحميد من خلاله أن يظهر تنظيم الجيش العثماني ومدى انضباطه، ولقد أبدى الإمبراطور إعجابه بهذا العرض[١].

ختم الإمبراطور زيارته إلى استانبول في يوم السبت ١٨٩٨/٩/٢٢-١٣١٦#، مودعاً بالحفاوة والتكريم الذي استقبل به هو وزوجته ومرافقيه وجاء السلطان بنفسه مودعاً ضيفه العزيز، ولقد وصفت الصحف العثمانية لحظة الوداع بشكل مؤثر[٢]، ثم ركب الإمبراطور يخته (هوهنزولرون) مبحراً إلى فلسطين لتبدأ محطة جديدة من هذه الرحلة الهامة.

- الإمبراطور في فلسطين ٢٥ تشرين الأول إلى ٤ تشرين الثاني ١٨٩٨م-١٣١٦#:

الثلاثاء ٩/٢٥ وصل الإمبراطور الألماني ميناء حيفا وكان في استقباله كلٍ من والي الشام وبيروت ومتصرف عكا وكبار رجالات الدولة والمدنيين والعسكريين وحوالي عشرين ألفاً من المواطنين، واستغرقت مدة الزيارة في فلسطين عشرة أيام جال خلالها على كلٍ من حيفا ويافا والقدس وبيت لحم وبعض المناطق الأثرية الأخرى، وصعد جبل الكرمل في حيفا، وزار القنصلية الألمانية في المدينة وديري الراهبات الكاثوليكيات والبروتستانتيات، كما التقى ألمان من «جماعة الهيكل» وتفقد مؤسساتهم كما استقبل الأب «بنغير» مدير المستعمرة الكاثوليكية الألمانية في الطبعة، وعلى صهوة جواده وصل الإمبراطور إلى يافا بكلٍ من عتليت وقيسرية في ٢٦ تشرين الأول، ووصل اللطرون في يوم الجمعة وبات ليلة فيها، ثم وصل القدس في اليوم التالي في موكب عظيم ومهيب، وذكرت جريدة «عثرات الفنون» أن حوالي ٢٠٠ ألف شخص كانوا في استقبال الإمبراطور في القدس[٣]، ولكن هذه الزيارة تركت أثرها على أسوار المدينة، حيث أن الإمبراطور رفض الدخول من أحد الأبواب المعروفة، ولذلك تم نقب السور وفتح باب خاص له، أصبح يعرف بالباب الجديد[٤]،

(الأميرة رفيقة) قدمت باقة الزهور، وأقيم الاستقبال رسمي ضخم للضيفين وكيف أن الأميرة الوالدة والأميرات الأخريات قاموا باستقبال الإمبراطورة، وكيف أعجبت الإمبراطورة بملابس الأميرة الوالدة وملابس الخزينة دار أسطى والكاتبات، وكذلك بالأواني التي قُدمت فيها القهوة». ص١١٣-١١٥.

(١) سنو، المرجع السابق، ص٣٢٧، والأسود، المصدر السابق، ص٤٢، ٤٣، ٤٤.

(٢) سنو، المرجع نفسه، ص٣٢٧، والأسود المصدر نفسه، ص٤٦، ٤٧، الكتبي، المصدر السابق، ج١٥، ص٤٧٤-٤٧٥. ذكر إبراهيم الأسود في كتابه «الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية» كيف أن السلطان عبد الحميد أصدر إرادة سنية أن يصدر عملة عثمانية بقيمة خمس ليرات ذهبية نُقش عليها الشعار العثماني وعبارات عن ملاقاة السلطان لضيفه الألماني وعلى الوجه الآخر الشعار الألماني بنفس العبارات بالخط الألماني، وكذلك صنعت ميداليات معدنية لإعانة الشهداء في الحرب وجرحاهم بحجم ربع ريال مجيدي وكذلك تشيد حوض للماء في الآستانة بناءً على رغبة الإمبراطور تذكاراً لزيارته حسب الرسم الذي وضعه جلالته (الأسود، المصدر السابق، ص٤٧-٤٨).

(٣) سنو، المرجع السابق، ص٣٥٨.

(٤) نافذ أبو حسنة، زيارة الإمبراطور غليوم الثاني، مقال منشور في موقع المركز الفلسطيني للأعلام، (الحلقة

استغرقت زيارة الإمبراطور إلى القدس يومي السبت والأحد، جال فيهما في كافة المناطق الهامة الدينية والتاريخية في القدس وشهد العديد من النشاطات احتفالاً بقدومه وخاصة من قبل مسيحي هذه المدينة من جميع الطوائف، فلقد استقبله بخطاباتهم كلٍ من بطاركة الطوائف الثلاث: اللاتين والأرمن والأرثوذكس. كما زار الإمبراطور كنيسة المهد في بيت لحم وصلى فيها كما حضر تدشين[١] الكنيسة الإنجيلية الألمانية في تلك المدينة في يوم الاثنين /٣١ تشرين الأول/ كما صعد جبل الزيتون وزار كنيسة القديس «جاورجيوس الإنكليزية»، ثم فيما بعد تسلم الإمبراطور قطعة أرض الدوروميثون في النبي داود[٢]، بلغت مساحتها دونمين بنى عليها لاحقاً كنيسة «قيامة العذراء»، وهذه كانت هدية من السلطان عبد الحميد الثاني لصديقه الإمبراطور بمناسبة الزيارة، ولم تكن هذه المرة الأولى التي تهدى فيها جزء من أراضي القدس لإمبراطور ألماني، فلقد سبقه عمه السلطان عبد العزيز فقد قام بإهداء الإمبراطور «فريدريك ولهم» (***Friedrich Wilhelm***) ولي عهد بروسيا جزء من بيمارستان صلاح الدين والذي أنشأ عليه فيما بعد «كنيسة المخلص»[٣]، والتي قام الإمبراطور الألماني غليوم الثاني بتدشينها أثناء زيارته إلى القدس.وهكذا أسهم هؤلاء السلاطين بشكل أو بآخر في زرع كيانات استعمارية مصغرة في أرضنا العربية ،من خلال الأستخفاف بقداسة هذه البقاع على أمتنا العربية والأسلامية وعدم الأدراك الصحيح لخطورة كيان استعماري صهيوني مسقبلا في المنطقة .

ومن المناطق التي قام الإمبراطور بزيارتها أيضاً في القدس دير الأرمني وبطريركية الروم الأرثوذكس، والحرم الشريف وجامع سيدنا عمر، والمسجد الأقصى، وبرك سليمان والمستشفى الألماني، ودار الأيتام السورية، وقبور السلاطين[٤].

ولقد أزعج الإمبراطور خلال زيارته ما شاهده من خلافات حادة بين المسيحيين البروتستانت والكاثوليك في القدس، ولقد عبر عن ذلك في رسالته إلى القيصر الروسي «نيكولاي الثاني» بقوله: «إن هذا الدين يستخدمه رجال الكهنوت كأداة سياسية وهذا يضر القضية المسيحية»[٥].

وعلى الرغم من إعلان الإمبراطور سابقاً أن الهدف من زيارة القدس وبيت لحم هو الحج إلى الأماكن المقدسة، ولكن في الحقيقة لم تكن فكرة الاطمئنان على المستعمرات الألمانية في فلسطين بعيدة عن خاطر الإمبراطور الذي حاولت حكومته تبديد مخاوف العثمانيين حول هذا الموضوع، ولقد دل على حقيقة هذا الأمر عدة أمور منها:

١) إظهار الإمبراطور سعادته برؤيته مستعمرة ألمانية في قلب الأرض المقدسة.

٢) وعلى أثر هذه الزيارة وبتأثيرها الإعلامي في الأوساط الألمانية وخاصة اليهودية منها تأسست في مدينة «شتوتغارت» سنة ١٣١٧#-١٨٩٩م، جمعية تطوير الاستيطان الألماني في فلسطين تحت رعاية البارون «فون ايلويكس هاوزرن» (***Von Aliuyks Huzrn***) ونتج عن الأمر جميع تبرعات بقيمة ثلاثة آلاف مارك حُولت إلى

---

٥٧).

(١) ***Ilber ortali: ikidost Hükümdar, op.cit, P192***

(٢) سنو، المرجع السابق، ص٣٥٨، ٣٥٩، والأسود، المصدر السابق، من ص٦٠ إلى ص٦٣.

(٣) نافذ أبو حسنة، زيارة الإمبراطور غليوم الثاني، المرجع السابق، (ح٥٧).

(٤) الأسود، المصدر السابق، من ص٦٨ حتى ص٧٨، وسنو، المرجع السابق، ص٣٥٩.

(٥) ***Ilber ortayli: ikidost. opcit, P197,199***.

وسيتم الذكر لاحقاً لتفاصيل لقاء «هرتزل» مع الإمبراطور الألماني أثناء زيارته إلى استانبول والقدس، وذلك في الفصل الرابع من الرسالة.

«جمعية الهيكل»، والتي اشترت قطعة أرض بالقرب من مدينة «اللد» مساحتها ثمانية كيلومترات مربعة أنشأ عليها مستعمرة ألمانية عُرفت باسم «فيلهلما» غير بعيدة عن سكة حديد يافا/القدس. وسميت تيمناً باسم الإمبراطور ومن أجل الحصول على تبرعات مالية منه لدعمها ولكنه لم يهتم كثيراً بالأمر وهذا دفع بالجمعية «جمعية الهيكل» بطلب قرض من الحكومة الألمانية بقيمة مئة ألف مارك وقد رفض الطلب.

٣) إنشاء مؤسسة الملكة «أوغستافكتوريا» (***Augusta Victoria***) في القدس، بدعم من الحكومة الألمانية وأنشأت هذه المؤسسة لتخليد ذكرى زيارة زوجة الإمبراطور إلى الأرض المقدسة وبنيت على الأرض التي أهداها السلطان للإمبراطور في القدس.

٤) ويمكن القول بالنتيجة أن هذه الزيارة قد أثارت حمى الاستيطان في ألمانية وأصبحت هناك فئات تعمل من أجل التخطيط لوضع فلسطين من الحدود المصرية إلى رأس الناقورة شمالاً حتى سفوح جبل الشيخ شرقاً تحت حكم أمير أوربي مع عدم التعارض مع المصالح البريطانية والروسية في المنطقة، من دون ذكر لمصالح العرب أهل البلاد ولا حتى العثمانيين الذين تشكل فلسطين جزءاً من مملكتهم[١].

وبذلك يمكن القول لم تكن هذه الزيارة شريفة النوايا بالنسبة للإمبراطور كما حاول أن يظهر في ذلك الوقت.

- الإمبراطور في بيروت ٥ تشرين الثاني إلى ٧ تشرين الثاني ١٨٩٨م-١٣١٦#:

أنهى الإمبراطور زيارته إلى فلسطين في ٤ تشرين الثاني وغادرها بالقطار من يافا متجهاً إلى بيروت التي وصلها يوم السبت في الخامس من تشرين الثاني حيث استقبله حوالي ٥٠ ألف من سكان المدينة. وكان على رأس المستقبلين والي بيروت والقنصل الألماني والمترجم، وكالعادة صحب الاستقبال إطلاق نيران المدافع احتفاءً بالضيف وتعليق الزينات وعزف الموسيقا الخاصة[٢]، وفي يوم الأحد صعد الوفد العثماني برئاسة شاكر باشا ورشيد بك يرافقهما عبد القادر قبائي رئيس بلدية بيروت إلى اليخت الإمبراطوري وقدموا للإمبراطور هدية قيمة باسم مدينة بيروت وهي عبارة عن مصنوعات شرقية كُتب على غلافها العبارة العربية التالية: «تقدمة لحضرة حشمتلو إمبراطور وإمبراطورة ألمانيا العظيمين من بلدية بيروت تذكاراً لتشريفهما في سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م».

وبعد الغداء قام الإمبراطور وزوجته بجولة في المدينة، فزار المستشفى البروسي والثكنة العسكرية وشاهد هناك عرضاً عسكرياً خاصاً، كما زارت الإمبراطورة المدرسة الألمانية لشماسات القيصر زقر (المدرسة البروسية)[٣].

أنهى الإمبراطور زيارته إلى بيروت في السابع من تشرين الثاني وركب بالقطار مع زوجته متوجهاً إلى دمشق، وقد استراح في محطة «عالية» حيث استقبله وفد رسمي برئاسة المتصرف «نعوم باشا» وبعد أن قُدمت له واجبات الضيافة والترحيب وحضوره عرضاً للفروسية والسيف، أكمل سفره باتجاه دمشق، وكان له استراحة أخرى في «معلقة زحلة»، حيث استقبله أكثر من ٦٠ ألف شخص حسب ما أوردت جريدة «البشير» حيث تناول غداءه هناك ثم أكمل الطريق بالقطار إلى دمشق[٤].

---

(١) أبو حسنة، المرجع السابق، ح٧٥.
(٢) الأسود، المصدر السابق، من ص٧٨ إلى ٨٠.
(٣) سنو، المرجع السابق، ص٣٥٩، والأسود، المصدر نفسه، ص٧٩ حتى ٨٦.
(٤) الأسود، المصدر السابق، من ص٨٧ حتى ٩٨. وسنو، المرجع السابق ص٣٥٩، ٣٦٠.

- الإمبراطور في دمشق ٧ تشرين الثاني حتى ١٠ تشرين الثاني ١٨٩٨م-١٣١٦#:

ما إن وصل قطار الرحلة بالإمبراطور الضيف، محطة البرامكة، حتى بدأت المدافع تطلق نيرانها احتفاءً بالضيف الكريم وكان ذلك في يوم الاثنين ١٨٩٨/١١/٧م، وعندما نزل من القطار كان في استقباله وفد رسمي على رأسه والي دمشق «ناظم باشا» و«شاكر باشا» و«فون لوتيكه» (***Von Lütike***) قنصل ألمانيا في دمشق، وعدد كبير من الوزراء والأمراء، والزعماء الروحيين وبلباسهم الرسمي وتلامذة المدارس ومئات الألوف من الناس، الذين احتشدت بهم شوارع دمشق من أجل الترحيب بالضيف، وسار الإمبراطور وسط هذه الجموع راكباً صهوة جواده والتحيات والهتافات تصدح من حوله[١]، واجتاز شوارع دمشق حتى وصل الثكنة العسكرية التي نزل فيها طوال إقامته في دمشق، وذكرت «المقطم»: «كيف أن استقبال العاهل الألماني في دمشق كان حافلاً جداً، وأن أهالي المدينة أظهروا الابتهاج والسرور بقدومه، وهذا ما لا يشاهد عادة في الشرق، وأن المدينة زينت بأبهى زينة»[٢]، كما أن الإمبراطور نفسه كتب في برقية أرسلها إلى الدوق (دي باد) (***Die Bad***) فور وصوله إلى دمشق، قائلاً: «إن استقبالي في دمشق كان باهراً مدهشاً وتمنيت لو آخذ عن دمشق كيف نستقبل الملوك»[٣].

وكما المعتاد قام الإمبراطور بجولة لأهم معالم مدينة دمشق، ففي الساعة الثالثة من صباح يوم الثلاثاء ١١/٨، زار الإمبراطور الجامع الأموي ثم توجه بعد ذلك إلى قبر صلاح الدين الأيوبي، وكانت هذه أول زيارة لعاهل أوروبي لقبر صلاح الدين دلت على تقديره لهذا القائد البطل في التاريخ الإسلامي، وقدم له أكليل من البرونز (والذي استولى عليه لاحقاً لورنس العرب عندما دخلت القوات الإنكليزية دمشق ١٣٢٧#-١٩١٨م بعد خروج الأمير فيصل منها، حيث اعتبره غنيمة حرب وأرسله إلى المتحف الحربي البريطاني ولازال موجوداً هناك حتى الآن)[٤]، كما قدم له قبراً من المرمر كان المفترض أن يتم نقل رفاة صلاح الدين إليه ولكن لم يتم ذلك ومازال قائماً هناك بجانب القبر الأصلي، وساهم الإمبراطور في ترميم قبر صلاح الدين وتجديده[٥]، وأثناء الزيارة وضع الإمبراطورة باقة من الزهور على القبر كتب عليها بالألمانية: «ويلهلم الثاني قيصر ألمانيا، وملك بروسيا تذكاراً للبطل السلطان صلاح الدين الأيوبي»[٦].

كما زار الإمبراطور بيت أسعد باشا العظم وأعجب بجماله وجمال محتوياته وبعربته تجول الإمبراطور في المرجة بعد ظهر يوم الثلاثاء، كما حضر عرضاً عسكرياً مهيباً، وأعجب بما رآه من إتقان وترتيب وضبط وإحكام في الحركات، ثم عاد بعدها إلى سراي العسكرية، وفي الساعة الثالثة والنصف من نفس اليوم زار الإمبراطور بيت الوالي «ناظم باشا»، حيث أكرمه ناظم باشا بالطعام والهدايا الثمينة والمصنوعات الدمشقية الفاخرة، ثم في الساعة السابعة من ذلك اليوم حضر الإمبراطور مأدبة عشاء فاخرة أعدت خصيصاً

---

(١) الأسود، المصدر السابق، ص٩٨، ص١٠٠.
(٢) سنو، المرجع السابق، ص٣٦٠.
(٣) الأسود، المصدر السابق، ص١٠٣.
(٤) ولقد تقدمت سوريا بطلب لاسترجاع هذا الأكليل الذي هو رمز الاحترام من قبل عاهل أوربي للبطل صلاح الدين الأيوبي.
(٥) ***http;//www.discover-syria.com/newa/735***.
رحلة غليوم الثاني إلى الشرق عام ١٨٩٨ في معرض بحلب وفي كتاب جديد للباحثين أوليفيه سالمون وحسين عصمت المدرس. /١١ كانون الأول/٢٠٠٨م.
(٦) الأسود، المصدر السابق، ص١٠٤، ١٠٥. و ***Kazim Karabekir, Tarih Boyunca, op-cit. P156***

لاستقباله في مبنى بلدية دمشق، حضرها كبار رجالات الولاية والأعيان والوفد المرافق للإمبراطور الضيف، وألقى الإمبراطور خطابه الأول في هذه المأدبة و«معبراً عن شكره لأهالي دمشق والاستقبال الباهر الذي قُوبل به، كما ولم ينسَ أن يوجه شكره وامتنانه للسلطان العثماني عبد الحميد الثاني الراعي الأساسي لهذا التكريم وعبر عن محبته الخالصة للسلطان ولرعاياه من المسلمين المرتبطين بمقامه على حد تعبيره، وأكد أنه سيبقى محباً ومخلصاً للسلطان وداعماً له، ولشعبه ورعاياه الثلاثمئة مليون من المسلمين»[١].

وفي يوم الأربعاء التاسع من تشرين الثاني، زار الإمبراطور الصالحية حيث أُعدت له هناك في منطقة عالية على سفح جبل قاسيون دكة أو مصطبة (والتي كانت هذه نواة لحي المهاجرين الدمشقي المعروف)، حيث وضع على هذه الدكة مضارب فخمة، قضى فيها الإمبراطور أكثر من ساعتين، حيث رأى دمشق بالكامل من هذا المكان العالي وأعجب بمناظر الغوطة، وبدت له الحارات والبيوت والقصور الدمشقية بأبهى مناظرها وخاصة مع مغيب الشمس وحضوره لهذا المنظر المهيب من قاسيون[٢].

أنهى الإمبراطور زيارته إلى دمشق يوم الخميس العاشر من تشرين الثاني، حيث غادرها بالقطار من محطة البرامكة، وحضر الوداع الوفود الرسمية والشعبية وأكثر من ألف من الفرسان العربية لحماية موكب الإمبراطور، ثم توجه بعدها إلى بعلبك[٣].

- الإمبراطور في بعلبك في ١٠ تشرين الثاني، والعودة إلى ألمانيا في ١٢ تشرين الثاني ١٨٩٨م-١٣١٦#:

لقد تم توقيت وصول الإمبراطور إلى بعلبك مع المغيب، حيث أُعدت له المضارب للمبيت داخل القلعة عند «هيكل الشمس»، وكان المقصود أن يصل الإمبراطور بعلبك عند اكتمال القمر لكي تنير المكان وسط الهيكل ويظهر الإمبراطور فيه. ولقد أدهش هذا المنظر الإمبراطور وتعبير عن محبة السلطان عبد الحميد وصداقته للإمبراطور أمر بها بإقامة نصب تذكاري من المرمر وضع وسط أعمدة الهيكل، كُتب عليها: «من السلطان عبد الحميد الثاني، إمبراطور العثمانيين، إلى صديقه المعظم غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا وملك بروسيا وإلى الإمبراطورة أوغوسطا فكتوريا ذكرى صداقة متبادلة لا يغيرها الدهر، وذكرى في زيارتهما لبعلبك تشرين الثاني ١٨٩٨»، ثم أقام الإمبراطور بتفقد القلعة، كما تفقد «هيكل الزهرة» و«الحائط الفينيقي» وبعد أن تناول الإمبراطور وزوجته طعام الغداء في المضارب ركبا القطار قاصدين بيروت عن طريق المُعَلَّقة وصلا بيروت في يوم السبت ١٢ تشرين الثاني وطبعاً استقبلا بالحفاوة والترحيب الكبيرين من قبل وفود رسمية وشعبية، وعند رصيف ميناء بيروت اصطفت العساكر المشاة والوزراء العثمانيين في

---

(١) لقد حاول الإمبراطور من هذا الخطاب أن يوضح موقفه من السلطان عبد الحميد الثاني ومن السلطنة العثمانية وحاول أن يكسب ود ومحبة المسلمين في العالم الإسلامي بذلك الوقت وهناك من شبه هذا الخطاب بمنشورات نابليون بونابرت التي وزعها فور دخوله مصر في الحملة الفرنسية قبل ١٠٠ عام من تاريخ زيارة الإمبراطور الألماني للدولة العثمانية.

(٢) عزيز العظمة، مرآة الشام، دار الفكر، دمشق، ط٢، ٢٠٠٢، ص٣٦١.
وأثناء هذه الزيارة إلى حي الصالحية الدمشقي أبدى الإمبراطور إعجابه بجسر كان مقاماً على أحد فروع نهر بردى أسفل الصالحية (وهو ما يسمى بالجسر الأبيض التي ما زالت المنطقة مسماة باسمه حتى يومنا هذا) فما كان من الوالي ناظم باشا إلا أن قام بالأمر بتفكيك هذا الجسر حجراً حجراً وإرسالها في صناديق تعبيراً عن ترحيبهم وحفاوتهم بالإمبراطور الضيف.

(٣) الأسود، المصدر السابق، ص١١٦ إلى ص١١٩، وسنو، المرجع السابق، ص٣٦٠.

القبة على الرصيف ومعهم القنصل الألماني وحشد من الناس وذلك من أجل وداع الإمبراطور وزوجته، وكما في الاستقبال أطلقت المدافع نيرانها معبرةً عن لحظات الوداع وكذلك عُزفت الموسيقا، ولوح الإمبراطور بيديه مودعاً وغادر البلاد العثمانية بمثل ما استقبل فيه من الحفاوة والتكريم.

وصل الإمبراطور برلين في ٢٦ تشرين الثاني من سنة ١٨٩٨، وقد كتبت جريدة «الأهرام» تقول: «وهكذا، انتهت هذه الرحلة العظيمة التي سيكون لها في التاريخ ذكرٌ خالد وأثر عظيم»[١].

وكلمة أخيرة حول هذه الزيارة يمكننا القول أنها جاءت تعبيراً عن سياسة ألمانية الجديدة في عهد غليوم الثاني تجاه الدولة العثمانية، فلقد كانت تعبيراً عن تأييد الإمبراطور للدولة العثمانية وتأكيد سيادة السلطنة واستقلالها في وجه الدول الأوروبية الطامعة في ممتلكاتها، على الرغم من سعيها للحصول على مستعمرات في الدولة العثمانية في وقت متأخر، وبذلك يمكن اعتبار وقوفها في وجه أطماع الدول الأوروبية ومساندة الدولة العثمانية هو من باب التنافس الاستعماري على المنطقة كما أسلفنا سابقاً في أكثر من باب، ومن ناحية أخرى كانت غاية الزيارة الحصول على امتيازات اقتصادية هامة في الدولة العثمانية وخاصة خط الحديد (***B.B.B***) الذي اعتبره الكثير من الساسة الألمان طريقاً للسياسة الألمانية في المنطقة مستقبلاً ونافذة لوضع قدم الألمان فيها، وأخيراً إن الإمبراطور الألماني استطاع بذكائه أن يستغل ميل السلطان عبد الحميد الثاني نحو الألمان وابتعاده عن الدول الغربية الأخرى بسبب أطماعها بدولته، بشكل جيد وفعال وأصبح الإمبراطور الألماني ودولته من أهم وأقرب الأصدقاء للسلطان والدولة العثمانية وللشعوب الإسلامية.

ب- البعثات العسكرية والدور الألماني في تدريب الجيش العثماني:

للحديث عن البعثات العسكرية والدور الألماني في تدريب الجيش العثماني في فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني، لابد لنا في البداية من تقديم تمهيد تفصيلي نوضح فيه تطور الجيش العثماني منذ نشأته حتى فترة الدراسة، مستعرضين أهم نقاط التطوير والتحديث التي حدثت في تكوين هذا الجيش عبر المراحل الزمنية السابقة لفترة الدراسة (فترة السلطان عبد الحميد الثاني).

١- لمحة عن نشأة الجيش العثماني وتطوره حتى فترة الدراسة:

بدأ تكوين الجيش العثماني مع بداية تكون الدولة العثمانية في عهد السلطان عثمان الأول (١٢٨٨-١٣٢٦م) حيث تكون من مجموعة من الفرق العسكرية أهمها:

١) آقنجي (القوات الخفيفة من الخيالة)[٢].

٢) البيادة: (وهي فرقة المشاة)[٣].

---

(١) الأسود، المصدر السابق، من ص١٢٤ إلى ص١٢٦، وسنو، المرجع السابق، ص٣٦١.

(٢) آقنجي (***Akincilar***): اسم أطلق على القوات الخفيفة من الخيالة العثمانية وكانوا يتمركزون على المناطق الحدودية للقيام بأعمال الهجوم والحصول على الأسرى والأموال والمعلومات لإرسالها إلى مركز الدولة (سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص٢٢).

(٣) البيادة (***Ayade***): المشاة من أفراد الكتائب العسكرية (سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات

٣) الفرسان: (وهي أهم الفرق في الجيش العثماني في ذلك الوقت وتكونت من قسمين: الفرسان المختارين والسباهية[١]، وكانت المعتمد عليها في الحروب)[٢].

استمر تكون الجيش العثماني هكذا حتى جاء أورخان بن عثمان (٧٦٢/٧٢٥#-١٣٦٠/١٣٢٤م) حيث قام بتأسيس فرقة الانكشارية[٣] (الجيش الجديد)، والذي تكون من الأسرى الذين تتراوح أعمارهم بين (١٥ إلى ٢٥ سنة)، وكانوا يرسلون إلى الأسر الفلاحية التركية لتعلم اللغة التركية والدين والعادات والتقاليد والأعراف، ثم يرسلون إلى «مؤسسة العجم» أو «أوجاق العجم»[٤] وفي هذه المؤسسة العسكرية يخضع هؤلاء الفتيان إلى التدريبات العسكرية اللازمة[٥] وتنشئهم التنشئة الخاصة التي تجعلهم مؤهلين للعمل في المؤسسات العسكرية للجيش وحتى مؤسسات الدولة العليا، فلقد كان في كثير من الأحيان كبار رجالات الدولة من قادة الجيش الإنكشاري[٦] حتى قيل أن الحكومة العثمانية والجيش العثماني وجهان لعملة واحدة[٧]. ولقد اندرجت كل أقسام وأنواع الجيش العثماني تحت اسم الإنكشارية وسمي الجيش العثماني بـ«الأوردي الهمايوني» وسميت الاختصاصات بـ«أوجاق» وقُسمت الأوجاقات إلى سبعة أقسام هي:

١) يكجريلير: (يني تشاري لر) الجند الجديد.
٢) عجمي أوغلانر (أولاد الأعاجم) = ***Acenioglanlar***[٨].
٣) جبه جيلر «المدرع»[٩].
٤) طوبجي لر «المدفعية»[١٠].

العثمانية التاريخية، المرجع السابق، ص٦٨).

(١) السباهية (***Sipahi***): الخيالة والفرسان في الجيش العثماني، واصطلح على استخدامه للدلالة على الخيالة صاحب الأرض الميري، الذي يشترك في الحرب مع أفراد من الذين كلفوا بإحضارهم للحرب (صابان، المرجع السابق، ص١٣٤).

(٢) عبد الرزاق، أحمد بهاء، نشأة وتطور الجيش العثماني (الانكشاري)، جامعة الكوفة، كلية التربية للبنات، ***http//atldc.kuiraq.com***.

(٣) الإنكشارية (يني جري: ***Yeniceri***): بمعنى القوات الجديدة، مصدرها الدرويش حاج بكتاش لي، ويقال أن أروخان بن عثمان (٧٢٧-٧٦١هـ) قد اصطحب الفرقة الأولى من هؤلاء المجندين إلى مسكن هذا الشيخ ورجاه أن يباركهم ويخلع عليهم اسماً، وهي فيالق عسكرية تكونت من أبناء رعايا الدولة الذين تم جمعهم ما بين السادسة والخامسة عشرة من عمرهم من مختلف الولايات العثمانية في أوربا في وقت معين من السنة، وقد قدمت الإنكشارية خدمات كبيرة للدولة في القرنين السابع عشر والثامن عشر ثم فسدت وتمردت على الدولة فقضى عليها السلطان محمود الثاني ١٨٢٦م (صابان، المرجع السابق، ص٤١).

(٤) أوجاق: كلمة تركية لها عدة معان: منها أنه أطلق على الصنف من الجند كالسباهية وهم فرق من العساكر في الجيش العثماني. (صابان، المرجع السابق، ص٤٢).

(٥) محمود عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، المرجع السابق، ص٣٩-٤٠.

(٦) مصطفى عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني، المرجع السابق، ص٤١.

(٧) راغب السرجاوي، الخلافة العثمانية، موقع ملتقى بني الحارث. ***http://www.hathi.org/articles*** ..محمد الصلابي، الدولة العثمانية، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٣، ص٣٥.

(٨) عجمي أوغلانر: الأولاد المجلوبون من النصارى عن طريق الدفشرمة بغية استخدامهم في الجيش العثماني (صابان، المرجع السابق، ص١٥١).

(٩) جبه جي (***Cebeci***): صانع الأسلحة ومصلحها، ويطلق على نوع من العساكر من أفراد قابي قولو، وظيفتهم توصيل الأسلحة إلى العساكر حتى الصفوف الأمامية أثناء الحروب، وسمي قائدهم جبه جبي باشي (***Cebeci basi***) وعلى تنظيمهم (***Cebeiocagi***). (صابان، المرجع السابق، ص٨٢).

(١٠) طوب (***Top***): الاسم العام للأسلحة النارية، وعلى كل سلاح يطلق قذائف حديدية أو حجرية استخدام المدفع

٥) طوب أرابه جيليري «عربات المدفعية».
٦) خمبره جيلير «سلاح الذخيرة»[١].
٧) سقالر «السقاؤون».

وكل هذه الأوجاقات تشكلت بالأساس من «الدفشرمة»[٢]، ولقد تأثرت التشكيلات الإنكشارية والمؤسسة العسكرية العثمانية ككل بالبكتاشية[٣].

إن تطور الجيش العثماني لم يكن بالقدر الكافي لمواكبة التطورات في الغرب ومجاراة القوى العظمى في قواها العسكرية وتطورها المتسارع ويمكننا القول أن الجيش العثماني تمتع بسمعة عسكرية قوية بين خصومه الأوروبيين حتى منتصف القرن السادس عشر ويعود ذلك إلى المنظومة العسكرية المحكمة الترابط[٤] التي أسلفنا التفصيل عنها وهي بمجملها ما يعرف بالجيش الإنكشاري الذي أرهب أعداء الدولة الأوروبيين، وكذلك إلى قوة السلطان باعتباره رأس الهرم في التنظيم العسكري والإداري وكذلك قوة الدولة المركزية[٥]، وبقي الأمر كذلك حتى القرن السابع عشر حيث بدأ الضعف يدب في أركان هذه المؤسسة القوية وتحولت هذه القوات التي كانت ترهب أعداء الدولة العثمانية إلى مصدر رعب وقلق لسلاطينها[٦].

ولقد ازدادت قوة الإنكشارية وازداد شغبهم وإزعاجاتهم بعد وفاة السلطان سليمان القانوني، وتوقف الفتوحات والتوسعات في الدولة فاقتصر دورهم على التمردات والعصيان والاعتداء على الأموال والأرواح حتى أنهم أصبحوا يتدخلون في سياسة الدولة وشؤون الحكم، وجرت عدة محاولات للوقوف في وجههم والقضاء على قوتهم والعمل من

الأول مرة عند العثمانيين قبل معركة كوسافا الأولى ١٣٨٩م وتطور في عهد محمد الفاتح وبلغ أوجه في عهد سليمان القانوني وكانت له أنواع كثيرة زربان - شقلوز... وغيرها. (صابان، المرجع نفسه، ص١٤٨-١٤٩).

(١) خمبرة (***Humbara***): أداة لقذف القذائف، وخمبر جي: قاذف القنابل، وخمبره كلمة فارسية معناها مدفع صغير. (صابان، المرجع نفسه، ص١٠٤).

(٢) الدفشرمة (***Devsirme***): مصطلح أطلق على أولاد النصارى الذين تم جلبهم للالتحاق بالسلك العسكري بشكل خاص وتتراوح أعمارهم بين (٨-١٥ سنة) وأحدث في عهد بلدرم بايزيد بعد الهزيمة في معركة أنقرة وكانوا بالبداية يجلبون من رعايا الدولة في ألبانيا واليونان وبلغاريا وصربيا والبوسنة والهرسك والمجر، ثم في نهاية القرن الخامس عشر بدئ بجلبهم من نصارى الأناضول ثم عمم الأمر على كافة رعايا الدولة من النصارى في القرن السابع عشر (صابان، المرجع نفسه، ص١١٥).

(٣) محمود عامر، المرجع السابق، ص٤٠-٤٤.
البكتاشية: طريقة صوفية أسسها الشيخ «محمد بن إبراهيم أتا» الشهير بالحاج بكتاش المتوفى سنة ١٣٣٦م، وقد كثر أتباع البكتاشية في تركيا، اتصلت البكتاشية بفرقة الإنكشارية التركية. وقد سار السلطان التركي أورجان مع فرقة الإنكشارية إلى الحاج بكتاشي، وطلب منه أن يباركها فوضع الشيخ يده على رأس أحد جنودها ودعا لهم، ومن هنا سمي الإنكشارية أنفسهم بالبكتاشية. وتوثقت العرى بين الطريقة البكتاشية وأقوى فرقة جيش في الدولة العثمانية حينها، وكان لكل ثكنة عسكرية إنكشارية مرشد بكتاشي، كما أقيمت تكية بكتاشية قرب كل معسكر للإنكشارية، وبذلك تسلطت البكتاشية على الإنكشارية تسلطاً تاماً إلى أن قضى السلطان محمود الثاني على نفوذ أتباع هذه الطريقة ومشايخها على الإنكشارية والدولة سنة ١٨٢٦م. (ممدوح الزوبي، الطرق الصوفية (ظروف النشأة وطبيعة الدور)، الأهالي للطباعة والنشر، سوريا، دمشق، ط١، ٢٠٠٤، ص١٨٣، ١٨٤).

(٤) ثريا الفاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، ترجمة حاتم الطحاوي، مراجعة عامر الأيوبي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨، ص١٧٠.

(٥) نزار قازان، سلاطين بني عثمان (بين قتال الأخوة وفتنة الإنكشارية)، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص١٠.

(٦) عبد الكريم رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، المرجع السابق، ص٢٩.

أجل القيام بإصلاحات داخل المؤسسة العسكرية للدولة العثمانية، فمنهم من دفع حياته ثمناً لذلك مثل السلطان عثمان الثاني (١٠٣٢/١٠٢٨#-١٦٢٢/١٦١٨م) ومنهم من اكتفى بتغييرات وإصلاحات بسيطة مثل السلطان مراد الرابع (١٠٥٠/١٠٣٣#-١٦٤٠/١٦٢٣م) وقام بتخفيض عدد جنوده إلى النصف الذين كان يبلغ عددهم ٧٠ ألفاً[١]، وألزم جنود الإنكشارية بالالتزام بالطاعة ومنعها من التجاوزات[٢].

أولى المحاولات الجادة لتطوير وإصلاح الجيش العثماني:

لقد كانت أولى المحاولات الجدية لتطوير وإصلاح الجيش العثماني (الإنكشاري) في القرن الثامن عشر حيث اعترفت الدولة العثمانية بالتفوق العسكري للدول الأوروبية وذلك من خلال قيامها بمحاولات إصلاحات عسكرية حقيقية في الجيش عن طريق الاستعانة بخبراء أوروبيين للاستفادة منهم في تطوير الجيش وإصلاحه.

وكانت أولى هذه المحاولات في عهد السلطان محمود الأول (١١٤٢/١١١٦#-١٧٣٠/١٧٠٤م) حيث تم استدعاء الخبير الفرنسي الكونت «دي بونيفال» (***De Boinfal***) ودخل في خدمة الدولة العثمانية واعتنق الإسلام وتسمى باسم «أحمد»، ثم منحته الدولة رتبة الوزارة فأصبح يُعرف باسم «أحمد باشا»، وأصبح رئيساً لجماعة الخمبرجيه[٣]، فأعاد تنظيم أوجاق الخمبرجيه، وقسمه إلى بلوكات وطوابير وآلايات[٤] وأحدث مدرسة عسكرية في منطقة الأسكودار (***askudar***) لتخريج الضباط وهي نواة المدرسة التي شُكلت أيام السلطان سليم الثالث (١٢٢٢/١٢٠٤#-١٨٠٧/١٧٨٩م) والتي عُرفت بـ«دار الهندسة البرية الهمايونية». وكانت المرة الثانية في أيام السلطان مصطفى الثالث (١١٨٨/١١٧١#-١٧٧٤/١٧٥٧م-١٧٧٤م)، حيث استدعت الدولة العثمانية البارون «دي توت» (***De Tout***) من فرنسا وكلفته بإصلاح أوجاق المدفعية، وقام هذا الخبير بإصلاح تشكيلات فرق الاستحكام وبناة الجسور، كما قام بتشكيل صف عسكري جديد عُرف باسم المدفعية السريعة (سرعت طوبيليري)، كما أصلح الطوبخانه[٥]، وأعاد وأعاد ترتيبها ودرب جنودها واعتبر إنشاء «دار الهندسة البحرية الهمايونية» في عهد مصطفى الثالث من أهم التحديثات للجيش في عهده سنة ١١٨٧#-١٧٧٣م، وأُعيد تنظيم جماعة المدفعية السريعة (سرعت طوبجيليري) وأنشئت مدرسة (سلاح المهندسين ١١٩٩#-١٧٨٤م) في عهد السلطان عبد الحميد الأول (١٢٠٤/١١٨٨#- ١٧٨٩/١٧٧٤م)[٦].

ولكن أهم محاولات الإصلاح كانت في عهد السلطان سليم الثالث (١٢٢٢/١٢٠٤#-١٨٠٧/١٧٨٩م) حيث قام بتشكيل جيش جديد على نمط الجيوش الأوروبية الحديثة، وكان

---

(١) أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق، المجلد ١، ص٤٠٦.

(٢) محمود عامر، مرجع سابق، ص١٦٢.

(٣) الخمبرجيه: خمبرجي (***Humbaraci***): هو قاذف القنابل، وهي فئة من الإنكشارية، وكانت عبارة عن ثلاثة أقسام تابعة لكبير الخمبرجيه. (سهيل صابان، المرجع السابق، ص١٠٤).

(٤) بلوك (***Bölük***): هي وحدة عسكرية مازالت تستخدم بتركيا تعني الفوج.
وطابور (***Tabur***): الوحدة العسكرية من المشاة في الجيش العثماني وكانت تضم أربع فرق. =
= وآلاي (***Alay***): المفرزة العسكرية وهي تعني الوحدات العسكرية ما بين الكتيبة واللواء، وقد عُد الآلاي الواحد ثلاثة كتائب من المشاة وكل كتيبة يتكون من ثمانية أفواج، وعُد خمسة أفواج من الخيالة آلايا، أما المدفعية فقد عُد ست بطاريات منها آلايا. (صابان، المرجع السابق، ص٦٥، ١٤٧، ٢٢، ٢٣).

(٥) الطوبخانه: الطوبجي، مدفعجي أو مطلق المدفعي، وطوبجيلق، سلاح المدفعية، مؤسسة المدفعية والطوبخانه، صب المدفعية، مسبك المدافع، معمل المدافع (محمود عامر، قاموس اللغة العثمانية (عثمان-عربي)، دار الصفدي، دمشق، ط١، ٢٠٠٠، ص٢٨٧).

(٦) أكمل الدين إحسان أوغلو، المرجع السابق، المجلد الأول، ص٤٠٦، ٤٠٧.

مرادفاً للجيش الإنكشاري كانت غايته إضعاف الجيش الإنكشاري والقضاء عليه، كما أمر بناء القلاع والحصون وتجديد السفن الحربية وتقوية الترسانة الحربية لجيشه بالمعدات اللازمة، وافتتح عدة مدارس عسكرية واستقدم المهندسين السويديين والفرنسيين وأمر بنصب مدافع جديدة بالاستعانة بخبراء فرنسيين، ولكن بالرغم من كل ذلك استطاعت القوى المتنفذة في الدولة من رجالات الإنكشارية «التي لم يرق لها هذه التغيرات» من أن تحبط هذه المحاولة وتفشلها وأن يتم إلغاء النظام الجديد للجيش ١٢٢٣#-١٨٠٨م[١]. وأمام هذه القوة المتزايدة للإنكشارية في الدولة العثمانية وعجز كثير من السلاطين من إضعافها أو القضاء عليها باعتبارها سبباً واقعياً في عدم تطوير الجيش العثماني بشكل فعلي وهذا أدى بالنتيجة إلى إضعاف الدولة العثمانية ككل فكان لابد من عملية إصلاح حقيقية وجذرية تقوم بالقضاء على هذه القوة التي أصبحت عبئاً على الدولة العثمانية بعد أن كانت مصدر قوتها وسيادتها، فجاء السلطان محمود الثاني (١٢٢٣/١٢٥٥#-١٨٠٨ /١٨٣٩م) لينجح في القضاء على الإنكشارية وإلغائها (١٢٤٣#-١٨٢٦م)، وأحدث مكانة تشكيل عسكري جديد سمي (عساكر منصوره محمديه)[٢]. وبذلك طويت مرحلة طويلة من تاريخ الجيش العثماني كان العنصر الوحيد المسيطر فيها هو الإنكشارية لتبدأ مرحلة جديدة لتشكيل الجيش العثماني الحديث على نمط الجيوش الأوربية المعاصرة لتلك المرحلة.

٣- تطور الجيش العثماني بعد إعلان التنظيمات (١٢٥٥#-١٨٣٩م):

إن من أهم التطورات في الجيش العثماني بعد إعلان قانون التنظيمات[٣]، هو إقرار الخدمة العسكرية باعتبارها واجباً وطنياً، ووضع قانون القرعة للدخول في الجندية، كما خفضت مدة الخدمة إلى خمس سنوات بموجب قانون صدر ١٢٥٩#-١٨٤٣م، وأضيف إلى القوات البرية التي كانت مكونة من خمس فيالق، فيلقين آخرين هما فيلق العراق والحجاز سنة ١٢٦٤#-١٨٤٨م، واستعانت بالنظم الفرنسية لتطوير وحدات المشاة والخيالة، ولتطوير المدفعية استعانت بالنظم البروسية، وفي سنة ١٢٦٣#-١٨٤٧م فُرضت الجندية على غير المسلمين الذين كانوا سابقاً يدفعون الجزية بدلاً من الخدمة في الجيش العثماني، ولكن في سنة ١٢٧٣#-١٨٥٦م أعفي غير المسلمين من الخدمة العسكرية مقابل دفع ضريبة عُرفت بـ«البدل العسكري»

واستمر الاهتمام بالجيش والشؤون العسكرية في عهد السلطان عبد العزيز (١٢٧٨/١٢٩٢#-١٨٦١/١٨٧٥م) حيث ألبس الجيش العثماني زياً عسكرياً جديداً وجُهز

---

(١) أكمل الدين إحسان أوغلو،المرجع نفسه، ص٤٠٧، ٤٠٨، وانظر أيضاً: محمود عامر، المرجع السابق، ١٨٦.

(٢) أكمل الدين إحسان أوغلو، المرجع السابق، ص٤٠٩.

* العساكر المنصورة المحمدية (***Asakir-Imansure-Mahammedye***): الاسم الذي أطلق على تشكيلات العساكر المنظمة بعد إلغاء الإنكشارية على يد السلطان محمود الثاني ١٨٢٦، وكانت تتكون من ثمانية أقسام أو قطع، أطلق على الواحدة ترتيب، يرأس كل واحد منه مقدم، ويرأسه جميعاً أميراً مراء وكان كل ترتيب يتكون من ستة عشر صفاً، يقع كل صف تحت إمرة نقيب في خدمته ملازمان اثنان ويتوافر في كل ترتيب مدفعية. (صابان، المرجع السابق، ص١٥٤، ١٥٥).

(٣) خط شريف كلخانه (***Gülhanehatt-Hümayünu***) نسبة إلى قصر كلخانه (قصر الزهور) الذي قرأ فيه مصطفى رشيد باشا فرمان السلطان عبد المجيد (١٨٣٣-١٨٦١م) المشهور الذي أعلن فيه رسمياً البدء بإجراء تغيرات جذرية في جميع مؤسسات الدولة، وعدم التفرقة بين المواطنين في الحقوق، دون النظر إلى أديانهم ومذاهبهم أو انتمائهم القومي، وكان هذا أول عهد دستوري في تاريخ الدولة العثمانية وضع قواعد الإصلاح على المبادئ الأوربية. (صابان، المرجع نفسه، ص١٠١، ١٠٢).

بالأسلحة الحديثة وأُصلحت الطوبخانه والمدارس العسكرية، وفي سنة ١٢٨٦#-١٨٦٩م قسم الجيش العثماني إلى ثلاثة أقسام وهي: النظامية والرديف والمستحفظة، وقسمت القوات البرية العثمانية كما أسلفنا إلى سبع فيالق (جيوش) وهي:

جيش الخاصة[١] في «استانبول»،

وجيش الطونة ومركزه في «شمني»،

والثالث هو «جيش الروملي» ومركزه «مناسة»،

والرابع «جيش الأناضول» مركزه «أرضروم»[٢]،

والخامس «جيش الشام» ومركزه «دمشق»،

والسادس «جيش عربستان» ومركزه «بغداد»،

والسابع «جيش اليمن ومركزه في «اليمن».

واعتمد الجيش العثماني في تعليمه في ذلك الوقت على المناهج البروسية، واستعانوا بالضباط الأجانب، وتأسست في عهد السلطان عبد العزيز نظارة الحربية «حربية نظارتي»، وشُيد بناء جديد للكلية الحربية «حربية مكتبي»[٣]. واستمرت أعمال التجديد والتحديث في الجيش العثماني في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٣٢٦/١٢٩٣#-١٩٠٨/١٨٧٦م) والتي سيكون لها شرح مفصل لاحقاً.

وحيث سيتم التركيز على التعاون الألماني-العثماني في عهد عبد الحميد الثاني من أجل تطوير الجيش العثماني وتحديثه والمحاولة لجعله مجارياً لجيوش عصره من الجيوش الأوروبية الحديثة والمتطورة جداً في ذلك الوقت والتي حققت الغلبة والتفوق عليه في كثير من الميادين وساحات القتال في تلك المرحلة الخطيرة من تاريخ الدولة العثمانية.

٤- الدور الألماني في تدريب الجيش العثماني قبيل فترة عبد الحميد الثاني:

بعد وفاة السلطان سليمان القانوني وانتهاء عصر القوة للدولة العثمانية وبداية مرحلة الضعف التي كان من أهم أسبابها ضعف بنية الجيش العثماني الذي كان العماد الأساسي لقوة الدولة ومن أجل ذلك رأينا سابقاً كيف حاول العديد من السلاطين العثمانيين اللاحقين القيام بعدة محاولات من أجل إصلاح هذا الجيش وإعادته إلى عهد قوته القديمة ولكن هذه المحاولات بمجملها لم تصل بالدولة إلى الدرجة التي تعيدها إلى مصافي الدول القوية بين أقرانها في ذلك الوقت، ولقد نجح لحد ما كلٍ من السلطان سليم الثالث ومحمود الثاني بأن يعيدا لجيش الدولة العثمانية بعضاً من قوته عن طريق القيام بعض التحديثات والتطويرات في بنية وتكوين هذه المؤسسة مستعينين بالخبرات الأوروبية التي كانت قد سبقت العثمانيين بزمن بقوتها العسكرية وأمام ازدياد هزائم القوات العثمانية أمام أعدائها وخاصة بعد هزيمتها أمام قوات محمد علي والي مصر في أيام السلطان محمود الثاني كان من رأي الأخير أن يقوم بتغيرات جذرية في بنية جيشه وخاصة بعد أن لحقت بها هزيمة أخرى أمام القوات اليونانية في معركة نافارين المدعومة بالقوات الأوروبية من ورائها، فاتجهت

---

(١) جيش الخاصة (***Hassa ordusu***): الاسم الذي أطلق على الجيش الأول الذي كان يعسكر في استانبول قبل حركة الدستور العثماني (١٩٠٨) وكان مكلفاً أيضاً بحماية القصر. (سهيل صابان، المرجع السابق، ص٨٩).

(٢) أرضروم (أرض الروم): مدينة تقع شمال شرق تركية ٤٨% من سكانها أكراد والبقية شركس وأرمن حالياً. ويكيبديا ***www//arb.wikipidia***.

(٣) أكمل الدين إحسان أوغلو، المرجع السابق، المجلد الأول، ص٤١٠، ٤١١، ٤١٢.

أنظاره إلى أوروبا من أجل الاستعانة بخبراء منها من أجل تطوير جيشه[١]، وكان له ما أراد كما أسلفنا سابقاً حيث قام بالقضاء على الجيش الإنكشاري ليحدث مكانه جيشاً حديثاً على النمط الأوروبي (جيش العساكر المنصورة المحمدية).

أما بالنسبة لبدايات التعاون العسكري بين الدولة العثمانية وألمانية فيبدو أن بداية العلاقات السياسية التي مهدت لعلاقات عسكرية فيما بعد بدأت في مرحلة «حرب السنوات السبع»[٢] (١٧٥٦-١٧٦٣م)، وذلك عندما حاولت بروسيا جر الدولة العثمانية إلى عقد تحالف معها موجهاً ضد روسيا والنمسا، ولكن هذه المحاولة لم تنجح بسبب ضعف الدبلوماسية البروسية في الآستانة من جهة وبسبب عدم رغبة الباب العالي في التورط «بالمسألة الأوروبية». من جهة أخرى، ولكن بالرغم من فشل بروسيا في جذب العثمانيين إلى طرفهم في ذلك الوقت، إلا أنها ولأسباب تتعلق بالتوازن الأوروبي عملت جاهدة على دعم الدولة العثمانية ومساعدتها خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر وذلك في تصديها للخطر الروسي[٣].

أما عن أولى المساعدات العسكرية للدولة العثمانية من قبل الألمان فكان في عهد السلطان «سليم الثالث» (١٧٨٩-١٨٠٧)، الذي استعان بخبراء بروسيين من أجل تطوير منظومة المدفعية وتدريب ضباط هذا الاختصاص وتطويره[٤].

أما المرة الثانية فكانت في عهد السلطان محمود الثاني، فقد شهدت هذه المرحلة نقطة تحول مهمة في السياسة الألمانية تجاه المسألة الشرقية والدولة العثمانية، ولعبت الدبلوماسية البروسية دور الوساطة في مفاوضات السلام التي جرت بين الدولة العثمانية وروسيا عام ١٢٤٥#-١٨٢٩م وذلك أثناء عقد صلح أدرنة في نفس العام. حيث أوفدت الجنرال موفلينغ (***Müffling***) للقيام بهذا الدور[٥]. كما حصلت الدولة العثمانية على مساعدات عسكرية من الدولة البروسية (الألمانية) في الفترة ما بين (١٢٥٠/١٢٥٥#-١٨٣٤-١٨٣٩م) حيث وافق الإمبراطور الألماني فريدريك وليم الثالث (***Friedrich Wilhelm III***) على إرسال بعثة عسكرية ألمانية برئاسة الكابتن في الحرس الملكي البروسي هلموت فون مولتكه (***Helmuth von moltke***)، إلى الدولة العثمانية وذلك من أجل تدريب الجيش الجديد الذي أنشأه السلطان محمود الثاني (جيش العساكر المنصورة المحمدية) والذي استوحي نظامه من الجيش البروسي[٦].

وصلت البعثة الآستانة في سنة ١٢٥١#-١٨٣٥م في زيارة خاصة كانت محددة بستة أشهر فامتدت لتصل إلى أربع سنوات عمل فيه «مولتكه» مستشاراً عسكرياً في الدولة

---

(١) ***Ilber ortayli: Osmanli Imparator Luğu'nada Alman Nüfuzu, istanbol, 1981, Osmani, Imparator luğu'nda Alman Nüfuzu, op-cit. P.105***

(٢) حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣): حرب جرت بين كل من بريطانيا وبروسيا ودولة هانوفر ضد كل من فرنسا النمسا روسيا السويد سكسونيا، ودخلت أسبانيا والبرتغال متأخرة هذه الحرب. وكانت من أسبابها المنافسة الاستعمارية بين بريطانيا وفرنسا في أمريكا، والسبب الثاني الصراع حول السيطرة والنفوذ في ألمانيا قبل توحدها. انتهت هذه الحرب بعد معاهدة باريس ١٧٦٣ وثبتت بروسيا الجديدة كدولة عظمى. (***www.ar.wikipedai.org***).

(٣) سنو، عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص٣٣، ٣٤.

(٤) ***Ilber ortayli: Osmani, Imparator luğu'nda Alman Nüfuzu.op.cit. P.169***

(٥) علي محافظة، المرجع السابق، ص٣٤.

(٦) ***Ilber ortayli, ikipost Hükümdar, op.cit, P.59***
عبد الرؤوف سنو، المرجع السابق، ص٣٤.

العثمانية وكانت مهمته تقوم على إعادة تنظيم الجيش العثماني والعمل على تدريب القوات الجديدة حسب الأساليب الدفاعية الأوروبية الحديثة، ولقد كان للقائد «مولتكه» دوراً هاماً في تنظيم دفاعات الجيش العثماني في شمال بلاد الشام والأناضول، وذلك قبيل معركة نصيبين سنة ١٢٥٥#-١٨٣٩م بين الجيش العثماني وجيش محمد علي باشا والي مصر[١].

وهكذا نرى أنه اعتباراً من هذه المرحلة بدأت الدولة العثمانية بتوجيه أنظارها إلى الاستعانة بالخبرات العسكرية نحو بروسيا وذلك بسبب عدة عوامل، منها: محاولة محمود الثاني القيام بتطوير جيشه وتغيره على النمط الأوروبي وإعجابه بمستوى الجيش البروسي في ذلك الوقت، وأيضاً سبب آخر أكثر أهمية ألا وهو قيام روسيا بعرقلة استعانة الدولة العثمانية بمستشارين عسكريين بريطانيين، وأيضاً إحراز الجيش البروسي التقدم العسكري وضخامة جيشه ابتداءً من تلك المرحلة، كل هذه العوامل عملت على زيادة تورط بروسيا (ألمانيا) في المسألة الشرقية وبتوطيد علاقاتها أكثر مع الدولة العثمانية[٢] التي ستطور أكثر مع الوقت كما سنرى فقامت بإرسال العديد من الضباط الألمان فيما بعد للدولة العثمانية سنة ١٢٥٣#-١٨٣٧م ومنهم القادة (فيشر (***Fischer***) ومولباخ (***Molbach***) وفون فنكه(***Von Winte***)) وكان هؤلاء يرسلون للعمل في الدولة العثمانية مع الحفاظ على رتبهم وأحوالهم في الجيش الألماني[٣].

ثم بعد مرحلة محمود الثاني جاءت مرحلة التنظيمات وقد فصلنا سابقاً كيف انعكست هذه المرحلة بشكل كبير على الجيش العثماني وعلى العمل على تطويره وبالتالي ازداد التعاون العسكري ما بين الدولة العثمانية وبروسيا، حتى بدا الجيش العثماني مقلداً للجيش البروسي في معظم شؤونه من مسائل تدريبية وتجهيزات عسكرية وحتى اللباس.

فالمدارس العسكرية الحديثة التي أنشأت في تلك المرحلة جيء بالخبراء الفرنسيين والبروسيين من أجل الإشراف على هذه المدارس والكليات، وأعطي الجيش العثماني لباساً عسكرياً موحداً مستوحى من لباس الجيش البروسي، وصدر قانون الخدمة الإلزامية المستوحى من القانون البروسي لسنة (١٢٣٠#-١٨١٤) والذي حُددت فيه سنوات الخدمة الإلزامية العسكرية التي كانت تجرى بالقرعة حيث يخدم المجند خمس سنوات، والاحتياطي مدته (٧ سنوات) ويُسرح العسكري في سن (٣٢)، وفي سنة (١٢٨٦#-١٨٦٩م) تكون الجيش العثماني من ثلاثة فئات بالنسبة للخدمة العسكرية وهي:

خدمة عاملة (نظامية لمدة أربع سنوات)، الاحتياطي (٧ سنوات)، والحرس (مستحفظ) ويبقى لمدة (٨ سنوات)، وهذا التقسيم يجاري نظام الجيش الألماني (البروسي) وبالمجمل يمكن القول أنه حتى ثمانينات القرن التاسع عشر كان الجيش العثماني يأخذ عتاده وأساليبه العسكرية والخبراء من بلدان أوروبية مختلفة (بريطانيا - فرنسا – بروسيا)[٤].

٥- الدور الألماني في تدريب الجيش العثماني في عهد عبد الحميد الثاني (البعثات العسكرية):

ابتداءً من سنة ١٢٧٧#-١٨٦٠م بدأ الجيش الألماني يحرز تقدماً ملحوظاً نتيجة لتقدم الدولة الألمانية ونهضتها في مختلف المجالات الاقتصادية والعلمية وبالتالي العسكرية، فسجل

---

(١) سنو، المرجع نفسه، ص٣٤.
(٢) المرجع نفسه، ص٣٤.
(٣) ***Ilber ortayli, Osmani Imparator luğu'nda Alman Nüfuzu, op.cit, P.105***
(٤) مانتران، روبير، المرجع السابق، ج٢، ص٩٦، ٩٧، ٩٨، وص٢٢٣.

الجيش الألماني قفزة نوعية على الصعيدين الأوروبي والعالمي، وبدأ يحرز تقدماً ونقلة نوعية في خبرة قواته البرية والبحرية، على الرغم من المنافسة الكبيرة من قبل البحرية البريطانية وقواتها العسكرية على الساحة الأوروبية وكذلك القوات الفرنسية والروسية ومع تطبيق الدولة الألمانية لمبدأ الخدمة الإلزامية في الجيش، جعل نسبة الاحتياطي من جيشها كبيراً جداً فقد بلغ في سنة (١٢٨٣#-١٨٦٦م) حوالي (٣٠٠) ألف جندي، وقبيل الحرب المشهورة بين ألمانيا وفرنسا في سنة (١٢٨٧#-١٨٧٠م) أصبح أعداد أفراد الجيش الألماني ما يقارب مليون ومئتا ألف جندي، وبعد الانتصار الكبير الذي أحرزته القوات الألمانية على القوات الفرنسية في هذه الحرب وتوحد ألمانية في نفس السنة على يد مستشارها الحديدي «بسمارك»، أصبح الجيش الألماني من الجيوش التي يحسب لها حساب على جميع الأصعدة في الساحة الأوروبية والعالمية[١]، وهذه من الأسباب والعوامل التي جعلت السلطان عبد الحميد الثاني الذي تسلم الخلافة في سنة (١٢٩٣#-١٨٧٦م) من المعجبين بهذه القوة العسكرية الأوروبية الجديدة وخاصة بعد إدراكه لمدى ضعف قواته العسكرية بعد أحداث تمردات وثورات البلقان والمواجهة مع روسيا (١٢٩٣#-١٨٧٦م) وأيضاً محاصرة الدول الأوربية الكبرى للدولة العثمانية ومحاولة تقسيمها والقضاء عليها كل ذلك جعل ألمانيا هي المرغوبة لدى السلطان عبد الحميد في الاستعانة بها من أجل تحسين وضع قواته وجيشه وتسليحه وإعادة بناءه.

أ- التعاون العسكري الألماني - العثماني في فترة بسمارك:

لقد أسلفنا سابقاً كيف أن المستشار الألماني بسمارك بعد تسلمه للمستشارية الألمانية وقيام الوحدة الألمانية ١٢٨٨#-١٨٧١م، انتهج سياسة خارجية قائمة على تحقيق التوازن بين القوى الأوروبية الكبرى وذلك من أجل الحفاظ على السلام في وسط القارة، وأيضاً من أجل الحفاظ على الدولة الألمانية الحديثة التي خرجت قوية بعد حرب السبعين مع فرنسا.

ومن أجل تحقيق ذلك دخل في العديد من التحالفات الدولية من أجل ضمان مصالح ألمانية ونفوذها في ساحة الصراعات الدولية في العالم ومن هذه التحالفات اتحاد القياصرة الثلاثة (***Dreikaisersbund***) ١٢٩٩#-١٨٨١م ومع النمسا والمجر ١٢٩٧#-١٨٧٩م، ومع النمسا والمجر وإيطاليا (***Triple Alliance***) ١٣٠٠#-١٨٨٢م، واتفاقاً سرياً مع روسيا سنة ١٣٠٥#-١٨٨٧م (***Reinsuran cetreaty***) وكل هذه الأحلاف والاتفاقيات غايتها عزل فرنسا دولياً[٢]. كما عمل من ناحية أخرى على عدم قيام تحالفات بين الدول الأوروبية الكبرى ضد ألمانيا، فاستغل الخلافات بين هذه الدول حول المسألة الشرقية وراح يقوم بدور الإصلاح وتحقيق التوافق بين هذه الدول حول هذه المسألة. فيما أن ألمانيا ليست لها أطماع في الدولة العثمانية كما هي الحال لدى روسيا والنمسا وإنكلترا أو فرنسا وقد اشتهر عن بسمارك قوله: «إن الدولة العثمانية لا تساوي عندي دم جندي بروسي واحد».

فلذلك وجد بسمارك في ممتلكات الدولة العثمانية وسيلة لتحقيق سياسة التعويض (***Compensation***)[٣] وعمل على تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بين الدول الكبرى بغية الحفاظ على وضع التفوق لألمانيا في أوروبا وشجع هذه الدول على الاستيلاء على ممتلكات الدولة العثمانية وتوجيه أنظارها بعيداً عن دولته أو التحالف ضدها ولعب دائماً

---

(١) ***Ilber ortayli, Osmani Imparator luğu'nda Alman Nüfuzu, op.cit, P.106, 109***

(٢) عمر، عمر عبد العزيز عمر، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر ، المرجع السابق، ج٢، من ص٢١٢، إلى ص٢٢٥. للتوسع حول سياسة التعويض الألمانية.

(٣) عمر،عمر عبد العزيز عمر،المرجع نفسه ج٢، ص١٩٩، ٢٠٠.

دور المنزه عن كل هذه الصراعات بل وكان في كثير من الأحيان المصلح بينها[١].

أما عن فكرة تسليح الجيش العثماني والمساعدات العسكرية للدولة العثمانية فقد رأينا أنها بدأت في فترة سابقة، وكان هناك علاقات عسكرية بين الدولتين الألمانية والعثمانية، واستمرت كذلك في عهد بسمارك.

فعلى الرغم من أنه عُرف عن بسمارك من خلال مذكراته عدم رغبته في إقامة علاقات أو عن وجود مطامع له في الدولة العثمانية ولكن الوثائق والحقائق تثبت عكس ذلك فلقد شهدت مرحلة بسمارك تطوراً ملحوظاً في العلاقات بين ألمانيا والدولة العثمانية من كل النواحي وخاصة من الناحية العسكرية وظهر ذلك جلياً بعد الحرب العثمانية - الروسية (١٢٩٥/١٢٩٤#-١٨٧٨/١٨٧٧م)، حيث كشفت هذه الحرب مدى الضعف الشديد في إمكانيات وتجهيزات *الجيش العث*ماني وأمام هذه المشكلة عمل السلطان عبد الحميد الثاني من أجل البحث عن حل لها والعمل على تقوية الجيش العثماني وتطويره بعيداً عن الاعتماد الكامل على بريطانيا وفرنسا في هذا المجال، فوجه أنظاره نحو ألمانيا تلك الدولة الأوروبية القوية الحديثة والتي بدت له غير طامعة بممتلكات إمبراطوريته، وخاصة بعد ظهورها كدولة قوياً عسكرياً بعد حرب١٢٨٧#-١٨٧٠م مع فرنسا[٢]. ولقد سنحت لبسمارك فرصة التقارب مع الدولة العثمانية والظهور بمظهر الصديق بعد مؤتمر برلين ١٢٩٥#-١٨٧٨م، وترأس بسمارك هذا المؤتمر، حيث أخذ بسمارك يعمل على كسب صداقة الدولة العثمانية، منطلقاً من عدة محاور ارتكزت عليها سياسة التقارب هذه،

المحور الأول: ارتكز حول إصلاح الإدارة العثمانية متمثلاً ببعثة فيتندروف ١٢٩٨#-١٨٨٠م (***Wittendorf***)، أما المحور الثاني: فكان إعادة تنظيم الجيش العثماني وتمثلت بإرسال البعثات العسكرية والضباط الألمان من أجل تدريب الجيش العثماني، فأرسلت بعثتان في عهد بسمارك وهي بعثة أوتوكولير (***Otto Köhler***) وبعثة فون درغولش ١٣٠١#-١٨٨٣م (***Von der Goltz***). أما المحور الثالث والأخير: فهو تطوير تسليح الجيش العثماني من خلال تزويده بالأسلحة الألمانية وتمت أولى هذه الصفقات سنة ١٨٨٣م[٣]. مع محاولة الابتعاد عن التورط في تحالفات مع الدولة العثمانية، حتى لا يثير حفيظة الدول الأوروبية الكبرى وخاصة روسيا وفرنسا وإنكلترا.

كما تم خلال هذه الفترة رفع المستوى الدبلوماسي بين البلدين وذلك اعتباراً من سنة ١٢٩٣#-١٨٧٦م من مفوضية إلى سفارة وبذلك نرى أن الاهتمام بشؤون الدولة العثمانية ومستقبلها من قبل ألمانية قد ازداد بشكل ملحوظ في فترة بسمارك[٤]، وبالعودة إلى البعثات العسكرية والتعاون العسكري في فترة بسمارك، فأشهرها البعثة التي وصلت إلى الدولة العثمانية في نيسان سنة ١٣٠٠#-١٨٨٢م بعد ما يقارب العامين من المفاوضات بين الدولتين الألمانية والعثمانية حول مهام هذه البعثة وأعضائها ورواتب ومستحقات الضباط الذين كلفوا بالعمل لدى الدولة العثمانية في تدريب الجيش العثماني[٥].

فلقد تقدمت الدولة العثمانية بطلب لدى السفير الألماني في استانبول البارون فون

---

(١) سنو، المرجع السابق، ص٣٦، ٣٧.
(٢) محافظة، المرجع السابق، ص١٣.
(٣) سنو، المرجع السابق، ص٣٧، ٣٨. و ***Kazim Karbekir, op-cit. P.139***.
(٤) محافظة، المرجع السابق، ص١٥.
(٥) محافظة، المرجع نفسه، ص١٤.

هاتسفيلد (***Von Hatzfeld***) في ١٨٨٠/٥/١٤م، من أجل إرسال بعثة عسكرية ألمانية للإشراف على تنظيم وتدريب القوات العثمانية، فنقل السفير هذا الطلب إلى المستشار الألماني بسمارك الذي أوصى القيصر الألماني بالموافقة على الطلب كما أنه علق على هامش المذكرة المقدمة للقيصر بالعبارة التالية: «إن وجود الضباط الألمان في الأراضي العثمانية سوف يهيئ لهم الفرصة لتحسين تدريبهم العسكري وإثراء خبرتهم، كما أن الحكومة الألمانية قد تحصل على مزيد من وسائل النفوذ في الدولة العثمانية»، ولم يكتفِ بذلك فقط بل وأشرف بشكل شخصي على المفاوضات بين الدولتين حول هذا الشأن، ولقد اعتبر بسمارك العروض التي قدمتها الدولة العثمانية حول رواتب ورتب الضباط الألمان في البعثة أمراً مغرياً، وأضاف معلقاً على التقرير الذي قُدم للقيصر: «بأن البعثة قد تكون مفيدة جداً لأعضائها من حيث الناحية التدريبية كما أنها سوف تزودنا بنفوذ ومخبرين». ولقد أراد بسمارك أن يكون تعين الضباط الألمان في الجيش العثماني بصفتهم ضباطاً متقاعدين لا بصفتهم ضباطاً معارين، وذلك حتى لا يثير حفيظة الدول الأوروبية الكبرى. ولكن رئيس هيئة الأركان في القوات الألمانية المارشال هلموت فون مولتكه (***Helmuth Von Moltke***) رفض ذلك وأراد أن يكون وضع هذه البعثة مشابهاً لوضع البعثة التي أرسلت بقيادته إلى الدولة العثمانية سنة ١٢٥٥#-١٨٣٩م. وفي نيسان من سنة ١٣٠٠#-١٨٨٢م وصلت هذه البعثة العسكرية إلى استانبول برئاسة الجنرال أوتو كولير (***Otto Köhler***)، ولكنه توفي في سنة ١٣٠٣#-١٨٨٥م فخلفه في رئاسة البعثة الكولونيل فون ديرغولتس (***Freiherr Von der Goltz***) ولقد عين مفتشاً عاماً للمدارس العسكرية ومستشاراً في القيادة العامة للقوات العثمانية وبقي في منصبه حتى نهاية عام ١٣١٣#-١٨٩٥م[١].

لقد ضمت البعثة الكثير من الضباط الهامين مثل لويس كامبهوفن (***Louis Kamphovener***) حيث بلغ رتبة المارشال في الدولة العثمانية وتولى منصبه المفتش العام لقوات المشاة، وهانس فون هوبي (***Hans Von Hobe***) وكان قائداً في سلاح الفرسان الألماني وعمل بالبعثة بين سنتي ١٣٠٠#-١٣١٢/١٣٠٠-١٨٨٢/١٨٩٤م، ثم عين مكانه كمفتش عام لسلاح الفرسان في الجيش العثماني القائد فون بروكدورف (***Freiherr Von Brockdorff***) والمفتش العام لسلاح المدفعية الضابط الألماني الميجور رستوف (***Ristow***) وشغل هذا المنصب بين سنتي ١٣٠٠#/ ١٣٢، وكذلك الميجور كارل أولر (***Carl Auler***) وكان مفتشاً لسلاح الهندسة بين عامي ١٣١٩#-١٣٢٦/١٣١٩-١٩٠٨/١٩٠١م[٢].

ولقد قال بسمارك في إحدى تصريحاته حول الهدف من التعاون العسكري مع الدولة العثمانية ليس هدفاً سياسياً وإنما للحصول على مزيد من النفوذ الألماني في الدولة العثمانية، واستخدام الجيش العثماني، المزود بالسلاح الألماني وتحت الإشراف الألماني ضد روسيا في حال أصبحت هذه الدولة، عدوة السلطنة فستكون بالتالي عدوة لألمانيا[٣].

وقد اختار بسمارك مجموعة من أفضل الدبلوماسيين الألمان للعمل من أجل تنفيذ هذه السياسة، من مثل الغراف فون هاتسفلدت - فيلدبنورغ (***Von Hatzfeldt-Wildenburg***) وكان سفيراً لألمانيا في الدولة العثمانية بين عامي ١٢٩٥#-١٢٩٩/١٢٩٥-١٨٧٨/١٨٨١م، وكذلك فون

---

(١) محافظة، المرجع السابق، ص١٤، سنو، المرجع السابق، ص٣٧.
(٢) محافظة، المرجع نفسه، ص١٤.
(٣) سنو، المرجع السابق، ص٣٨.

رادوفيتس (***Von Radowitz***) وكان أيضاً سفيراً لألمانيا في الدولة العثمانية واعتبر من أهم ممثلي سياسة بسمارك تجاه الدولة العثمانية في تلك المرحلة، واعتبر المعين الحقيقي لبسمارك في تطبيق سياسته تجاه الدولة العثمانية وبقي يشغل منصب السفير الألماني في استانبول لمدة عشر سنوات ١٣٠٠/١٣١٠#-١٨٨٢/١٨٩٢م.

كما تم في عهده تسليح الجيش العثماني وتسليمه كمية من الأسلحة الألمانية عام ١٣٠٥#-١٨٨٧م، بعد أن حصلت شركة لوفي وموزر (***Löwe und Mouser***) على صفقة مع الدولة العثمانية لتزويد الجيش العثماني بالأسلحة اللازمة. وبالرغم من كل هذا التطور والدعم من قبل بسمارك للدولة العثمانية إلا أنه لم يحاول الخروج عن سياسة التوازن الأوروبي الذي اتبعها منذ تسلمه الحكم[١]. ولكن بعد عهد بسمارك سنرى كيف أنه سيحدث تحول نوعي في الدعم الألماني للدولة العثماني وتطوير العلاقات بين البلدين فور تسلم الإمبراطور غليوم الثاني للحكم في ألمانيا وإبعاد بسمارك عن سدة القيادة في البلاد.

ب- التعاون العسكري الألماني-العثماني في فترة الإمبراطور غليوم الثاني:

في ٢٧ كانون الثاني من سنة ١٢٧٦#-١٨٥٩م ولد الأمير فريدريك غليوم فكتور ألبرت هوهنزولزن، والده الأمير فريدريك الثالث ووالدته الابنة البكر لملكة إنكلترا فكتوريا وفي ٢٧ شباط لسنة ١٢٩٩#-١٨٨١م م تزوج الأميرة أوغستافكتوريا، حيث أنجبت له سبعة أبناء.

وفي ١٥ تموز من سنة ١٣٠٦#-١٨٨٨م تسلم الأمير فريدريك مقاليد حكم الإمبراطورية الألمانية بعد وفاة والده الإمبراطور[٢] غليوم الأول، ثم ما لبث أن توفي القيصر فريدريك الثالث، لينادى بغليوم الثاني قيصراً على ألمانيا.

وقد قيل عن غليوم الثاني أنه كان رجلاً ألمانياً[٣] عالي المواهب، وتفوق على أقرانه بسرعة الفهم وموهبة التحدث، وكان محبوباً بين أقرانه وأوساط المجتمع السياسي وحتى الديني في القصر وخارجه، وكان محباً للفكاهة والدعابة وكان ميالاً إلى كل ما هو جديد وفيه روح المغامرة والتغير ولذلك عُرف عنه ميله إلى الرغبة في التغيير والإصلاح في كل شيء وهذا سبب له الكثير من التصادمات مع رجالات السياسة الألمانية القدماء، وخاصة مع بسمارك، بعد تسلمه لمقاليد الحكم في الإمبراطورية الألمانية[٤]، ويمكننا القول أن عصر الإمبراطور غليوم الثاني أحدث نوعاً من الثورة على السياسة الداخلية والخارجية للإمبراطورية الألمانية، وخاصة على سياسة المستشار المخضرم بسمارك وسيؤدي هذا إلى حدوث تصادم بين الطرفين والذي انتهى بإعفاء بسمارك من مهامه في رئاسة الحكومة الألمانية من قبل الإمبراطور غليوم الثاني بعد فترة من صعود الأخير إلى سدة الحكم[٥]، ولعل أبرز هذه التطورات والتحولات كانت حول السياسة الألمانية تجاه

---

(١) سنو، المرجع نفسه، ص٣٨.

(٢) الكتبي، المصدر السابق، ج١٥، ص٤٥٠، ٤٥٢، والأسود، المصدر السابق ص٢١، ٢٢، وفالنتين فايت، تاريخ ألمانيا، المرجع السابق، ص٣٦٢.

(٣) الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة العربية، محمد الأحمد، دمشق، ٢٠٠٦، ط١، المجلد ١٤، ص١٤.

(٤) فالنتين، فايت، المرجع السابق، ص٣٦٢، ٣٦٣.

(٥) لقد كان الإمبراطور غليوم الثاني شاباً طموحاً متطلعاً إلى التغيير والمغامرة في كثير من الأحيان، بينما كان بسمارك رجلاً عجوزاً له أفكاره الثابتة والراسخة في السياسة الخارجية والداخلية، ورؤية اعتبرت في كثير من الأحيان تقليدية وجامدة بالنسبة للإمبراطور الشاب على الرغم من تقدير الإمبراطور لخدمات بسمارك واحترامه الشديد لشخصيته واعتباره في كثير من الأحيان مثلاً يحتذى في الحياة، وبالرغم من كل ذلك كانت نهاية العلاقة بين بسمارك والإمبراطور غليوم الثاني هي إعفاء بسمارك من مهامه في الحكم بسبب

العلاقات الألمانية ـ العثمانية والتي شهدت تطوراً ملحوظاً في جميع النواحي فترة حكم الإمبراطور غليوم الثاني وخاصة بعد علاقة الصداقة التي ربطت بين السلطان عبد الحميد الثاني والإمبراطور غليوم الثاني.

ولقد رأينا سابقاً أنه كيف كان السلطان عبد الحميد الثاني يحاول جاهداً تطوير هذه العلاقات وتقويتها، وذلك بسبب سوء العلاقات بين الدولة العثمانية والدول الأوربية الأخرى، التي بدأت تظهر أطماعها بأملاك الدولة العثمانية وراحت تقتطع منها أجزاء بحجة الحماية وغيرها، ورأينا كيف أن عبد الحميد الثاني رأى بالدولة الألمانية صديقاً وحليفاً قوياً ظن أنه يمكن الاستعانة والاعتماد عليه من أجل الوقوف في وجه الدول الطامعة بأملاك دولته.

كان الإمبراطور غليوم الثاني من الطرف الآخر يرى في هذه العلاقة سبيلاً للحاق بركب الدول الاستعمارية الأخرى، والحصول على بعض المكاسب والمكانة الدولية بين الدول العظمى عن طريق الحصول على الامتيازات العسكرية والاقتصادية في الدولة العثمانية، متخذاً من الصداقة والعلاقات الودية سبيلاً للوصول إلى ذلك عكس ما قامت به الدول الأوروبية الأخرى التي اتخذت من الوسائل العسكرية سبيلاً للسيطرة على ممتلكات الدولة العثمانية وأراضيها.

ولكن طريق الإمبراطور غليوم الثاني لم تكن مفروشة بالورود من أجل الوصول إلى أهدافه هذه، فلقد كانت أمامه الكثير من العقبات الداخلية والخارجية التي عمل جاهداً من أجل تخطيها حتى يصل إلى غايته المنشودة.

ولقد كانت من أهم المشكلات التي واجهته بعد استلامه سدة الحكم في البلاد، هي الخلافات الكبيرة التي حدثت بينه وبين بسمارك حول السياسة الخارجية والداخلية للإمبراطورية الألمانية[١]. فقد أعلن الإمبراطور أن «ليس هناك غير سيد واحد في هذه المملكة هو أنا»[٢].

وأمام ذلك قدم بسمارك استقالته في آذار/ ١٣٠٨#-١٨٩٠م [٣] وعين مكانه جورج فون كابريفي (***Gorge Von Caprivi***) ١٣١٢/١٣٠٨#-١٨٩٤/١٨٩٠م، وقد تولى هذا المنصب ستة مستشارين كان آخرهم ماكس فون بادن (***Von Max Baden***)، ولم يكن لهؤلاء المستشارين أي دور أو كلمة أمام الإمبراطور الذي أصبح هو اليد العليا في البلاد[٤].

ولقد عاصر الإمبراطور غليوم الثاني حدوث نهضة اقتصادية في ألمانيا نتيجة للمشاريع الاقتصادية الضخمة التي حصلت عليها الإمبراطورية، وخاصة مشروع «سكة حديد بغداد»، وكذلك مشاريع الري في العراق وإنشاء سكة الحديد الكاب ـ القاهرة[٥].

وسنرى في الفصول اللاحقة كيف نجح الإمبراطور غليوم بأن يكسب صداقة السلطان عبد الحميد الثاني وما تلا ذلك من حصول ألمانيا على العديد من الامتيازات والمشاريع الاقتصادية في الدولة العثمانية.

التصادم الكبير بين عقلية غليوم الثاني الشابة وعقلية بسمارك الهرمة العجوزة.

(١) الموسوعة العربية، محمد الأحمد، المرجع السابق، ج١٤، ص١٤.

(٢) هـ.ا.ل. فشر، تاريخ أوربا في العصر الحديث، المرجع السابق ص٣٩٨.

(٣) «ويرجع بعض أسباب هذه الاستقالة على الأقل إلى استياء الإمبراطور وليم الثاني من سياسة بسمارك تجاه روسيا وإلى رغبته في توثيق العلاقات مع النمسا وإنكلترا». وليام، لانجرت، ترجمة محمد مصطفى زيادة، موسوعة تاريخ العالم، مكتبة النهضة العربية، ١٩٨٠، ج٦، ص١٩٣٤.

(٤) عبد العزيز، محمد الشناوي، الدولة العثمانية، المرجع السابق، ج٣، ص١٧١.

(٥) محمد الأحمد، الموسوعة العربية، المرجع السابق، ج١٤، ص١٤-١٥.

وقد وصف مؤلف كتاب «تاريخ أوربا في العصر الحديث» «فشر (*Fischer*)» التفوق الكبير لألمانيا في جميع المجالات وخاصة الحربية منها في بداية القرن العشرين قائلاً:

«كانت ألمانيا في مطلع القرن العشرين واسطة العقد في المشهد السياسي الأوربي نتيجة لثبات أهدافها، وتركيز وسائلها، ونظام أهلها، وصولة جيشها، وكانت النمسا وإيطاليا تابعيتها، وكانت السويد صديقة شديدة الإعجاب بها.

وقدمت تركيا من بلادها مركزاً لنفوذها السياسي والاقتصادي المتزايد، ونظمت ألمانيا تجارتها العالمية النطاق التي نمت نمواً سريعاً في الكمية والأهمية بمعونة الحكومة، كأنها عملية من عمليات الحرب الهجومية، وصار العلم الألماني يشاهد في كل ميناء».

ولقد علل المؤلف أسباب ذلك إلى قوة الاقتصاد الألماني وتحكم ألمانية بشبكة السكك الحديدية العالمية وكذلك إلى حنكة وذكاء الإمبراطور الألماني وقدرته على تحقيق التوازن بين الدول الأوروبية حتى ذهب إلى القول أن «أمور الحرب والسلم كانت بيد برلين وأن الإمبراطور الألماني يستطيع أن يقلب في صباح واحد توازن أوروبا الدقيق»[1].

إذاً استطاع هذا الإمبراطور الشاب أن يحقق لألمانيا التميز والتفوق الذي كان قد حلم به وأن يجعل بلاده في مقدمة الدول العظمى في العالم في ذلك الوقت.

استمر الإمبراطور في الحكم حتى قيام الحرب العالمية الأولى، وقد تخلى الإمبراطور عن العرش في تشرين الثاني ١٣٢٧#-١٩١٨م، على أثر قيام ثورة في ألمانيا في ذلك العام. وهرب إلى هولندا وبقي فيها حتى وفاته في حزيران سنة ١٣٦٠#-١٩٤١م[2].

سياسة غليوم العسكرية تجاه الدولة العثمانية:

إن من أهم التغيرات السياسية التي شهدتها الساحة الدولية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر هو التحول الكبير والظاهر في العلاقات الألمانية-العثمانية، والصداقة القوية التي ربطت بين الإمبراطور الألماني غليوم الثاني والسلطان العثماني عبد الحميد الثاني، وبغض النظر عن الملابسات والتفسيرات السياسية التي أحاطت بطبيعة هذه العلاقة وأسباب وأهداف قيامها، فإنه من الواضح أن كلا الطرفين الألماني والعثماني حاول أن يستفيد من هذه العلاقة لصالحه الشخصي وتحدى بها القوى الأوروبية العظمى في ذلك الوقت كوسيلة لإعلان وتثبيت وجوده في الساحة الدولية والصراعات القائمة بينها.

ومن هذا الباب رأينا كيف توجه غليوم الثاني نحو إقامة علاقات صداقة وود مع الدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد الثاني، لم يكن الهدف الحقيقي منها إلا فرض ألمانيا في الساحة الدولية كمنافس قوي يمكن أن يشكل مصدر قلق حقيقي للدول الاستعمارية الأخرى وهذا ما كان فعلياً. ومن هنا كانت من أساسيات الخلافات بين غليوم الثاني وبسمارك إظهار روح التنافس الاستعماري للدولة الألمانية على الساحة الدولية وهذا ما كان بسمارك يحاول أن يخفيه على مدى سنوات من أجل منع ظهور أي شكوك لدى الدول الاستعمارية الكبرى حول ألمانيا وأنه ليس لديها أي رغبة في التوسع الاستعماري في العالم وأن همّ الألمان الوحيد هو التركيز على التطوير الداخلي لبلادهم، لكن هذه السياسة لم تعجب الإمبراطور الشاب غليوم الثاني وكذلك التجار وأصحاب رؤوس الأموال الألمان، فلقد كان رأي هذا الإمبراطور مختلفاً تماماً وكان يرى أنه أمام التطور الاقتصادي الهائل الذي حققته ألمانيا وأمام تزايد رؤوس الأموال فيها وكذلك تزايد عدد سكانها المطرد لابد لألمانية أن تبحث لها عن مستعمرات في العالم تكون لها مصدراً لمواردها وكذلك

---

(١) هـ.ا.ل. فشر، المرجع السابق ص٤٧١.

(٢) محمد الأحمد، المرجع السابق، ج١٤، ص١٥.

سوقاً لتصريف بضائعها، وبالتالي مكاناً لنقل مستوطنين ألمان إليها، ولم يرَ أصحاب هذه النظرة وعلى رأسهم غليوم الثاني مكاناً أفضل من الدولة العثمانية تلك الدولة المتآكلة المنهارة، وبدأ السعي نحو تحقيق ذلك ولكن ببطء منذ فترة بسمارك وازدادت وتيرة ذلك بشكل واضح بعد تسلم غليوم الثاني لعرش الإمبراطورية الألمانية[١].

ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت جميع القوى السياسية الكبرى ترى أن سقوط الدولة العثمانية بات وشيكاً، لذلك راحت تعمل على تقسيم تركة هذه الدولة فيما بينها وكانت بريطانيا وفرنسا وروسيا من أكثر الدولة الساعية إلى الحصول على أكبر قدر ممكن من أراضي هذه الدولة ولكن ألمانية كانت متحفظة حول هذا الأمر بل بكثير من الأحيان كانت تقف موقف المعارض لهذا الأمر «وحتى أن الإمبراطور غليوم الثاني كان يرى أنه يجب أن يتم تقوية الدولة العثمانية عن طريق إجراء إصلاحات مناسبة لا عن طريق تقسيم أراضيها»[٢].

ومن هذا المنطلق كانت سياسة الإمبراطور غليوم تجاه الدولة العثمانية، وقد رأينا سابقاً كيف أنه اهتم بإرسال البعثات الدبلوماسية والعسكرية من أجل مساعدة الدولة العثمانية في إصلاح أمورها الداخلية والإدارية، وتقوية جيشها وتدريبه على أحدث الوسائل باعتبار الجيش هو أهم ركن في الدولة لإبقائها قوية أمام أعدائها.

وطبعاً لم يكن هذا سببه عطفه وحبه الشديد للدولة العثمانية بل كانت لعبة مصالح سياسية واقتصادية وعسكرية كان يسعى الإمبراطور للحصول عليها وأن يكون له موطأ قدم في هذه الدولة ومستعمراتها التي لم يتبقَ منها إلا القليل.

وانسجاماً مع هذه الرؤية السياسية للإمبراطور غليوم الثاني بدأ توجهه نحو زيادة دعم الدولة العثمانية من الناحية العسكرية، فقام بإرسال البعثات العسكرية وتزويد الجيش العثماني بالأسلحة كما استقبلت ألمانيا في معاهدها العسكرية الكثير من الضباط العثمانيين وفي نفس الوقت استمر تدفق رؤوس الأموال الألمانية إلى الدولة العثمانية من خلال إقامة العديد من المشاريع الاقتصادية[٣] وتقديم القروض المالية الكبيرة للدولة العثمانية عبر أهم البنوك الألمانية في ذلك الوقت[٤].

ويمكننا القول أن تحولاً جذرياً طرأ على العلاقات الألمانية - العثمانية في عهد الإمبراطور غليوم الثاني وخاصة العسكرية منها كما أسلفنا سابقاً ولقد جاءت هذه

---

(١) «طلب المستشار الرايخ الألماني كبريفي (***Caprivi***) ١٨٩٠-١٨٩٤م الذي خلف بسمارك في منصبه، من وزارة الخارجية الألمانية إعداد تقريرين في نهاية عام ١٨٩١ عن إمكانية توطين الألمان في الدولة العثماني، ووضع التقرير الأول كيدرلين (***Kiderlen***)، أما التقرير الثاني فقد كتبه كايزر (***Kayser***) مدير قسم المستعمرات في وزارة الخارجية». هانس روبرت رويمير، ألمانيا والعالم العربي، ت: دكتور مصطفى ماهر، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٣٩٤.

(٢) هانس روبرت رويمير، ألمانيا والعالم العربي، المرجع نفسه، ص٣٩٣.

(٣) «لقد نمت الالتزامات المالية الإلمانية بشكل كبير جداً من ١% إلى ٢٧% فيما بين سنة ١٨٨٨ وسنة ١٩١٤م، بينما تراجعت حصة بريطانيا في الاستثمارات وكذلك مصالحها التجارية في الدولة العثمانية بشكل حاد من ٥٦% إلى ١٥% فيما بين ثمانينات القرن التاسع عشر وسنة ١٩١٤م، وفي هذا التاريخ الأخير تجاوزت الاستثمارات الألمانية المباشرة، استثمارات بريطانيا العظمى». خليل، أنيالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية (١٦٠٥، ١٩١٤) ت: دكتور قاسم عبده قاسم، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٧، مجلدان، ج٢ص٥٠٨.

(٤) للتوسع حول الأموال والقروض التي أخذتها الدولة العثمانية من البنوك الألمانية لإقامة مشاريع اقتصادية ودعم الجيش واستيراد الأسلحة من ألمانية. انظر علي، محافظة، المرجع السابق، ص١٥-١٦ إلى ص٢١.

التطورات والتحولات استجابة لطموحات وتطلعات الإمبراطور غليوم الثاني الرامية إلى جعل ألمانيا في مقدمة الدول العظمى في العالم في ذلك الوقت.

ولقد تباينت ردود فعل الضباط العثمانيون تجاه تعامل دولتهم مع الضباط الألمان فهناك فريق كان يشعر بالغصة والغيرة من تقدير دولتهم الزائد لهؤلاء الأجانب، ومنحها الرتب العالية لهم فهم ليسوا أقل إخلاصاً ووطنيةً وفداءً تجاه بلدهم من هؤلاء الغرباء، وخاصة أن بعض الرتب العسكرية كانت تمنح للضباط الألمان لمجرد أنهم ألمان، وكانت هذه الرتب بنفس الوقت لا تمنح للضباط العثمانيون إلا إذا قاموا بأعمال جليلة وانتصارات كبيرة للدولة العثمانية. بينما كان فريق آخر من الضباط العثمانين يتفهمون طبيعة معاملة الدولة العثمانية لهؤلاء الضباط الألمان ومقدرين أن هذه المعاملة سببها طبيعة العلاقات الودية بين الدولة العثمانية وألمانيا، باعتبارها صديقه للدولة العليا وبسبب تقديمها الدعم العسكري للدولة العثمانية وأن طبيعة هذه العلاقات ليست للمرحلة الآنية إنما هي مستقبلية واعدة الغاية منها استقواء الدولة العثمانية بحليفها الجديد ألمانيا، ضد أعدائها القدماء في المنطقة[١].

ولقد أشرف الضباط الألمان على تدريب الجيش العثماني بكل الاختصاصات وحاول هؤلاء جعل الجيش العثماني صورة مصغرة عن الجيش الألماني بتشكيلاته وقطعه العسكرية وحتى باللباس كما أسلفنا الذكر. ولم يكن هؤلاء مخلصين بشكل كبير في تدريبهم للجيش العثماني وتقويته؛ بل كانت الغاية من هذا التدريب جعل الجيش العثماني رديفاً للجيش الألماني عند الحاجة[٢].

وهذا ما عبر عنه رئيس أركان الجيش الألماني في ذلك الوقت حيث قال: «الجندي العثماني مخلص وودود ومقاوم، ويمكن أن يستغل بسهولة ويجر إلى ساحة المعركة» وطبعاً هذا ما بدا فعلياً بالحرب العالمية الأولى فلقد بدا واضحاً كيف نجح الألمان بجر الدولة العثمانية إلى الحرب وتسخير جيشها في هذه الحرب وتوريطها فيها[٣]، ليحصد الطرفان الهزيمة والخذلان.

وقبل أن ننهي دراسة هذا الفصل لابد لنا من ذكر تفاصيل هامة عن وضع الضباط الألمان في الدولة العثمانية وكذلك وضع الضباط العثمانين في ألمانيا مع شرح مبسط حول التسليح الألماني للجيش العثماني في تلك المرحلة.

الضباط الألمان في الدولة العثمانية:

لقد أسلفنا سابقاً أنه اعتباراً من بداية سنة ١٢٩٨#-١٨٨٠م بدأت تتوافد إلى الدولة العثمانية البعثات العسكرية الألمانية وقد ترأسها مجموعة من كبار الضباط الألمان، وذلك من أجل تدريب الجيش العثماني وتطويره وتحديثه، ثم رأينا كيف أن هذه البعثات ازدادت وتطورت في عهد الإمبراطور غليوم الثاني، وكانت هذه البعثات في هذه المرحلة ركناً أساسياً في طبيعة العلاقات الألمانية ـ العثمانية.

ولقد تمتّع الضباط الألمان بمكانة عالية في الدولة العثمانية وعوملوا معاملة خاصة، فلقد أعطيت لهم الرواتب الشهرية العالية مقارنة بالضباط العثمانيين، ومنحوا المكافآت والهبات المالية بسخاء لقاء خدماتهم وتدريبهم للجيش العثماني، كما أنهم منحوا الرتب العسكرية الهامة

---

(١) *Ilber, ortayli ikidost, op.cit, P112.*
(٢) *Ilber ortayli:, op.cit, P106.*
(٣) *Ilber ortayli: ikidost, op.cit, P106.*

في الدولة العثمانية، وتم تعيين الكثير من الضباط الألمان برتبة باشا وقائد في الجيش العثماني في مختلف الاختصاصات ففي الـ٦ من تشرين الأول ١٣١٠#-١٨٩٢مم صدر فرمان من قبل قصر يلدز يتضمن تعين خمسة من الضباط الألمان في إدارة الجيش العثماني بمختلف الاختصاصات كدفعة أولى، ليتم تعين الدفعة الثانية في الـ١ تشرين الثاني ١٣١١#-١٨٩٣م، كضباط وخبراء وفي الجيش العثماني(١).

ولقد أوردت مذكرة أرسلتها السفارة العثمانية في برلين إلى المستشار الحربي للسلطان العثماني توضح فيها أنه قد تمت الموافقة على إرسال نخبة من الضباط الألمان باختصاص مدفعية إلى الدولة العثمانية بناءً على طلب الأخيرة، وذلك من أجل تدريب أفراد الجيش العثماني وفق الأسلوب الألماني المتبع في الكليات العسكرية والحربية في ألمانيا وقد حررت المذكرة باسم سفير الدولة العليّة في برلين أحمد توفيق(٢).

وفيما يلي وثيقة من الأرشيف العثماني توضح تعيين مجموعة من الضباط الألمان في مختلف الاختصاصات وتوضح رواتبهم وتفاصيل كثيرة حول تعيينهم وتعويضاتهم وإقامتهم في الدولة العثمانية وهذا ما جاء في الوثيقة باختصار:

المادة الأولى: أن يعطى الضباط الألمان راتب مقداره ٢٥٠٠٠ ألف فرنك سنوياً وسيدفع المبلغ من البنك العثماني ذهباً بدلاً من الفرنكات وتتكفل الدولة العثمانية بدفع نفقات سفر هؤلاء الضباط وإقامتهم وفترة إقامتهم في الدولة العثمانية.

المادة الثانية: تحديد مدة إقامة هؤلاء الضباط ثلاث سنوات في الدولة العليّة.

المادة الثالثة: يمكن تجديد العقد بعد مضي الثلاث سنوات حسب الحالة.

المادة الرابعة: إذا تعرض هؤلاء الضباط لحادث أعاقهم فترة خدمتهم في الدولة العثمانية يحالون على التقاعد وتصرف لهم رواتب تقاعد مناسبة وفي حال موتهم تدفع هذه الرواتب إلى زوجات هؤلاء الضباط وأولادهم.

المادة الخامسة: في حال انتهاء خدمة الضابط في الدولة العثمانية يصرف له راتب شهر مضاعف كنهاية خدمة.

المادة السادسة: بالنسبة للضباط المعينين خصيصاً للترجمة الألمانية في الدولة العليّة وضباط البحرية وضباط الشرطة وضباط ناظر الحربية كل هؤلاء سيعملون تحت أمرة الدولة العليّة.

المادة السابعة: راتب موظف المالية سنوياً ٤٠ ألف فرنك والمحامي في مركز مستشارية الخارجية وموظف ومعاون الجمارك براتب مقداره ٢٥ ألف فرنك.

المادة الثامنة: يحق للدولة العليا أن تفسخ العقد مع أي من هؤلاء الضباط المعينين في حال إساءة خدمتهم للدولة العلية أو ثبت أنهم غير صالحين للخدمة.

المادة التاسعة: سيطبق على موظفي المستشارية الألمانية في الدولة العلية نظام الامتياز الأجنبي، وفي حال قيامهم بأي جرم يعاقبون عليه وفق لهذا القانون.

---

(١) ***Ilber, ortayli: ikidost, op.cit, P117.***
مثال على أحد هؤلاء الضباط؛ الضابط الألماني فون هوبي باشا (***Von Hobe Paşa***).

(٢) الأرشيف العثماني، سجل رقم ٧٦٥، وثيقة رقم ٦٢٣٥٨، تاريخ ١٢٩٥هـ.

الاختصاصات المعينة هي:

ضابط واحد مشاة، ضابط واحد مدفعية، ضابط واحد اختصاص صيانة، ضابط واحد تموين، ضابط واحد شرطة، ضابط واحد بحرية، ضابط واحد لغة ألمانية، ضابط واحد مكتب العسكرية العمومية، واحد موظف مالي، محامي واحد في مستشارية الخارجية، ويعين في بناء الحكومة المركزية، موظف جمارك واحد(١).

الضباط العثمانيون في ألمانيا:

في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ازدادت الحاجة إلى إرسال المزيد من الضباط العثمانيين إلى ألمانيا وذلك من أجل اكتساب المزيد من الخبرات العسكرية ولم يلبث هؤلاء أن عادوا إلى الدولة العثمانية بالزي الرسمي للجيش العثماني، ثم ما لبث هذا الزي أن أصبح زياً رسمياً للجيش العثماني، وطبعاً كان هذا نتيجة تقوية العلاقات والدعم العسكري الألماني للجيش العثماني الذي أصبح فيما بعد على نمط الجيش الألماني ليس بالزي فقط بل حتى في التشكيلات العسكرية، وكانت ترسل البعثات من الضباط العثمانيين إلى ألمانيا للدراسة في كلياتها العسكرية على شكل دفعات متلاحقة فمثلاً في الـ٦ من كانون الأول ١٣١٣#-١٨٩٥مم أرسلت الدولة ١٩ ضابطاً من أجل الدراسة في ألمانيا ومن ثم أرسل خمسة آخرون في وقت لاحق لإكمال دراستهم العسكرية في كل الاختصاصات(٢).

ولقد كان ينتقى هؤلاء الضباط من خريجي الكلية الهندسية، وكلية المدفعية العمومية وكذلك الكلية الحربية، وكانت تعد القوائم بأسماء هؤلاء واختصاصاتهم بدقة شديدة حيث ترسل تقارير مفصلة حول هذا الأمر إلى الباب العالي ليتم الموافقة عليها وتخصيص الأموال الخاصة لذلك، ثم ترسل هذه القوائم إلى برلين ليتم الموافقة عليها ويبدأ استقبال الطلاب في الكليات العسكرية الألمانية بشكل منظم ودقيق(٣).

وبرأي البعض أن كثيراً من الضباط العثمانيين قد أساؤوا استغلال إقامتهم في ألمانيا أثناء البعث العسكرية، فبدلاً من تعلم التقنيات العسكرية من الجيش الألماني والحصول على أفضل التدريبات تعلموا السفاهات والرذائل المنتشرة في المجتمع الألماني ويرى هؤلاء أن سبب ذلك ليس سببه فقط سوء تصرف الضباط العثمانيين وإنما أيضاً بسبب قيام الألمان بتوجيه الضباط العثمانيين نحو الانغماس في هذه الأمور وصرفهم عن غايتهم الحقيقية(٤).

#-السلاح الألماني في الدولة العثمانية:

بقيت كل من فرنسا وإنكلترا المورد الأساسي للأسلحة في الدولة العثمانية حتى بداية ثمانينات القرن التاسع عشر، وبعد ذلك مع وصول غليوم الثاني إلى الإمبراطورية الألمانية وتطور العلاقة بين الدولتين العثمانية والألمانية، وتوطيد الصداقة بين العاهلين الألماني

---

(١) الأرشيف العثماني، سجل رقم (٥٥)، وثيقة رقم (٢٩)، تاريخ ١٢٩٥.

(٢) ***Ilber, ortayli, op.cit, P117.***

(٣) الأرشيف العثماني، سجل رقم ٧٨٤، وثيقة رقم ٦٣٧٦٢، تاريخ ١٢٩٦/١٢/١٧هـ.
ولقد حددت الوثيقة راتب شهري للضابط المذكور في الوثيقة باسم العقيد صاحب العزة السيد ثابت بقيمة ٥٠ ليرة عثمانية ذهب، وذلك بسبب تعينه ضابطاً مسؤولاً عن بعثة المدفعية إلى ألمانيا.

(٤) ***Ilber ortayli: op.cit, P119.***
مثال على الضباط العثمانيين الذين تخرجوا من ألمانيا «علي ناظم باشا» و«شكري باشا» وهما ضابطان في المدفعية وكذلك «يوسف العظمة» وزير الحربية في الحكومة السورية ١٩١٨-١٩٢٠م.

والعثماني. حصلت ألمانيا على نوع من الاحتكار في تجارة الأسلحة للدولة العثمانية[١]، ونجحت ألمانيا لحد ما بإبعاد كلٍ من فرنسا وبريطانيا عن سوق المنافسة في توريد السلاح للعثمانيين، وأصبحت صفقات الأسلحة وتجارتها مع الدولة العثمانية على قائمة التجارة والعلاقات بين الألمان والعثمانيين، فلقد أصبحت الدولة العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى أهم زبائن ألمانيا في مجال شراء الأسلحة بكافة أنواعها[٢]، وازدادت وتيرة إنتاج معامل الأسلحة في ألمانيا وشركاتها مع ازدياد تمتين العلاقات الألمانية ـ العثمانية.

ولقد احتلت نسبة مبيعات الأسلحة وصادراتها منها للدولة العثمانية بشكل كبير، فقد بلغت ٢٥% من نسبة الصادرات الألمانية للعثمانيين وذلك ما بين عامي (١٣١٥/١٣٠٦#-١٨٩٧/١٨٨م)، وبلغت قيمة الأسلحة المباعة للدولة العثمانية حوالي ٨٥،٦ مليون مارك من أصل ٣٢٥،٥ مليون مارك. قيمة مجمل الصادرات الألمانية للعثمانيين[٣].

وقد احتلت مجموعة من الشركات ومعامل الأسلحة الألمانية الأولية في تصدير السلاح بكافة أنواعه للدولة العثمانية، وهي: شركة كروب اسن (***Krupessen***) مشاركة مع شركة ارمسترونغ (***Armstrong***) أرمسترونج الإنكليزية، التي كانت تزود الجيش العثماني بمدافع والهاونات الثقيلة، وشركة ماوزر (***Mauser***) ولوفيه (***Ludwin Löwe***) واختصت ببيع الأسلحة الصغيرة والبنادق للجيش العثماني، وأما شركة كروب جرمانيا (***Krupp Germania***) فهي شركة مختصة ببناء السفن، وكانت تزود الجيش العثماني بحاجته من سفن الطوربيد والأسلحة الكبيرة[٤].

في سنة ١٣٠٣#-١٨٨٥م استوردت الدولة العثمانية من شركة كروب (***Krupp***) الألمانية ٥٠٠ مدفع ثقيل وفي الشهر التالي تم شراء حوالي ٤٢٦ مدفع كبير و٦٠ مدفع هاون، وفي سنة ١٣٠٧#-١٨٨٩م تم شراء أكثر من نصف مليون بندقية من معامل ماوزر (***Mauser***) ولوفيه (***Löewe***) وبعد زيارة غليوم الثاني للدولة العثمانية ١٨٨٩م قُدرت قيمة مبيعات الألمان من الأسلحة للعثمانيين بحوالي ٥،٩ مليون مارك في تلك السنة وبلغت ١٣،١ مليون مارك و٦ مليون مارك في سنة ١٣١٢#-١٨٩٤م. و١٢،٢ مليون مارك في سنة ١٣١٣#-١٨٩٥م، وكانت طلبيات الأسلحة ترد إلى الدولة العثمانية بشكل سنوي حيث يتم دفع قيمتها بشكل منتظم[٥]. وكان يشرف على دفع هذه الأموال من خزينة الدولة والبنوك العثمانية بل في بعض الأحيان كانت الدولة العثمانية تقوم بالاقتراض من البنوك الألمانية من أجل تسديد هذه المبالغ، ولقد جرت محاولات من قبل السلطان العثماني بتطوير معامل الدفاع وصناعة الأسلحة في الدولة العثمانية وأحضر الفنيين والخبراء الألمان من أجل الإشراف على ذلك، ولكن هذه المصانع لم تصل بجودة صناعتها للأسلحة بمستوى الأسلحة الألمانية الصنع، لذلك بقيت مسألة استيراد الأسلحة من ألمانيا لها الأولوية والصدارة، ولم يخلُ الأمر من تخوف بعض المسؤولين العثمانيين من الاعتماد الكامل في استيراد الأسلحة من ألمانيا واحتكار الأخيرة لسوق تجارة السلاح مع الدولة العثمانية وإقصاء كلٍ من فرنسا وإنكلترا والدول الأخرى عنها، ومع ذلك استمرت ألمانيا بتزويد الجيش العثماني بكافة أسلحته حتى نهاية الحرب الأولى ١٩١٤-١٩١٨م، فلقد

---

(١) مانتران، المرجع السابق، ج٢ص٢٢٣.
(٢) ***Ilber ortayli: op.cit, P108.*** والأرشيف العثماني سجل رقم (١) وثيقة رقم (١٥) تاريخ ١٢٩٤ـ.
(٣) سنو، المرجع السابق، ص٥٤.
(٤) الشناوي، المرجع السابق، ج٣ ص١٣٧. سنو، المرجع السابق، ص٥٤.
(٥) ***Ilber ortayli: op,cit, P119.***

خاض الجيش العثماني حربه بالأسلحة الألمانية بكافة أنواعها[١].

وحتى بعد سقوط حكم السلطان عبد الحميد الثاني ١٣٢٧#-١٩٠٩م استمرت العلاقات العسكرية الألمانية-العثمانية بشكل مضطرد ومتزايد وتابعوا تحديث الجيش العثماني فيما بين ١٣٢٧/١٣٢٨#-١٩٠٩/١٩١٠م بإشراف ضباط وخبراء ألمان[٢]، كما أن ألمانيا أيدت حزب الاتحاد والترقي الذي سيطر على الحكم في الدولة العثمانية بعد نهاية حكم عبد الحميد الثاني. وقد بدا ذلك من خلال الدعاية الواضحة والتشجيع لهذا الحزب وسياسته في الإعلام الألماني[٣].

ومع تطور الأحداث في الدولة العثمانية وازدياد تفككها ومشاكلها ما بين عامي ١٣٢٧/١٣٣٣#-١٩٠٩/١٩١٤م وقفت الدولة الألمانية موقف المعارض لسياسة الدول الاستعمارية الكبرى (فرنسا-إنكلترا-روسيا) الرامية إلى اقتسام تركة الرجل المريض (الدولة العثمانية) وإنهاء وجودها، وبهذا بقيت ألمانيا الحليف والصديق الذي لا يستغنى عنه من قبل الدولة العثمانية مهما حدث[٤].

ومع نهاية هذا الفصل يمكننا القول أن العلاقات العسكرية هي أهم ما ميز العلاقات الألمانية - العثمانية وزاد من قوتها ومتانتها بالإضافة إلى العلاقات السياسية الرامية إلى تشكيل حلف قوي في المنطقة في ذلك الوقت وتجسد هذا الأمر في خوض الطرفان الحرب العالمية الأولى جنباً إلى جنب ضد دول الحلفاء.

وكنظرة لما سبق نرى أن الدولة العثمانية كانت المستفيد الأكبر من هذا الدعم العسكري، حيث أن الدولة كانت في مرحلة انهيار وضعف شديد وترهل في كل جوانب حياتها وخاصةً في جيشها وأنظمتها وأسلحتها، فكان الألمان بمثابة الأطباء المعالجون الذين قاموا بمحاولة معالجة معظم أماكن النقص والضعف والوهن في الجيش العثماني، ولكن لم يكن هذا الأمر بمحبة وإخلاص شديدين من الألمان للعثمانيين، وإنما تجسيداً لسياسة عليا رسمها الإمبراطور الألماني غليوم الثاني، كانت تهدف إلى جعل ألمانيا من أكبر الدول وأعظمها في القارة الأوروبية في ذلك الوقت كما أن الفائدة الاقتصادية من ناحية تجارة الأسلحة وبيعها للدولة العثمانية كانت كبيرة جداً، ورأينا كيف أن نسبة الصادرات وإنتاج معامل الأسلحة ارتفعت بشكل كبير بعد توطيد علاقات الصداقة بين السلطان عبد الحميد الثاني والإمبراطور غليوم الثاني.

ولقد نجح الألمان لحد كبير في جعل الجيش العثماني قوة ثانية رديفة لقواته العسكرية في المنطقة بكل تكويناته ونظامه وأسلحته وحتى وهيئته (لباسه) يحركه كيفما يشاء عند الضرورة وهذا ما تجسد فعلياً في الحرب العالمية الأولى.

* * *

(١) ***Ilber ortayli: op,cit, P121.***
(٢) ***Ilber ortayli: op,cit, P200.***
(٣) ***Ilber ortayli: op,cit, P198.***
(٤) ***Ilber ortayli: op,cit, P199.***

الفصل الثالث

العلاقات الاقتصادية الألمانية-العثمانية

أولاً – الاتفاقيات والامتيازات التجارية

١- العملة العثمانية والأوروبية
٢- التقدم الاقتصادي والصناعي الألماني
٣- موقف ألمانيا من الدولة العثمانية
٤- موقف السلطان عبد الحميد من ألمانيا

ثانياً – المشروعات الاقتصادية الألمانية –العثمانية المشتركة

١- خطوط الملاحة.
٢- البيوتات التجارية.
٣- المنشآت العمرانية.
٤- التجارة والمصارف.
٥- الاتصالات والتنقيب على المعادن.
٦- القروض المالية.
٧- المشروعات الصناعية

ثالثاً – خط حديد بغداد: B.B.B – ١٩٠٣

١- لمحة عن الخطوط الحديدية في الدولة العثمانية.
٢- فكرة خط بغداد.
٣- توقيع العقد: آذار ١٩٠٣.
٤- مسار خط بغداد ومعلومات عن الخط.
٥- موقف روسيا وفرنسا وإيران من مشروع الخط.
٦- أهم بنود العقد.
٧- مراحل تنفيذ الخط وتعثُّرها.
٨- آثار الخط ومصيره.

رابعاً – الخط الحديدي الحجازي

١- أفكار الخط الأوليَّة.
٢- تنفيذ الخط.
٣- التمويل المالي.
٤- معارضة فرنسا وإنكلترا للمشروع.
٥- إدارة الخط الحديدي الحجازي ومرافقه.
٦- الأمور الفنيّة.
٧- مراحل إنجاز الخط.
٨- أجور الركاب.
٩- تدشين الخط ١٩٠٨.
١٠- آثار إيجابية للخط الحديدي الحجازي.

أولاً – الاتفاقيات والامتيازات التجارية بين الدولتين

١- العملة العثمانية والأوروبية

٢- التقدم الاقتصادي والصناعي الألماني

٣- موقف ألمانيا من الدولة العثمانية

٤- موقف السلطان عبد الحميد من ألمانيا

١- لمحة عن العملات العثمانية

نظراً لاضطرارنا مراراً إلى ذكر القروض وكلفة المشاريع الاقتصادية ولاسيما الخطوط الحديدية، فسوف نعرض لمحة سريعة عن أسعار العملات العثمانية مقارنة بأسعار العملات الأوروبية والأمريكية:

١-كانت الليرة العثمانية المجيدية[١] الذي هي وحدة النقد الأولى في الدولة العثمانية وظل الناس يتعاملون بها في الشام نحواً من ربع قرن بعد انسحاب الدولة العثمانية من البلاد العربية.

- وهذه الليرة عيار ٢٢ قيراط ووزنها ٧،٢١٦ غراماً[٢]ذهب.

٢-تليها في الأهمية: الغرش وكان كل ١٠٠-١٠٥ غرش تساوي ليرة واحدة.

٣-المصرية، أو البارة: كل ٤٠ مصرية تساوي غرشاً واحداً.

٤-المجيدي: وهو غير الليرة المجيدية، فهذا من الفضة وقيمته ٢٠ غرشاً فضة.

٥-الزولته: تساوي ٣ مصاري.

٦-المتليك: يساوي ٥ مصاري[٣].

٧-الفلس: كل ٣ فلوس تساوي مصرية، أي أن الغرش الواحد يساوي ١٢٠ فلساً. والليرة الذهبية تساوي ١٢،٠٠٠ فلساً.

وفي سنة ١٨٧٩، أصدرت الدولة العثمانيّة عملةً ورقية لسدّ العجز في الميزانية، وكانت الورقة ذات الـ١٠٠ غرش تصرف كالليرة الذهب بـ١٠٠-١٠٥ غرش، وبعد سنتين صارت تصرف بـ٤٥٠ غرشاً فاضطرت الدولة إلى سحبها من التداول[٤].

وفي وثيقة نادرة من مركز الوثائق بتاريخ المحرم سنة ١٢٨٩هـ-١٨٧٢ نقرأ مايلي: «أمرٌ من مجلس تمييز حقوق ولاية سورية الجليلة، إلى قضاة دمشق بشأن الالتزام في أحكامهم ومعاملات الناس بالأسعار التالية للعملات[٥]:

- الليرة العثمانية	=	١٠٥	غرش فضة
- الليرة الفرنسية الذهبية	=	٩١	غرش فضة
- الليرة الإنكليزية ذهب	=	١٣٨	غرش فضة
- المخمَّسة العثمانية ذهب	=	١٩٠٠	غرش فضة
- الليرة الروسية ذهب	=	٦٥	غرشاً
- المارك الألماني	=	٧ غروش و٣٠	مصرية

(١) المجيدية، نوع من النقود الفضية في عهد السلطان عبد المجيد، كان يساوي خمس الذهب العثماني وعشرين قرشاً، ضرب عام ١٢٦٠_ (١٨٤٤م)، وصكت فئة العشرة قروش وسمي نصف مجيدي، وصكت فئة خمسة قروش وسمي ربع مجيدي. (سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية، المرجع السابق، ص٢٠٢).

(٢) خليل أينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، المرجع السابق، ج٢، ص٧٧٥.

(٣) مركز الوثائق التاريخية بدمشق السجل ٦٢٩ دمشق وثيقة ٢٨٢-سالنامة ولاية سورية ١٢٩٨-١٨٨٠م-ص٢٥٨

(٤) شوكت باموك، التاريخ المالي للدولة العثمانية، بيروت ٢٠٠٥م، ص٣٨٠

(٥) مركز الوثائق التاريخية بدمشق-سجل تجاري رقم ١٨، سنة ١٨٨٩م، وثيقة ١١٨، والسجل ٦٢٩، محاكم شرعية، الوثيقة ٢٨٢، وسجل ١٩ وثيقة ١٧.

- الليرة العثمانية ذهب = ٤،٦ دولار أمريكي
- الجنيه الاسترليني = ٤،٨٧ دولار أمريكي
- كل خمسة فرنكات فرنسية = دولار أمريكي واحد
- كل ٣ مارك ألماني = دولار أمريكي واحد
- الفرنك الفرنسي = ٥ غروش فضة
- الدولار الأمريكي = مجيدي عثماني فضة
- الروبل الروسي = ٢،٧ فرنك فرنسي[١]

(١) شوكت باموك، المرجع السابق، ص٣٨٠. علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية - بيروت ١٩٨١م ص١٩. ماري سركو، تطور دمشق في عهد السلطان عبد الحميد، رسالة دكتوراه-جامعة دمشق ٢٠٠٦، ص١٧.

٢- التقدم الاقتصادي الألماني في الرايخ الثاني

أ- قيام الرايخ الألماني الثاني١٢٨٨#- ١٨٧١م:

- الرايخ[١] ***Reich***: كلمة ألمانية تعني إمبراطورية أو مملكة، ثم أصبحت فيما بعد تسمية للدولة الألمانية في ثلاثة عهود:

- الرايخ الأول: وهي الإمبراطورية الجرمانية المقدسة للأمَّة الألمانية التي تأسست سنة ٩٦٢م وانحلَّت سنة ١٢٢١#-١٨٠٦م على يد نابليون.

- والرايخ الثاني: وهي الإمبراطورية الألمانية التي قامت سنة ١٢٨٨#-١٨٧١م واستمرت حتى سنة ١٣٢٧#-١٩١٨م.

- وأما الرايخ الثالث والأخير: فهو الذي أقامه هتلر بين ١٣٥٢#-١٩٣٣م و١٣٦٥#-١٩٤٥م[٢].

ب- نمو الاقتصاد الألماني:

بدأت ألمانيا تشهد نهضة صناعية وتجارية ضخمة بدءًا من سنة ١٢٦٥#-١٨٤٨م. فقد تضاعف إنتاجها من الفحم بين١٢٦٥#- ١٨٤٨ و١٢٨١#-١٨٦٤م-. وكما تضاعف إنتاجها من الحديد ثلاث مرَّات خلال عشر سنين فقط من سنة ١٢٧٧#-١٨٦٠م حتى سنة ١٢٨٧#-١٨٧٠م.

وفي غضون ثلاث سنين ١٢٩٧#-١٨٧٩م حتى ١٣٠٠#-١٨٨٢م حققت الصناعية الألمانية الثقيلة تقدماً مذهلاً وصل إلى الضعف. كما تضاعفت قيمة التجارة الألمانية بين ١٢٩٢م ١٨٧٥م و١٣١٨#-١٩٠٠م. واستمرّ هذا التقدم الصناعي الكبير حتى سنة ١٣١٣#-١٨٩٥م.

وتضاعفت شبكة الخطوط الحديدية ثلاث مرات بين ١٢٦٧#-١٨٥٠م و١٢٨٧#-١٨٧٠م، ووصل طولها إلى ١٩،٥٠٠كم[٣]، ولم يكن قطاع المصارف بعيداً عن هذه النهضة الجبَّارة، فقد أخذت المصارف الكبيرة تحل تدريجياً محل المصارف الصغرى الفردية الخاصة، وصارت هذه المصارف تسعى لإقامة استثمارات لها في الخارج حتى بلغت الأموال الألمانية المصدَّرة إلى الخارج بين ١٣١٢#-١٨٩٤م و١٣١٨#-١٩٠٠م أكثر من ٦٠٠ مليون مارك، وقد كان إنتاج الفحم في ألمانيا ١٨٧٠ يساوي ٣٤ مليون طن فأصبح سنة ١٢٣٣#-١٩١٣م ،٢٧٧ مليون طن، والحديد في الفترة نفسها قفز من ١،٥ مليون طن إلى ١٦ مليون طن، والتجارة الخارجية كانت سنة ١٣٠٦#-١٨٨٨م بمبلغ ٥٧٢٦ مليار مارك ووصلت سنة ١٩١٣ إلى ٢٠٨٦٧ مليار مارك[٤]، وعدد السكان سنة ١٨٧٠ كان ٤٠ مليون نسمة، فوصل سنة ١٩١٣ إلى ٦٦ مليون نسمة، وهكذا زاد الإنتاج

---

(١) الرايش (***Reich***)، في الألمانية رايش، أما كلمة رايخ فهي ترجمة للكلمة الإنكليزية باللفظ الخطأ للكلمة.
(٢) ڤايت ڤالنتين، تاريخُ الألمان، المرجع السابق، ص٩.
(٣) عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص٣٩.
(٤) عبد الرؤوف سنو، المرجع نفسه، ص٤١.

الصناعي عن القدرة الاستهلاكية الداخلية وعن قدرة التصدير الخارجي أيضاً، فكان على ألمانيا:

١- تصريف الفائض من صناعاتها، وهو شيء كثير[١].

٢- تأمين الموارد الكافية لإعالة جميع السكان أو تهجير عدد منهم إلى الخارج بصورة مؤقتة أو دائمة. وبالرغم من هجرة أكثر من ٣،٥ مليون ألماني إلى العالم الجديد، فإن المشكلة السكانية الألمانية كانت بحاجة إلى حل.

٣- طبيعة التوجه الألماني نحو الدولة العثمانية:

كان علماءُ الاقتصاد والاجتماع الألمان في أواسط القرن التاسع عشر، ينظرون إلى الدولة العثمانية على أنها مستعمرة مقبلة لهم.

وكتب العالم الاقتصادي الألماني «رودبرتس» (***Rodberts***) يقول: «أتمنى أن أعيش حتى أرى ذلك اليوم الذي ينتقل فيه الإرث التركي إلى ألمانيا، وترابط أفواج الجنود الألمان على ضفاف البوسفور».

وعند إعلان الوحدة الألمانية تطلَّع الاقتصاديون الألمان إلى جعل العراق سلَّة تورِّدُ لألمانيا الحبوب والقطن، ولذلك كانت ألمانيا ترفض دائماً أي خطة لتقسيم الدولة العثمانية[٢].

وكان الكونت «ڤون مولتكه» (***Von Moltke***) وهو من أعظم الخبراء العسكريين الألمان، أوَّل من لاحظ أهمية الدولة العثمانية لألمانيا.

وتعود بدايات التعاون العثمان - الألماني إلى سنة ١١٧٥#-١٧٦١م، عندما وقعت معاهدة بين الدولة العثمانية وبروسيا عرفت بمعاهدة الصداقة والتبادل التجاري والتي جرى تمديدها سنة ١٣٠٨#-١٨٩٠م.

وكما أسلفنا ففي عهد السلطان محمود الثاني تأسست فرقة عثمانية عسكرية تحت اسم «عسكر المنصور محمد» على غرار الفرق البروسيَّة ، وقام «ڤون مولتكه» بتقديم مساعدات عسكرية كبيرة للجيش العثماني، بعد القضاء على الجيش الإنكشاري[٣].

وفي سنة ١٣٠٧#-١٨٨٩م، وبعد زفاف أخت الإمبراطور غليوم الثاني (***Wilhelm II***) في أثينا قام بأول زيارة له إلى الدولة العثمانية وكان لها صدى عالمي واسع، ونشرت صورة الإمبراطور وصورة زوجته أوغستا ڤيكتوريا (***Augusta Victoria***) في جريدة الصباح العثمانية سنة ١٣٠٧#-١٨٨٩م.

وفي تلك الزيارة افتتح الإمبراطور فروعاً في استانبول للمعارف الألمانية[٤].

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها السلطان العثماني في استانبول إمبراطور عظيم مثل الإمبراطور غليوم الثاني، الذي تعامل مع السلطان بمنتهى الود والاحترام، في الوقت الذي كان فيه السفير البريطاني في استانبول يرفض مساواته بالسلطان العثماني بل كان يتقدم عليه.

وكان المستشار الألماني الشهير فون بسمارك (***Von Bismarck***) ينأى ببلاده عن

---

(١) كمال الدسوقي، تاريخ ألمانيا، دار المعارف المصرية، القاهرة، د.ت، ص٩٩.

(٢) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربيَّة ص٣٨٦، و ***Kazim Karabekir: Tarih Boyunca – Türk-Alman itiskileri Op-cit, P.151***.

(٣) ***Ilber ortayli, ikidost Hükümdar. Op-cit, P:59***

(٤) ***Ikidost Hükümdar. P:11***، ولمعرفة تفاصيل هذه الزيارة يرجى العودة إلى الفصل الثاني من البحث.

الدخول في «المسألة الشرقية»[١].

وكما أسلفنا سابقاً فقد ظهرت في ألمانيا تيَّارات قوية تمثل «البرجوازية الألمانية الجديدة» طالبت قيادتها بالدخول في المسألة الشرقية أسوة بالآخرين، فكانت استجابة بسمارك لها في أضيق الحدود، وكان يصرّح دوماً بأنه لا يريد توريط بلاده في متاهات المسألة الشرقية، ولم تكن الدولة العثمانية على امتدادها تعني عنده شيئاً يستحق الاهتمام والتفكير.

وعندما طلب هرمان لوينز (***Herman Löhnis***) رئيس جمعية التجارة الألمانية في برلين، بعد رحلته إلى الشرق في كانون الأول سنة ١٨٨٦م-١٣٠٤# دعْم الخارجية الألمانية له في مسعاه للحصول على امتياز مد خط حديدي بين حماة وطرابلس الشام كان رد بسمارك: «إن هذا المشروع صفقة جريئة وعليكم العمل على مسؤوليتكم الخاصة، وأنا أحذركم من ذلك[٢]».

وعندما حصلت شركة «موزر: (***Mauser***)» على صفقة لبيع الأسلحة إلى السَّلطنة العثمانيَّة رأى بسمارك أنَّ هذه صفقة تجارية بحتة، وليست تغييراً في السياسة الألمانية.

وعندما بعث جورج سيمنس (***Georg Siemens***) مدير المصرف الألماني ورئيس المجموعة الألمانية الساعية إلى الحصول على امتياز خط حديد الأناضول، إلى الخارجية الألمانية طالباً دعمها للمجموعة الألمانية عن طريق سفارة ألمانيا في الآستانة، رد بسمارك:

«إن مخاطرة أصحاب المشروع تقع على عاتقهم وليس على الرايخ».

ووعد بتقديم الدعم عند توقيع العقد وليس بعد الحصول عليه، ثم قال:

ليس لدينا مصالح سياسية في الشرق، ولا يمكننا لأسباب مالية التخلّي عن سياسة عدم التدخل في المسألة الشرقية[٣].

ولكن ذلك كله اختلف تماماً عندما ظهر الإمبراطور غليوم الثاني[٤] الثاني الذي أخذ على عاتقه قيادة السفينة بنفسه، مما اضطر بسمارك إلى الرحيل، وبدأ بذلك عصر «الانفتاح» (***Deutsch Arader offenheit***) الألماني على المسألة الشرقية والسلطنة العثمانية والسلطان العثماني والمسلمين في العالم...

اتصفت علاقة ألمانيا بالدولة العثمانية في عهد بسمارك بالحساسية الشديدة والخصوصيَّة المتميَّزة.

فقد حاول من جهة أن يكسب الدولة العثمانية صديقاً لألمانيا، من خلال إصلاح الإدارة العثمانية، وأوفد لهذا الغرض سنة ١٨٨٠#-١٢٩٨م بعثة «فتندورف (***Wittendorf***)».

ثم رحّب بإعادة تنظيم الجيش العثماني على أيدي الخبراء الألمان بين سنة ١٨٨٢ و١٨٨٣ وزوَّده بالأسلحة الحديثة، من دون أن يدخل في أي تحالف من أي نوع مع الدولة العثمانية.

وكان هدف بسمارك الحصول على مزيد من النفوذ في الدولة العثمانية، وتقوية الجيش العثماني ليستطيع الصمود أمام الجيش الروسي فيما إذا حاولت روسيا التعرض للدولة العثمانية.

ولذلك اختار واحداً من أكفأ رجاله ليكون سفيراً لبلاده في الآستانة وهو (فون رادوفيتز)

---

(١) عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص٤٤.
(٢) المرجع نفسه ص٤١ و٤٢.
(٣) سنو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص٤٣.
(٤) وليم بالإنكليزية، وغليوم بالفرنسية وفلهلم بالألمانية..

(***Von.Radowitz***) الذي أقام في استانبول زهاء عشر سنين ١٣٠٠/١٣١٠م-١٨٨٢/١٨٩٢م[١].

قال المستشرق الألماني سبيتر تغر(***spetrtgr***) سنة ١٣٠٤#-١٨٨٦م: «في كل أراضي الكون لا توجد إلا سوريَّة وبلاد آشور تدعوانك للاحتلال والسيطرة والاستفادة منهما حيث لا توجد صعوبات طبيعية.

وبعد فترة من الزمن قدَّر المستشرق الألماني الدكتور كيغر في كتابه «آسيا الصغرى أرض الاحتلال الألماني» الأفكار نفسها، ونصح باحتلال المنطقة عن طريق شركات تقوم عبر السكك الحديدية[٢].

وكانت ألمانيا في عهد الإمبراطور غليوم الثاني قد أعدت دراسات مستفيضة ومفصَّلة عما تسميه: تركيا الآسيوية، ووضعت برنامجاً متكاملاً يحقق الخير لها وللدولة العثمانية في آن واحد. وأهم ملامح هذه التوجُّهات:

- استغلال الثروات الباطنية في تركيا بواسطة الرأسمال الألماني.
- إحياء أراضي الأناضول المهملة والخصبة عن طريق مدّ خط حديدي يخترق آسيا الصغرى، ويصل المدن بالأقاليم الزراعية.
- نقل عدد من الألمان المزارعين الفقراء، إلى الأناضول وإسكانهم فيها بصورة مؤقتة أو دائمة ولاسيما أن الكثافة السكانية فيها قليلة.
- فتح طريق بري مباشر بين أوروبا والهند عن طريق البلقان، لمنافسة قناة السويس وخفض أسعار التوابل وحاصلات الهند[٣].

ولتحقيق ذلك أشار القنصل الألماني في الآستانة في تقريره بتاريخ ٢٥ آذار ١٨٩٩ - ١٣١٧# إلى ما يلي:

١- وضع الرأسمال الألماني والصادرات الألمانية تحت تصرُّف الشركات الكبرى.
٢- إنشاء «وكالة فوسيون» (***Fussion***) الألمانية ومهمتها الاتصال بالبيوتات التجارية العثمانية.
٣- إقامة حملات ملاحية منظمة نحو الشرق الأدنى.
٤- دراسة واقع السوق في الدولة العثمانية وتأمين لوازمه.
٥- تعيين ملحق تجاري ألماني في الآستانة[٤].

---

(١) سنو، المرجع السابق ص٣٧.
(٢) عزَّة آقبيق، تاريخ الخطوط الحديدية في بلاد الشام، دمشق ٢٠١٠م، ص١٩٨.
(٣) سنو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص٤٤.
(٤) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترًى عليها، القاهرة ١٩٨٦، ٣ مجلدات، ج٣، ص١٣٥٣.

كانت الصحف وحتى الباحثون الاجتماعيون الألمان يدعون إلى تشجيع الاستيطان وهجرة الألمان إلى مناطق الأناضول في الدولة العثمانية والاستفادة من العلاقات الودية بين العثمانيين والألمان من أجل تحقيق هذه الغاية. واعتبر كثير منهم أن المشاريع الاقتصادية الألمانية في الدولة العثمانية باباً ومنفذ من أجل تحقيق هذه الغاية وخاصة مشاريع سكة الحديد (مشروع سكة حديد بغداد)، ولقد كان هؤلاء يفضلون هجرة الألمان إلى بلاد الأناضول على هجرتهم إلى أمريكا (العالم الجديد) أو غيرها من الأماكن. ***Kazim Karabeker, p.cit, P.143***.

٤- موقف السلطان (عبد الحميد الثاني) من ألمانيا:

رأي السلطان (عبد الحميد الثاني) في خط بغداد والألمان

حينما منح السلطان (عبد الحميد الثاني) امتياز خط بغداد إلى ألمانيا كان حريصاً على مصالح السلطنة أكثر من حرصه على مصالح ألمانيا، وكان يتابع عن كثب كل تصريح أو تلميح يصدر عن الإمبراطور الألماني أو من هم دونه فيغض الطرف عن المنافع العائدة لألمانيا، فيما لا يشكل خطراً على الدولة، ويقف بكل قوة إذا تجاوزت التلميحات أو الاقتراحات الألمانية الخطوط الحمراء العثمانية والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

- عدم السماح بإقامة مستعمرات ألمانية في الأناضول على جانبي الخط الحديدي مهما كانت الفوائد.
- عدم السماح بإقامة كيان صهيوني في فلسطين، مع إمكانية إسكان أعداد من اليهود في أراضي الدولة الأخرى شرط التبعية المطلقة للباب العالي والسلطان.
- عدم التورط بتحالف مع ألمانيا، يقضي على استقلال السلطنة ويجعلها تابعة لألمانيا العظمى. وكان يقول: «إننا عازمون على إيقاف الألمان عند حدّهم، ولقد نبهنا السفير الألماني في الآستانة، فون بيبرستين (***Von Bebarstin***) إلى عدم اطمئناننا إلى السياسة التي تتبعها، وإن الاستفادة من الألمان في تسوية أوضاعنا الاقتصادية فكرة صائبة، لكني لن أقبل أبداً بما تتمَّناهُ الصحافة الألمانية من إنشاء مستعمرات ألمانية على طول خط حديد بغداد... فالأناضول بلادنا وستبقى ملاذاً آمنا لكل مسلم يضطر إلى مغادرة وطنه...»[١]. كما يقول السلطان عبد الحميد الثاني: «سوف نكبح جماح التحرك الألماني نحونا ونوقفه في مكانه المناسب... ولقد علمت من سفيرنا في برلين أن القيصر الألماني كان يريد من الألمان الإقامة في الأناضول، لكنني لا أقرّ ذلك بالمرة ولن نترك أرضنا للألمان، فهي أرض الآباء والأجداد[٢].

ويقول: «كانت الفرحةُ على منظر الدول الأوروبيَّة عشية منح امتياز الخط تدعو للسرور، فقد شرعت الصحف الروسية والفرنسية والإنكليزية في بث بذور الخلاف بيننا وبين الألمان، وصاروا يرشون كبار الموظفين عندنا من أجل الفوز بهذا الامتياز».

وقد اختار السلطان ألمانيا لأنه لم يكن للإنكليز أدنى تأثير في الدبلوماسية الألمانيَّة[٣].

ويقول في مذكراته: «يُقال إني عندما أعطيتُ إنشاء خط الأناضول للمصرف الألماني، كانت الشروط غير ملائمة لنا، طمعاً في كسب صداقة الإمبراطور الألماني. وأنا أرى أن خط الأناضول مهم لنا، كما هو مهمٌّ للمصرف الألماني، فمن الطبيعي أن يكون لهم

---

(١) السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية (١٨٩١-١٩٠٨)، الطبعة الخامسة، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٩٨٦م، ص١٣١.

(٢) سليمان قوجه باشي، السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة، عبد الله إبراهيم، القاهرة ٢٠٠٨، ص٤٣٢.

(٣) سليمان قوجه باشي، ، المرجع السابق، ص٤٣٣.

نصيب من الأرباح، وتبقى لنا الحصة الكبيرة، لقد انتعشت البلاد التي مرَّت بها الخطوط الحديدية وبذلك وجدنا الأراضي لتوطين مئات الآلاف المهاجرين من أوروبا...»[١].

عرض السلطان عبد الحميد الثاني على الولايات المتحدة الأمريكية أن تقوم بتنفيذ خط بغداد الحديدي لخبرتها العالية في مجال السكك الحديدية، واختار شركة «ستانفورد» (***Stanford***) المشهورة بقدرتها العالية لتكون صاحبة هذا المشروع.

وكانت الولايات المتحدة في ذلك الوقت دولة محايدة لا مطامع لها في الدولة العثمانية، لكنها اعتذرت عن تنفيذ المشروع، ربما بسبب الأحوال الاقتصادية المتردّية للدولة العثمانية وضخامة المشروع[٢].

ولذلك يمَّم وجهه نحو ألمانيا، وقال مبرراً ذلك:

«إن وجود الألمان في الأناضول وبلاد الرافدين أقل خطراً من وجود الإنكليز؛ لأن الألمان ينظرون إلى مصالحهم الاقتصادية والمالية، أمَّا الإنكليز فسيستخدمون هذه الخُطوط لوضع أيديهم على بلادنا ومقدراتنا[٣].

وكانت إنكلترا تفكر جدياً في مدّ خط حديدي عملاق من الإسكندرونة إلى الهند عندما كانت فرنسا تسيطر على قناة السويس، لكن الأمر تغيَّر سنة ١٢٩٢#-١٨٧٥م عندما صارت إنكلترا هي المتحكمة في شركة قناة السويس، ولذلك صرفت النظر عن المشروع، لكنها ظلَّت تتابع أخباره باهتمام شديد[٤].

---

(١) السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية، ص٨٣.

(٢) قوجه باشي، السلطان عبد الحميد، المرجع السابق، ص٤٣٣.

(٣) قوجه باشي، المرجع نفسه، ص٤٣٠.

(٤) ***Orhan Koloğlu, Avrupa Kiskacinda Abdülhamit, istanbol, 1998, P.54, 55***، وقوجه باشي، المرجع السابق، ص٤٢٩.

ولقد كانت بريطانيا تخطط من أجل السيطرة على الخليج العربي والعراق ومصر وبذلك تؤسس منطقة نفوذ إنكليزية تمتد من القاهرة إلى كالكوتا (***Kalküta***) إلى جبال الألب وتقوم بإنشاء خط حديدي يوصل هذه المناطق ببعضها البعض. (***Kazim Karabekir, p.cit, P.141***).

ثانياً-المشروعات الاقتصادية الألمانية في الدولة العثمانية

١- خطوط الملاحة:

أرادت ألمانيا تسيير خطوط ملاحية بينها وبين شرقي المتوسط، والخليج العربي. وكانت أولى المحاولات سنة ١٢٩٩#-١٨٨١م، عندما قامت شركة غلافكه (***Frima Glafcke***) وشركة هينغس (***Hennings***) في هامبورغ بتنظيم أول عمليَّة شحن من هامبورغ إلى الشرق من خلال شركة «خُطوط الشرق» (***Orientinie***) عبر عدد من السفن التجارية[١].

- وبعد عام قامت شركة الملاحة «أي سي دو فرايتاس: ***A.C. de Freitas and Co***» باتصال بحري مباشر بين موانئ ألمانيا والشرق. وفي أيلول ١٣٠٧#-١٨٨٩م تأسست في هامبورغ «شركة خطوط الملاحة الألمانية – الشرقية (***Deutsche Levante linie***)» شركة مساهمة وبدأت عملها بعد عام واحد بأربع سفن تجارية، وصلت بعد عشر سنين إلى إحدى وعشرين سفينة[٢]. وفي سنة ١٣١٧#-١٨٩٩م افتتحت الشركة خطاً بحرياً مع الساحل السوري - الفلسطيني[٣]. وفي بدايات القرن العشرين كان ثمة خطان مباشران إلى الساحل السوري نحو اسكندرونة وبيروت وطرابلس ويافا. كما عمد الألمان إلى تسيير خط ملاحي آخر إلى البيرة وإزمير وسلانيك واستانبول وسورية والبصرة. وكانوا ينافسون الفرنسيين ليجعلوا لأنفسهم موطأ قدم في النقل البحري.

ودخلوا في منافسات حامية مع الإنكليز في الخليج وصاروا يتقاضون ١٥ فرنكاً عن كل طن من البضائع، مقابل: ٥٠ فرنكاً كانت تتقاضاها السفن الإنكليزية من مرسيليا إلى مسقط وكان تركيز الألمان على مسقط كبيراً[٤]. ويذكر جون لوريمر أنه في سنة ١٣٢٤#-١٩٠٦م ظهرت بواخر خط «هامبورغ - أمريكا» في الخليج العربي لأول مرة[٥].

٢- البيوتات التجارية الألمانية في الدولة:

تأسست أولى البيوت التجارية الألمانية في سورية وفلسطين في نهاية الستينات من القرن التاسع عشر. وتذكر التقارير وجود شركات «فوسيون (***Fussion***)» ألمانية في دمشق، وبيوت تجارية في بيروت وفلسطين. وفي فلسطين أخذ جماعة الهيكل الألمانية يقومون بتصدير منتجاتهم الزراعية بأنفسهم، وبلغ عدد شركاتهم التجارية في حيفا سنة

---

(١) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سورية ولبنان، بيروت، ١٩٨٧، ص٢٥٤.
(٢) سنّو، المرجع السابق ص٢٥٥.
(٣) سنّو، المرجع نفسه، ص٢٥٧.
(٤) ***Ilber ortayli: Osmanli Imperator luğu'nda Alman Nüfuzu Boğoziçi Universites ikütüphanesi, Istanbul, 2003, P.161-162.***
(٥) جون لور يمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، قطر ١٩٧٠م، ج١، ص٥٥١.

١٣٠٥#-١٨٨٧م ثلاث شركات. وفي الثمانينات تأسست في بيروت وكالات تمثيلية من قبل شركة التأمين العامة، وشركة التأمين على النقل لحماية النقل البحري. وفي أواخر القرن العشرين كان يوجد في القسم الآسيوي من الدولة العثمانية زهاء ثلاثين بيتاً تجارياً ألمانياً رأسمالها ٧ مليون مارك[١].

٣- المنشآت العمرانية والمؤسسات:

قامت ألمانيا بإنجاز عدد من المشاريع الاقتصادية والعمرانية في الدولة العثمانية، من أهمها:

- إنشاء تراموای الآستانة ١٣٠٥#-١٨٨٧م.
- تمديد كابل: كونستنز[٢] إستانبول ١٣١٧#-١٨٩٩م.
- تجهيز ميناء حيدر باشا.
- تطوير ميناء البصرة واسكندرونة.
- إنشاء مصرف فلسطين الألماني سنة ١٣١٧#-١٨٩٩م.
- إنارة سمرنا[٣] - سالونيك[٤] سنة ١٣١٧#-١٨٩٩م.
- زراعة القطن واستخراج زيوته سنة ١٣٢٣#-١٩٠٥م.
- تأسيس بنك الشرق سنة ١٣٢٤#-١٩٠٦م.
- تجديد جسر استانبول ونقل ملكيته للألمان.
- تأسس مصنع (***Hereke***) للسجاد في أزميت (***Izmit***) سنة ١٣١١#-١٨٩٣م.

وعلاوة على ذلك تأسست في ألمانيا مجموعة من الشركات المعنية بالاقتصاد الشرقي، منها:

- رابطة تصنيع الآلات والتعدين الألمانية.
- جمعية التصدير الألمانية الشرقية.
- رابطة المشرق الألمانية.
- بيت الصداقة الألمانية - التركية.
- جمعية الحضور الألماني في الخارج[٥].

٤- التجارة والمصارف

لم يكن للألمان نصيب في التجارة العثمانية حتى١٢٩٨#-١٨٨٠م.فبعد ذلك العام بدأت البضائع الألمانية تجد طريقها للوصول للأسواق العثمانية، أما النقلة النوعية للتجارة الألمانية هي الدولة العثمانية فكانت بعد توقيع اتفاقية تجارية بين الدولة العثمانية والدولة الألمانية في (١٨٩٠/٨/٢٦م-١٣٠٨#) والتي نصت على حرية التجارة بين البلدين، ولقد نصت هذه الاتفاقية على تخفيض نسبة الجمارك عن ٧٢٠ نوع من البضائع الألمانية

---

(١) سنو، المصالح الألمانية، المرجع السابق، ص٢٥٧.
(٢) كونستنز (***Konstanz***): مدينة تقع في أقصى جنوب ألمانيا على الحدود مع سويسرا. (***www.ar.wikipedia.org***).
(٣) سمرنا: تقع على الساحل الغربي للأناضول على البحر الأبيض المتوسط. (***www.ar.wikipedia.org***).
(٤) سالونيك: مدينة يونانية وهي عاصمة إقليم مقدونيا. (***www.ar.wikipedia.org***).
(٥) سنّو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص٥١. و ***Yasar Yilmaz: ikidost hüküмdar, p.cit, P151***.

الداخلة للدولة العثمانية سيما لم يتم تخفيض الجمارك على البضائع العثمانية الداخلة إلى ألمانيا[١].

وعلى أثر ذلك بدأ الألمان بالقدوم إلى الدولة، حاملين معهم بضائعهم، أو نماذج عنها، وكانوا شديدي المهارة والذكاء في عرضها على الأسواق العثمانية، ذلك أنهم بدؤوا بدراسة أحوال هذه الأسواق، وأسعار البضائع فيها، وما تحتاج إليه هذه الأسواق من البضائع وهذا حقق لهم نجاحاً وتميزاً لدى زبائنهم العثمانيين.

ومن أمثلة ذلك أن التجار الإنكليز كانوا يبيعون لفَّات القماش في بالات، وكان طول اللفة خمسين متراً، وكانت تشكل عبئاً على البائع والمشتري، فعرض الألمان أقمشتهم في لفَّات صغيرة طولها ١٦ متراً فقط، فأقبل الناس عليها، وكذلك عرضوا بضائعهم التي كانت تعادل بجودتها البضائع الأوربية الأخرى وبأقل ثمن منها وهذا ما زاد من إقبال الناس على البضائع الألمانية.

وفي سنة ١٣٠٧#-١٨٨٩م تأسست: رابطة التصدير لمصانع الآلات والتعدين الألمانية التي افتتحت معرضاً لها في الآستانة ومخزناً في في سالونيك، ووكالات في سورية وفلسطين[٢]. وقد فتح الألمان مصارف كثيرة في الدولة العثمانية وشجعوا التجار على فتح المصارف والمؤسسات المالية.

وأثناء زيارة الإمبراطور غليوم الثاني إلى القدس تأسَّس في فلسطين «بنك فلسطين الألماني» رأسمال قدره ٤٥٠،٠٠٠ مارك، وفُتح له فروع أخرى سنة ١٣١٧#-١٨٩٩م، في استانبول ومناستير وسلانيك والقدس ويافا وحيفا والإسكندرية القاهرة. ثم أُسّس في استانبول مصرف اسمه مصرف الشرق» برأسمال قدره ٢٠ مليون مارك، ثم فتحت له فروع في بغداد وبورصة والقاهرة[٣]. وكان ذلك سنة ١٣٢٤#-١٩٠٦م.

وفي سنة ١٣١٤#-١٨٩٦م أسس «الغراف تزيتن شفرين» (***Grefvon zieten - Schwerin***) رئيس جمعية بيت المقدس البرلينية: الشركة الفلسطينية الشرقية الألمانية، لتشجيع التجارة الألمانية في فلسطين والمشرق، وشراء الأراضي وزراعتها وممارسة الأعمال المصرفية.

ولما كان «شفرين» بروتستانتياً فقد كان يتعامل مع جماعة الهيكل الألمانية في فلسطين ومع التجار العرب واليهود. كما انضم له الكاثوليك الألمان بدافع قومي.

ورغم المنافسة الشديدة التي تعرَّض لها مصرف فلسطين من مصرف كريدي ليونّيه الفرنسي (***Crédit Lyonnais***) ومن المصرف العثماني (***Banque Imperiale Ottomane***)، إلا أنه استطاع أن يثبت أقدامه بقوة في فلسطين.

وهكذا جسَّد هذا المصرف أسس التعاون بين المصالح الاقتصادية والتبشيرية الألمانية في الشرق[٤]. وقد ساهم «دوتش بنك» (***Deutsche Bank***) في إنشاء المشاريع التالية في الدولة:

- الاتحاد العثماني للمشاريع الكهربائية - إدارة حصر التبغ والتنباك (***Régi***) من أجل

---

(١) سجل الأرشيف العثماني، سجل رقم (٧٨٤) وثيقة رقم (٢) تاريخ ١٢٩٦ (تضمنت الوثيقة قائمة بأسماء البضائع الألمانية الداخلة للدولة العثمانية، والمعفى منها من الجمارك ونسبة الضرائب عليها). و ***Ilber Ortayli, Osmanli Imparator luğu'nda Alman Nüfuzu, p.cit, P.59***.

(٢) سنو، المصالح الألمانية، المرجع السابق، ص٢٥٩.

(٣) ***Kazim Karabekir, Tarih Boyunca, op.cit, P.159***.

(٤) سنو، المصالح الألمانية، ص٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣.

احتكار صناعة التبغ لمدة ثلاثين عاما[١].

وقد بلغت قيمة الصادرات الألمانية إلى الدولة العثمانية:

- ٧٧ مليون مارك بين ١٣٠٦/١٢٩٨#ـــ١٨٨٨/١٨٨٠م.
- و٣١٤ مليون مارك بين ١٣١٥/١٣٠٧-١٨٩٨/١٨٨٩م.
- و٧٩٣ مليون مارك بين ١٣٣٢/١٣٢٣#-١٩١٣/١٩٠٥م.

وكانت ألمانيا تصدر للدولة:

- المنسوجات والآلات والأدوات الحديدية والكيماوية والطبيَّة.
- كما كانت تصدر لوازم الخطوط الحديدية والقطارات.
- ولكن الأسلحة كانت تأتي في المقام الأول حيث كانت:

شركة كروب (***Krupp***) وماوزر (***Mouser***) ولوفيه (***Löwr***) هي المصدر الرئيس للأسلحة الألمانية التي بلغت قيمتها بين ١٨٨٨-١٨٩٧ حوالي ٨٥ مليون مارك[٢].

وفي إحصاء آخر نجد أن حجم الصادرات الألمانية للدولة سنة ١٩٠٠ بلغ ٣٤ مليون مارك مقابل ٣٠ مليون مارك قيمة الواردات الألمانية من الدولة العثمانية.

وفي سنة ١٣٢٢#-١٩٠٤م صدَّرت ألمانيا للدولة ما قيمته ٧٥ مليون مارك واستوردت منها ما قيمته ٤٣،٥ مليون مارك[٣].

٥- الاتصالات والتنقيب عن المعادن:

ومن مظاهر التعاون العثماني - الألماني المختلفة نذكر التعاون في مجال البريد والبرق والهاتف.

ففي سنة ١٣١٧#-١٨٩٩م عمد الألمان إلى مدّ خطوط البرق في أنحاء الدولة بعدما كان هذا القطاع بأيدي الإنكليز. وقد مدوا خطاً من مالا[٤] (***Malla***) إلى استانبول، وخطاً آخر من استانبول إلى أوديسا[٥] (***Odissa***). كما مدّ خط ثالث من برلين إلى بوكرش إلى كونستانا[٦] وبمساعي السفير الألماني في استانبول، حصلت شركة ألمانية على امتياز خط البرق من كونستانا إلى بغداد. كما حصلت على امتياز خط استانبول - العريش.

وفي سنة ١٣٢٣#-١٩٠٥م تم تدشين الخط البرقي بين دمشق والمدينة المنوَّرة، أثناء تمديد الخط الحديدي الحجازي، ووضع نصب التأسيس في ساحة المرجة بدمشق[٧]. كما تمَّ تكثيف البعثات الجيولوجية الألمانية في الأناضول، وأجري المسح على الثروات الباطنية، وتمت دراسة الجدوى الاقتصادية لاستخراج المعادن. كما وضعت وزارة الحربية الألمانية قائمة بالشركات البريطانية والفرنسية العاملة في حقل النشاطات المنجمية والتي يجب سحب تراخيصها ونقلها إلى الشركات الألمانية[٨].

---

(١) علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، المرجع السابق، ص٢٠.
(٢) سنّو، ألمانيا والإسلام، ص٥٤.
(٣) ***Kazim Karabekir, Tarih boyunca, op.cit P62***
(٤) مدينة تقع في أقصى جنوب إيران (***www.ar.wikipedia.org***).
(٥) مدينة أوكرانية تقع على البحر الأسود (***www.ar.wikipedia.org***).
(٦) ميناء ومرفأ هام على البحر الأسود ، تقع شرقي رومانيا (***www.ar.wikipedia.org***).
(٧) ***Kazim Karabekir, op.cit,.P161***
(٨) سنّو، ألمانيا والإسلام، ص٥١.

ويقول السلطان عبد الحميد: إن سلوك القيصر غليوم الثاني معي جعلني أتصرَّف معه تصرُّف الأصدقاء إلى آخر عمري. ثم يقول: وجاء مع الإمبراطور الألماني إلى بلادنا بعض العلماء الألمان، ومن بينهم من كان يشتغل بالتنقيب عن الآثار القديمة حول الموصل فسمحت لهم. ثم كلفت صلاح الدين أفندي بمراقبة هذه البعثات العاملة حول الموصل فأرسل إلي الإمبراطور ما يزال في بلادنا، أن الألمان يفعلون ما يفعله الإنكليز تماماً حيث يقومون بحفر الآبار النفطية، ولو طلب مني الإمبراطور الرخصة بالتنقيب عن النفط لأعطيته، ولكنه آثر العمل من وراء ظهورنا[1].

٦- القروض المالية:

وحتَّى تغطي الدولة العثمانية قيمة مشترياتها كانت تضطر لإبرام قروض مع ألمانيا لتخفيف اعتمادها على فرنسا أو إنكلترا. ففي سنة ١٣٠٦#-١٨٨٨م أبرمت أول قرض مع ألمانيا بقيمة ١،٦ مليون ليرة ذهبية عثمانية بفائدة قدرها ٥% على أن يكون التسديد بالمارك الألماني، وهذا القرض هو قيمة الأسلحة التي استوردتها الدولة من ألمانيا[2].

وثمة ملحوظة هامَّة، وهي أن جميع قروض ألمانيا للدولة العثمانية كانت بالليرة الذهبية العثمانية، وعند تسديد الأقساط تحسب قيمة الماركات بسعر الذهب وتسدد الدولة على هذا الأساس وذلك لتضمن ألمانيا قيمة القرض وتأمن تقلبات الأسعار، وبذلك تحصل على فائدة مزدوجة:

- فهي التي تقوم بتحديد سعر الصرف، وتقوم بالصرف أيضاً.
- وهي التي تضمن ثمن بضائعها بالعملة الذهبية.

وكان السلطان يدرك ذلك تماماً، ولكنه كان مضطراً لذلك، لأن الدول الأخرى ليست أرحم من ألمانيا، بل هي أسوأ منها بكثير كما تجلَّى في قروض الدول الأوروبية لمصر، والتي انتهت باحتلالها.

وفي سنة ١٣١٢#-١٨٩٤م عقدت الدولة العثمانيَّة قرضاً آخر مع ألمانيا قيمته ١،٧٦ مليون ليرة ذهبية عثمانية بفائدة قدرها ٤% من أجل تسديد ديون شركة حديد الأناضول على الدول لصالح مجموعة دوتش – بنك (***Deutsche Bank***). ثم أردفت ذلك بقرض ثالث مع البنك نفسه مقداره ٢،٣٧ مليون ليرة ذهب بفائدة قدرها ٤% سنة ١٩٠٣ من أجل تنفيذ المرحلة الأولى من خط حديد بغداد. ثم عقدت قرضاً رابعاً من البنك نفسه قيمته ٢،٦٤ مليون ليرة عثمانية سنة ١٩٠٥ لدفع ثمن التجهيزات العسكرية.

وفي سنة ١٣٢٦#-١٩٠٨م منحت ألمانيا الدولة العثمانية مبلغ ١٠٨ مليون فرنك فرنسي لإقامة أربعة فروع لخط حديد بغداد بطول ٨٤٠كم، وتولّت شركة «هولستمان» (***Holtzmann***) الألمانية تنفيذ المشروع.

وهكذا بلغت قيمة القروض ١٢،٣ مليون ليرة ذهبية على مدى ٢٨ عاماً.

والجدير بالذكر أن قيمة القروض في عهد الاتحاد والترقي بين ١٣٢٦#-١٩٠٨م حتى ١٣٣٣#-١٩١٤م بلغت ٤٦ مليون ليرة...

ومع ذلك كانت ديون الدولة لألمانيا ١٢% من قيمة الدين العثماني العام، مقابل ٤٥% لفرنسا و١٠% لإنكلترا[3]، وبالرغم من كل محاولات الدولة العثمانية الاعتماد في

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد - دار القلم بدمشق ١٩٩٨، ص١٥٦. الأرشيف العثماني، سجل رقم (٣٦٠) وثيقة رقم (٨٣) تاريخ ١٣١٨هـ.

(٢) علي محافظة، العلاقات الألمانيَّة - الفلسطينيَّة، ١٨٤١م-١٩٤٥م، المرجع السابق، ص١٧

(٣) محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، المرجع السابق، ص١٨.

مشاريعها وقروضها على ألمانيا، إلَّا أنه بقية لفرنسا حصة الأسد في هذه الديون، ولم تستطع الدولة التخلص من هذه الهيمنة حتى سقوطها.

ثالثاً - خط برلين - بيزنطة - بغداد *B.B.B*:

١- الخطوط الحديدية في الدولة العثمانية:

في سنة ١٢٨٩هـ - ١٨٧٢ تلقى المهندس الألماني الكبير المتخصص في مد خطوط الحديدية جورج برسيل (***G.Pressel***) تكليفاً من السلطان عبد العزيز بمد عدد من الخطوط الحديدية في البلقان لوصلها بالآستانة[١].

وفي سنة ١٣٠٥#-١٨٨م أنجز «برسيل»(مدَّ شبكة حديدية معقدة في البلقان تصل ڤيينا بالآستانة ، ترتبط بشبكة الخطوط الحديدية في أوروبا حتى لندن عن طريق كاليه[٢][٣].

ثم تطلَّعت الدولة العثمانية إلى ربط الآستانة بولاياتها في الشام والعراق، وكانت تؤثر التعامل مع ألمانيا، لما حققه «برسيل» من مهارة وكفاءة في مد خطوط البلقان، ولأن ألمانيا كانت من أقلّ الدول الأوروبية طمعاً بالدولة العثمانية على عكس كلٍ من روسيا وفرنسا وإنكلترا[٤].

وكان بسمارك يفضّل أن تقوم بريطانيا وفرنسا بمدّ الخطوط المطلوبة حتى تتنافس فيما بينها بعيداً عن ألمانيا، كما أن مجموعة «دوتش - بنك» (***Deutsche Bank***) الألمانية كانت متحفظة حيال المشروع بسبب التدهور الاقتصادي في الدولة العثمانية.

ثم تراجع بسمارك وأعلم «سيمنس» في أيلول ١٣٠٥#-١٨٨٨ماستعداد السفارة الألمانية في الآستانة لتقديم الدعم الدبلوماسي للمجموعة التي يمثلها للحصول على الامتياز.

وشهدت الآستانة خلال شهر أيلول مناورات ألمانية وبريطانية وفرنسية انتهت بحصول «مجموعة بنك - دوتش الألمانية» (***Deutsche Bank***) على امتياز خط حيدر باشا - أنقرة - قونيه.

وفي العام التالي تأسست «شركة سكة حديد الأناضول العثمانية» من المجموعة الألمانية المذكورة[٥].

وأخيراً وفي الرابع من تشرين الأول ١٨٨٨ تم في استنبول توقيع عقد الامتياز بين الباب العالي ومجموعة دوتش-بنك التي يرأسها جورج سيمنس (***G.siemans***) أول رئيس

---

(١) مجموعة مؤلفين، ألمانيا والعالم العربي، تعريب، مصطفى ماهر، دار صادر بيروت، ١٩٧٤م، والبحث الذي نقلنا منه بقلم د.هانس رُويمر ،ص ٣٧٤.

(٢) كاليه: بالفرنسية (***Pas de Calais***) وهو المضيق الموجود في أضيق جزء من بحر المانش ويقع بين القنال الإنكليزي وبحر الشمال، وهو أقصر مسافة بين إنكلترا والقارة الأوربية، (***www.ar.wikipedia.org***).

(٣) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية، المرجع السابق، ج٣ ص١٣٤٨.

(٤) مجموعة مؤلفين، ألمانيا والعالم العربي، المرجع السابق، ص٣٤٥.

(٥) سنو، ألمانيا والإسلام، المصدر السابق، ص٤٦.

لمجموعة البنك الألماني، وأول مدير لخط حيدر باشا - أنقرة[١].

وكانت النمسا قد مدَّت جزءاً من هذا الخط حتى إزميت[٢] فاشترته الدولة وقدَّمته للمجموعة الألمانية. وبدأ العمل سنة ١٣١١#-١٨٩٣م ووصل الخط إلى أنقرة بعد عام، وفي سنة ١٣١٤#-١٨٩٦م وصل الخط إلى قونية، ورافق ذلك وصول أعداد كبيرة من الألمان بمعدَّاتهم إلى الدولة[٣]. وفي سنة ١٣١٩#-١٩٠١م مات سيمنس وخلفه: فون جافنير (***Von Cavnir***).

وهكذا فإنه في أواخر القرن التاسع عشر، وقبل توقيع عقد خط حديد بغداد بلغ طول الخطوط الحديدية في الدولة العثمانية نحو ٢٧٢٦ كيلومتراً، وفي أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني وصل طول هذه الخطوط ١٢،٠٠٠ كم[٤].

١- الخطوط الإنكليزية:

- إزمير - آيدين = ٣٧٣ كم.
- مرسين - أضنة = ٦٧ كم

والمجموع = ٤٤٠ كم.

٢- الخطوط الفرنسية:

- إزمير - قصبة = ٥١٢ كم
- القدس - يافا = ٨٧ كم
- بيروت - دمشق = ٢٤٧ كم
- دمشق - حلب = ٤٢٠ كم

والمجموع = ١٢٦٦ كم

٣- الخطوط الألمانية:

- حيدر باشا - إزميت = ٩١ كم
- إزميت - أنقرة = ٤٨٥ كم
- أسكي شهر [٥]- قونيه[٦] = ٤٤٤ كم

المجموع = ١٠٢٠ كم[٧]

٢- خط بغداد ١٣٢١هـ-١٩٠٣م:

- فكرة الخط: يعرف اصطلاحاً بخط[٨]: برلين، بيزنطة، بغداد، ***B.B.B***، واختصاراً

---

(١) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث ، موسكو ١٩٧١، ص٣٨٧.

(٢) إزميت، أو إزميد هي مدينة نيقوميديا القديمة على بحر مرمرة. وأما أزمير فهي بلدة «سميرنا» القديمة وتقع على بحر إيجة. دائرة المعارف بطرس البستاني ج٣، ص٣٠٧ و٣٠٩.

(٣) عبد العزيز الشناوي، الدول العثمانية ج٣، ص١٣٦٢. محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، القاهرة ١٩٧٦م، ص٣٠٦.

(٤) سنو، ألمانيا والإسلام، ص٥١. ود.سيف الله آرباجي، السلطان عبد الحميد الثاني (مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية)، ط١، دار النيل، مصر، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، ص٤٨.

(٥) أسكي شهر: مدينة تقع في الشمال الغربي لتركيا.

(٦) قونية: مدينة تركية تقع وسط الأناضول.

(٧) ***Ilber ortayli, Osmanli Imparator luğu'nda. Alman Nüfuzu, op-cit, P.142, 143***

(٨) وقد أطلق على مشروع هذا الخط الحديدي من قبيل الاختصار طريق (***Route, B.B.B***)؛ لأنه يبدأ من برلين ويمر ببيزنطة ثم بغداد، وقد اختيرت كلمة بيزنطة بدلاً من استانبول أو الآستانة أو القسطنطينية حتى تبدأ أسماء هذه المحطات الثلاثة الرئيسية بحرف (ب) (***B***). (عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية، المرجع السابق، ج٣، ص١٧٣، ١٧٤).

بخط بغداد، وقد بدأ المشروع اقتصادياً، ثم تحول إلى مشروع سياسي، شأنه شأن قناة السويس.

فكرة الخط قديمة تعود إلى سنة ١١٨٨#-١٧٨٢م عندما أوصى المهندس الإنكليزي سوليفان (***Sulivan***) بعد رحلةٍ له إلى الشرق إلى ضرورة إحياء الخط البرّي المعروف بطريق الحرير بين أوروبا والهند[١].

وفي سنة ١٢٦٧#-١٨٥٠م اقترح الكولونيل الإنكليزي تشيسني (***Teshicne***) إنشاء خط حديدي في وادي الفرات يصل إلى الخليج العربي[٢]، وعندما بوشر بحفر قناة السويس سنة ١٢٧٣#-١٨٥٦م اشتد قلق بريطانيا على الهند وفكرت بإحياء الطريق البري إليها، ثم صرفت النظر عن الموضوع عندما سيطرت على غالبية أسهم القناة سنة ١٢٩٢#-١٨٧٥م[٣].

٣- توقيع العقد:

وعلى أثر زيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني التاريخية للدولة العثمانية في خريف ١٣١٦هـ - ١٨٩٨ وقعت ألمانيا مع الدولة العثمانية اتفاقية تمديد خط حديد ***B.B.B*** في أواخر سنة ١٣١٧#-١٨٩٩م وهو خط برلين - بيزنطة - بغداد، وكما صار يعرف اختصاراً بخط حديد بغداد.وكلمة بيزنطة هي القرية التي بنيت القسطنطينية على أنقاضها ومنها أخذت الإمبراطورية الرومانية الشرقية اسمها.

وفي سنة ١٣١٨#-١٩٠٠م قامت بعثة ألمانية برئاسة القنصل الألماني في الآستانة برحلة على طول الخط المقترح في العراق، ثم وضعت تقريرها عن كل المشكلات المحتملة في هذا الخط[٤].

وأعقب ذلك مشاورات ودراسات واسعة بين المختصين في الدولتين أسفرت عن توقيع العقد النهائي للخط في أوائل كانون الثاني ١٩٠٢ - ١٣١٩هـ. وقد تأخَّر صدور الإدارة الشاهانية بوضع الاتفاق موضع التنفيذ إلى يوم ٥ آذار ١٩٠٣م-١٣٢٠# الذي يعدّ التاريخ الحقيقي لبدء تنفيذ هذا الخط.

وقد أثار اختيار ألمانيا لتنفيذ هذا المشروع ردود فعل كبيرة لدى الدول الأوروبية، بين مؤيد ومعارض ومتخوف من عواقب هذا الصراع الدولي على تنفيذ هذا المشروع، ويذكر هذا الأمر بتوقيع اتفاقية مشروع قناة السويس مع فرنسا.

وقد وقَّع العقد نيابةً عن الدولة العثمانية وزير التجارة والأشغال العمومية: ذهني باشا، ووقعه نيابة عن «شركة سكة حديد الأناضول العثمانية» وهي شركة ألمانية كل من:

- جونيور آرثر (***Gwinner Arthur***): رئيس مجلس المديرين بالشركة.
- والدكتور كورت زاندر (***Dr.Kurt Zander***): المدير العام للشركة.
- وهيجيونين إدوارد (***Huguenin Edouard***): المدير العام المساعد بالشركة[٥].

٤- خط السكة الأصلي والفرعي:

---

(١) عزَّة آقبيق، تاريخ الخطوط الحديديَّة في بلاد الشام ص١٩٩.
(٢) عزة آقبيق، المرجع السابق ص٢٠٤.
(٣) رويمر، ألمانيا والعالم العربي، المرجع السابق، ص٣٧٢-٣٧٤.
(٤) جون لوريمر، دليل الخليج، المرجع السابق، ج١ ص٥٥١.
(٥) عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج٣، ص١٣٦٢.

وقد نص العقد في مادته الأولى على خط سير السكة الحديدية المذكورة، فكان الآتي:

١- الخط الرئيسي:

١- قرمان: ***Karaman***.
٢- إرجلي ***Ergeli***.
٣- كراداش ***Karadash***.
٤- أضنة: ***Adana***.
٥- حميدية: ***Hamidieh***.
٦- عثمانيَّة: ***Osmanieh***.
٧- باجتشب: ***Bagtcheb***.
٨- كازانالي: ***Kazanali***.
٩- كلّس: ***Killis***.
١٠- تل حبيش: ***Tel-Habesh***.
١١- حرَّان: ***Harran***.
١٢- رأس العين: ***Ras-el-Aen***.
١٣- نصّيبين: ***Nisibin***.
١٤- عونيات: ***Avniat***.
١٥- الموصل: ***Mosul***.
١٦- تكريت: ***Takrit***.
١٧- صاددجة: ***Sadidjeh***.
١٨- بغداد: ***Bagdad***.
١٩- كربلاء: ***Kerbela***[١].
٢٠- النجف: ***Neajef***.
٢١- البصرة: ***Busra***[٢].

٢- الخطوط الفرعية:

- يتفرع من تل حبيش خط إلى حلب.
- ويتفرع من أقرب نقطة خط إلى أورفه (الرها).
- ومن صاددجه يتفرع خط إلى خانقين[٣].
- ومن الزبير خط إلى الخليج الفارسي، كما كان يُسمّى
- وهناك فروع قيد الدراسة وهي:

- فروع تتجه إلى مرعش، وعينتاب وبيره جك[٤] وماردين وأربيل وطوز[٥] - كاراماتي وهيت.

---

(١) الشناوي، المرجع السابق، ج٣، ص١٣٦٣.
(٢) عزَّة آقبيق، تاريخ الخطوط الحديدية، المرجع السابق، ص٢١٢.
(٣) خانقين: مدينة تقع ضمن محافظة ديالى في العراق على الحدود مع إيران. (***www.ar.wikipedia.org***).
(٤) بيره جك (***Bircik***): مدينة في محافظة أورنا جنوب شرق تركيا، كانت تابعة لولاية حلب. (***www.ar.wikipedia.org***).
(٥) طوز: تقع شمال العراق عائدة لمحافظة كركوك. (***www.ar.wikipedia.org***).

وتقوم الشركة وحدها بتنفيذها، من دون غيرها، في حال إقرارها نهائياً[١].

٥- معلومات عن الخط وأهداف كل فريق منه:

أ- معلومات عن الخط:

- تدفع الدولة العثمانية للشركة عن كل كيلومتر من الخط يتم تنفيذه (٢١،٠٠٠) فرنك فرنسي ضمانة للخط والعاملين عليه.
- عرض الخط ١٤٤،٥ سم، بينما عرض الخط الحجازي ١٠٥ سم.
- الطول الإجمالي للخط ٢٥٠٠ كيلومتر.
- مدة العمل فيه ٨ سنوات.
- كلفة المشروع الكاملة ٥٥٠ مليون فرنك فرنسي[٢].
- الشركة المالكة: شركة خط حديد الأناضول العثمانية.
- في سنة ١٩٠٤ دخلت شركات فرنسية وأوربية في المشروع فصارت أنصبة الشركاء كالآتي:
- المجموعة الألمانية ممثلة بـ« البنك الألماني» ولها ٤٠% من الأسهم.
- المجموعة الفرنسية ممثلة بـ«البنك العثماني» ولها ٣٠% من الأسهم.
- المجموعة المالية للنمسا والمجر وإيطاليا وتركيا ولها ٢٠% من الأسهم.
- شركة حديد الأناضول ولها ١٠% من الأسهم[٣].

وقد قال خليفة «سيمنس» الألماني في إدارة الخط: «لقد انتهى الحلم بأن يكون خط بغداد بيد ألمانيا»[٤].

وذكرت جريدة المشرق أن الدولة العليَّة أجازت لجماعة من رجال المال سنة ١٣٢١#-١٩٠٣م مد خط حديدي طويل من قونيه إلى بغداد.

وقد كادت الشركة أن تنجز القسم الأول فيه الممتد إلى أركلي وطوله ٢٠٠ كم، وتباشر القسم الثاني وطوله ٦٠ كم، وهو مكمل للخطوط الموجودة.

كما ذكرت الجريدة: وفي ١٦ كانون الأول ١٩٠٣م-١٣٢١# عقدت الشركة الجديدة لخط بغداد اجتماعها العمومي في الآستانة، وتم الاتفاق فيه على كل المسائل بين الألمان والفرنسيين.

وفي سنة ١٣٢٢#-١٩٠٤م تم تدشين الجزء الأول الذي جاءت نفقاته أقل من المتوقع مما أدى إلى الاندفاع في تمديد الأجزاء الباقية[٥].

٦- أهداف السلطان عبد الحميد الثاني وألمانيا من المشروع.

١- أهداف السلطان عبد الحميد:

---

(١) الشناوي، المرجع السابق، ج٣، ص١٣٦٣.
(٢) ذكرنا أن الليرة العثمانية تساوي ٢٠ فرنكاً فرنسياً تقريباً، وعليه تكون قيمة تنفيذ المشروع ٢٧ مليون ليرة ذهبية عثمانية.
(٣) عزَّة آقبيق، تاريخ الخطوط الحديدية، المرجع السابق، ص٢١٠.
(٤) سنّو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص٤٩.
(٥) جريدة المشرق، السنة السابعة العدد ٣ - ٧ شباط ١٩٠٤م، ص١١٢.

كانت أوروبا، ودول كثيرة أخرى في العالم، قد مدَّت في بلادها خطوطاً حديدية لتحقيق التقدم الصناعي والزراعي والعسكري في بلادها، الأمر الذي دفع بالسلطان عبد الحميد مع بدايات القرن العشرين إلى ربط السلطنة العثمانية بعدد من الشبكات للخطوط الحديدية الرئيسية والفرعية.

وكان هدفه من مد السكك الحديدية إحكام سيطرته على الدولة، وإعمار المناطق الواسعة في الأناضول التي لا تجد من يزرعها لبعد المسافة وارتفاع كلفة النقل ومداهمة العصابات المسلحة للبلدات والقرى والمدن في أنحاء الإمبراطورية ولاسيَّما عصابات الأرمن المسلحة في الأناضول وعشائر البدو على طريق الحج الشامي الشريف.

وعدا عن كل ذلك فإن تهديد بريطانيا للخليج العربي ومحاولاتها السيطرة عليه ومنع الدولة العثمانية صاحبة الحق التاريخي والديني من الإشراف عليه[1]، كل ذلك دفع السلطان عبد الحميد إلى إحكام سيطرته على القسم الشرقي من الإمبراطورية العثمانية عن طريق مدّ خط حديدي يربط استانبول بالأناضول والرافدين والخليج بحيث يصبحُ السلطان قادراً على تحقيق الأهداف التالية:

١- سرعة وسُهولة إرسال القوات العسكرية لمحاربة الثائرين على الدولة في الأناضول وفي شرقي العراق، وبعض إمارات الخليج والجزيرة العربيَّة.
٢- تنشيط الزراعة في الأناضول والرافدين عن طريق نقل الإنتاج الزراعي عبر القطارات بأسعار زهيدة، كما أن انتشار الأمن جرَّاء سرعة تحرك القوات العسكرية، سيجعل المزارعين يعودون إلى زراعة الأراضي التي هجروها لانتشار الأمان.
٣- تثبيت الوجُود العسكري العثماني في الأناضول التي كانت محط أنظار روسيا وحلفائها من الأرمن.
٤- العمل على التنقيب على البترول والمعادن على طول الخط ولاسيّما في منطقة الموصل.
٥- محاولة الوصول إلى الهند عن غير طريق قناة السويس لزعزعة الحكومة البريطانية ووصل العلاقات التجارية والدينية مع مسلمي الهند، الذين كانوا يظهرون تمسُّكهم بالسلطان عبد الحميد ودولة الخلافة.

٢- أهداف ألمانيا

أمَّا ألمانيا، فقد كانت تعاني من زيادة في السكان ونقص في الأراضي الزراعيَّة[2]، ولذلك توجَّهت أنظارها نحو فلسطين، ونحو الأناضول والرافدين، وكما سنرى عند الحديث عن موقفها من السُّلطان عبد الحميد، فإنها فكرت في إسكان مواطنيها الفقراء في أراضي الدولة العثمانيَّة، بصورة دائمة أو مؤقَّتة.

كما فكّرت ألمانيا بالمواد الأوَّليَّة الزراعيَّة أو المعدنية التي يمكنُ الحصول عليها من الدولة العثمانية والتي هي بأمسّ الحاجة إليها، لافتقارها الشديد إليها ولاسيما النفط.

ومن أهداف ألمانيا الأخرى تعريف الإنتاج الألماني المتزايد في الدولة العثمانية، كما

---

(١) عزَّة آقبيق، المرجع السابق، ص٢٠٤.

(٢) ازداد عدد سكان ألمانيا ٤٠ إلى ٥٦ مليون نسمة ما بين عامي ١٨٧٠ و١٩٠٠، ووصل عددهم إلى ٦٧ مليون نسمة قبيل الحرب العالمية الأولى. (روبير شنرب، تاريخ الحضارات العام في القرن التاسع عشر، نقله إلى العربية يوسف داغر وفريدم داغر، منشورات عويدات، بيروت، ص٣٢٣. ومحمد الأحمد، الحضارة الأوروبية (الحديثة والمعاصرة)، جامعة دمشق، ٢٠٠٧-٢٠٠٨، ص٢٣٣.

سنرى عند الحديث عن التجارة.

كما كان لها هدف استراتيجي وسياسي مهم، وهو إيجاد مكان لها في «المسألة الشرقية» وهذا لا يتم إلّا إذا كان لها وجودٌ اقتصادي أو عسكري أو إداري في الدولة العثمانية، وهذا كله يمكن أن يتحقق من خلال هذا الخط العملاق خط بغداد، وسوف نرى في الفقرات التالية ما يزيد الصورة وضوحاً[١].

وكان الكونت «فون مولتكه» (***Helmuth Von Moltke***) العسكري الألماني العالمي قد اقترح في أواسط القرن التاسع عشر إنشاء سكة حديدية تخترق الدولة العثمانية كلها حتى الخليج العربي.

وقال: «إنه يجب أن تكون الإمبراطورية الألمانية الموحَّدة هي الكتف الذي تمتد منه هذه اليد الحديدية لتجتاز بعد ذلك آسيا الصغرى، ثم تمتد حتى القفقاس والعراق والهند»[٢].

٦- موقف إيران وروسيا وفرنسا:

كان السلطان غير واثق من نوايا إيران تجاه الدولة العثمانية رغم محاولاته المتكررة لإصلاح ذات البين معها، بل إن إيران كانت لها مواقف عدائية من الدولة العثمانية، وكانت تطمع في احتلال العراق كما فعلت في سنة ١٠٣٢هـ-١٦٢٢ يوم احتلته ثم طردها السلطان مراد الثاني منه بعد معارك طاحنة سنة ١٠٤٨هـ-١٦٣٨[٣].

وكانت إيران قد احتلت إقليم عربستان العربي وجعلته فارسياً وسمته: خوزستان، ولذلك كان السلطان يتوجَّس خيفة من مطامع إيران في العراق، ولاسيَّما وأن روسيا كانت تدعمها في ذلك، فأراد السلطان تقوية نفوذه في شرقي بلاده، ووجد أن أهم ما يقوم به في هذا السبيل هو مدّ خط حديدي بين استانبول وبغداد والبصرة[٤].

وفي سنة ١٣٢٩هـ - ١٩١١ دخلت روسيا على الخط، فعقدت مع ألمانيا اتفاقية: بوتسدام، تعهدت ألمانيا فيها بعدم مد الخط إلى خانقين أو شق طرقات أو مدّ خطوط برقية أو حفر قنوات في منطقة النفوذ الروسي شمالي العراق وفارس. ثم اتفقت ألمانيا مع فرنسا، من خلال البنك العثماني على تقسيم مناطق النفوذ الألمانية - الفرنسية، وهذا اعتراف ضمني من ألمانيا بمناطق النفوذ الفرنسية في سوريا. ثم حاولت التفاهم مع بريطانيا، لكن اندلاع الحرب العالمية الأولى قلب كل المعادلات، وكان الخط قد وصل إلى رأس العين[٥].

وفي نهاية الأمر يمكننا القول: أنَّ مشروع خط بغداد والخط الحجازي كانا أكبر نصر سياسي واقتصادي وعسكري للدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد على السياسة البريطانية المهيمنة في تلك المرحلة.

٧- أهم بنود العقد:

كانت بنود العقد ٤٦ بنداً، اخترنا منها الأمور التاريخية:

١- مدة العقد ٩٩ سنة.

٢- تقوم الشركة بتسليم الدولة العثمانية ما تم مدُّه من الخطوط الحديدية بواقع ٢٠٠كم

---

(١) عزة آقبيق، المرجع السابق، ص٢٠٩.

(٢) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، المرجع السابق، ص٣٨٦.

(٣) محمد الأمين المحبي، خلاصة الأثر، دار صادر بيروت- لا تاريخ، ج٢ ص٢٦٨.

(٤) الشناوي، المرجع السابق، ج٣، ص١٣٥٧.

(٥) لوتسكي، المرجع السابق، ص٣٨٩.

لكل مرحلة. تراقب وزارة الأشغال العثمانية جودة الخط مقابل ١٧٠ ليرة ذهبية عن كل كيلومتر ينفذ منه ويدفع المبلغ شهراً بشهر[١].

٣- يحق لأصحاب الامتياز تملك الأراضي الأميرية[٢] التي يمرّ منها الخط، لمدّ السكة وإقامة المنشآت العامة. أما إذا كانت الأراضي ملكاً للأفراد فهي تشتري منهم بالسعر المناسب. أما الأراضي التي تحتاجها الشركة بصورة مؤقتة فإنها تقوم بدفع أجرتها لأصحابها.

٤- بعد الانتهاء من مدّ الخط، يمدّ بجانبه خط موازٍ له على نفقة أصحاب الامتياز كما يمدّ طريق على طول السكة. تعفى المواد المستوردة لصالح العمل من الرسوم. يبقى خط حيدر باشا - قونيه ملكاً للدولة. يحق لأصحاب الامتياز قطع الأخشاب اللازمة للخط، دون دفع ثمنها[٣].

٥- هناك سبعة فروع للخط، تحتكر شركة الأناضول المنفذة حق تمديدها دون غيرها.
- وهذه الفروع تتجه إلى كل من: مرعش وعينتاب وبيره جك وماردين وأربيل وطوز كارماتي[٤] وهيت.

٦- تتعهد الدولة بحفظ وسلامة العاملين على إنشاء الخط ومعدَّاتهم ويلتزم الموظفون والمستخدمون العاملون في تمديد الخط، بارتداء اللباس العثماني والطربوش عند وضع الخط موضع الخدمة العامة.

٧- وعلى الشركة صاحبة الامتياز اختيار موظفيها من العثمانيين بقدر الإمكان، ما عدا كبار الموظفين

٨- تلتزم الشركة ببناء مكاتب الموظفين والجمارك والبريد ورجال الشرطة كما تقيم مع الخط أعمدة البرق لمصلحة الخط. يحق للشركة نقل البريد على متن قطاراتها دون دفع رسوم[٥] لمصلحة البريد.

٩- تعود ملكية الخط بكل منشآته إلى الدولة بعد انتهاء مدة الامتياز.

١٠- تتولى الحكومة العثمانية تنظيم خدمة الخط البحري الذي يربط حيدر باشا على الشاطئ الأوربي للبوسفور بواسطة قوارب جديدة وسريعة.

١١- وإذا حصلت نزاعات بين الشركة والدولة، فإن محاكم الدولة وحدها هي التي تنظر فيها حصراً.

١٢- وتكون التركية هي لغة الخطابات في الشركة[٦].

١٣- وأخيراً: يتولى أصحاب الامتياز القيام بالتحسينات المستمرّة على الخطوط الحديدية التي تم إنشاؤها من حيدر باشا حتى قونيه عن طريق تسيير قطار سريع (قطار الشرق السريع «اكسبريس») (***Orient Express Train***)[٧]....

---

(١) الشناوي، المرجع السابق، ج٣، ص١٣٦٤.
(٢) الأراضي الأميرية: وهي التي تملكها الدولة العثمانية وتمنع الاستفادة منها بشروط معينة لبعض الناس: منهم أصحاب التجار والزعامات والخاص وغيرها من المنح. (سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، المرجع السابق، ص٢٧.
(٣) الشناوي، المرجع السابق ج٣، ص١٣٦٣.
(٤) عزَّة آقبيق، المرجع السابق، ص٢١٤.
(٥) الشناوي، المرجع السابق، ج٣، ص١٣٧٠.
(٦) الشناوي، المرجع نفسه، ج٣، ص١٣٧٤.
(٧) الشناوي، المرجع نفسه، ج٣، ص١٣٧٧.

٨- آثار الخط ومصيره:

عند افتتاح خط حيدر باشا – انقره سنة ١٣١٢#-١٨٩٤م كانت كمية الدقيق المنقولة إلى حيدر باشا ٥١،٠٠٠ طناً قفزت سنة ١٣٢٦#-١٩٠٨م إلى ١٤٦،٠٠٠ طن. والتبغ كان ٢٢،٥٠٠ طن سنة ١٣٠٢#-١٨٨٤م فصار ٦٣،٥٠٠ طناً سنة ١٣٢٩#-١٩١١م. وقفز القطن من ٤٠٠ طن فقط سنة ١٨٩٦ إلى ٣٣٧٥٠ طناً سنة ١٣٣٣#-١٩١٤م، وهذا يدل على انتشار زراعته بعدما تأمنت طرق نقله[١].

ولو قارنا آثار الخط بآثار الخط الحديدي الحجازي لوجدنا أن آثار خط بغداد كانت متواضعة، وذلك لأن ألمانيا صاحبة الفكرة الأولى والامتياز الأول لتمديده لم تترك لتعمل فيه كما حصل في الخط الحديدي الحجازي، كما أنها لم تستطع تحقيق الحلم الذي حلمت به مع السلطان عبد الحميد في أن يتم خلال ثماني سنين وصول قطارات السلطان إلى بغداد والبصرة، كما وصلت إلى المدينة المنورة.

وبهزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى انتهى دورها في الشرق والغرب وأصبحت دولة تحت الوصاية الغربيَّة لسنوات طويلة، وسيطرت فرنسا ثم بريطانيا على الخط الذي لم يكتب له النجاح. كما هو آت بسبب كثرة الشركاء والمسؤولين وتضارب المصالح والأهواء.

وعندما عُزل السلطان عبد الحميد سنة ١٣٢٧هـ - ١٩٠٩ لم يكن قد مُدَّ من الخط إلا أقل من ربعه.

ثم دخلت دول كثيرة في المشروع، فصار مثل شركة قناة السويس تماماً.

ففي البداية قامت «الشركة الإمبراطورية العثمانية لخط بغداد» بأعمال التنفيذ، وحلت محل شركة سكة حديد الأناضول العثمانية.

ثم عُدِّل مسار الخط عند كلّس[٢]، حيث صار يمرُّ من «المسلمية»[٣] بدلاً من كلّس، بشمالي حلب بـ١٤كم، ومنها يتابع نحو جرابلس[٤] ونصيبين.

- وفي سنة ١٣٣١#-١٩١٢م وصل الخط إلى جرابلس ونصّيبين.
- وفي سنة ١٣٣٣#-١٩١٤م وصل إلى رأس العين.
- ثم توقف العمل فيه بين ١٣٣٧#-١٩١٨ و١٣٤١#-١٩٢٢م.
- وتابعت فرنسا مدّ الخط إلى تل كوجك سنة ١٣٤٣#-١٩٢٤م.
- ثم مدّ الخط إلى الموصل فبغداد التي وصلها سنة ١٣٥٩#-١٩٤٠م، أي بعد تأخر زهاء ثلاثين عاماً عما كان مقرراً له[٥].

---

(١) سنّو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص٥١.
(٢) مدينة كلس: تقع جنوب تركيا، تقع على الحدود السورية مباشرة. (www.ar.wikipedia.org).
(٣) المسلمية: مدينة سورية تتبع إدارياً محافظة حلب في منطقة جبل سمعان. (المرجع السابق).
(٤) جرابلس: مدينة سورية في محافظة حلب شمال شرق مدينة حلب على نهر الفرات. (المرجع نفسه).
(٥) أحمد عابورة، الخط الحديدي الحجازي، دمشق ١٩٩٦ ط٢، ص٢٣.

رابعاً-الخط الحديدي الحجازي

١- مشروع الخط الحديدي الحجازي:

لم تكن فكرة الخط الحديدي الحجازي جديدة في مضمونها، لأن قوافل الحج الشامي كانت تسلك الطريق الدولي من دمشق إلى الحرمين الشريفين على مدى ثلاثة عشر قرناً.

لكن الجديد في الأمر الاقتراحات والدراسات العديدة التي تختلف فيما بينها في بدايات الخط ونهاياته.

وكان أول خط حديدي في الدولة العثمانية هو خط القاهرة-الاسكندرية ١٢٧٣#-١٨٥٦م الذي نفذته شركة إنكليزية أيام الأمير محمد سعيد باشا بن محمد علي باشا، وكان السلطان عبد العزيز عندما زار مصر في ذلك العام قد ركب في هذا القطار وأعجب به، وعمل على تعميم القطارات في بلاده.

وفي سنة ١٢٨٣#-١٨٦٦م تم تدشين خط إزمير-أيدين فكان أول خط حديدي في تركيا. ثم أنشئ خط القسطنطينية - بلغاريا - اليونان سنة ١٢٩١#-١٨٧٤م الذي يربط الآستانة بأوروبا. وفي سنة ١٣٠٦#-١٨٨٨م وصل أول قطار إلى استانبول من باريس[١].

ظهرت الفكرة سنة ١٢٨١#-١٨٦٤م أثناء حفر قناة السُّويس، عندما اقترح الدكتور الأمريكي الألماني الأصل: «زيمبل (***Zimbel***)» مدَّ خط حديدي من دمشق إلى ساحل البحر الأحمر، ولكن لم يهتم[٢] أحد بالفكرة.

وفي سنة ١٢٨٩#-١٨٧٢م وضع المهندس الألماني المشهور فون برسيل (***Von Brisal***) خطة لمد خطوط حديدية طويلة تربط المشرق العربي فيما بينه وبين الدولة العثمانية[٣].

وبعد عامين قدم الضابط العثماني أحمد رشيد باشا مشروعاً لخط حديدي نحو الحجاز وجدَّة.

وفي حزيران ١٨٨٠م-١٢٩٨# قدَّم حسن باشا فهمي، وزير الأشغال العامة في الدولة مشروعاً لخط حجازي، لم يلتفت إليه أحد بسبب إفلاس الدولة[٤].

ثم عمد والي الحجاز عثمان نوري باشا سنة ١٣٠٢#-١٨٨٤م إلى اقتراح مشروع خط حجازي جديد ينطلق من إزميت على بحر مرمرة إلى الحجاز بتكلفة قدرها ٣،٢٥ مليون ليرة ذهبية.

وفي سنة ١٣٠٨#-١٨٩٠م انطلق القائمقام شاكر باشا العثماني على رأس مجموعة من الحجاج من استانبول حتى جدَّة، وقام بتسجيل ملاحظاته على الأرض وجمعها في

---

(١) متين هولاكو، الخط الحديدي الحجازي، دار النيل، القاهرة، ٢٠١١، ص٨-١٠.
(٢) متين هولاكو، الخط الحديدي الحجازي، المرجع السابق، ص١٤.
(٣) عزَّة آقبيق، المرجع السابق، ص١٦٣.
(٤) أحمد عابورة، الخط الحديدي الحجازي، المرجع السابق، ص٣٠.

مشروع جديد عملي لم يلق آذاناً مصغية، شأنه شأن ما سبق من مشاريع.

وفي العام التالي قدم سليمان شفيق باشا عرضاً جديداً إلى السلطان عبد الحميد يصل السَّاحل السُّوري بخليج العقبة حتى لا تغلق بريطانيا البحر الأحمر الاستراتيجي من قناة السويس أمام القوات العسكرية العثمانية المتوجهة إلى الحجاز واليمن.

وفي سنة ١٣١٠#-١٨٩٢م قدم مدير أوقاف جدة أحمد عزت أفندي إلى السلطان عبد الحميد كتاباً يتضمن الأخطار التي تتعرض لها الأراضي المقدسة من وجود الإنكليز في مصر والسودان وسيطرتهم على قناة السويس واقترح مد خط حديدي من الشام إلى الحجاز، فأحال السلطان كتابه إلى الفريق محمد شاكر لدراستها[١]...

وقد ذكر الفريق للسلطان بأن المشروع غاية في الأهميَّة ولاسيَّما إذا مُدَّ له فرع إلى العقبة.

وقال إن الخط إذا كان ضيّقاً ١٠٥سم يكلف ٣ ملايين ليرة عثمانية، و٣،٧ مليون ليرة إن كان عريضاً: ١٤٤،٥سم.

وفي سنة ١٣١٥#-١٨٩٧م أرسل الغازي أحمد مختار باشا من مصر خطاباً إلى السلطان عبد الحميد أكد فيه أن سيطرة الإنكليز على الساحل الغربي للبحر الأحمر يُعرِّض الأماكن المقدَّسَة للخطر واقترح البدء بمدّ خط من قونيه إلى قناة السويس، فاقتنع السلطان بذلك وأصبح تنفيذ المشروع من أهم أهدافه[٢].

٢- تنفيذ الخط الحجازي في العام ١٣١٨#-١٩٠٠م:

وفي سنة ١٣١٨#-١٩٠٠م طرح أحمد عزت باشا العابد الفكرة النهائية على السلطان فوافق في الحال؛ لأن نفقات قافلة الحج الشامي كانت تكلف الدولة كل سنة ٢١٠،٠٠٠ ليرة ذهبية.

وأخيراً وفي أوائل نيسان ١٩٠٠م-١٣١٨# أعلن السلطان عن هذا المشروع الذي أضيف إليه خط برقي من استانبول إلى المدينة المنوَّرة[٣].

وقد شرح أحمد عزت باشا العابد للسلطان فوائد هذا الخط وما يسببه من ضربات لبريطانيا فأمر السلطان يوم ٢ أيار ١٩٠٠م-١٣١٨# بالمباشرة بتنفيذ المشروع الكبير الذي أطلق عليه **خطوط حديد الحجاز الحميديَّة**[٤].

وكان أحمد عزت باشا العابد إدارياً من الدرجة الأولى فقد تابع باهتمام بالغ تمديد الخط الحديدي العظيم إلى سيبيريا، وأقنع السلطان بأن الجيش العثماني يمكن أن يساهم كثيراً في إنجاح المشروع وعندما وصل الخط إلى المدينة المنورة كان يأمل مدَّه إلى مكة المكرمة وصنعاء والبصرة لكنه أقصي مع سيده السلطان عن الحكم بعدما صار عملاء بريطانيا هم سادة الدولة العثمانية والحجاز ونجد[٥].

٣- التمويل المالي للمشروع:

---

(١) عزَّة آقبيق، تاريخ الخطوط الحديدية، المرجع السابق، ١٦٥.
(٢) عزة آقبيق، المرجع السابق، ص١٦٥.
(٣) أحمد عابورة، المرجع السابق، ص٣٠. متين هولاكو، المرجع السابق، ص١٤.
(٤) متين هولاكو، المرجع نفسه، ص١٦.
(٥) فيليب دوطرَّازي، تاريخ الصحافة العربية، بيروت ١٩١٣، ٤ مجلدات، ج٢، ص٢١٩.

كانت ميزانية الدولة تنوء بالديون الأوروبية الباهظة، وفوائدها الخيالية، وكانت كلفة الخط الحديدي الحجازي تعادل خمس ميزانية الدولة، وكان هذا سبب إعراض السلطان مراراً عن التفكير في بناء الخط.

ففي عام ١٢٩٩#-١٨٨١م أصدر السلطان عبد الحميد بناءً على طلب الدول الكبرى: إنكلترا والنمسا والمجر وفرنسا وإيطاليا وألمانيا مرسوماً في يوم ٢٨ المحرم ١٢٩٨هـ-٢٠ كانون الثاني ١٨٨١م-١٢٩٩# عرف بمرسوم المحرَّم تم فيه توحيد الدين العثماني العام بمبلغ ٢،٤ مليار فرنك فرنسي.

وتألفت إدارة خماسية من الدول المذكورة كانت تضم ٥،٠٠٠ موظف، كانوا دولة ضمن دولة، وكانت مهمتهم الإشراف على كل كبيرة وصغيرة في الدولة، مثلما حصل في مصر، ولهم صلاحيات واسعة، وقد سيطرت هذه الإدارة على شركة الريجي ***Regie*** والملح ورسوم الطوابع ورسوم الخمور وضريبة العشر وأموال الجزية من بلغاريا وإيرادات الروماني الشرقي وقبرص.

وبهذا، لم يكن بوسع السلطان عبد الحميد الاعتماد على ميزانية الدولة، وبالتالي صرف النظر عن المشروع[١].

وحدث سنة ١٣١١هـ-١٨٩٣ أن احترق الجامع الأموي الكبير بدمشق وأتت النيران عليه بالكامل وهوت قبته وسقوفه وأعمدته، ولم يكن لدى الدولة أو الولاية ما يفي بإعادة إعماره بكلفة قدرت بحوالي مليون ليرة ذهبية. ومع ذلك تم إنجاز البناء في زمن قياسي لم يزد عن تسع سنين، والأجمل من ذلك طريقة تحويل البناء. فلقد تم الاعتماد على التبرُّعات والهبات والرسوم المختلفة للإنفاق على الجامع، فقرر السلطان اللجوء إلى الأسلوب نفسه لبناء الخط الحديدي الحجازي، وكلا العملين العظيمين كانا يحظيان بإقبال العالم الإسلامي عليهما من الصين حتى المغرب، وهكذا كان.

فقد قرر السلطان إيجاد ميزانية خارج ميزانية الدولة، للخط الحديدي الحجازي تديرها: «الإدارة المالية لخط الحميدية الحجازي الحديدي». وكان السلطان حريصاً على ألا يكون التمويل عن طريق القروض الربويَّة لأن ذلك أمر لا يجوز في الشريعة الإسلاميَّة وهذا ما أدى إلى نجاح المشروع وزيادة الواردات على النفقات[٢]. وقد قامت هذه الإدارة بطبع إيصالات مالية تشبه العملة الورقية، وبقيم مختلفة، تدفع للمتبرّع وتبقى معه.

وقد ساهمت صحف العالم الإسلامي بالدعاية للمشروع، وكالعادة، فقد حاولت أوروبا إجهاض هذا المشروع في مهده، لكن توالي الإعانات والهبات والتبرعات والهدايا للجنة الخط المالية، والمباشرة بمدّ الخطوط وتشغيلها، جعل المسلمين يزدادون اندفاعاً في هذا الطريق المقدَّس.

وكان الملوك والأمراء والأعيان والعلماء على رأس الداعين لمؤازرة هذا المشروع العظيم.

وقد ساهمت صحيفة الشام بنشر أخبار الخط الحديدي الحجازي على صفحاتها، مبينةً ما أُنجز منه، وما وردته من الأموال، وتساوت في الدعاية لهذا الخط صحف المسلمين والنصارى العثمانيين على حد سواء، فكان لذلك الأثر الأكبر في نجاح الخط[٣].

وقد بدأ السلطان هذه الهبات فتبرع بـ٣٤٠،٠٠٠ ليرة ذهبية. ثم اقتدى به وزراؤه، فكان مبلغ ما جمعُوه (٨٠٠،٠٠٠) ليرة ذهبية وهو ما يعادل ربع كلفة المشروع كاملة.

---

(١) لوتسكي، المرجع السابق، ص٣٨٤.
(٢) متين هولاكو، المرجع السابق، ص٣٠.
(٣) عزَّة آقبيق، المرجع السابق، ص١٧٠.

وتبرَّع شاه إيران بـ ٥٠،٠٠٠ ليرة ذهبية.
وخديوي مصر عباس حلمي تبرَّع بكميات كبيرة من مواد البناء[١].

وفي الهند تجمَّع المسلمون لإنجاح الخط الحديدي الحجازي بدافع إيماني قويّ، [وهم الذين احتضنوا الخلافة الإسلامية بعد إلغائها سنة ١٣٤٢#-١٩٢٣م حاولوا مبايعة ابن سعود، لكن خاب فألهم فيه].

وهكذا تبارى الأمراء والتجار والعلماء في الهند لجمع التبرعات، وكان من أبرزهم السيد: محمد إنشاء الله، صاحب جريدة الوطن في لاهور والذي افتتح في الهند أكثر من ١٥٠ مركزاً لجمع التبرُّعات رغماً عن أنف الإنكليز.

وفي مصر تبرع الخديوي عباس حلمي بكميات كبيرة من مواد البناء كما جمع الأهالي أموالاً طائلة تبرعوا بها لبناء الخط الحديدي، وكانت صحفها الكبرى وعلى رأسها الأهرام والمؤيد والمنار واللواء تنشر أخبار الخط يومياً وتحض على التبرع له.

ثم صدرت إرادة سلطانية بتقديم ميداليات خاصَّة للمتبرعين. البرونزية بـ٥٠ ليرة ذهب والفضية بـ١٠٠ ليرة، والذهبية بما فوق ذلك[٢]. كما وتبرع الموظفون براتب شهر كل سنة.

والخلاصة: فإن النجاح الحقيقي في بناء الخط الحديدي الحجازي لم يكن في نجاح الدولة والسلطان بتأمين نفقاته من مدخرات المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وإنما النجاح الحقيقي للسلطان كان في التفاف المسلمين حوله بكل قوَّة رغماً عن أن نصف بلادهم كانت تحت الاحتلال الفرنسي أو البريطاني.... لقد كانت العملية في واقع الأمر هي استفتاء على الخلافة الإسلامية وعلى السلطان عبد الحميد، وقد نجح السلطان فيه بتفوّق.

---

(١) أحمد عابورة، المرجع السابق، ص١٣.
(٢) أونك غولصوي، الخط الحديدي الحجازي، استانبول، ١٩٩٤، ص٢٢. آقبيق، تاريخ الخطوط، المرجع السابق، ص١١٧.

٤- التدخل البريطاني الفرنسي لعرقلة الخط:

عارضت بريطانيا وفرنسا مدّ هذا الخط، انطلاقاً من سياستهما الاستعمارية القديمة.

فأما فرنسا، فإنَّها عندما رأت اندفاع المغرب العربي كله لتأييد السلطان عبد الحميد في مدّ هذا الخط، وما طلبه أهل المغرب من السلطان بتخصيص ميناء يافا لحجاج المغرب ينطلقون منه بالقطار إلى الأراضي المقدسة، تخوفت من زيادة عدد حجاج المغرب جرَّاء انخفاض الكلفة، واتصالهم الطبيعي بإخوانهم المسلمين في الأراضي المقدسة، وما ينجم عن ذلك من تحريض المسلمين لهم على محاربة المستعمرين الفرنسيين. ولذلك عارضت المشروع وشككت بنجاحه.

أما بريطانيا فقد رأت أن الدولة العثمانية آيلة إلى السقوط بعد هزيمتها النكراء أمام روسيا سنة ١٢٩٦#-١٨٧٨م، ثم فوجئت بما يشدّ أزر هذه الدولة ويجعل العثمانيين يلتفُّون حولها وحول الخليفة الأعظم حامي الحرمين الشريفين عن طريق هذا المشروع العملاق الذي ستنفذه أقوى دولة في أوروبا، والذي يستطيع السلطان من خلاله تشديد قبضته على الشام والحجاز واليمن، ويهدد الوجود البريطاني في مصر والسودان وعدن. وكان كل سبب من هذه الأسباب كاف وحده لإثارة بريطانيا التي فرضت وصاية إجبارية ثقيلة على المسلمين[١]. ولقد تعددت صور عداء بريطانيا لبناء الخطّ: فقد عمدت إلى تحريض القبائل على طريق الحجاز، وهي التي كانت ناقمة أصلاً على الخط، فقُتل الجنود، وخرَّبت بعض أقسام الخط، لكن الدولة استعملت سياسة اللين والشدة والوعظ حتى أذعن البدو للأمر. ثم عمدت إلى التشكيك بإمكانية بناء الخط بسبب التربة الرملية والجفاف وشدة الحر والعواصف الرملية المدورة. كما أنها عارضت جمع التبرعات للخط، وحاولت عرقلة وصولها، ولاسيما من مصر والهند. ومنعت وصل الخط بخليج العقبة.

وحاولت إقامة خط حديدي منافس من العقبة إلى المتوسط ولكن الخط سار قُدُماً رغماً عن ذلك كله، بسبب التفاف المسلمين عامة حول سلطانهم.

وقد تقرر أن تكون الأراضي على جانبي الخط لمسافة ٥كم من كل جانب وقفاً عاماً لمصلحة الخط لا يجوز استملاكها. كما جعلت أراض الحمَّة وقفاً دائماً على الخط.

واعتبرت مناجم الفوسفات على جانبي الخط ملكاً خاصاً له والخط برمّته ومنشآته وأراضيه ومحطاته وقف إسلامي عام لا يجوز التصرف به بحالٍ من الأحوال إلى الأبد[٢].

كانت بريطانيا كما قدمنا من أشد المعارضين لمدّ هذا الخط، ولذلك عملت جاهدة على عرقلته تمهيداً لإلغائه. وكما أسلفنا سابقاً فقد قامت بتشجيع البدو على مهاجمة العاملين على الخط وتدمير ما بنوه والاستيلاء على معدات السكة، وقتل الأجانب العاملين فيها حتى ينفضُّوا عن الشركة. ولم يكن هؤلاء بحاجة إلى تشجيع أصلاً فالعدوان طبع فيهم.

ولذلك ما إن بدأ العمل في أراضي الحجازي النائية حتى قام البدو بمهاجمة العمَّال والمهندسين واستولوا على المعدَّات وحاولوا اختطاف المشير كاظم باشا المدير العام للخط، وقتلوا أكثر من مائةٍ من جنوده، فأرسلت الدولة قوَّة آلية سريعة الحركة من الشركس وغيرهم قوامها ٥،٠٠٠ جندي استطاعوا التصدي للأعراب وحماية منشآت الشركة[٣].

ومن جهة أخرى أرسل حاكم مصر البريطاني «كرومر» (***Kromar***) تقريراً إلى رئيسه

---

(١) متين هولاكو، المرجع السابق، ص٢٦.
(٢) أحمد عابورة، المرجع السابق، ص٤٢.
(٣) موفق بني المرجة، صحوة الرجل المريض، الكويت ١٩٨٤، ص١١٦.

«ادوارد غراي» (***Edward Gray***) بتاريخ ٢١ شباط ١٩٠٦-١٣٢٤# جاء فيه «أن أخرجوا أحد جواسيسنا في فلسطين، المدعو «مارتيني» المفتش في هيئة الخط الحديدي الحجازي في حيفا، ذكر أن للأتراك من جنوب معان ٢٠،٠٠٠ جندي، وسيكون لهم في العقبه بعد شهر واحد ١٦،٠٠٠ جندي»[١].

وهذا يدل على المراقبة والمتابعة الدقيقة للإنكليز لخطوات المشروع من ناحية مراحل تنفيذه، وأثره على قوة الدولة العثمانية، وإمكانية استفادتها من هذه التوسعات وعودة فرض سيطرتها على كثير من المناطق التي خرجت عن سيطرتها سابقاً، وبالتأكيد هذا من أكبر مخاوف الإنكليز في تلك المرحلة.

٥- إدارة الخط وجهاز التنفيذ:

- تقرر أن تكون الإدارة العامة للمشروع في استانبول.
- وتضم هذه الإدارة التي سميت بالمفوضية العليا والتي تأسست في أيار ١٣١٨#-١٩٠٠م:

١- الصدر الأعظم رئيساً للمشروع.
٢- السيد أحمد عزت باشا العابد مديراً عاماً دائماً.
٣- مجموعة من الوزراء.

ثم أنشئت مفوضية الإعانة لجمع التبرعات برئاسة أحمد عزت باشا العابد[٢].

أما مركز العمليات الرئيسي فكان في دمشق وحيفا ومعان.

- وكان رئيس مفوضية دمشق والي دمشق حسين ناظم باشا الذي أثبت كفاءة إدارية عالية في دمشق كان في مقدمتها إعادة إعمار الجامع الأموي وإسكان المهاجرين.
- أما المدير العام للمشروع في دمشق فهو المشير كاظم باشا.
- وعيِّن المشير قائد الجيش الخامس عضواً دائماً.
- والمهندس الألماني الكبير مايسنر باشا (***Misner***) الذي كان يقيم في معان ويساعده المهندس الفرنسي: شرودر (***M.Schroder***).
- وفي كانون الثاني ١٣١٩#-١٩٠١مشكلت مفوَّضية بيروت.
- وفي آذار ١٩٠٢م-١٣٢٠# شكلت مفوضية حيفا حيث كانت تُشحن إليها القضبان الحديدية ولوازمها بحراً وبعد إنجاز خط عمَّان حيفا العملاق صارت المعدَّات تشحن من حيفا إلى دمشق وبقية المدن[٣] على الخط.

وقد أقيمت الورش والمستودعات والإدارة في دمشق في منطقتي البرامكة والقدم الشريف، وكلف المهندس الإسباني (أرنادا) (***Aranda***)، الذي بني قصر العابد بالمرجة، ببناء محطة الحجاز.

وقد أنشئ في دمشق فندق يستوعب ١٥٠ نزيلاً، لتسهيل نزول الفنيين.

وكانت حيفا مقرًّا لكبار ضباط الجيش العثماني الذين أوكلت لهم مهمة الدفاع عن الخط ومهام شرفية أخرى وجميعهم كانوا عديمي الخبرة في أمور السكة الحديد.

ومن هؤلاء الضباط الكبار:

- المشير رضا باشا (والذي كان سابقاً موظفاً عادياً في حيفا قائداً عسكرياً في اليمن قبل أن يتسلم هذه المهمة).

---

(١) محمد الدقن، سكة حديد الحجاز الحميدية، القاهرة (١٩٨٥)، ص٢٦٤.
(٢) عزة آقبيق، المرجع السابق، ص١٧٥.
(٣) متين هولاكو، المرجع السابق، ص٤٩.

- والأميرال خليل باشا (أيضاً كان قائداً عسكرياً في اليمن وقد أشرف على تنزيل معدات الإنشاء ونقلها إلى ميناء حيفا).
- والجنرال جواد باشا.
- ومعهم خمسون ضابطاً آخرون[١].

في ١٩ كانون الالثاني ١٩٠٠-١٣١٨# وقَّعت شركة الخط الحديدي الحجازي عقداً مع المهندس الألماني: مايسنر باشا (***Misner***) عقداً لمدة تسع سنين ليكون المدير الفني العام للمشروع براتب شهري قدره ٢٤،٠٠٠ فرنك يزداد كل شهر وكان تحت إدارته ثلاثة وأربعون مهندساً منهم:

- ١٧ مهندساً تركياً.
- و١٢ مهندساً ألمانياً. وبقية المهندسين من دول أوروبية المختلفة[٢].

وقد اجتمع مايسنر بالمهندسين العثمانيين وأفهمهم أنهم سيعملون تحت إدارته بدون اعتراض، وهو الذي طلب تعيين المهندسين الأوروبيين بالاسم لنقص كفاءة العثمانيين.

ثم استدعى المهندس العثماني المتميّز: الحاج مختار بك وجعله رئيس كشافةٍ على الخط، وذلك بعد نجاحه في رسم مسار الخط حتى المدينة المنورة وهو يؤدي فريضة الحج.

وعلى أساس تقريره عدّل مسار الخط ابتعد قليلاً عن بعض المدن في الأردن وسورية.

وقد أثبت المهندسون العثمانيون، خلافاً للمتوقع، مهارة فنية عالية عندما نجحوا في رسم خريطة خط دمشق عمَّان الذي كان من أصعب مراحل الخط الحديدي لوعورة الأرض وصعوبة اختراقها[٣].

ومما يمتاز به هذا الخط عن الخطوط الأخرى، ولاسيما خط بغداد، أنه أُنشئ تحت الإشراف الكامل للدولة العثمانية.

وقد بُنيت على الخط ورشة كبيرة لصيانة القاطرات والعربات.

- كما بني ٣٧ صهريج للمياه.
- وسبعة أحواض.
- ومستشفى في تبوك.
- وأخرى في معان.
- و٩٦ محطة مع توابعها.
- وورش صغيرة في حيفا ودرعا ومعان.
- ومسبك وورشة أنابيب في حيفا.
- ومخازن وعنابر عديدة على مسار الخط[٤].

وكان تقسيم الأعمال والمراحل يتم بدقة بالغة بحيث قسم الخط كله إلى عدد من الأقسام وقام المتعهدون باستلام عدد معين من هذه الأقسام بأرقامها ويكونون مسؤولين عنها، كما هو مبين في الوثائق التاريخية بدمشق.

فقد ذكرت إحدى هذه الوثائق أن حسين المصري ادَّعى على كل من: الخواجه دومينيكو وشركاه من السكة الحديدية الحجازية بدين قدره (٣١٠) ليرات ذهبية عثمانية،

---

(١) متين هولاكو، المرجع السابق، ص٤٦.
(٢) أحمد عابورة، المرجع السابق، ص٣٣.
(٣) متين هولاكو، المرجع السابق، ص٥٠.
(٤) متين هولاكو، المرجع نفسه، ص٢٣ و٢٦.

وهم الملتزمون للأقسام ١٣ و١٤ و١٥ من السكة الحديدية الحجازية[١]، وهذا يدل على تقسيم الخط كله إلى أقسام متساوية تسلَّم إلى المتعهدين بحسب أرقامها لتسهيل العمل.

وفي وثيقة أخرى: ادعى محمد ثابت مهندس التعميرات بالخط الحجازي، المقيم بدرعا على سعدى الدمشقي، التاجر الدمشقي، بأنه تعهّد له القيام بكافة أعمال القسمين ٧٦ و٧٩ من السكة مقابل ٣٠ ليرة ذهب كل شهر[٢]. وقد عرضنا في نهاية الفصل عدداً من هذه الوثائق التاريخية وكانت أعمال العثمانيين في الخط تسوية الأرض ثم فرش الحصى... وكان يرافق مدّ الخط الحجازي، مد أسلاك البرق التي كانوا يرسلون عبرها إلى دمشق أو حيفا لإرسال ما يلزمهم عبر ما تم تمديده من الخط... وكانت المعنويات عالية ومعدَّل الإنجاز ١٥٠٠ متراً من السكة في اليوم الواحد ارتفعت إلى ٣٠٠٠ متراً حتى إنه تم تمديد ٢٨٨ كيلومتراً بين تبوك والعلا في عام واحد. أما العمال والمهندسون الأجانب فكانت مهتمهم حفر الأنفاق وبناء الجسور وبناء المحطات ومدّ العوارض والسكك[٣].

وقد استعانت الدولة بخريجي المعاهد الصناعية وأرسلتهم في بعثات دراسية إلى فرنسا، ومن هؤلاء المهندس لطيف الخالدي الذي درس في فرنسا ثم استلم إدارة محطة دمشق.

كما تمت الاستعانة بكتائب من الجيش العثماني، وكان يؤتى بهم من الجيش الخامس في دمشق والسادس في بغداد، وتحسب لهم خدمتهم في بناء الخط مضاعفة عن خدمتهم العسكرية العادية.

وكان عدد هؤلاء ٧،٥٠٠ جندي وضابط، وعندما تنتهي خدمتهم يؤتى بعدد مماثل حرصاً على نشاطهم.

وقد أدى تشغيل الجنود، ذوي الرواتب المنخفضة، إلى خفض كلفة الكيلومتر الواحد من السكة الحديدية إلى ٦٢،٠٠٠ فرنك[٤]. وكان يوما الخميس والجمعة عطلة إجبارية للجميع يتم خلالهما الراحة والاستجمام وتأمين المياه والمواد الغذائية واللوازم الأخرى.

٦- الأُمور الفنية:

كان الخط الحديدي الحجازي ضيّقاً عرضه ١٠٥سم وذلك لأسباب كثيرة أهمها سرعة إنجاز العمل والتوفير في المصاريف.

- وزن المتر الواحد من القبضان الحديدية ٢١،٥ كغ.
- والوزن الإجمالي مع العوارض والقضبان ١٠٣ كغ.
- أقيم على طريق الخط:
  - ٤٦٢ جسراً حجرياً.
  - و٢٧١ قنطرة.
  - و٨٠٠ مجرى للمياه.
  - وعدة معابر[٥].

(١) مركز الوثائق التاريخية بدمشق سجل ٧٩ تجارة وثيقة ١٢٠ تاريخ ١٩٠٧.
(٢) مركز الوثائق التاريخية بدمشق سجل ٧٧ تجارة وثيقة ٤٢.
(٣) عزة آقبيق، المرجع السابق، ص١٨٠.
(٤) عزة آقبيق، المرجع نفسه، ص١٧٨.
(٥) متين هولاكو، المرجع السابق، ص٥٥.

وقد بلغ عدد هذه الأعمال جميعاً ١٥٣٢ منشأة.

- وأقيم جسر حديدي واحد بطول ١٥ متراً.
- بلغت كلفة الكيلومتر الواحد الإجمالية ٥٠،٠٠٠ فرنك في المتوسط، وكانت تتراوح بين ٥٠،٠٠٠ و٧٥،٠٠٠ فرنك بسبب طبيعة الطريق حيث بلغت هذه الكلفة في خط حيفا-عمان ١٠٠،٠٠٠ فرنك للكيلومتر الواحد بسبب طبيعة الأرض.
- متوسط سرعة القطار ٣٠ كيلومتر في الساعة.
- عدد القاطرات الإجمالي ٢٠٠ قاطرة[١].

٧- مراحل إنجاز الخط:

- مزيريب – درعا سنة ١٣١٩#-١٩٠١م.
- درعا – الزرقاء ١٣٢٠#-١٩٠٢م.
- دمشق – درعا ١٣٢١#-١٩٠٣م.
- الزرقاء – عمّان ١٣٢١#-١٩٠٣م.
- درعا – حيفا ١٣٢١#-١٩٠٣م.
- عكا – حيفا ١٣٢١#-١٩٠٣م.
- عمَّان – معان ١٣٢٢#-١٩٠٤م.
- معان – المدوَّرة ١٣٢٤#-١٩٠٦م.
- المدوَّرة – تبوك ١٣٢٥#-١٩٠٧م.
- تبوك – مدائن صالح ١٣٢٥#-١٩٠٧م.
- مدائن صالح – المدينة المنورة١٣٢٦#-١٩٠٨م[٢]

ملحقات الخط:

- غرز – بصرى ٣٥ كم
- حيفا – درعا ١٦٢ كم
- حيفا – عكا ١٧ كم
- عفُّولة[٣] - نابلس ٧٧ كم
- المجموع العام ١٥٩٩ كم

ومما أُخذ على الخط اختلاف عرض السكة الأصلية عن بعض الفروع الأخرى من ١٠٥سم إلى ١٤٤،٥ سم إلى ١٥٥ سم وهذا ما كان يؤدي إلى تغيير حمولة القطارات إلى عربات أخرى[٤].

اتخذت منطقة القدم الشريف بدمشق مركزاً عاماً لشركة الخط الحديدي الحجازي، تيمناً بوصول الرسول الكريم ﷺ إلى تلك المنطقة، حسب بعض الروايات.

وقد جرى في دمشق في الأول من أيلول سنة ١٩٠٠م-١٣١٨#، احتفال كبير بمباشرة العمل بالخط الحجازي، في الوقت الذي كان فيه أهل الشام يعملون ليل نهار لإنجاز بناء

---

(١) متين هولاكو، المرجع نفسه، ص٥٦.
(٢) أحمد عابورة، الخط الحجازي، المرجع السابق، ص٣٥.
(٣) عفولة: هي مدينة فلسطينية تقع شمالي محافظة جنين في قلب مرج ابن عامر. (www.ar.wikipedia.org).
(٤) عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، المرجع السابق، ص٢٨٦.

الجامع الأموي.

- أول ما نفذ من الخط: مزيريب - درعا بطول ١١ كم في أيلول ١٩٠١م-١٣١٩#.
- درعا-الزرقاء: أنجز في أول أيلول ١٩٠٢م-١٣٢٠# وطوله ٧٩ كم.
- الزرقاء - عمَّان: أنجز في ١٩ تشرين الأول ١٩٠٢م-١٣٢٠# وطوله ٢٠ كم.
- دمشق - درعا: أنجز في أول أيلول ١٩٠٣م-١٣٢١#.
- درعا - معان: أنجز في أيلول ١٩٠٤م-١٣٢٢# وطوله ٤٦٠ كم.

وكان وصول الخط إلى معان إنجازاً كبيراً؛ لأنه سهَّل نقل المعدَّات وصار يشكل مورداً جديداً للخط.

- معان - تبوك: أنجز سنة ١٣٢٦#-١٩٠٦م في أيلول، وطوله ٢٣٣ كم.

وقد عُهد بحماية الخط بين معان وتبوك بالتحديد إلى فرسان الشركس المشهورين بشدَّة البأس، لأن تلك المنطقة كانت مأوى للبدو على مدى مئات السنين[١]...

وفي أيلول ١٩٠٧م-١٣٢٧# وصل الخط إلى العُلا التي تبعد عن تبوك ٢٨٨ كم وبذلك لاحت تباشير الكمال.

وأخيراً وفي ٢٢ آب ١٩٠٨-١٣٢٦هـ تم وصول أول قطار في العالم إلى المدينة المنوَّرة في الذكرى الأخيرة لعيد الجلوس للسلطان عبد الحميد بعدما تم تمديد ٢٢٣ كم بين العلا والمدينة المنورة.

وقد قدِّرت تجهيزات الخط في ذلك العام بـ:

- ١٢٠ قاطرة بخارية.
- ١٢٠٠ شاحنة مكشوفة.
- ١٠٠ مركبة ركاب.
- ٢٠٠ شاحنة بريد.
- وعدد كبير من صهاريج الماء المحمولة على القطار.
- والطول الإجمالي للخط، بدون الفروع العرضية ١٥٢٤كم[٢].

- وعندما تم افتتاح خط دمشق-تبوك ٦٩٢كم ١٣٢٤#-١٩٠٦م جرى احتفال كبير بهذه المناسبة بدأ بأداء صلاة الفجر في جامع تبوك بإمامة مفتي الشام. ثم جرى عرض عسكري شارك فيه الجنود والأعراب. ودعا الناس للسلطان عبد الحميد. وأطلقت المدافع تحية للسلطان. ثم مُدّت الموائد للجميع. ونوِّرت تبوك بآلاف المصابيح.
- وفي اليوم التالي، ركب المشاركون القطار إلى حيفا حيث غادروها في اليوم التالي إلى دمشق.

كما أقيمت احتفالات مماثلة في مدائن صالح والعُلا شارك فيها عبد الرحمن باشا اليوسف أمير الحج الشامي وكاظم باشا مدير الخط والفريق جواد باشا وإسماعيل حقي وعلي نوري وعلي رضا باشا الركابي[٣].وكان تأمين القاطرات والعربات والقضبان الحديدية والعوارض الحديدية والعُمُد من أوروبا لعدم وجود صناعات حديدية ثقيلة في كل

---

(١) عزة آقبيق، المرجع السابق، ص١٨٢.

(٢) سليمان قوجه باشي، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص٤٣٧. يوسف عمر، أسباب خلع السلطان عبد الحميد، عمان، ٢٠٠١م، ص٧٧.

(٣) متين هولاكو، المرجع السابق، ص٢٢٩.

الدولة العثمانية.

وكانت القاطرات الثقيلة من طراز (**B**) من موديل هوهنزولّلرن، كما كان ثمة قاطرات من شركة كراوس (***Kraus***) الألمانية أو من شركات بلجيكية وإسبانية.

وقد صنعت بعض العربات الفاخرة في الدولة العثمانية لتقلَّ الضيوف الكبار والأجانب.

وكان ثمة مقطورات مكشوفة للبهائم والبضائع ومقطورات مغلقة للركاب وأخرى لكبار الضيوف ومقطورات لأداء الصلاة. وكان طول المقطورة ٤٠ متراً وعرضها أربعة أمتار[١].

٨- أجور الركاب:

ذكرنا أن الليرة العثمانية المجيدية كانت تساوي حوالي ١٠٠ غرش أو نحو ذلك. والغرش يساوي ٤٠ مصرية أو بارة. وهذا يعني أن الليرة العثمانية تساوي ٤،٠٠٠ مصرية أو بارة. وهذا نموذج عن أجور الركاب التي كانت تحسب عادة بالكيلومتر. فأجرة الكيلومتر الواحد على خط دمشق-درعا وهو خط يعمل طول السنة كانت ٨ بارات للدرجة الثالثة. ودرعا – المدينة= ١٠ بارات عن الكيلومتر الواحد.

وإذا كان الحاج قادماً من بيروت يتوجب عليه أن يدفع من بيروت إلى دمشق على الدرجة الثالثة «متليكين» فقط بين كل محطة ومحطة، و٣ متاليك للدرجة الثانية و٤ متاليك للدرجة الأولى والمتليك كما ذكرنا يساوي ٥ بارات[٢].

وفي مرجع آخر نقرأ:

أجرة السفر بين حيفا – المدينة المنورة هي: ١١٨٤ غرشاً درجة أولى و٨٨٨ درجة ثانية و٥٩٢ غرشاً درجة ثالثة. ومن دمشق إلى المدينة المنورة: أولى ١١٥٨ غرشاً وثانية ٨٦٩ غرشاً وثالثة ٥٧٠ غرشاً. أي حوالي: ١٢ ليرة ذهب و٩ ليرات و٦ ليرات ذهب[٣].

وكان الأولاد دون العاشرة يدفعون نصف الأجرة ويحق لكل راكب حمل ٣٠ كيلوغرام. وللولد ٢٠ كيلوغرام.

وكانت معظم عربات القطار من الدرجة الثالثة التي كانت تسمى «ترسو» بسبب انتشار الفقر.

قامت شركة الخط الحديدي الحجازي ببناء عدة فنادق واستراحات للحجاج النصارى على خط يافا – القدس، للنزول فيها، وكان عددهم كبيراً يزيد عن ٢٠،٠٠٠ حاجاً في السنة[٤]. وكانت لغة المسؤولين عن الخط والتذاكر هي باللغة العثمانية لأن الشركة عثمانية. والتوقيت زوَّالي غربي لعدم مناسبة التوقيت العربي للاستعمال في مواعيد القطارات[٥].

---

(١) عزة آقبيق، المرجع السابق، ص١٨١. متين هولاكو، المرجع السابق، ص٦١.
(٢) عزة آقبيق، المرجع السابق، ص٢٤١.
(٣) عبد القادر محمود، المؤتمر السابع لتاريخ بلاد الشام، ٢٠٠٦م، ص٧.
(٤) الموسوعة الفلسطينية، بيروت ١٩٩٠ بحث للدكتور عبد الكريم رافق، قسم ٢، مجلد ٢، ص٩٦١.
(٥) عزة آقبيق، المرجع السابق، ص٢٤٢.

٩- تدشين الخط ١٣٢٦هـ-١٩٠٨م:

في أوائل شعبان ١٣٢٦هـ-آب ١٩٠٨ اتصل الخط من جهتي العمل الجنوبية والشمالية، وسرى الخبر في المدينة المنورة، وخرج أهلها يستقبلون أول قطار تدوي صافراته في أرجاء المدينة النبوية الشريفة يوم ٢٢ شعبان ١٣٢٦هـ-٢٨ آب ١٩٠٨[١].

وكان في المقطورة الأولى كاظم باشا مدير المشروع وكان والي المدينة المنوَّرة عثمان باشا لاحتفال كبير يوم الخميس ٢٥ شعبان-أول أيلول ١٩٠٨م-١٣٢٦م في عيد الجلوس السلطاني.

وقد نصبت الزينات عند ميدان المحطة وتمَّ توليد الطاقة الكهربائية في المدينة المنوَّرة للمرة الأولى فكانت فرصتها مضاعفة، وأقيمت فيها على مدى أيام احتفالات خيالية شارك فيها:

- كاظم باشا مدير المشروع الذي حمله أهل المدينة على أكتافهم، وكان معه رئيس المهندسين مختار بك.
- والسيد علي كامل، شقيق الزعيم المصري مصطفى كامل.
- ولطفي السيد صاحب جريدة الأمة.
- والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد.
- والشيخ عبد العزيز جاويش.
- والأديب السياسي شكيب أرسلان وغيرهم.

وبعد انقضاء الاحتفالات أعيدت من جديد وشارك فيها أكثر من ٣٠،٠٠٠، وشهدت المدينة المنوَّرة من السرور ما لم تشهد له من قبل مثيلاً...

ولم يُضيّع العلماء وقتهم بل تدارسوا في وضع العالم الإسلامي، وما يتعرَّض له من أفكار فاقترحوا على السلطان إنشاء جامعة إسلامية في المدينة المنوَّرة باسم جامعة صلاح الدين يتولى إدارتها الشيخ عبد العزيز جاويش، وطالب آخرون بحمل السلاح والتدرب عليه ورفعُوا مقترحاتهم لكنها وصلت بعد أن خرَّب الأتراك بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين وعزلوا سلطانهم، وجعلوا من اليهود والإنكليز والفرنسيين قدوتهم، فكان في ذلك القضاء عليهم وعلى البلاد العربية وعلى الخلافة الإسلامية وعلى الخط الحديدي الحجازي، رمز الوحدة الإسلامية[٢].

١٠- آثار إيجابية للخط الحديدي الحجازي:

حمل القطار إلى المدينة المنورة أكداساً ضخمةً من السلع التجارية من الشام وفلسطين، واكتظت أسواق المدينة المنورة بالبضائع التي رفعت أسعارها، وصارت سوقاً لخيرات الشام يحمل إليها الياميش والبرتقال، والبطيخ اليافاوي والدقيق والحنطة. كما حمل القطار إلى الشام ماء زمزم وتمور الحجاز، وكانت حمولة القطار ١١٢،٠٠٠ طن من البضائع. وكثر زوار المدينة المنورة، وفتحت فيها الفنادق وأدرك الناس فوائد الجامعة الإسلامية، لكن فرحتهم كالعادة كانت قصيرة. وقد صدرت بهذه المناسبة أول جريدة في المدينة المنوَّرة

(١) عبد الباسط بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، المدينة المنورة ٣ مجلدات ١٩٩٣م، ج٣، ص٢٨.
(٢) عبد الباسط بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، المرجع السابق، ج٣، ص٣٢.

تحمل الاسم الشريف وهي بالعربية والتركية[1].

وعلى الرغم من غارات البدو المستمرة على الخط والتي قدرت بـ١٢٣ غارة سنة ١٣٢٦#-١٩٠٨م وحدها، تم خلالها تخريب خطوط اللاسلكي واقتلاع القضبان وتهديم بعض المحطات، ونهب الركاب إلا أنه أمكن السيطرة على ذلك كله بتوزيع الهدايا على البدو وزيادة الوجود العسكري للشركس.

ومن جهة أخرى: بدأ الشركس بزراعة الأراضي الخصبة في وادي الزرقاء بعد مرور الخط الحديدي منه. وازدادت الزراعة في حوران زيادة كبيرة بعد أن أمكن نقلها بسرعة وبكلفة قليلة... وازدهرت التجارة على خط حيفا. وانطلقت الرحلات السياحية من دمشق إلى طبرية. وبلغ إيراد الخط سنة ١٣٢٤#-١٩٠٦م من دمشق إلى تبوك ١٢،٠٠٠ ليرة ذهبية. وعدد الحجاج سنة ١٣٢٦#-١٩٠٨م من الشام ٣٠،٠٠٠ حاجاً.

وفي النهاية فإنه عندما يذكر هذا الخط، لابد من أن نذكر بالعرفان والتعظيم من ساهم فيه وعلى رأسهم:

- السلطان عبد الحميد.
- وأحمد عزت باشا العابد.
- وكاظم باشا مدير المشروع.
- وحسين ناظم باشا والي الشام.
- والمهندس الألماني مايسنر (***Meisner***) المدير الفني للمشروع.
- وآلاف الجنود المجهولين الذين أقاموا هذا العمل العظيم[2]....

وقد ذكر «فيليب دوطَّرازي» الأديب اللبناني المشهور، والذي كان صديقاً لأحمد عزت باشا العابد معلومات نادرة عن الرجل الأول وراء تنفيذ الخط الحديدي الحجازي.

قال إنه كان اقتصادياً ماهراً. مدَّ خط تلغراف فزَّان-طرابلس بـ٦٠،٠٠٠ ليرة، بينما طلبت الشركات الأجنبية ١٣٠،٠٠٠ ليرة عثمانية ذهب. ومدَّ خطاً برقياً بين ولاية إزمير وبنغازي بـ١٠،٠٠٠ ليرة عثمانية ذهب فقط. وكانت شركة «إيسترن» (***Estrin***) تتقاضى كل عام من الدولة ٨٠،٠٠٠ ليرة ذهبية أجرة المخابرات على خطوطها بين إزمير وبنغازي. ومدّ الخط البرقي بين دمشق والمدينة المنوَّرة بكلفة لا تزيد عن خمسة آلاف ليرة عثمانية ذهب.

ولقد لعبت هذه المواهب الفذَّة، إلى جانب رفاقه في العمل دوراً كبيراً في سرعة إنجاز الخط الحديدي الحجازي وانخفاض تكاليفه[3].

ونختم الحديث عن الخط الحديدي الحجازي، بما ذكره «جورج أنطونيوس» نقلاً عن السفير البريطاني في الآستانة الذي كتب في تقريره السنوي عام ١٣٢٥#-١٩٠٧م:

«ومهما يكن فقد ظهر السلطان أمام ثلاثمئة مليون مسلم بمظهر الخليفة والزعيم الروحي للإسلام، وبثَّ في نفوس رعاياه الحماسة والاستجابة لشعوره الديني حين مدَّ سكة حديد الحجاز... وكان من نتيجة ذلك أن أصبح رعاياه يدينون له بالطاعة العمياء إلى حدّ لم يسبق له مثيل، وأصبحوا يقبلون استبداده المطلق، الذي لم يشهد له أحد مثيلاً من قبل،

---

(١) عبد الباسط بدر، المرجع السابق، ج٣، ص٢٩.
(٢) متين هولاكو، المرجع السابق، ص٥٩.
(٣) فيليب دوطَّرازي، تاريخ الصحافة العربية، ج٢، ص٢١٥.

برضا تام، وصارت إرادة «الباديشاه»[1] هي الشريعة المطبقة على الأرض، فإذا شعر مسلم بالظلم، فإنه يعزو هذا الظلم إلى الموظفين ولا يعزو إلى الخليفة عملاً فيه سوء»[2].

أما جورج أنطونيوس فقال: «كان هذا المشروع من عدة وجوه ضربة خبير في السياسة، فقد أثار الحماسة البالغة في جميع ديار الإسلام، وكان له أكبر الأثر في تثبيت الخلافة الإسلامية...»[3].

(١) الباديشاه: ولقد كان ينادى به السلطان بغيابه بلفظ (باديشاه أفندي مز) أي سيدنا السلطان ولكن لقبه الرسمي فهو «حنان». (محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، المصدر السابق، ص١١٣.

(٢) جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ط٨، بيروت، ١٩٨٧، ص١٤٤.

(٣) جورج أنطونيوس، يقظة العرب، المصدر السابق، ص١٤٢.

الفصل الرابع

العلاقات الاجتماعية بين الدولتين

(العلاقات الألمانية-الفلسطينية)

أولاً –المستعمرات الألمانيّة في فلسطين

١- تقديم.
٢- المستعمرات والمؤسسات البروتستانتيَّة
٣- المستعمرات والمؤسسات الكاثوليكية

ثانياً – المستعمرات اليهودية – الألمانية في فلسطين

١- الألمان واليهود وفلسطين
٢- المستعمرات اليهودية والهجرات الأولى
٣- السلطان واليهود والألمان
٤- هرتزل ومؤتمر بال والدولة اليهودية
٥- لقاء هرتزل مع السلطان والإمبراطور

ثالثاً – العلاقات الثقافية والعلميَّة

١- التنقيب عن الآثار
٢- المستشرقون الألمان

رابعاً – الألمان وطرق التبشير

١- نظرة الألمان للإسلام
٢- المدارس وأهدافها التبشيرية
٣- المستشفيات ودور الأيتام والطريق المفضل للمبشرين

١- تقديم :

بدأ النشاط الألماني في فلسطين سنة ١٢٦٢#-١٨٤٥م، باستيطان مبشرين لـ«إخوة كريشونا» في القدس.

وتبع ذلك تأسيس جمعية «الكيرز - زفرت» على جبل صهيون ثم عُيِن القسّ «فردريك فالنتر» (***Frederick Valentr***) أول راع للجماعة الإنجيلية الألمانية في القدس.

وفي سنة ١٢٧٠#-١٨٥٣م أسَّس الواعظ الألماني في كاتدرائية برلين «شتراوس» (***Straus***) بعد عودته من فلسطين «جمعية بيت المقدس» وفي سنة ١٢٧٤#-١٨٥٧م أصدرت الجمعية مجلتها: «**أحدث الأخبار من الشرق**».

ولكي تضمن الجمعية أملاكها في فلسطين قامت سنة ١٢٩٨#-١٨٨٠م بنقل ملكية جميع ممتلكاتها في بيت لحم، وبيت جالا[١] من الأراضي إلى القنصل الألماني في القدس، لكي تكون بمنأى عن المصادرة أو الإلغاء[٢].

ومن الجمعيات الاستعمارية الألمانية في فلسطين: صندوق اكتشاف فلسطين. والجمعية الألمانية لاكتشاف فلسطين. والمعهد الإنجيلي الألماني للآثار في الأرض المقدسة[٣].

وهذه الجمعيات كانت تمثّل «الرأي العام الشعبي» الذي كان شديد الحماسة للهجرة إلى فلسطين بالنسبة للنصارى أو لليهود الألمان لكي يقيموا في فلسطين «مملكة المسيح» من جديد.

يقول علي محافظة في دراسته الوثائقية:

«كان من المفروض أن تستغل الحكومة الألمانية وجود طائفةٍ من مواطنيها في فلسطين لصالحها، غير أن دراستنا للوثائق الموجودة في الأرشيف السياسي لوزارة الخارجية الألمانية أفضت إلى عكس هذا الافتراض.

فقد اتصف الموقف الرئيسي الألماني من هذه المستعمرات بالتحفظ لاعتقاد المسؤولين الألمان، أن المصالح التي يمكن أن تحققها ألمانيا من خلال دعمها لهذه المستعمرات لا تساوي المشاكل التي قد تواجهها في علاقتها مع الدولة العثمانية التي كانت تتابع بدقة كل ما يجري في فلسطين».

ومع ذلك فقد اضطرت الحكومة الألمانية إلى تقديم دعم كبير لهذه المستعمرات استجابة للضغط الشعبي.الكبير للرأي العام الألماني والبلاط القيصري، حيث كان القيصر يتابع باهتمام شديد أخبار المستعمرات والمستعمرين ويحرص على حمايتهم التامة ولاسيما جمعيَّة الهيكل، أكبر الطوائف الألمانيَّة في فلسطين[٤].

وحدث في سنة ١٢٩٤هـ-١٨٧٧ أن اندلعت الحرب الروسية- العثمانية، ووقف المسلمون في الدولة العثمانية وخارجها حتى الصين مع الدولة والسلطان، وصاروا

---

(١) بيت جالا: مدينة فلسطينية تقع في الضفة الغربية إلى الشمال الغربي من بيت لحم، خضعت للاحتلال الإسرائيلي سنة ١٩٦٧، ولكنها تخضع الآن للحكومة الفلسطينية. (***www.ar.wikipedia.org***).

(٢) سنّو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، المرجع السابق، ص١١١.

(٣) سنّو، المرجع السابق ص١٣٨.

(٤) سنّو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، المرجع السابق، ص١١٩.

يهددون كل ما هو من أوروبا، ولاسيما النصارى الأوروبيين في الدولة العثمانية وفلسطين على وجه التحديد.

وكان الألمان المقيمون في فلسطين ولبنان ممن أدرك هذا الخطر، وعلى الرغم من أن عددهم لا يزيد عن ١١٠٠ ألماني، فقد حملوا السلاح وحضوا مستعمراتهم، وطالبوا حكومتهم بالتدخل الفوري لحمايتهم. وعلى أثر ذلك أرسل «الإمبراطور غليوم الأول» السفينة الحربية الألمانية غازيل (***Gazelle***) إلى الساحل السوري. وبعد شهر واحد، قدم قائد هذه السفينة ويدعى فون هاكه (***Von Hake***) تقريراً إلى وزارة خارجيته، قال إنه يخشى من ردة فعل إسلامية عاتية، إذا ما انهزمت الدولة العثمانية أمام روسية، وطلب إرسال سفن ألمانية إلى الساحل السوري وبقاءها بضع سنين، ووافقه على ذلك القنصل الألماني في القدس. ثم أرسل بسمارك مضطراً بعض السفن الألمانية إلى المنطقة خوفاً من «انتقام إسلاميّ من الأوربيين»[١]. وأعلن القنصل الألماني في القدس عندما قطعت العلاقات العثمانية مع روسيا، أن ألمانيا قد وضعت حمايتها على الرعايا والممتلكات الروسية في فلسطين ورفعت العلم الألماني على مبنى القنصلية الروسية[٢] في يافا. وقد قام المستعمرون الألمان بتحصين مستعمراتهم في فلسطين وعمدوا إلى التدريب العسكري، كما كان يفعل اليهود.

وحاول الهيكليّون سنة ١٢٩٨#-١٨٨٠م الحصول على اعتراف الحكومة العثمانية بهم وتنظيمهم الإداري المستقل وأيدهم القنصل الألماني في القدس، غير أن مسعاهم في تدخل حكومتهم لدى الباب العالي لتأييدهم، قد باء بالفشل ورفضت الدولة العثمانية توسيع صلاحيات الأقليات الدينية في فلسطين حتى لا يقيموا دولة ضمن دولة.

وكان بسمارك غير مقتنع أصلا بهذه المستعمرات وجدواها كما كان الإمبراطور غليوم الثاني يتعامل مع هذه المستعمرات بحذر بالغ حتى لا يسيء إلى صديقه الجديد: السلطان عبد الحميد ولاسيما عندما قامت المظاهرات في فلسطين ضد الأجانب عموماً، ومن ضمنهم الألمان[٣].

٢- المستعمرات والمؤسسات البروتستانتية

أ- جمعية الهيكل ومؤسساتها:

جمعية أو جماعة الهيكل[٤]، هي حركة دينية «أصولية» في الكنيسة البروتستانتية، هاجمت الكنائس البروتستانتية والكاثوليكية والأرثوذكسية معاً، لعدم تصدي هذه الكنائس للفساد الأخلاقي، وخلق الإنسان «المعافى» كما أراد المسيح.

ويعود ظهورها إلى القرن السابع عشر، وقد عكفت هذه الجمعيَّة على دراسة الإنجيل،

---

(١) سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص٢٧٠.
(٢) أمين أبو بكر، ملكية الأراضي في متصرفية القدس، عمان، ١٩٩٦م، ص٥٩٠.
(٣) محافظة، العلاقات الألمانية، الفلسطينية، ص١٢٢.
(٤) جمعية الهيكل: وهي جمعية تعود في أصولها إلى حركة الأتقياء التي ظهرت في ألمانيا في القرن السابع عشر كحركة إصلاحية في الكنيسة، ونجحت هذه الجمعية برئاسة زعيمها هوفمان بالحصول على ترخيص بشراء أراضي بالقدس في (١٨٦٧)، ونجحت الجمعية بالحصول على أرض قربه خط حديد القدس، بنوا عليها مستعمرة لتصبح مقر جمعية الهيكل. (المركز الفلسطيني للإعلام ***www.palestine-info,com***).

وكان أعضاؤها يرون أنهم «شعب الله المختار» الذي يتوجَّب عليه الاجتماع في «أورشليم». وعلى جميع الألمان أن ينصرفوا إلى إقامة «هيكل الرب» في أورشليم (القدس)، واحتلال فلسطين. وقد باشرت الجمعية بإقامة سبع مستوطنات «هيكلية» في فلسطين.

وقد تزعَّم الجمعيَّة كل من «هوفمان وهارديج» (***Hoffman & Hardej***) اللَّذيْن عرضا أفكارهما في كتاب «الغرب والشرق» الذي حدَّد المبادئ الأساسية لنشر الاستعمار المسيحي في المشرق».

ومن أهم هذه المبادئ:

١- استحالة حل المسألة الشرقية بالقوة.

٢- يكون الحل بإنفاذ «حملة صليبية سلمية» لنشر المسيحية في المشرق[١].

٣- تُقدم هذه الحملة السلمية صورة حيَّة عن الدين المسيحي، والأخلاق المسيحية المقرونين بالعمل.

٤- لا جدوى من الحملات العسكرية لتنصير المسلمين؛ لأنها لا تستطيع نشر «الأخلاق المسيحية» التي هي الأساس.

وفي سنة ١٢٧١#-١٨٥٤م أسَّس «كريستوف هوفمان» (***Christopher Hoffman***) «جمعية شعب الله في أورشليم» وقد أطلق عليها اسم: المعبد الألماني (***Deutsche Tempel***). وعندما سُمح للأجانب المقيمين في الدولة العثمانية بحق امتلاك الأراضي في ٢٢ شوال ١٢٨٥هـ-٥ شباط ١٨٦٧[٢] تحت ضغوط شديدة من جانب الدول الأوروبية جميعاً. قررت الجمعية سنة ١٢٨٥#-١٨٦٨م أن يقوم كل من: «هوفمان وهارديج» (***Hardaj-Hoffman***) بالسفر إلى فلسطين لإنشاء أول أرض للجمعية عليها[٣]. وفي ١٥ أيلول ١٨٦٨م-١٢٨٥# تقدما بطلب للباب العالي للموافقة على شراء قطعة أرض مساحتها ثلاثة أميال مربَّعة على جبل الكرمل في حيفا، من أجل الاستقرار الديني في فلسطين. وأعلنا أن الجمعية هي جمعية دينية صرفة، لا تتدخل بالسياسة بأي حال، وعملُ أعضائها بعد العبادة، الانصراف إلى تطوير الزراعة في فلسطين. كما أنهما تعهَّدا بعدم إشراك أي إنسان من الجمعيات الأخرى في جمعيتهم. وبالمقابل التمسا من الباب العالي إعفاءهم من الضرائب والرسوم من ٥-٧ سنين وألَّا يتدخل أحد من المسؤولين في الدولة في شؤونهم.

ثم اجتمعا بالسفراء الأوربيين في القدس وقالا: «إن ظروف شعبنا أقنعتنا بأن الوقت قد حان لبناء «هيكل الرب» في الأرض المقدسة[٤]. «فأقوال الأنبياء في العهدين القديم والجديد تؤكّد أن بناء الهيكل هو الوسيلة الوحيدة لسعادة الشعوب والأفراد على حدٍّ سواء».

ولم توافق الدولة العثمانية لقناعتها بأن هذه الجمعية ستكون «دولة ضمن دولة» لاسيَّما اشترط هوفمان (***Hoffman***) وزميله ألا يتدخل أحد من الدولة العثمانية في شؤونهم.

وردَّاً على الدولة العثمانية، قامت الجمعية في آذار ١٨٦٩م-١٢٨٦# بشراء الأرض الممتدة من ساحل البحر حتى سفوح جبل الكرمل في حيفا[٥]، وبعد عام واحد تم بناء ١٢ منزلاً

---

(١) محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص١١٦.

(٢) أحمد حامد القضاة، نصارى القدس، ص٣٩٥.

(٣) سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص٢٣٦.

(٤) محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص١٠٦.

(٥) ***David Kushner: Palestine in the Last Ottoman period (political, social and Economic***

عليها، وتضم منازل سكنية ومدرسة ومعبداً، وكان يتصدر البناء عبارة: «لتنسني يميني إن نسيتك يا قدس»

وقد حرص هوفمان وجماعته على أن تكون المستعمرة على الطراز الألماني، وزرعت فيها الأشجار والزهور، وعاشت في عزلة تامة عن السكان العرب.

وبصورة عامَّة كانت كل مستعمرة ألمانية تضم: قاعة للاجتماعات العامَّة. وقاعة للعبادة. ومدرسة للأطفال وفرقة موسيقية. ونادياً للرياضة ومستوصفاً صغيراً[١].

وحتى سنة ١٢٩٠#-١٨٧٣م لم يزد عدد سكان المستعمرة المذكورة عن ٢٥٤ نسمة، و٣١ داراً و٢٠ غرفة كانت تستخدم ورشاً صغيرة.

وفي سنة ١٩٠٢ صار عدد السكان ٥١٧ نسمة يقيمون في ٩٢ منزلاً ولهم ٩٥ ورشة.

وكان نشاطات المستعمرة زراعية بحتةً، فقد زرعوا الزيتون، وبنوا طاحونة هولندية وأسسوا مزرعة للأبقار، وصاروا يُصّنعون منتجاتهم الزراعية والحيوانية ويصدرون قسماً منها[٢].

وهذه الجمعيَّة الألمانية هي الجمعية الوحيدة التي نجحت وتطوَّرت بدعم الحكومة الألمانية، وذلك كلُّه في عهد بسمارك.

وقد دفعت هذه المستعمرات العربَ إلى الاقتداء بها في أساليب العمل والزراعة والتجارة والخدمات. ولهذه الجمعية مؤسسات مهمة هي: دار الأيتام السورية. والنزل أو الفنادق الخاصة. والمستعمرات الهيكلية.

ب- دار الأيتام السُّورية أكبر المؤسَّسات التبشيرية في سُوريَّة:

بعد حوادث ١٢٧٧#-١٨٦٠م في لبنان، تداعى رجال الدين النصارى في العالم إلى لبنان لإزالة آثار تلك الحوادث، وإيواء الأيتام والمشردين والأرامل. وممن وفدوا لهذا الغرض الراهب الألماني الكاثوليكي «لودفيغ شنلّر» (***Schneller***)، الذي حضر من فلسطين إلى لبنان والتقط بعض الأيتام النصارى الموارنة ونقلهم إلى القدس ليؤسس: «دار الأيتام السورية» التي تحوَّلت مع الوقت إلى أكبر المؤسسات التبشيرية في سورية، وكان هدفه الأوَّل نشر البروتستانتية في الشرق الأدنى[٣].

وقد آوى شنلر، الأيتام الموارنة في داره في القدس، وكان عددهم أحد عشر يتيماً وأعلن افتتاح الدار رسمياً يوم ١١ تشرين الثاني سنة ١٨٦٠م-١٢٧٧#. وكان هدفه الأسمى «تربية الأولاد وتعليمهم ليصبحوا أعضاء مفيدين لكنيسة المسيح. وكانت الدار تتعرَّض لحملات عنيفة من «جمعية يهود لندن» ومن الكاثوليك.

وفي سنة ١٢٩٣#-١٨٧٦م أصبح عدد الطلاب في الدار ٢١٠ صبيّ وثماني بنات. من سورية وفلسطين ولبنان ومصر، وكانوا يضمون الملحدين والمسلمين والمسيحيين، ويمارسون الزراعة والتجارة والمهن الحرة بالإضافة إلى التبشير، أو التنصير كما كانوا يسمونه[٤].

---

transformation) Jerusalem 1986, P: 374

(١) محافظة، المرجع السابق، ص١٠٧.

(٢) محافظة، المرجع نفسه، ص١٠٨.

(٣) سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص٦٤.

(٤) سنو، المرجع السابق، ص٦٨.

وكان شنلَّر يأمل أن يشكل الخريجون وكنيسة عربية إنجيلية في الأراضي المقدسة لها مطرانها الألماني المستقل.

وكان ينظر إلى «جمعية الهيكل الألمانية» كنموذج يحتذى لنشاطاته في طريقة التعليم والتبشير والاستيطان.

وقد عكف شنلر على شراء الأراضي في فلسطين، واصطدم مع اليهود الذين كانوا منذ سنة ١٢٨٧#-١٨٧٠م يرون أن الأرض لهم وأن شراءها يعدّ إثماً، لأنها تخص اليهود وحدهم.

وبعد خمسين عاماً من تأسيس الدار، كانت مساحة الأراضي التي يمتلكها شنلر وورثته ٥٥ هكتاراً تعادل ٥٥٠٠٠٠ متراً مربعاً.

وفي سنة ١٣٠٧#-١٨٨٩م، وهي سنة التقارب الألماني العثماني استأجر شنلر أرضاً في الرملة لمدة أربعين عاماً بإيجار زهيد، وكانت مساحتها ٥٨٥ هكتاراً وبنى عليها مستعمرة «بير سام» لكنها لم تحقق النجاح المأمول.

وفي سنة ١٣١٢#-١٨٩٤م أقام شنلر مستعمرة قبل وفاته بعامين وهذه المستعمرة كانت مؤسسة حرفية - تجارية ألمانية لإيجاد فرص عمل لخريجي دار الأيتام السورية.

وقد أقام المنشآت والورش والمعامل خارج أسوار المستعمرة، كما بنى المنازل لسكان المستعمرة.

وقد ساهم في بناء هذه المستعمرة رجال ألمان متديّنون، وأطلق على كل قسم منها اسم إحدى المدن الألمانية، وكانت هذه المستعمرة تضم ورشات لصناعة الخزف والنجارة والحدادة والتجليد والقرميد والأحذية والألبسة والمفروشات والمشروبات، وكان الإنتاج يصدر إلى أوروبا ويتهافت عليه «المؤمنون». كما أقام ورشة للمكفوفين لتدريبهم على ما ينفعهم[١].

وحتَّى لا تنهار المؤسسة الهيكلية الكبرى، شكل شنلر ما يُعرف بـ«الرابطة الإنجيلية لدار الأيتام السورية في القدس» وقامت هذه الرابطة سنة ١٣١٤#-١٨٩٦م بعد وفاة شنلر بتسديد ديون الدار الكبيرة، ووضعت يدها على جميع ممتلكات الدار وسارت على طريق شنلر في الاستعمار والتبشير[٢]...

ومن المؤسسات الإنجيلية الألمانية الأخرى في فلسطين:

- مدرسة القسيس «فيزر» (***Phaser***) في القدس وهي خاصة بالإنجيليين.
- ونزل رهبنة القديس يوحنا حيث يقيم الحجاج الألمان.
- ومأوى المجذوبين الذي وسّع سنة ١٣٠٥#-١٨٨٧م والجمعية الإنجيلية الألمانية في كل من حيفا ويافا[٣].

ج- الفنادق الألمانية الخاصَّة:

١- نزل القدس:

بدأت مع تزايد المستعمرات الألمانية في فلسطين أعداد كبيرة من الألمان بالهجرة إلى القدس للحج أو العمل أو السياحة. وكما لم يكن في القدس فنادق رخيصة للعامَّة، اضطر

---

(١) سنو، المرجع نفسه، ص٧٥.
(٢) المرجع نفسه، ص٧٢.
(٣) محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص٦٩.

العمال الألمان إلى المبيت في نزل الفرنسيسكان المسمى: كازانوفا (***Casanova***).
وقد استاء الألمان من ذلك وخافوا العاقبة ولاسيَّما بعد ارتداد عدد من الألمان إلى الكاثوليكية.
ولذلك عمد المطران الألماني «غوبات» (***Gubat***) إلى تأسيس نزل بروتستانتي بمساعدة القنصل البروسي في القدس. وافتتح النزل سنة ١٢٦٨#-١٨٥١م في منزل شماسات «الكيزر زفرت» على جبل صهيون، على أن يستقبل العمال الألمان يومياً ولمدة ١٤ يوماً بدون مقابل، ريثما يتدبروا أمرهم. ثم نقل النزل إلى دار يملكها مصطفى البيرقدار في القدس بعدما اشتراها ترجمان القنصل البروسي في القدس، وعهد الإمبراطور الألماني فردريك غليوم الرابع إلى رهبنة «فرسان القديس يوحنا» بإدارة هذا النزل.
وكان الألمان لا يُخفون تعلقهم الشديد وحبهم لفرسان القديس يوحنا، ولذلك قام الإمبراطور غليوم الثاني أثناء زيارته للقدس سنة ١٣١٦#-١٨٩٨م بشراء قطعة الأرض التي كان فرسان القديس يوحنا قد أقاموا عليها مستشفاهم خلال الحروب الصليبيَّة، وسجلت جميع الأبنية الألمانية في فلسطين باسم الرايخ الألماني[١].

٢- فندق أوغستا فيكتوريا (*Augusta Victoria*):

بني هذا النزل: الذي سمي بالمطلع في قرية الطور، وهذه القرية أصلاً بكاملها هي وقف شرعي على ذرية الشيخ المجاهد علي الهكاري، أوقفها عليه السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.
وقد تم بناء النزل سنة ١٣١٦#-١٨٩٨م أثناء زيارة الإمبراطور غليوم الثاني إلى القدس، على يد وزير الإمبراطور، الذي قدَّمه هدية للإمبراطورة «أوغستا فيكتوريا» (***Augusta Victoria***) حرم الإمبراطور. وكان الهدف من هذا النزل إيواء الحجاج الألمان عند زيارتهم لفلسطين. وأرض النزل ما تزال موقوفة، ولذلك صدر سنة ١٣٢٦#-١٩٠٨م فرمان سلطاني بتحكير أرض الوقف المذكور رسمياً. والتحكير شرعاً هو تأجير أرض الوقف لمدة طويلة قد تصل إلى مئة عام، بأجرة زهيدة، مقابل مبلغ من المال يُدفع عند العقد، وهذا النزل اليوم هو مستشفى يديره الاتحاد اللوثري في فلسطين[٢].

(١) سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص١٣٨.
(٢) عبد الكريم رافق، مؤتمر تاريخ بلاد الشام السابع، ص١١.

د- ومن المستعمرات الإنجيلية الألمانية الأخرى:

١- مستعمرة يافا ١٢٩٠#-١٨٧٣م:

في آذار ١٨٦٩م-١٢٨٦# وفد إلى هوفمان (***Hofman***) المبشر الإنجيلي ميلر (***Miller***) والألماني ميسلر (***Misller***)، الذي اشترى المستعمرة الأمريكية في يافا المعروفة باسم قرية آدامز: (***Adams-City***)، وكانت جماعة أمريكية دينية قد زعمت بأن المسيح سيعود إلى فلسطين في وقت حددوه وأقاموا هذه المستعمرة ليشهدوا فيها «عودة المسيح» لكن المسيح لم يعد، ولهذا باعوها وعادوا إلى بلادهم. ومساحتها تتراوح بين ٤٠٠ هكتار و٦٠٠ هكتار.

٢- مستعمرة سارونا ١٢٨٨#-١٨٧١م- *Saraona*:

على طريق يافا - تل الربيع (تل أبيب)[١]، ومساحتها ٧٨ هكتار ثم توسعت حتى صارت ٤٧٤ هكتاراً سنة ١٣١٦#-١٨٩٨م.

٣- مستعمرة ريفايم ١٢٨٩#-١٨٧٢م- *Rephaim*:

اشترى الهرر[٢] فرانك (***Herr Frank***)، أحد أعضاء جمعية الهيكل في مستعمرة يافا، قطعة من الأرض في رفايم[٣] شمال غرب محطة سكة حديد القدس في شهر نيسان ١٨٧٢م-١٢٨٩#. ومساحتها ٢٥ هكتار. وفي سنة ١٢٩٥#-١٥٧٨م أصبحت هذه المستعمرة، المقرَّ العام لجمعية الهيكل، وسكانها يعملون بصنع العربات وإصلاحها.

٤- مستعمرة فال هالاوك ١٣١٠#-١٨٩٢م- (*Wal Haloc*):

أنشأها المستعمرون الألمان سنة ١٣١٠#-١٨٩٢م، على طريق يافا تل الربيع (تل أبيب)، وأقيم فيها مستشفى لمعالجة الألمان المقيمين في المستعمرات الألمانية[٤].

٥- مستعمرة فيلهما ١٣٢٠#-١٩٠٢م (*Wilhma*):

شمال شرق اللّد[٥] والمساحة ١٠٠٠ هكتار.

٦- مستعمرة شمعة ١٢٨٩#-١٨٧٢م:

أنشأتها دار الأيتام السورية لأغراض البحث.

٧- مستعمرة فالدهايم ١٣٢٥#-١٩٠٧م (*Waldheim*):

غرب الرملة[٦]: أنشأتها دار الأيتام السورية أيضاً[١].

---

(١) تل الربيع (تل أبيب): مدينة فلسطينية تقع على المتوسط. (***www.ar.wikipedia.org***).
(٢) الهرر (***Herr***) بالألمانية يعني السيد.
(٣) رفايم: وادي موجود في القدس، ورفايا: اسم عبري معناه (يهوه قد شفى) وهو رجل من نسل داود. قاموس الكتاب المقدس - مجمع الكنائس الشرقية، ص٤٧.
(٤) علي محافظة، العلاقات الألمانية – الفلسطينية ص١١١، وأمين أبو بكر، ملكية الأراضي في متصرفية القدس ص٥٩٢. وهناك بعض الاختلافات في مساحة مستعمرة يافا بين المصدرين.
(٥) اللد: من أكبر وأقدم مدن فلسطين التاريخية، شمال غرب القدس، أسسها الكنعانيون في الألف الخامسة قبل الميلاد. (***www.ar.wikipedia.org***).
(٦) الرملة: من أكبر وأقدم المدن الفلسطينية شمال غرب القدس، تأسست سنة ٧١٦م على يد الخليفة سليمان بن

عبد الملك، وسميت نسبة إلى الرمال التي تحيط بها. (المرجع السابق).

(١) انظر سجلات يافا ٦١ ص٣٧، و١٤٠ ص١٣٣، و١٦٢ ص٣٠٦.

٣- المستعمرات والمؤسسات الكاثوليكية في فلسطين:

أ- مستعمرة شنايدر (*Schneider*):

في أواسط السبعينات، قام الراهب الفرنسيسكاني الألماني: «شنايدر» بشراء أرض في منطقة عمواس - قبية خارج القدس لإنشاء مستعمرة ألمانية عليها.

وبدأ العمل في المستعمرة، لكن جمعية القبر المقدَّس، الألمانية التي كان يتبعها شنايدر، آثرت الولاء للكنيسة الكاثوليكية على الولاء لألمانيا، ونقلت شنايدر إلى الإسكندرية بتحريض من الدوائر الكنسية الفرنسية، بعد قيام شنايدر بانتقادها.

وذكر الجمعيَّة بأنها ليست جمعية تبشيرية ألمانية، وأنها رغماً عن ذلك قد قدمت المساعدات لمؤسسات ألمانية كاثوليكية في فلسطين من أمثال:

- جمعية المتشرّعات في غزة.
- مستشفى الراهب ماير (***Maier***) في الناصرة.
- مدرسة سكس في القدس.
- ومؤسسة شنايدر نفسه[١].

ب- جمعية فلسطين للكاثوليك الألمان ١٢٩٧هـ-١٨٧٩م:

طالب الراهب الألماني الكاثوليكي «ماير» (***Maier***) مع عدد من رجال الدين والنبلاء والعلماء والتجار الألمان، بقيام جمعية دينية كاثوليكية ألمانية في فلسطين على أسس قومية ألمانية.

وقد قامت هذه الجمعية في ألمانية رسمَّياً سنة ١٣٠٢#-١٨٨٤م وحددت أهدافها بما يلي:

- تشييد نزل وكنيسة ومدرسة ومستشفى في فلسطين.
- نشر المذهب الكاثوليكي ضمن «المظلَّة الألمانية»[٢].

ولبلوغ هذه الأهداف، قامت الجمعيَّة بضم راهبات بورومية والآباء العازاريين الألمان في فلسطين إليها.

وقد قابل الكاثوليك الألمان هذه الجمعية باستحسان بالغ حتى إن أعضاءها كانوا سنة ١٣٠٥#-١٨٨٧م أزيد ٢٢٠٠٠ نسمة.

وفي سنة ١٣٠٤#-١٨٨٦م اشترت الجمعية الأرض التي كان الراهب شنايدر قد ابتاعها خارج بوابة يافا في القدس في منطقة عمواس - قبيّة[٣].

---

(١) سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص١٩٥.
(٢) سنو، المرجع السابق، ص١٩٦.
(٣) سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص١٩٧. عمواس-قبية: قرية فلسطينية تبعد عن القدس

ج- الجمعية الكاثوليكية للأرض المقدسة ١٣١٣هـ-١٨٩٥م:

نشأت من دمج جمعية القبر المقدس، وجمعية فلسطين للكاثوليك الألمان سنة ١٣١٣#-١٨٩٥م، وكان من أهدافها:

١- حماية الأرض المقدسة:

٢- دعم الإرساليات الكاثوليكية منها.

٣- المحافظة على مصالح الكاثوليك الألمان فيها.

٤- تكون مجلّة «الأرض المقدسة» هي الناطقة باسم الجمعيَّة بدل جريدة «ورقة فلسطين».

وقد وضعت الجمعية نفسها تحت رعاية الرايخ الثانية[١].

تشييد نزل الكاثوليك في القدس ١٣٠٥#-١٨٨٧م

تم تشييد هذا النزل في الأرض المشتراة من شنايدر (***Schneider***) خارج بوابة يافا في القدس، وكان يديره الأب شميدت (***Schmidt***).

ويضم النزل ٣٠ غرفة في جناحين أحدهما للحجاج والآخر للحاجَّات.

كما يضم كنيسةً صغيرة.

والهدف منه إيواء الرحالة الألمان والحجاج والدارسين من الكاثوليك.

كما شُيِّدت نزل أخرى في عمواس ١٣٠٤#-١٨٨٦م.

وحيفا ١٣٠٦#-١٨٨٨م.

ومستعمرة الطبقة الزراعية سنة ١٣٠٧#-١٨٨٩م[٢]؟

وفي سنة ١٣١٧#-١٨٩٩م، اشترت الجمعية الألمانية للأراضي المقدسة، بواسطة القنصل الألماني في القدس، قطعة أرض كبيرة في القدس وأقيم عليها النزل الجديد سنة ١٩٠٨ وبنيت فيه كنيسة ومدرسة[٣].

٣٠كم، وتقع في منطقة اللطرون، جنوب شرق الرملة. (***www.ar.wikipedia.org***).

(١) سنو، المرجع السابق ص١٩٧.

(٢) سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص١٩٨.

(٣) سنو، المرجع السابق، ص١٩٩.

ثانياً: المستعمرات اليهودية الألمانية في فلسطين

١- الألمان واليهود في فلسطين

كان الاهتمام الألماني الكبير بفلسطين ومحاولة نشر المذهب الإنجيلي «البروتستانتي» هناك بين النصارى والمسلمين على حد سواء ينطلق من ثوابت متأصلة عند الألمان لا علاقة لها بالمصالح السياسية أو الاقتصادية.

ذلك أن النصارى الكاثوليك والأرثوذكس لم يكونوا مهتمين كثيراً أو قليلاً بأمر اليهود ومصيرهم، سواء يهود أوروبا، أو الدولة العثمانية، بل إنهم كانوا يعادون اليهود عداء سافراً لأسباب دينية صرفة.

أما الألمان الإنجيليين فقد كانت نظرتهم لليهود ومعهم سائر البروتستانت ذات طابع خاص. فهم يرون أن اليهود قد دفعوا «ضريبة العذاب غالياً» يوم اضطهدوا في مصر ويوم خرجوا منها، ولذلك فقد «ارتفع» عنهم الحساب والمساءلة تماماً، وصارت مساعدتهم والوقوف معهم من أهم الواجبات الدينية للإنجيلين، وهو من صميم العقيدة المسيحيَّة، ولذلك وقفت الكنائس البروتستانتية على اختلافها موقف المتعاطف مع اليهود[١][*].

٢- مرسوم تحرير اليهود:

في سنة ١٢٢٨#-١٨١٢م صدر مرسوم تحرير اليهود في ألمانيا ويقضي بمساواتهم بالألمان والنصارى من البروتستانت والكاثوليك.

ومع ذلك لم يقضِ هذا المرسوم إلى حصول اليهود على ا لمساواة المنشودة.

ومن هنا برزت لَلألمان البروتستانت فكرة جديدة وهي تنصير اليهود على المذهب البروتستانتي، ثم تصديرهم إلى فلسطين حيث يقيمون المستعمرات وبذلك تحقق ألمانيا هدفين في وقت واحد:

١- ترحيل اليهود من ألمانيا التي كانت تعاني من كثرة سكانها.

٢- إقامة المستعمرات الألمانية في فلسطين وإعادة مملكة المسيح فيها.

وكان الألمان عامة لا يثقون باليهود ولا يطيقونهم، ولم تكن مساعدتهم الظاهرية لهم إلا للتخلص منهم في ألمانيا.

وكان الفيلسوف الألماني «فيخته» (***Fichte***) يرى أن اليهود جسم غريب في ألمانيا، ويشكلون دولة ضمن دولة، وعلى الرغم من دعوته الألمان لاحترام اليهود إلا أنه قال:

«أمَّا أن نعطي اليهود حقوق المواطنة، فهذا لا يتم إلا إذا استبدلنا في ليلة واحدة رؤوساً أخرى برؤوس أخرى برؤوس اليهود. خالية من الأفكار اليهودية، ولكي نحمي أنفسنا منهم فلا أرى سوى فتح أرض الميعاد لهم ونرحّلهم جميعاً إلى هناك»[٢].

وكان معظم الألمان يرون في اليهود، شعباً فاسداً مشحوناً بميول شريرة.

ورغم كل الجهود التي بّذلت لتنصير اليهود وتوطينهم في فلسطين إلا أن يهود

---

(١) سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص١٠٩.

(*) يقول الدكتور جلال صادق العظم: أن الصهيونية تحقق للأوروبيين هدفين في آن واحد، الخلاص من زيادة عدد السكان والخلاص من منافستهم المالية، ويضاف لذلك أنها أداة لتحقيق مصالحهم، حيث الوطن القومي لليهود

(٢) سنو، ألمانيا والإسلام، مرجع سابق، ص٢٨٦.

فلسطين، وقفوا من المنصّرين البروتستانت موقفاً عدائياً سافراً، ووصفوهم بالمرتدّين[١].

وكان اليهود، يعتمدون على نفوذهم الاقتصادي الهائل في ألمانيا للضغط على الحكومة الألمانية لاستخدام نفوذها في دعم اليهود.

وبالمقابل ظهر تيار «محافظ» في ألمانيا، كان يرى أن اليهود غرباء وأن اليهودية كدين مناقضة للتعاليم المسيحية، ولكي يحصلوا على المواطنة لابد من تنصّرهم، ووقعت هذه المهمة الصعبة على «جمعيَّة نشر المسيحية بين اليهود». لكن التنصير لم ينجح، وكان الذين تنصروا في الظاهر مشكوكاً بعقيدتهم النصرانية وصحة تنصّرهم[٢].

ولقد كان اهتمام ألمانيا بفلسطين منذ عام ١٢٥٨#-١٨٤٢م.

وفي عام ١٣١٧#-١٨٩٩م فتح «أورنجين فردريك» (***Oranjin Fredrich***) مدارس اليهود في فلسطين[٣].

٣- اليهود في الرايخ الثاني ١٢٨٨هـ-١٨٧١م:

كان عدد اليهود في الرايخ الثاني عام ١٢٨٨#-١٨٧١م حوالي ٤٠٠٠٠٠ نسمة وقد تضمَّن الدستور الألماني الاتحادي الصادر عام ١٢٨٩#-١٨٧٢م نصاً واضحاً على المساواة بين الألمان البروتستانت واليهود والكاثوليك تماماً.

ومع ذلك انقسمت ألمانيا إلى قسم معاد لليهود وعرف هؤلاء بـ«اللاساميين» حذروا بشدة من الهجرات الواسعة لليهود الروس إلى ألمانيا، ونشروا بين الألمان خطر اليهود على ألمانيا.

وفي عام ١٢٩٦#-١٨٧٨م تقدم اليهود بمذكرة إلى المستشار بسمارك عقب مؤتمر برلين، طالبوا فيها بإقامة دولة يهودية في فلسطين، فردَّ عليهم المستشار بالقول: «إنها فكرة حمقاء»[٤]

وبالمقابل، وردًّا على هؤلاء نشط اليهود وأنصارهم في ألمانيا بنشر «الساميَّة» والدفاع عنها.

حيث تأسست في عام ١٣٠٢#-١٨٨٤م «جمعيَّة محبَّي صهيون» في برلين برئاسة اليهودي زيميل (***S.Simmel***). كما تأسست جمعيات ألمانية يهودية لمحاربة اللاساميَّة مثل: جمعية العلماء الروس عام ١٣٠٧#-١٨٨٩م. وجمعية إسرائيل الفتاة: (***Jung Istael***). واتحاد الطلبة اليهود في ألمانيا عام ١٣١٠#-١٨٩٢م. وأصدر «بودنهماير»[٥] (***Bodenhmir***) كتاباً دعا فيه إلى تهجير اليهود الروس إلى فلسطين وسورية للاستقرار فيهما. وتم تشكيل الاتحاد المركزي لليهود الألمان عام ١٣١١#-١٨٩٣م[٦]. وفي العام نفسه أسَّس في كولون (***Köln***) «جمعية كولون لتنمية الزراعة والصناعة في فلسطين»

---

(١) سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، مرجع سابق، ص٣٨.

(٢) سنو، المرجع السابق، ص٢٨٧.

(٣) ***Ilber ortayli, Osmanli imperator luğűnda, Op-cit, P.181***

(٤) محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص١٤١.

(٥) بودنهماير (***Bodenhmir***): (مالحسن بودنهماير): أحد رفاق هرتزل ومساعديه وقد حضر المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل، وحتى إنه كان يعلم بالمؤتمر قبل انعقاده وقد قال بودنهماير بيتاً كان في سفينة كانت بقربه في مضيق الدردنيل في تركيا: «إن لأحلامنا أجنحة لا تعرف الحدود وإن المنطقة ما بين نهري النيل والفرات يجب أن تفتح أمام الاستيطان اليهودي لتحقيق الوعد الإلهي لليهود بالدولة اليهودية الكبرى». ***www.uaecion.net*** .

(٦) محافظة، المرجع السابق، ص١٣٧.

التي تحول اسمها إلى: «جمعية كولون القومية اليهوديَّة» وخلاصة مبادئها:

١- إن الرباط القومي لليهود، لا يتعارض مع ولائهم لأوطانهم.

٢- إقامة دولة يهودية تمثلهم، وتضمن الملجأ لغير المرغوب فيهم من اليهود.

٣- إيقاظ الوعي اليهودي، وممارسة العمل في فلسطين.

وفي عام ١٣١٥#-١٨٩٧م عقد اليهود الألمان مؤتمراً في ١١ تموز، قبيل مؤتمر بازل[١] (***Basel***)، نجم عنه إنشاءه «الاتحاد الصهيوني في ألمانيا».

وطالبت مجلَّة (***Kadimah***) في برلين عام ١٣١٢#-١٨٩٤م، «بصهيونية تقدمية» يندمج فيها اليهود في مجتمعاتهم الأوروبية اندماجاً كاملاً دائماً[٢].

وفي عام ١٣١٥#-١٨٩٧م دعا «اتحاد الصهاينة الألمان» عقب مؤتمر بازل إلى مؤتمر عام في فرانكفورت[٣] (***Frankfurt***) يوم ٣١ تشرين الأول ١٨٩٧. أسفر عن انتخاب لجنة تنفيذية برئاسة «بودنهايمر» (***Bodwnhmir***)، وصدرت صحيفة: الصهيوني (***Der Zionist***) ١٣١٩#-١٩٠١م كما أنشأ اليهود الألمان وجمعية إغاثة اليهود الألمان[٤].

وكان «هوفمان» (***Hoffman***) مؤسّس جمعية الهيكل يرى أن تكون الأراضي المقدسة ملكاً لشعب الله المختار.

قال: «إن الله كان ينوي في البداية منح هذه البلاد للشعب اليهودي، غير أن هذا الشعب غرق في الفساد والرذيلة ولم يعد شعباً مقدساً، والهيكليون وحدهم أوجدوا المقدس الجديد: شعب الله.».

وحين بدأت الهجرات اليهودية الكبرى إلى فلسطين ١٨٨٢-١٨٩٠ أدرك الألمان الخطر الحقيقي لليهود، ولاسيما عندما عقد مؤتمر بازل عام ١٨٩٧ وصارت «مجلة العالم» (***Die Welt***) الصادرة في حزيران ١٨٩٧ هي الصوت العالمي لليهود.

وقد شنت الحركة هجوماً قوياً على الصهيونيين، وأبرز: «فرتيس لورخ (***Fritz Lorch***)» عدم ولاء الصهيونية للدولة العثمانية، وتعاون الصهاينة مع بريطانيا لتقسيمها وتمزيق أشلائها[٥].

ولذلك انحصر تأييد اليهود بالإنجيلين من دون «الهيكليين».

---

(١) بازل (***Basel***): وهي ثالث أكبر مدينة في سويسرا، تقع على نهر الراين في شمال غربي البلاد، في كانتون مدينة بازل الملاصق للحدود الألمانية والفرنسية. (***www.ar.wikipedia.org***).

(٢) محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، المرجع السابق ص١٣٨.

(٣) فرانكفورت (***Frankfurt***): مدينة تقع وسط ألمانيا على ضفاف نهرب الماين (***Main***) في ولاية هسن، تعد العاصمة الاقتصادية لألمانيا. (***www.ar.wikipedia.org***).

(٤) محافظة، المرجع السابق ص١٥٧.

(٥) محافظة، المرجع السابق ص١٣١.

٣- المستعمرات اليهودية في فلسطين:

أ- البدايات

في عصر السلطان سُليمان القانوني استغلّ اليهودي العثماني «يوسف ناجي» صداقته مع السلطان، والتمس منه السماح بإسكان خمسة آلاف يهودي بالقرب من بحيرة طبريا في فلسطين، فوافق السلطان على ذلك، لأن الدولة العثمانية كانت في ذلك الوقت أقوى دولة عسكرية في أوروبا والعالم، وكان ذلك بداية الهجرات اليهودية إلى فلسطين.

وفي القرن التاسع عشر هاجرت موجة جديدة من اليهود واستقرت في إزمير فصار أعضاؤها وسطاء بين أوروبا والدولة العثمانية وجنوا من ذلك فوائد جمَّة[١].

ثم كانت حرب القرم عام ١٢٧٣#-١٨٥٦م، والحرب الروسية العثمانية ١٢٩٤#-١٨٧٧م المشؤومة وبالاً على الدولة العثمانية؛ لأنها أرغمتها على إعطاء «الأقليات» وفي مقدمتهم اليهود حق التعبير عن آرائهم وتشكيل الجمعيات الخاصة بهم تحت ستار الحرية الدينية، وأصبحت تلك الجمعيات بؤراً للتآمر على المسلمين والدولة العثمانية.

ثم جاءت حادثة اغتيال اليهود لقيصر روسيا عام ١٢٩٩#-١٨٨١م وما نتج عنها من عواقب على الدولة العثمانية[٢] حيث هاجر إليها عشرات الآلاف من اليهود الروس الذين كانوا يتعرضون للإبادة الجماعية.

ولم تكن الدولة العثمانية تشعر بأدنى خطر من هذه الهجرات، التي كان فيها اليهود مثل النصارى يعيشون ضمن الدولة العثمانية، ويحتكمون إلى شرائعهم ويمارسون عبادتهم وأعمالهم بمنتهى الحرية. ويبدو أنه لم تكن لديهم فكرة عن الصهيونية والخطر منها إلا عندما ظهر هرتزل ومشاريعه[٣].

وفي عام ١٢٧٤هـ - ١٨٥٨، وقبل السَّماح للأجانب بتملك الأراضي في الدولة العثمانية، بدأت عمليات شراء الأراضي بمختلف الأساليب من جانب الحركة الصهيونية، وهذه الأراضي تشمل:

أولاً - الأراضي داخل المدن.

ثانياً - أراضي الأرياف.

أولاً- الأراضي داخل المدن:

ركزت الحركة الصهيونية على شراء الأراضي داخل ثلاث مدن هامة هي القدس ويافا والخليل[٤]. ففي القدس بنيت ٣٦ مستوطنة أو كومبانية كما كانت تسمى في المناطق

---

(١) كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، القاهرة ١٩٧٦م، ص٧١.

(٢) اغتيال القيصر الروسي ألكسندر الثاني (١٨٨١): تولى الحكم في ذروة حرب القرم التي كشفت ضعف الروس، قام ببيع للولايات المتحدة الأمريكية مقابل سبعة ملايين دولار في ١٨٦٣، قامت ضده الكثير من الثورات قمعها بشدة، في ١٣ آذار ١٨٨١ وأثناء طريق عودته إلى قصر الشتاء اغتيل ألكسندر الثاني بواسطة يهودي استخدم قنبلة يدوية، توفي على أثرها وتسلم مكانه ألكسندر الثالث. (www.ar.wikipedia.org).

(٣) الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، المرجع السابق، ص٧٢.

(٤) الخليل: مدينة فلسطينية ومركز محافظة الخليل تقع في الضفة الغربية إلى الجنوب، وتعتبر أكبر المدن الفلسطينية من حيث عدد السكان والمساحة، أسسها الكنعانيون في الألف الثالثة قبل الميلاد سميت بالخليل

الشمالية والشمالية الغربيَّة من السور (سور مدينة القدس القديمة)، ثم تمَّ شحنها بالمستوطنين[1].

وحتى لا تقع هذه المستوطنات تحت المصادرة تم وقفها وقفاً خيريًّا على غرار الوقف الإسلامي.

وفي عام ١٣٢٣هـ - ١٩٠٥ اشترت الحركة الصهيونية في منطقة «الشيخ جرَّاح»[2] ٥٦٠٠ دونم، لإقامة الجامعة العبرية عليها وتقع في الناحية الشمالية الشرقية من السور.

وفي يافا تركز الاستيطان شمالي المدينة على شاطئ البحر داخل حدود بلدية يافا، بعيداً عن المدينة وضواحيها. وقد أُنشأت في مدينة يافا مستوطنتان:

١- مستوطنة المنشية المعروفة بمنشية اليهود عام ١٣٠٦#-١٨٨٨م، كان فيها حوالي ٦٠٠٠ مستوطن.

٢- مستوطنة تل أبيب «تل الربيع» التي بدأت بالتضخم حتى انفصلت عن يافا.

أمَّا في الخليل فقد كان مركز الاستيطان في محلَّة اليهود داخل المدينة القديمة، وهؤلاء اليهود فيها منذ عصر المماليك.

وحتى ندرك مدى اهتمام اليهود بالاستيطان نقرأ في إحدى الوثائق من سجلات يافا.

«وكَّل إبراهيم سالم الإسرائيلي من تبعية إنكلترا والمقيم بيافا، وكَّل الخواجا سلمون بن إبراهيم الإسباني التبعية في «شراء أي عقار في أي محل كان، من أي إنسان كان، من أراض ومسقفات في منطقة فلسطين بأي ثمن كان !!!...»[3].

ب- أشهر المستعمرات اليهودي -الصهيونية في فلسطين:

كان اليهود الغربيّون يلجؤون إلى شتى الطرق لإقامة المستعمرات في فلسطين وشراء الأراضي، رغم القوانين العثمانية.

وعلى سبيل المثال: فقد قرَّر الصهيوني «بتاح تكفا» المشمول بالجنسية الألمانية ١٣٠٣#-١٨٨٣م، بناء مستعمرة بدون الحصول على رخصة من الآستانة، كما تقتضي القوانين.

فقام والي القدس «رؤوف باشا»[4] المشهور بحبه للعرب وعدائه للغرب والصهيونية، بتقديم بتاح تكفا إلى المحاكمة بتهمة مخالفة القوانين، وطبَّق عليه عقوبات قاسية، أو دمّر ما أقامه في مستعمرته، ومنع جميع المحامين في القدس من الدفاع عنه. فاحتجَّ القنصل الألماني

نسبة إلى نبي الله إبراهيم، حيث يعتقد أنه سكن مدينة الخليل في منطقة الخليل الإبراهيمي. (www.ar.wikipedia.org).

(١) أمين أبو بكر، ملكية الأراضي ص٥٩٧ نقلاً عن سجلات المحاكم الشرعية في القدس.

(٢) الشيخ جراح: مدينة مقدسية تتبع مدينة القدس وهي الجانب الشرقي للقدس وقعة تحت الاحتلال الصهيوني ١٩٦٧، وهي الآن من أحياء القدس الشرقية. (www.ar.wikipedia.org).

(٣) أبو بكر، المرجع السابق ص٦٠١ نقلاً عن سجلات المحاكم الشرعية في يافا.

(٤) رؤوف باشا: كان متصرفاً للقدس (١٨٦٧-١٨٨٨) سعى سفير الولايات المتحدة الأمريكية (أوسكار شتراوس) اليهودي الأصل إلى طرد رؤوف من منصبه وذلك بالضغط على السلطات العثمانية التي وافقت على استبدال هذا الوالي بوالي آخر أقل عداءً للصهيونية، وذلك لأن أعمال رؤوف باشا أدت إلى تجميد النشاط الصهيوني في متصرفية القدس خلال فترة ولايته. (الموسوعة الشاملة، مجلة العربي، www.islamport.com).

في القدس على ذلك وأحضر له محامياً من دمشق، فتجاهله القضاة العرب في القدس. وعند ذلك لجأ القنصل الألماني إلى سفارته في الآستانة لتتولى الدفاع عن «بتاح تكفا» ومع الأسف، ثم الفصل في قضيته لصالحه وصالح قنصل ألمانيا في القدس، وخسر العرب القضية، وذلك كله في العام ١٣٠٣#-١٨٨٣م[١].

وقد تم بناء ١٣ مستوطنة في الأرياف، وشراء مساحات واسعة من الأراضي، تمهيداً لبنائها في المستقبل، وذلك بدءاً من عام ١٢٨٧هـ - ١٨٧٠، وهذه أهم المستعمرات في الألمانية الصهيونية.

(١) محمد كمال الدسوقي، المرجع السابق، ص٩٠.

١ـ مستعمرة أبو شوشة:

أسَّسها المصرفي الصهيوني الألماني «ميلفيل بيرجهام» (***Melville Bergham***) عام ١٢٨٩#-١٨٧٢م، وكانت تشتمل على جميع قرية «أبو شوشة» في الجنوب الشرقي من الرملة. ومساحتها ٢٠٠٠٠ دونم، تم شراؤها بـ٤٥٠ ليرة ذهبية فقط، يعني أن سعر الدونم كان (٢.٣) غرش عثماني فضي فقط[١].

والسبب في هذه الصفقة الخاسرة أنه كان للدولة العثمانية على أهالي القرية المذكورة مبلغ قدره (٤٥٠) ليرة. فدفعه «ميلفيل» المذكور وعلى أثر ذلك آلت إليه سندات الطابو في القرية وعددها ١٥٣ سنداً، وقد عُرف المشتري وأسرته في القرية وفي فلسطين بـ«آل بركم».

وبعد الشراء شيَّد «آل بركم» في هذه الأراضي اصطبلات والمخازن وأقاموا محركاً لضخ الماء، وتحوَّل أبناء القرية إلى أجراء لديهم. كما اشترى «آل بركم» هؤلاء داراً مقابل باب الخليل في القدس مع أراضي متفرقة في القدس ولفتة والمالحة. وأخيراً دان «آل بركم» بالبروتستانتية وتخلُّوا عن دينهم اليهودي[٢].

٢ـ مستعمرة نس-تصونا ***Nes-Tsiyonas***:

ومعناها «تذكار بيت الله»، أسَّسها الموسوي والكلساني: «فردريك تلر» (***Frederic Tyler***) ثم تنازل عنها للحاخام النمساوي «روبين» (***Rubin***) عام ١٣٠١#-١٨٨٣م، ومساحتها ١٣٥٠ دونماً وهي في وادي حنين[٣] من أراضي قرية صَرَفَنْد الخراب[٤]، إلى الجنوب من مستعمرة «ريشون لتسيون» (***Rishon Lezion***) - رؤوس صهيون-[٥].

٣ـ مستعمرة بئر يعقوب ١٣٢٧#-١٩٠٧م:

بين الرملة وصرفند الخراب.

---

(١) أبو بكر، المرجع السابق، ص٦٠٣ نقلاً عن سجلات القدس.
(٢) أبو بكر، المرجع نفسه، ص٦٠٥ نقلاً عن سجلات القدس.
(٣) وادي حنين: قرية فلسطينية في قضاء الرملة، دخلتها عصابة الهاغانا الصهيونية سنة (١٩٤٨) وهجروا معظم أهلها إلى الأدرن. (***www.ar.wikipedia.org***).
(٤) قرية صرفند الخراب: تقع بعد غربي الرملة، جنوب غرب صرفند العمار. (***www.howiyya.com***).
(٥) أبو بكر، المرجع السابق، ص٦٠٧ نقلاً عن سجلات يافا.

٤- خلدا:

جنوبي الرملة شرقي خط حديد يافا - القدس.

يلاحظ أن الدولة العثمانية ساهمت دون وعي منها، بانتقال الأراضي إلى اليهود بسبب الضرائب الباهظة المفروضة على الفلاحين الذين كانوا يضطرون إلى الاقتراض بالفائدة ورهن أراضيهم مقابل ذلك، وعندما يعجزون عن الدفع، تباع الأراضي ويتلقفها اليهود وسماسرتهم الكثيرون[١].

وعلى سبيل المثال: نجد أن كلاً من: انطون التيَّان وسليم كسّار وهما من سماسرة الأراضي اشتريا أراضي «مستعمرة بتاح تكفا» من أهالي قرية «ملبس» من قضاء يافا بعدما عجز هؤلاء عن دفع الضرائب للدولة عام ١٢٩٢#-١٨٧٥م. ثم باعا هذه الأراضي لليهود[٢].

وبصورة عامة فقد هاجر إلى فلسطين في أيام الإمبراطور غليوم الأول[٣] (***Wilham I***) ما بين ٢٠٠٠٠ إلى ٣٠٠٠٠ يهودي أقاموا عدة مستعمرات منها:

- ريشون لزيون: الأوَّلون إلى صهيوني.
- نسّ-زيونا: صهيون الجديدة.
- زخرون يقعف: زمَّارين.
- جديراه: ومعناها القطرة[٤].

وحتى عام ١٣٠٠#-١٨٨٢م كان عدد اليهود في فلسطين ٢٤٠٠٠ نسمة ثم قفز هذا العدد إلى ٤٧٠٠٠ نسمة عام١٣٠٨#-١٨٩٠م.

وفي عام ١٢٦٧#-١٨٥٠م أقام «شمارها يرون» مستعمرة شمالي جوداسا.

وفي عام ١٣٠٨#-١٨٩٠م أقام المستوطنان: «رهفوت» و«خضيرة» مستعمرتين شمال جوداسا.

وفي عام ١٣١٤#-١٨٩٦م أقامت «جمعية محبي صهيون» الألمانية جنوب جوداسا مستعمرة «بيرنيفيا».

وعند انعقاد مؤتمر بازل ١٣١٦#-١٨٩٧م: كان ثمة ١٨ مستعمرة صهيونية في فلسطين يقيم فيها أكثر من خمسين ألف يهودي[٥].

ج- الهجرات اليهودية

١- دور الألمان في الاستيطان اليهودي:

كان من بين الألمان فئات متعاطفة جداً مع اليهود ومع أمانيهم القومية في الإقامة في فلسطين وإقامة وطن قومي لهم فيها، وكما بينا فهؤلاء كانت أعمالهم فردية غير مدعومة

---

(١) محمد عيسى صالحية، مدينة القدس السكان والأرض (العرب واليهود) (١٢٧٥-١٣٦٨هـ=١٨٥٨-١٩٤٨م)، مركز الزيتونة للدراسات، بيروت-لبنان، ٢٠٠٩، ص١٠٤. (تضمنت الصفحة وثيقة عثمانية تبين كيف اضطر الفلاحون في القدس إلى بيع أراضيهم بسبب الرسوم الباهظة والضرائب).

(٢) أبو بكر، المرجع السابق ص٦٠٥. عبد الرحمن أبو عرفة، الاستيطان في فلسطين، عمان ١٩٨٦ ص٤٣.

(٣) غليوم الأول (***Wilham I***): ملك بروسيا (١٨٦١-١٨٨٨) وإمبراطور ألمانيا للوحدة عام ١٨٧١ حتى ١٨٨٨. (***www.ar.wikipedia.org***، ***www.arab-ency.com***، ***encylopedia***).

(٤) وليم فهمي، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ١٩٦٩-القاهرة ص٤١..

(٥) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، المرجع السابق، ص٩٦.

بشكل علني من الحكومة، وربما كانت الحكومة مستاءة منها لما تسببه من مشكلات مع الحكومة العثمانية.

من ذلك أنه في شهر شباط ١٨٩٢م-١٣١٠# كُشف القناع عن محاولة صهيونيَّة للشروع في وضع الأساس لدولة يهودية في الأراضي المقدسة، وذلك عندما أقدم يهودي ألماني يدعى «فريدمان» (***Friedman***) على شراء باخرة كبيرة، حشد فيها عدداً من الخبراء في الكيمياء، والمهندسين والجغرافيين، ومعهم ثلاثون أسرة يهودية، وجميعهم مسلّحون ومعهم الذخيرة والمدافع، ونزلوا على الساحل الشرقي المواجه لشرم الشيخ عند المويلح. ثم احتل فريدمان مدينة «مدين» وجعلها عاصمة لدولة إسرائيل التي أقامها ثم نصب الغزاة خيامهم وشرعوا في إخضاع مشايخ العرب المجاورين بالإغراء والتخويف، وأعلنوا أنهم مأذونون في حكم هذه المنطقة من الحكومة المصرية والألمانية والإنكليزية. وفي يوم التاسع من شباط، كشفت جريدة المؤيَّد القاهرية النقاب عن هذا الحادث، وتابعتها الأهرام بعد يومين. وقد بادر حاكم الحجاز إلى إرسال قوَّةٍ عسكرية لاحتلال قلعة المويلح[١] وإجلاء اليهود، لكن فريدمان تصدَّى لهذه القوَّة وهددها بالحرب، فانسحبت[٢].

ولذلك بادرت مصر إلى إرسال حملة عسكرية بقيادة ضابط إنكليزي، فقامت أزمة مع الدولة العثمانية التي اعتبرت العقبة وما حولها من أملاكها وليست لمصر.

ولما كان الخديوي مستاءً من الاحتلال البريطاني لمصر، فقد قرَّر عدم مواجهة السلطان عبد الحميد الثاني، واستجاب لمطالبه، فلم يسع «لورد كرومر» (***Lord Kromar***) حاكم مصر الفعلي إلا التسليم للأمر الواقع، ولاسيَّما بعدما انتشرت أخبار هذه الحوادث في العالم كله.

وصدر يوم ١٦ شباط ١٨٩٢ قرار وزاري بالتخلّي عن مدينة العقبة وما حولها جنوباً من شبه جزيرة العرب إلى الدولة العثمانية.

ويقول أحمد حسين: «ومن العجيب أن جميع كتب التاريخ المصري أغفلت حادثة «فريدمان» واحتلاله «مدين»[٣] واتخاذها عاصمة لما سمَّاه «دولة إسرائيل»»».

وهذه فيما نعلم أقدم محاولة فعلية لإقامة دولة إسرائيل في العصر الحديث[٤].

ولكن لماذا اخفي ذكر هذه الحادثة في كتب التاريخ المصري ؟؟هل ياترى كان ذلك استخفافاً من قبل المؤرخين المصريين لهذه الحادثة ..أوأنه اريد ؟أن يختفي ذكر هذه الحادثة حتى لايتنبه العرب إلى حقيقة المشروع الصهيوني القادم ،المدعوم من قبل القوى الاستعمارية وربما بتعاون مع العثمانين ،أو أقلها أهمال مقصود من قبل العثمانين ،وعدم الاكتراث والأستخفاف بمخاطر هكذا مشروع على منطقتنا....

٣- اليهود والألمان والسُّلطانُ

---

(١) قلعة المويلح: تشتهر المويلح بقلعتها المشهورة التي كانت عن برج شيده الشريف محمد أبو سرور في عهد المماليك، وبنيت على شكلها الحالي في عهد السلطان سليمان القانوني (٩٦٨هـ)، ولقد كان غاية بناءها تأمين الحجاج وخدمتهم حيث أن المويلح تقع على طريق الحجاج المصريين، وكانت تتبع ولاية مصر. (محمود بن ضاري القتامي، شمال الحجاز، دار العصر الحديث، الرياض. ***www.almowaileh.com***).

(٢) أحمد حسين، موسوعة تاريخ مصر، القاهرة ج٣، ص١١٥٢.

(٣) مدين: تقع بالقرب من مدينة البدع التابعة لمنطقة تبوك شمال غرب المملكة العربية السعودية، قريباً من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز. (***www.ar.wikipedia.org***).

(٤) أحمد حسين، موسوعة تاريخ مصر، المرجع السابق، ١١٥٣/٣.

أ-الألمان واليهود:

في وثائق دمشق الشرعية نقرأ مايلي:

«استأجر المسيو فرانك بن يعقوب» من تبعيَّة ألمانيا من الشيخ «محمد سعيد السيوطي»، الناظر على أوقاف الجذماء بدمشق وذلك:

١- جميع أرض قرية «جلين»[١] الكائنة في الجيدور في لواء حوران، من أعمال دمشق الشام.

٢- وجميع أرض قرية كوكب[٢] القبلية الملاصقة للقرية الأولى ويحدّ الأرض من جهة:

- جنوباً : وادي اليرموك.
- وشرقاً : رجم الحجارة.
- وشمالاً : الطريق الآخذ إلى المزيريب.
- وغرباً : وادي الجليلات.

٣- وجميع الثلثين من مزرعة «المزيرعة»[٣].

- لمدة ١٥ سنة.
- أجرة السنة ٧٥٠ غرشاً.

١٣١٢#-١٨٩٥م[٤].

وهذه الوثيقة تدل على دور اليهود الألمان المهم في إقامة المستعمرات اليهودية بشتى السبل.

وبعد حوالي عشر سنين نقرأ في وثيقة أخرى:

- استأجر هارون أفندي حيطوب، مدير مكتب «الألیانس» (***Allianz***) الإسرائيلي في دمشق.

من «علي بن صالح العجلوني»، الناظر على وقف الجذماء بدمشق.

١- جميع أراضي قرية كوكب التابعة لقضاء القنيطرة[٥].

٢- جميع أراضي قرية كوكب القبلية.

٣- وجميع أراضي قرية جلين.

٤- والثلثين من جميع أراضي المزرعة الملاصقة للقريتين لمدة ١٥ عاماً.

٥- أجرة السنة ٨٠٠ غرش[٦].

إن هذه الطرق المشبوهة التي اتبعها كبار الملاك اليهود في الاستحواذ على الأراضي في بلاد الشام لا نعلم مدى حقيقة الموقف الدولة العثمانية منها، هل كانت الدولة غير مدركة لمخاطر هذه الطرق المشبوهة في شراء الأراضي وعواقبها الوخيمة فيما بعد على أهالي المنطقة أصحاب الأرض الحقيقيين، أو أن هذه العملية ناتجة عن فساد إداري عرف وانتشر في المراحل

---

(١) قرية جلين: قرية في حوران تتبع ناحية مزيريب، محافظة درعا.

(٢) قرية كوكب: بالقرب من دمشق، وهي مكان رؤيا القديس بولس المذكور في الكتب المقدسة، وفيها دير القديس (ماربولس) (***www.ar.wikipedia.org***).

(٣) المزيرعة: قرية فلسطينية تقع إلى الشمال من مدينة اللد وإلى الجنوب من مجدل يابا (مجدل الصادق) شمال شرقي مدينة الرملة، جنوب شرق يافا. (***www.ar.wikipedia.org***).

(٤) مركز الوثائق التاريخية بدمشق-سجل ١٠٣٩ الوثيقة ٢١ والوثيقة طويلة ومفصَّلة تماماً.

(٥) القنيطرة: محافظة سورية كانت تتبع لقضاء درعا، وتقع على ملتقى الطرق المؤدية إلى دمشق - لبنان - فلسطين - درعا. (***www.ar.wikipedia.org***).

(٦) مركز الوثائق التاريخية بدمشق السجل ١٢١٢ وثيقة ٧٩، تاريخ ١٣٢١هـ-١٩٠٤م.

الأخيرة من ضعف الدولة العثمانية.

ب- السلطان واليهود:

كانت علاقة الإمبراطور غليوم الثاني بالسلطان عبد الحميد الثاني وموقف السلطان عبد الحميد من الإمبراطور واليهود وموقف هؤلاء من الإمبراطور غليوم الثاني والسلطان عبد الحميد الثاني، مسألة غاية في التعقيد:

- فاليهود يريدون الإقامة في فلسطين بعيداً عن السيطرة العثمانية.
- والعثمانيون كانوا يتوجَّسون خيفة من خطر اليهود، أو أي جماعات أخرى نريد الإقامة في دولتهم بعد تجربتهم المريرة مع الأرمن.
- والإمبراطور غليوم وحكومته يريدون خدمة اليهود بما لا يتعارض مع حقوق السلطنة، وهذا ما أدَّى إلى توجُّههم نحو بريطانيا، والعمل على إسقاط السلطان، وإنهاء الدَّولة العثمانيَّة.

وربما أدرك السلاطين العثمانيون خطر الهجرة اليهودية إلى فلسطين، منذ حوادث الستين: ١٢٧٧#-١٨٦٠م، عندما تدخلت أوروبا وفي مقدمتها فرنسا في شؤون الدولة بحجة حماية الأقليات، وأدرك السلاطين أن اليهود، يمكن أن يشكلوا دولة ضمن دولة، أو على الأقل يمكن أن يجدوا من يحميهم في أوروبا إذا سمحت لهم الدولة العثمانية بالاستقرار في فلسطين.

ولذلك أصدر السلطان عبد العزيز في ١٨ رجب سنة ١٢٨٧هـ - تشرين الأوَّل سنة ١٨٧٠ فرماناً يجعل أراضي فلسطين أرضاً أميرية، يعني أن تصبح ملكاً للدولة والسلطان، لا يجوز للأفراد التصرف بها[١]. وكان هذا المرسوم يشمل ٨٠% من أراضي فلسطين. أما الـ٢٠% الباقية فكانت ملكاً للأفراد أو أوقافاً للسكان على اختلاف مذاهبهم. ثم أصدر السلطان عبد الحميد الثاني في سنة ١٣٠٨هـ-١٨٩١ إرادة سنيَّة بشراء أكبر قدر من أراضي فلسطين غير الأميرية من حسابه الخاص، وجعلها ملكاً خاصاً له، لمنع الراغبين في بيع أراضيهم من بيعها إلى اليهود وعملائهم.

وفي العام نفسه رفض السُّلطان عبد الحميد قرار الصدارة العظمى بمنح الجنسيَّة العثمانية لـ٤٠٠ يهودي في صفد و٤٠ يهودياً في يافا قدموا سوَّاحاً إلى فلسطين، وأصدر تفسيراً لهذا الرفض جاء فيه: أن اليهُود ينوون إقامة دولة لهم في فلسطين عاصمتها القدس. وأن السلطنة ليست أراض خالية حتى يملأها اليهود. وهي ليست مسؤولة عن مصير اليهود الذين طردتهم أوروبا من بلادهم فيها. وأن الأرمن انقلبوا على الدولة بعدما ساعدتهم وآوتهم، وسيفعل اليهود مثلهم. ثم أمر بعدم بيع شبر واحد من الأرض لليهُود في فلسطين وفي الدولة كلها[٢].

وقد بدأت مقاومة الدولة العثمانية للهجرة اليهودية إلى فلسطين منذ الهجرات الكبيرة بين ١٣١٢/١٢٩٩#-١٨٩٤/١٨٨١م، وبلغت هذه التدابير أشدها سنة ١٣٠٥#-١٨٨٧م عندما أصدر متصرف القدس تعميماً إلى القناصل الأجانب للتعاون معه من أجل تنفيذ الفرمان القاضي بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين: أو الإقامة فيها أكثر من شهر واحد بالنسبة للزوَّار.

---

(١) أحمد كوندز، الدولة العثمانية المجهولة السؤال ١٦٧ وانظر فيما يلي.

(٢) أحمد كوندز وسعيد أوزتورك، الدولة العثمانية المجهولة والكتاب على شكل ٣٠٣ سؤالاً وجواباً عن الدولة العثمانية وهو غير مرقَّم، والمعلومات التي أوردناها من السؤال رقم ١٦٧ عن موقف السلطان عبد الحميد من اليهود وفلسطين. وعمر فاروق يلماز، السلطان عبد الحميد خان الثاني، مرجع سابق، ص١٣٤، وفيها صورة عن قرار السلطان عبد الحميد بمنع اليهود من الاستيطان في فلسطين.

ومع بداية قدوم الموجة الثانية من الهجرة ١٣١٣/١٣٠٩#-١٨٩٥/١٨٩١ مصدرت الأوامر في تشرين الثاني ١٨٩١ بمنع هجرة اليهود نهائياً. ومع ذلك دخل الآلاف من اليهود بطرق ملتوية، وأقاموا بصورة دائمة بفضل عدم دقة القوانين العثمانية، ونشاط القناصل الذين كانوا في مجملهم سماسرة لليهود[١].

وتكررت أوامر المنع للمرة الثالثة في آب ١٨٩٨-١٣١٦م، إلا إذا ضمنت القنصليات خروجهم بعد شهر، ثم مددت المهلة ثلاثة شهور.

وعمدت الدولة لتطبيق هذا الإجراء إلى حجز جوازات اليهود الزائرين، وإعطائهم بطاقات حمراء ينتقلون بموجبها، وفيها تاريخ دخولهم، وبقي هذا الأمر سارياً حتى سقوط السلطان عبد الحميد الثاني[٢].

ج- الإمبراطور الألماني غليوم الثاني واليهود:

وإزاء ذلك نجد أن الإمبراطور غليوم الثاني كان مدركاً تماماً لحساسية الموقف عند اليهود وعند السلطان، وبناء على ذلك كان يتصرَّف بمنتهى الحذر ويحاول باستمرار تطمين السلطان بالنسبة للهجرة اليهودية إلى فلسطين.

وكانت سياسة الإمبراطور تقوم على المحافظة على كيان الدولة العثمانية أمام الدول الأوروبية الراغبة في اقتسامها علناً مقابل مكتسبات بسيطة لليهود في فلسطين لا تضرُّ الدولة ولا السلطان.

وكان هدف اليهود المعلن، والذي ذكره هرتزل بصراحة فيما بعد يتلَّخص بمنح اليهود نوعاً من الحكم الذاتي في فلسطين مقابل دعم الصهيونية للدولة العثمانية مالياً وإعلامياً في أوروبا كلها.

وكان الإمبراطور الألماني مهتماً بهذا الأمر، لأنه كانت لألمانيا ديون طائلة على الدولة العثمانية ومع ذلك بناءً على رأي وزير الخارجية الألماني: بولوف (***Bolof***) والسفير الألماني في الآستانة مارشال (***Marshall***): قررت ألمانيا رسمَّياً رفض مشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين على مبدأ الحكم الذاتي، ووضع شرطاً ثابتاً تجاه الاستيطان وهو مراعاة سيادة السلطان المطلقة على فلسطين، وهذا يعني أن يعيش اليهود في فلسطين كالنصارى، مواطنين عثمانيين وهو ما رفضه اليهود تماماً.

وعندما أصبح بولوف (***Bolof***) رئيساً للوزراء سنة ١٣١٨#-١٩٠٠م ازداد تصلب الحكومة الألمانية، لكن ذلك لم يمنع ألمانيا من تقديم دعما للمؤسَّسات اليهودية في فلسطين، لاعتبارات دينية وثقافية وسياسية[٣]. وكان الإمبراطور الألماني يعرف تماماً «الخطوط الحمراء» في السياسة العثمانية، ولم يحاول تخطيها إطلاقاً، أو المساومة عليها. ولم يُعرف عن الإمبراطور إطلاقاً أنه حاول الغدر بالسلطان أو الضغط عليه، كما كانت تفعل أوروبا، وكان يقول إنه يتبع في ذلك سياسة جدّه الإمبراطور فردريك غليوم الرابع[٤] (***Friedrich Wilhelm IV***)، الذي كان يقيم علاقات إنسانية مع الدولة العثمانية بعيدة عن الاستخفاف بالسلطان والدولة أو التعالي أو فرض أي نوع من الهيمنة على الدولة

---

(١) محمد عيسى صالحية، مدينة القدس، المرجع السابق، ص١٠٣، وتتضمن وثيقة توضح وضع العراقيل أمام اليهود لمنعهم من الاستيطان في فلسطين.

(٢) علي محافظة، العلاقات الألمانية - الفلسطينية، المرجع السابق، ص١٠٠.

(٣) عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص٦٧.

(٤) فردريك غليوم الرابع (***Friedrich Wilhelm IV***): (١٧٩٥-١٨٦١) حكم بروسيا بين عامي (١٨٤٠-١٨٦١). (***www.ar.wikipedia.org***).

العثمانية[١].

٤- هرتزل ومؤتمر بال:

أ- هرتزل من خلال يومياته: *T.Herzel*

ولد في بودابست[٢] (***Budapest***) سنة ١٢٧٧#-١٨٦٠م. - في سنة ١٣٠٢#-١٨٨٤م حصل على الدكتوراه في الحقوق وعمل بالكتابة الأدبية والسياسية والتدريس في ڤيّنا[٣] (***Vienna***). - اقترن سنة ١٣٠٧#-١٨٨٩م بـ«يوليا ناشاوار» (***Yulia Nashawar***) وهي شابة يهودية أنجب منها بنتيه: باولينا وترودا، وابنه هانس، رغم أنه لم يكن على وفاق مع زوجته لعدم قناعتها بأفكاره. أقام في باريس بين ١٣٠٨#-١٨٩٠م و١٣١٣#-١٨٩٥م. وحتى سنة ١٣١٢#-١٨٩٤م لم يكن مقتنعاً بالصهيونية وبحق اليهود في أن تكون لهم دولة خاصة بهم. لكن قضية الضابط اليهودي «دريفوس»[٤] التي شغلت الفرنسيين في ذلك العام وما رافقها من هجوم قويّ على اليهود والساميَّة، جعلته يؤمن بأنه لابد لليهود من وطن يجمعهم لأنهم كانوا برأيه شعباً لا أرض له، ولا كرامة في وطنه[٥]. ولقد قال هرتزل: في روسيا تجبى الضرائب مضاعفة من اليهود. وفي رومانيا يقتّلون. وفي ألمانيا كانوا يسحلون ويعذبون بالدولاب والنار. وفي النمسا حاربهم، «اللا ساميون». وفي باريس نفاهم المجتمع الراقي. وانطلقت في برلين صرخة مدويَّة. وليرفع اليهود الخيام ويرسلوا....»[٦].

وعاد إلى فيينا (***Vienna***) وهو يرى أوروبا كلها تثور ضد الساميَّة، وعكف على وضع كتابه «الدولة اليهودية» الذي صدر في شباط ١٨٩٦م-١٣١٤م، وأدى إلى «إيقاظ» الشعب اليهودي في العالم.

- وفي بال[٧]: أو بازل في سويسرا كان المؤتمر الصهيوني الأول في شهر آب ١٣١٥#-١٨٩٧م، وفيه «ولدت الدولة اليهودية على حد قول هرتزل. وعقدت بعده خمسة مؤتمرات سنوية. ومات تيودور هرتزل في ٣ تموز عام ١٩٠٤م-١٣٢٢م عن ٤٤ عاماً

---

(١) عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج٣، ص١٣٤٩.

(٢) بودابست (***Budapest***): عاصمة المجر وأكبر مدنها، تقع على نهر الدانوب. (***www.ar.wikipedia.org***).

(٣) ڤينا (بالألمانية ***Wien***): عاصمة النمسا اشتهرت بكونها مركزاً عالمياً للتعليم والأدب والموسيقى والعلوم. (***www.ar.wikipedia.org***).

(٤) قضية دريفوس هي صراع اجتماعي وسياسي حدثت في نهاية القرن التاسع عشر تحت الجمهورية الفرنسية الثالثة، اتهم بالخيانة في هذه القضية النقيب آلفريد دريفوس وهو فرنسي الجنسية يهودي الديانة، وقد هزت هذه القضية المجتمع الفرنسي خلال اثني عشر عام (١٨٩٤-١٩٠٦) وانقسم الفرنسيون بين مؤيد لدريفوس (***Les dreyfus***) ومعارض له (***Les antidreyfus***)، لقد اتهم دريفوس في ١٨٩٤ بأنه أرسل ملفات فرنسية سرية لألمانيا (ومعروف كره الفرنسيين للألمان في تلك الفترة بسبب قضية الألزاس واللورين)، وبالإضافة إلى ذلك فإن القضاء والمجتمع الفرنسي يعادي الساميَّة (ولقد كشفت هذه القضية شدة الصراع بين الساميين واللاساميين). (***www.ar.wikipedia.org***).

(٥) أنيس صايغ، يوميات هرتزل، منظمة التحرير، بيروت ١٩٦٨م، ص٨.

(٦) أحمد نوري النعيمي، الدولة العثمانية واليهود، الدار العربية للموسوعات، بيروت ٢٠٠٦م، ص١٢٥ و٢٩٥.

(٧) بازل (***Basel***): بازل بالفرنسية تسمى بال، والإيطالية بازيليا، مدينة سويسرية تقع على نهر الراين في شمال غربي البلاد في كانتون مدينة بازل، الملاصق للحدود الألمانية والفرنسية. (***www.ar.wikipedia.org***).

ودُفن في ڤينا. وفي سنة ١٣٦٩#-١٩٤٩م نقل إلى «جبل هرتزل»[١] في ضواحي القدس[٢].

ب- هرتزل وألمانيا:

كان هرتزل ألماني الثقافة والهوى، وكانت ثقته بألمانيا والإمبراطور غليوم الثاني مطلقة ولذلك كانت ألمانيا هي أول دولة أوروبية اختارها هرتزل لتحقيق أهدافه.

واجتمع هرتزل مع «دوّق بادن الكبير»[٣] الحاكم الفخري لألمانيا وحاول إقناعه بأن الحركة الصهيونية والدولة الصهيونية ستكونان أداة طيعةً في أيدي الألمان، وإن تهجير اليهود الألمان إلى فلسطين سيخفف عن ألمانيا موجة العداء للسامية[٤]. وفي حزيران ١٣١٣#-١٨٩٥م كتب رسالة إلى بسمارك الذي كان يرى فيه «المحك، وحجر الزاوية» في موضوع اليهود. كما كان يرجو الخير من قيصر ألمانيا غليوم الثاني، لأنه الرجل الوحيد الذي يمكن أن يفهم خطة هرتزل. ولدى لقائه «دوق بادن» سأله: ماذا بخصوص السلطان والسلطنة العثمانية فقال إنه سيدعمها ويحافظ عليها، إذا تخلَّى له السلطان عن قطعة أرض لا قيمة لها عنده[٥].

ج- هرتزل والدولة اليهودية:

- نظام الحكم:

عرض هرتزل في كتاب الدولة اليهودية (***Judisde Staat***) أفكاراً دقيقة لنظام الحكم الأمثل للدولة اليهودية المنتظرة فقال: إن الحكم ديموقراطي الفردي، والجمهورية الأستقراطية تبدوان لي المؤسستين السياسيتين المرغوبتين. وإن الديموقراطية هي الفضيلة كما قال مونتسكيو. ثم يقول: «إن التصويت العام هو مخالف للعقل، وإن الجماهير هي أسوأ من البرلمانات، فالجماهير مستعدة لأن تقبل بسهولة كل المعتقدات الزائفة، وتدع نفسها بسرور تحت سيطرة الصخَّابين والعجَّاجين، وأمام شعب يعقد جلسة عمومية لا يمكن بحث للسياسة الخارجية ولا الداخلية. وأنا أفكر بقيام جمهورية أرستقراطية... وإن الجمعية اليهودية ستحطَّم كل معارضة...»[٦].

- اللغة:

كل شخص يحتفظ لنفسه باللغة العبرانية الأم، ويتكلم مع الآخرين باللغة التي يفهمونها، وإن ما يشدّنا إلى بعضنا هو دين آبائنا.

- الجيش والدين:

إن الجيش وأرباب الدين سيبقون مُعزَّزين في أماكنهم، ولكن ليس لهم التدخل في شؤون الدولة، لأن حشر أنفسهم فيها يستدعي صعوبات داخلية وخارجيَّة.

---

(١) جبل عين لحارم (جبل هرتزل): جبل يقع غرب مدينة القدس، تم نقل رفات مؤسس الحركة الصهيونية تيودور هرتزل من فيينا إلى أعلى قمة الجبل، ليطلق على الجبل تسمية «جبل هرتزل»، شُيد على الجبل سنة ١٩٥١ «مقبرة وطنية إسرائيلية لدفن جثث القادة والجنود اليهود، وتضم رفات (ليفي أشكول، غولدا مائير، إسحاق شامير، إسحاق رابين» بالإضافة إلى رفات جنود يهود. (مجلة دنيا الوطن ٢٠١٣/٨/٧، ***www.alwatanvoice.com***).

(٢) عبد الكريم النقيب، آباء الحركة الصهيونية، دار الجيل، عمان ١٩٨٧، ص١١-١٥.

(٣) هو فردريك الأوَّل وهو أكبر الأمراء لألمانيا سنًّا، قام بتتويج الإمبراطور وليم الأول سنة ١٨٧١م. وكان صديقاً حميماً لهرتزل، توفي سنة ١٩٠٧م. أنيس الصايغ، يوميات هرتزل، بيروت ١٩٦٨م، ص٥١٩.

(٤) علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص١٤٣.

(٥) أنيس صايغ، يوميات هرتزل، ص٢٤.

(٦) هرتزل، الدولة اليهودية ص٧٢، دمشق، ١٩٧٠.

إنَّ كل فردٍ حرٌّ في معتقده ودينه، وإذا حدث أن بعض أتباع الديانات الأخرى كانوا يقيمون معنا، فإنا سنمنحهم حماية قانونية، ومساواة في الحقوق[١].

- الدولة والجيش:

إننا نتصوَّر الدولة اليهودية دولة حيادية، ويكفيها تجهيز جيش مؤلف من جنود يحترفون القتال، مجَّهزين بأسلحة حديثةٍ من أجل ضمان الأمن الداخلي والخارجي للبلاد.

-دور الحاخامات القيادي:

ويقول في «الدولة اليهودية»:

- سيكون لكل مجموعةٍ من اليهود حاخام، وهو العالم الديني وستلتفّ المجموعة من حوله، وسيقول الحاخامات ما يتوجَّب عليهم قوله.

- إن تعليمات «الجمعيَّة اليهودية» و«الشركة اليهودية» سوف تعلن بصورة نظامية على علماء الدين وسوف ينشرونها للناس، ويقومون بشرحها، وإن إسرائيل ستصلّي من أجلنا ومن أجلها هي نفسها. وستقام في البلاد الجديدة «الجمعيات الخيرية». وسيرأس الحاخامات الجماعات الصغيرة، ويناقشون معها كل المسائل[٢].

- فوائد قيام الدولة اليهودية:

ويُوضح هرتزل لسنة ١٣١٣#-١٨٩٥م، أفكاره عن الدولة اليهودية فيقول: نحن نريد أرضاً نكون سادتها في أي مكان في المعمورة، وليس في ذلك ما يدعو للسخرية أو الغرابة. وإن البلاد التي تظهر فيها «اللاسامية» سترحب بهجرتنا منها. ولابد من إيجاد:

- جمعية يهودية تخطط وتنظّم وتقرر.
- وشركة يهودية تنفذه ما تقرره الجمعية.

ويمكن أن يهاجر إلى الدولة المرجوَّة، فقراء اليهود لتمهيد الأرض، ثم يعقبهم متوسط الحال ثم الأغنياء. ومن أراد البقاء حيث هو فليبق. وستساعد الدولة التي تمنحنا الأرض وننشئ فيها الطرق وسينتفع الجميع بنا[٣]. وتبقى فلسطين وطننا الذي لا يُنسى.

- إن اسمها وحده يبعث صرخة تجمُّع لشعبنا لا يمكن مقاومتها، أما بالنسبة للأراضي المقدسة المسيحية في فلسطين فستكون لها الحصانة التامة، وستخرج رسمياً من دولتنا يحرسها حرس الشرف. وهكذا سنعود بعد ١٨ قرناً إلى «أرض أجدادنا»[٤].

وقام هرتزل على الفور بإصدار كتاب «الدولة اليهودية» ١٣١٤#-١٨٩٦م ثم أصدر جريدة العالم (***Die Welt***) سنة ١٣١٥#-١٨٩٧م ثم أعدَّ لمؤتمر بال (***Basel***).

د- مؤتمر بال ومولد الدولة اليهودية ١٣١٥#-١٨٩٧م:

وتكتب أحياناً بازل، وهي مدينة سويسرية معروفة عقد فيها بين ٢٨-٣١ آب ١٨٩٧ أول مؤتمر صهيوني عام في التاريخ، ويمكنُ أن يسمَّى هذا المؤتمر «مؤتمر هرتزل» لأنَّه كان وراء انعقاده ونجاحه واستمراره.

- فلقد كانت المشاركة فيه كبيرة، إذ حضره أكثر من مئتي عضو من ست عشرة دولة، ومئات المراقبين والصحفيين.

وبعد ثلاثة أيام من المناقشات العلنية صدر عن المؤتمر القرار الحاسم التالي:

«تتطلع الصهيونية إلى إقامة وطن تضمنه القوانين الدولية، لشعب إسرائيل في أرض

---

(١) هذا يعني أن ما يتشدَّق به حكام إسرائيل اليوم، من إقامة دولة يهودية خالصة في فلسطين، يناقض تعليمات هرتزل، نبي اليهود الحديث. كما يناقضها في البند الآخر لأن إسرائيل لم تكن دولة حيادية في يوم من الأيَّام وإنما هي رأس حربة ينتقل من دولة لأخرى حسب الظروف.

(٢) تيودور هرتزل، الدولة اليهودية ص٥٨.

(٣) تيودور هرتزل، المصدر نفسه، ص٢٤.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٥.

إسرائيل».

وقد تجنب المؤتمر صراحة استخدام كلمة «دولة» لعدم إثارة الدولة العثمانية وألمانيا، على أمل الحصول على أرض فلسطين من السلطان.

كما أسَّس المؤتمر «المنظمة الصهيونية العالميَّة» التي تديرها اللجنة التنفيذية المصغرة بزعامة هرتزل، وأصبح هذا الجهاز بمثابة حكومة موحَّدة لجميع يهود العالم[١].

ولسنا بصدد التوسّع في ذكر القرارات التفصيلية للمؤتمر، لأنها معروفة، ولكن من الضروري الحديث عن أثره في إقامة «دولة إسرائيل»، ودور أعضائه الألمان الكثيرين في ذلك[١].

وقد علق هرتزل عقب صدور القرارات بالقول: «لو طلب مني تلخيص مؤتمر بازل بجملة واحدة لكانت هي: **في بازل أسست الدولة اليهودية** ولو قلت ذلك بصوت عالٍ لضحك مني الجميع، ولكن ربما بعد خمس سنين، أو خمسين سنة بالتأكيد ستقوم الدولة بإرادة شعبنا.

لقد شكل هذا المؤتمر اليهودي الذي انتخبني رئيساً، برنامج الصهيونية في تأسيس وطن محميٍّ قانونياً وعلناً لليهود الذين لا يريدون الاندماج في بلادهم الحاضرة....»[٢].

لقد أرضى هذا المؤتمر بقراراته جميع اليهود الشرقيين والغربيين. وقد ارتاح اليهود الغربيون إلى التزام المؤتمر بالقوانين الدولية. وسعد اليهود الشرقيون باحتمال عودتهم إلى فلسطين وأرضت أحلامهم الدينية والقوميَّة.

وقد تجنب المؤتمر كلمة دولة، كما بيَّنا لعدم إثارة السلطان أو حكومة الأرجنتين التي كانت الدولة المرغوبة بعد فلسطين.

ولكن، يلاحظ أن القرارات تجنَّبت تماماً ذكر عبارة العرب أو المسلمين أو العثمانيين في فلسطين، وهذا ما يؤكد الطابع العدائي للعرب منذ البداية..[٣].

وبصورة عامَّة: أرسى المؤتمر قواعد الحركة الصهيونية. وتم تشكيل لجنة عمل من ٢٣ عضواً لمعالجة الأمور المستجدَّة التي تقع خارج أوقات المؤتمر. وقد اختصرت هذه اللجنة إلى لجنة خماسيَّة يرأسها هرتزل، ونائبه: ماكس نورداو[٤] (***Max Nordau***). وفي المؤتمر الثاني ١٨٩٨م-١٣١٦# تأسَّس «البنك الاستعماري اليهودي» تحت اسم: «البنك البريطاني الفلسطيني» وهو الذي صار البنك الوطني لإسرائيل[٥].

ومن أطرف وأهم ما يقال عن هذا المؤتمر قبل انعقاده أنه عندما بلغت متصرّف القدس في أيَّار سنة ١٣١٥#-١٨٩٧م أنباء عن مؤتمر يهودي سينعقد في ميونيخ[٦] (***München***) في خريف ذلك العام، قام المتصرف باستدعاء القنصل الألماني العام في القدس وسأله عن حقيقة الأمر فقال: «إن دعوة هرتزل دعوة خيالية بعيدة عن الواقع».

فردَّ عليه المتصرف بالقول: «أخشى من خطورة هذا المؤتمر في فلسطين، وخطورة

---

(١) عبد الكريم النقيب، آباء الحركة الصهيونية»، آباء الحركة الصهيونية. ص٢٠.
(٢) أنيس صايغ، يوميات هرتزل، ص٨٩ و٩٠.
(٣) الموسوعة الفلسطينية، ج١، ص٣٤٥.
(٤) ماكس سيمون نورداو (***Max Simon Nordau***): ولد سنة ١٨٤٣ وتوفي سنة ١٩٢٣، وهو من قادة الحركة الصهيونية ومن مؤسسيها مع ثيودور هرتزل. (***www.ar.wikipedia.org***).
(٥) هرتزل، الدولة اليهودية ص٩. والموسوعة الفلسطينية، ج١، ص٣٤٦.
(٦) ميونيخ (بالألمانية ***München*** مينشن): هي ثالث أكبر مدن ألمانيا وعاصمة ولاية بافاريا تقع جنوب ألمانيا على نهر إيسار قريباً من جبال الألب. (***www.ar.wikipedia.org***).

الهجرة اليهودية إليها...»[1].

٥- لقاءات هرتزل بالسلطان والإمبراطور:

أ- موقف الإمبراطور غليوم الثاني:

كتب الهر «فون تاتنباغ» (***Herr Von Tattenbag***) تقريراً عن مؤتمر بازل الأول مفاده أن انتشار الوعي القومي بين اليهُود الألمان قد يؤدي إلى حرب دينية ألمانية داخلية. وقد قرأه الإمبراطور غليوم الثاني وعلَّق عليه: «دع اليهود يذهبون إلى فلسطين، وكلَّما أسرعوا في الهجرة كان أفضل، ولن أضع العراقيل في طريقهم...».

وبعد مقابلة هرتزل للقيصر في القدس سئل عن هذا اللقاء فقال: «لم يقل نعم، ولا قال لا...».أما القيصر، فقد علم من وزير الخارجية العثمانية أحمد توفيق[2]، الذي رافقه في زيارته للقدس أنه لا علاقة للسلطان بالصهيونية، وليست للدولة أية اهتمامات بإنشاء دولة يهودية في فلسطين..

وكان هذا كافياً لأن يفقد القيصر بقية آماله في مساعدة اليهود[3].

وأصبحت سياسة الإمبراطور حيال اليهود تتلخص في بندين:

١- تجاهل الدولة القومية الصهيونية في فلسطين تماماً.

٢- الاكتفاء بدعم المؤسسات اليهودية الألمانية فيها، بما يُساعد على نشر النفوذ الألماني في الشرق[4].

وكان هرتزل يرى بحق أن الإمبراطور متعاطف مع السلطان، وليس مع اليهود.

وكان الإمبراطور يقول: «إن الفكرة الصهيونية كانت تستهويني دائماً وتثير عطفي».

وقال السفير الألماني في فيينا: «إن تعاطف الإمبراطور مع الصهيونية من وجهة نظره، يعني أن تقوم الصهيونية بإصلاح أحوال الدولة العثمانية، وأن ينشئ اليهود الألمان في فلسطين مؤسسات صناعية وزراعية تساهم في تقدم الدولة العثمانية عند تعميمها عليها وهو مستعد للتدخل لدى السلطان لحماية اليهود ومؤسّساتهم في فلسطين ضمن السيادة العثمانية»[5].

وكان الإمبراطور يخشى من السياسة الصهيونية وما ستلحقه من أضرار على صديقه السلطان، وهو ما عبَّر عنه بوضوح وزير الخارجية الألمانية الذي قال: «إن الصهيونية كما هي لا تثير اهتمام ألمانيا، وإن أي خطوات فعَّالة من جانب الصهيونية قد تثير غضب السلطان العثماني...».

وعندما التقى الإمبراطور بهرتزل في الآستانة سنة ١٣١٦#-١٨٩٨م، أهدى للإمبراطور ألبوماً فيه صور المستعمرات اليهودية في فلسطين، وحقق أهدافه بدقة بالغة وباختصار: «إيجاد وطن معترف به ومضمون للشعب اليهودي في فلسطين».

فردَّ الإمبراطور: «إن جميع الجهود التي تهدف إلى النهوض بالزراعة في فلسطين

---

(١) محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، المرجع السابق، ص١٤٣.

(٢) أحمد توفيق باشا (١٨٤٥-١٩٣٦): كان آخر من شغل منصب الصدر الأعظم سنة ١٩٢٢، ولد في استنبول وتوفي فيها، شغل منصب الصدر الأعظم ثلاث مرات، كما شغل منصب وزير خارجية الدولة العثمانية لمدة أربعة عشر عاماً خلال حكم السلطان عبد الحميد الثاني ومحمد السادس. (www.ar.wikipedia.org).

(٣) محافظة، المرجع السابق، ص١٤٤.

(٤) محافظة، المرجع نفسه، ص١٥٥.

(٥) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية واليهود، ص١٣٨.

لأجل رخاء الدولة العثمانية، يمكنها أن تحصل على اهتمامي وعطفي مع مراعاةٍ كاملة واحترامٍ لسيادة السلطان..»[١].

وكان اللقاء يوم ١٨ تشرين الأول سنة ١٣١٦#-١٨٩٨م وقال هرتزل بعد اللقاء: «لم يكن عند الإمبراطور شك في أننا سننجح في استعمار فلسطين. ما دامت لنا هذه الموارد الإنسانية والمالية، وقد طلب مني مسبقاً صورة عن الخطاب الذي سألقيه أمامه في القدس، ثم طلب مني كلمات أقولها للسلطان وهي: «نريد شركةً قانونية في فلسطين تحت الحماية الألمانية»، وهو هنا لم يستعمل عبارة وطن ولا دولة، لأنه كان ما يزال واثقاً بمساعدة الإمبراطور لشعبه...»[٢].

ب- هرتزل والسلطان عبد الحميد الثاني:

قال «نيولينسكي»[٣] (***Neulenski***) لهرتزل: إن السلطان قال لي: «إذا كان هرتزل صديقك فانصحه ألا يسير في هذا الطريق، ولينظر حتى تقسَّم الإمبراطورية، فقد يحصل اليهود على كل فلسطين بدون مقابل...».

ثم سأل السلطان نيولينسكي: «هل اليهود مصممون على أخذ فلسطين بأي ثمن؟ ألا يمكن أن يعيشوا في بلدٍ آخر؟»

قال نيولينسكي: «فلسطين مهدهم، وإليها يريدون الرجوع». فرد السلطان: «ولكن فلسطين مهد لأديان أخرى كذلك». فقال نيولينسكي: «إذا لم يستطع اليهود أخذ فلسطين فسيذهبون إلى الأرجنتين».

وكان هرتزل قد أعلم نيولينسكي (***Neulenski***) أن يخبر السلطان بأن اليهود سيدفعون ٢٠ مليون ليرة ذهبية، منها مليونان «بدل فلسطين» و١٨ مليون لتصفية الديون العثمانية لأوروبا[٤].

يقول السلطان في مذكراته سنة ١٣١٣#-١٨٩٥م «لليهود قوَّة في أوروبا أكثر من قوتهم في الشرق، ولذلك فإن معظم الدول الأوروبية تحبذ هجرتهم إلى فلسطين للتخلص منهم.

ونحن في الدولة العثمانية، لدينا عدد كاف من اليهُود، فإن أردنا إبقاء العنصر العربي متفوقاً علينا أن نصرف النظر عن فكرة توطين اليهود في فلسطين، وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضاً تملكوا كافة مقدراتها خلال وقت قصير، وبذلك فإننا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين - العرب - بالموت المحتَّم.

إن هرتزل يحاول مساعدة قومه، وهو ذكي جداً، لكنه نسي أن الذكاء ليس كافياً لحل جميع المشكلات، ولن يكتفي الصهاينة بممارسة الزراعة في فلسطين، بل يريدون تشكيل حكومة، وانتخاب ممثلين...

إنني أدرك أطماعهم جيداً، وكما أنني أقدّر في رعايانا من اليهُود خدماتهم لدى الباب العالي، فإني أعادي أمانيهم وأطماعهم في فلسطين»[٥].

---

(١) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص٢٨١.

(٢) أنيس صايغ، يوميات هرتزل، ص١٥.

(٣) نيولينسكي (***Neulenski***): رئيس تحرير صحيفة (بريد الشرق)، والصديق المقرب لهرتزل وكذلك تربطة علاقة مودة مع السلطان عبد الحميد الثاني، وهذا ما دفع بهرتزل أن يجعل منه مرافقاً وواسطة بينه وبين السلطان أثناء الزيارة المشهورة (١٨٩٦). (***www.alnabanews.com***).

(٤) يوميات هرتزل ص٣٣، ونيولنسكي (١٨٤١-١٨٩٩م) كان مسؤولاً عن الإدارة السياسية في السفارة النمساويَّة في الآستانة، وهو من أصدقاء السلطان.

(٥) السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية، ص٣٥.

كان هرتزل شديد الحرص على كسب صداقة السلطان عبد الحميد الثاني والإمبراطور غليوم الثاني لقناعته بأن في أيديهما مفتاح الدولة اليهودية في فلسطين.

ولذلك أرسل له من بازل في ١٣ آب ١٣١٥#-١٨٩٥م عند انعقاد المؤتمر الصهيوني الثاني هذه البرقية: «إن الصهيونيين المجتمعين في مؤتمر بازل، يرون أن واجبهم الأول أن يرفعوا تعهُّدهم بإخلاصهم وتقديرهم للطف جلالته نحو رعاياه اليهود إلى أعتاب عرش جلالة السلطان.

إن الصهيونيين يرغبون في إغاثة إخوانهم التعساء في أوروبا، وفي الإسهام في عظمة الإمبراطورية العثمانية وازدهارها، وإنهم ليأملون بإخلاص، أن تحظى هذه الرغبات والولاءات بتقدير حكمة الخليفة العظيم وتشجيعه...»[١].

ج- لقاء هرتزل بالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني:

في يوم ١٨ أيَّار ١٩٠١م-١٣١٩#، التقى السلطان عبد الحميد هرتزل في قصر يلدز، وكان اللقاء في مجمله للحديث عن الديون العثمانيَّة لأوروبا وطريقة تسديدها، وعن أوضاع اليهود الممتازة في الدولة العثمانيَّة، ولم يجر فيها بحث ما له علاقة بالدولة اليهودية.

وعندما كان السلطان يودّع هرتزل في قصر يلدز، همس في أذن رئيس الكتاب تحسين باشا قائلاً: «سوف ترى بعينك أن هذا الرجل سوف يطيح بي، فإن فشل في ذلك فلن يستطيع أحد أن يفعل ذلك»[٢].

أما ماقاله هرتزل عن السلطان عبد الحميد الثاني: «إن عبد الحميد الثاني رجل ضعيف وجبان، لكنه طيب القلب، لا أراه داهية ولا صارماً، بل سجيناً تعيساً ترتكب بطانته الطمَّاعة السيئة السمعة باسمه أكبر رجس... وأنا لم أكن أتصور وجود هذه العصابة من اللصوص المرتشين من بوابة القصر حتى باب السلطان. إن عبد الحميد ليس المجرم المتوحش الجالس على العرش، وإنما المجرمون هم الذين يحيطون بالعرش....»[٣].

وبعد شهر من اللقاء، عرض هرتزل على السلطان دفع ١،٥ مليون ليرة ذهبية إذا «لمس اليهود مشاعره الكريمة نحوهم» ثم كتب في تموز ١٩٠١-١٣١٩#: «إنكم ستتحررون من الدين تماماً عندما تسلمونا فلسطين وأقول لليهود: هذه فلسطين...»[٤].

وفي يوم ٢٠ كانون الأول ١٩٠١م-١٣١٩#، ومن محل إقامته في استانبول وجَّه هرتزل رسالة إلى السلطان، كانت خلاصتها:

١- ستكون لجلالتكم فوائد اقتصادية جمَّة في إعلام يهود العالم بالمشاعر الكريمة التي يحملها قلبكم الأبوي للشعب اليهودي المضطهد، وقد حانت الفرصة الآن..
٢- وإن ألمانيا مستعدة لمساعدتنا في ذلك.
٣- وأنا لا أخيَّب أمل من يثق بي.
٤- ونحن واصلونا إلى هدفنا بإذن الله بمساعدة الدولة الإنجيلية الناهضة - يعني ألمانيا -[٥].

[٥].

وكان عرض السلطان الذي قدمه أحمد عزت باشا العابد يتضمن النقاط التالية:

---

(١) أنيس صايغ، المصدر السابق، ص١٤٩.
(٢) سليمان قوجه باشي، السلطان عبد الحميد الثاني، دار مروة-القاهرة ٢٠٠٨ ص٥٢٧، وهذا الكتاب يكشف اللثام عن تآمر الألمان على السلطان ورعايتهم لجمعية الاتحاد والترقي وإسقاط السلطان.
(٣) أنيس صايغ، يوميات هرتزل، المصدر السابق، ص١٧٨.
(٤) أنيس صايغ، المصدر نفسه، ص١٨٨.
(٥) المصدر نفسه، ص١٩٣.

١- إن السلطان سيفتح دولته أمام جميع يهود العالم اللاجئين من أوطانهم.
٢- على هؤلاء اليهود أن يصبحوا رعايا عثمانيين ويتخلوا عن جنسياتهم ويلتزموا بالخدمة العسكرية وسائر الواجبات الأخرى حتى يصبحوا رعايا عثمانيين.
٣- يستطيعون الإقامة في أي مقاطعة في الدولة: ماعدا فلسطين.
٤- يقومون مع المسلمين باستثمار جميع المناجم وحقول النفط في الدولة ضمن شركة عثمانية من المسلمين واليهود[١].

ثم ألقى هرتزل آخر ما في جعبته على عرض السلطان فقال: إذا سُمح لنا بالاستعمار بلا قيود - يعني بدون استثناء فلسطين - أقنعت أصحابي بتأسيس بنك تركي عظيم يكون مقرُّه في القسطنطينية، وفروعه في كل المدن المهمَّة في الإمبراطورية، وسوف يعهد لهذا البنك الذي سيقتصر أعضاؤه على اليهود والمسلمين بتنظيم حسابات الدولة العثمانية تنظيماً حديثاً، ونبرهن للجميع أن مجيء اليهود هو في صالح الدولة....

وأخيراً كتب آخر جملةٍ للسلطان: «فإن كنتم لا تعتقدون أن من الضروري المضيّ في هذا الاقتراح، أرجو من جلالتكم الإذن لي بالسفر صباح الغد. وأرجو أن تذكروا دائماً أني خادمكم المطيع، وسوف أسعى في المنظمة اليهودية التي أمثلها بالخير تجاه شخص الخليفة المعظم، الصديق العظيم الوحيد الذي لنا في هذه الأرض...

وغادر هرتزل الآستانة وكتب يقول: لعلّني يوماً أحصل على الميثاق، الوطن القومي، وإذا كنت سأحصل عليه فهذا يكون بعد تقسيم الدولة التركية...[٢]. وهكذا انقطعت آمال هرتزل مع السلطان وتوجَّهت نحو أعدائه.

يقول هرتزل في كتابه «اليوميات الكاملة»: «لقد جالت في خاطري خطة واحدة تتمثَّل في شنّ حملة مباغتة ضد السلطان.. ولنشرع الآن في تأسيس علاقة مباشرة مع كل الأمراء الأتراك في الخارج. وجماعة تركيا الفتاة.

وبالفعل نجح هرتزل في ذلك، وأبقى في استانبول صديقه «عمانوئيل قره صو»[٣] الذي كان ضمن الوفد الصهيوني الذي جاء إلى استانبول لمفاوضة السلطان.

وقد التمس من السلطان أن يبيعه مزرعة الخيول السلطانية في إقليم القدس حتى يتسنى لليهود إقامة كيان لهم فيها... ثم أخذ يتقرب من السلطان إلى أبعد الحدود، وأصبح من أقرب الناس إلى السلطان عبد الحميد...

كان «عمانوئيل قره صوه» رجل هرتزل الأول في الدولة العثمانية، وعندما يئس من السلطان، أخذ بنصيحة هرتزل وقرر الانضمام إلى خصومه، ثم كان واحداً ممَّن طلبوا من السلطان عبد الحميد الثاني التنازل عن العرش...[٤].

د- هرتزل والإمبراطور الألماني (غليوم الثاني):

كتب هرتزل إلى السفير الألماني في ڤينا، بأن رحلة الإمبراطور ستكون بمثابة حجٍّ يقوم به صاحب الجلالة، وقد يتوصَّل بها إلى تحوّلٍ مهم في تاريخ الشرق إذا كان فيها بدء عودة اليهود، ولكن هذا الهدف سيبقى مختفياً كالينابيع لا تُرى في رؤوس الجبال وإنما في المنحدرات.

وقال عن ألمانيا: ستُمكّن الصهيونيةُ اليهودَ من حب ألمانيا ثانيةً، ألمانيا التي ظلت

---

(١) أنيس صايغ ،المصدر السابق، ص١٩٧.
(٢) أنيس صايغ، المصدر نفسه، ص٢٠٤.
(٣) عمانوئيل قره صو (الماء الأسود): رئيس المحفل مقدونيا الماسوني وعضو مجلس المبعوثان العثماني، وكان مع الوفد الذي قابل السلطان عبد الحميد الثاني عندما قرأوا عليه بيان خلعه عن السلطنة. (www.al-a7rar.net).
(٤) سليمان قوجه باشي، السلطان عبد الحميد. ص٥٣٠.

قلوبنا متعلقة بها بالرغم من كل شيء..[١].

وقال دوق بادن الكبير لهرتزل: إن السلطان سيقبل نصيحة بخصوص اليهود في فلسطين، وإنه - بعد موافقة السلطان - سيتبنّى هجرة اليهود إلى فلسطين[٢].

اللقاء المنتظر: وأخيراً وفي الثاني من تشرين الثاني سنة ١٣١٦#-١٨٩٨م التقى هرتزل والقيصر في القدس وألقى خطابه التاريخي الذي صيغ بعناية تامة، وبدهاء شديد، وفيه من التحديد والوضوح، ما لم يذكره هرتزل للسلطان فيما بعد.

خلاصة خطاب هرتزل في القدس ١٣١٦هـ-١٨٩٨م

يتقدم وفد من أبناء إسرائيل إلى القيصر في البلاد التي كانت لآبائنا والتي لم تعد لنا بالتماس لتحقيق حلمنا في العودة إليها؛ لأنها هي البلسم الشافي لشعبنا المسكين.

إن صهيونية اليوم هي صهيونية عصرية... وتهدف إلى حل المسألة اليهودية في ظروف الوقت الحاضر. ونحن نؤمن بأننا سننجح بسبب تقدم وسائط النقل وطرق إنجاز الأعمال[٣].

وفي بازل وضعنا منهاج حركتنا أمام العالم كله: «وهو أن نخلق ضمن القانون المدني وطناً قومياً للشعب اليهودي في أرض أجدادنا التي تستصرخ الناس للعمل فيها.... ونحن نطلب من جلالتكم مساعدتكم السامية مع تأكيدنا أنه ليس لطلبنا أدنى ضرر لحاكم هذا البلد. إن صداقة جلالتكم لصاحب الجلالة السلطان معروفة، ونحن متأكدون أن الخطة الصهيونية ستحمل معها الخير لتركية وستحمل إلى هذه البلاد موارد مالية وفنيَّة. نحن نخطط لقيام شركة يهودية لأراضي سورية وفلسطين، والتي ستأخذ على عاتقها مهمَّة القيام بهذا المشروع تحت حماية القيصر الألماني[٤]. وفكرتنا هذه لا تُسيء إلى حقوق أحد، ولا إلى مشاعره الدينية، إنها تؤمن المصالحة المرغوبة دائماً.... ونحن نعرف ونحترم جميع الأديان التي قامت على الأرض التي قام عليها دين آبائنا. ونقول بأن القدس ذات الأسوار المهمَّة مدينة رمزية لجميع الأمم المتحضرة. ونتمنى، في هذه اللحظة العظيمة أن تُشرق شمس السَّلام والعدل على جميع الناس.. بما فيهم نحن...»[٥].

وقد ردَّ الإمبراطور «بأن المسألة تحتاج إلى دراسة مطوَّلة.. والبلاد تتسع للكل...».

وانتهى اللقاء، ولم يكن هرتزل مرتاحاً له[٦].... وكتب في يومياته يقول: «لا ألمانيا ولا ولا انكلترا ستعملان شيئاً من أجلنا، ولذلك فإن أي تدخل هو أمر لا لزوم له...».

ولم ييأس هرتزل من ذلك وقام بزيارة فلسطين، «أرض إسرائيل» حيث زار مستوطنات: رشون لزيون، ودنس تسيونه، ورحبوت، والمدرسة الزراعية: مكفي (إسرائيل)[٧]. وهي للرابطة الإسرائيلية العمومية - الأليانس -.

وكان يلتقي المستوطنين ويستمع إلى مخططاتهم ووجهات نظرهم وماهية العمل الذي

---

(١) أنيس صايغ، المصدر السابق، ص١٠٨.
(٢) أنيس صايغ، يوميات هرتزل، ١١١.
(٣) أنيس صايغ، المصدر نفسه، ص١١٧.
(٤) المصدر نفسه، ص١١٨.
(٥) المصدر نفسه، ص١٢٠.
(٦) المصدر نفسه، ص١٢٢.
(٧) عبد الكريم النقيب، آباء الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص٢١.

يتوجّب تنفيذه في «أرض إسرائيل». وقد خلف وجوده بينهم الإحساس بأنه زعيم الشعب اليهودي في كل العالم[1].

ثم أصدر كتابه «أرض قديمة جديدة» ذكر فيه أنه بعد عشرين عاماً ستقوم دولة اليهود...

وزار البابا، وملك إيطاليا، ولكن القدر كان له بالمرصاد وأوصى قبل موته أن يدفن في ڤيينا إلى أن يتم نقل جثمانه إلى أرض إسرائيل. ومات يوم ٣ تموز ١٩٠٤م-١٣٢٢م بعد أن قدم لشعبه خلال أقل من عشر سنين ما لم يقدمه غيره عبر مئات السنين[2].

(١) عبد الكريم النقيب، المرجع السابق، ص٢٥.
(٢) هرتزل، الدولة اليهودية، المصدر السابق، ص١٠.

٥- العلاقات الثقافية والعلمية

١- الجمعيات الثقافية الألمانية

شهد عهد السلطان عبد الحميد، نشاط ثقافي واسع مع ألمانيا، عثر عليه في آلاف المخطوطات الإسلامية النادرة المحفوظة في متحف برلين الإسلامي. والتي نقلت إلى هناك عن طريق الشراء أو الهدايا بجهود عشرات المستشرقين الألمان، في مختلف المجالات.

ففي سنة ١٢٩٦#-١٨٧٨م تأسست في برلين «جمعية فلسطين الألمانية» بهدف استكشاف الأراضي المقدسة ودراستها علمياً.

وقد اهتم علماء الآثار الألمان بالتنقيب عن الآثار في فلسطين وشرقي الأردن بدعم من «جمعيَّة فلسطين الألمانية». وكانت جهود الألمان محدودة جداً قبل تأسيس هذه الجمعية إلا ما كان من القسّ كلاين (***F.Klein***)؛ الذي اكتشف حجر الملك ميشا المؤابي في ذبيان[١] سنة ١٢٨٥#-١٨٦٨م.

وفي سنة ١٢٩٨#-١٨٨٠م، قام العالمان الأثريان الألمانيان: شيك، وغوته. بنسخ نقوش القدس لحساب جمعية فلسطين الألمانية، واكتشفا نقوش بركة سلوان.

وفي سنة ١٣٠٢#-١٨٨٤م كلفت الجمعية «شوماخر» أحد سكان المستعمرة الهيكلية الألمانية في حيفا، بوضع خارطة لحوران وشمالي الأردن[٢]... وألَّف «شوماخر» (***Schuhmacher***) سنة ١٣٠٨#-١٨٩٠م كتاب الناصرة المعاصرة. ثم تأسَّست في برلين تحت رعاية الإمبراطور جمعية الشرق الألمانية سنة ١٣١٦#-١٨٩٨م.

وتم التنقيب عن الآثار في منطقة «مجدّو»[٣] - تل المتسلّم - . وتم سنة ١٩٠٧ الكشف عن الآثار في أريحا في فلسطين.

ومن الجمعيات الألمانية التي نشأت في عهد السلطان عبد الحميد:

- المعهد الألماني الإنجيلي للدراسات القديمة حول القدس.
- وجمعية الاستشراق الألمانية في ميونيخ (***München***).
- واللجنة الإلمانية للشرق الأدنى[٤].

وكان الإمبراطور غليوم يقضي الساعات في درس الآثار والحفريات من أجل معرفة كيف أثَّر الشرق بالغرب. يقول الإمبراطور: «إن علم الآثار الآشوري عظيم الأهمية في نظري، لأنه يؤدي إلى إيضاح العهد القديم والتثبت من التوراة، لذلك قبلت بسرور أن أرأس «الجمعية الألمانية للآثار الشرقية. وكنت أتابع بدقة نتائج الحفريات في نينوى وآشور وبابل وسورية ومصر، وتوسطت مراراً لدى الحكومة العثمانية لحماية هذه الحفريات وتسهيل مهمَّة

---

(١) حجر ميشا: مسلة تاريخية كتبها الملك ميشع ملك المملكة المؤابية التي ظهرت في وسط الأردن في القرن التاسع قبل الميلاد، وتعتبر من أقدم المسلات التاريخية في بلاد الشام، والتي يخلد فيها انتصاره على بني إسرائيل في عام (٨٥٠ق.م)، اكتشف في ذبيان عاصمة المؤابين في عام (١٨٦٨) على يد الراهب الألماني كلاين (***F.Klein***)، وهي موجودة حالياً في متحف اللوفر في باريس. (***www.ar.wikipedia.org***).

(٢) علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، مرجع سابق، ص٢٨.

(٣) مجدو: تقع في سهل مرج ابن عامر، غرب مدينة جنين وتعرف أيضاً بـ(تل المسلم). (***www.ar.wikipedia.org***).

(٤) عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام، المرجع السابق، ص٦٠.

العلماء القائمين عليها...»[1].

٣- بعثات التنقيب عن الآثار:

أ- في بعلبك:

ذكرت مجلة المشرق اللبنانية أن قلعة بعلبك أخذت بألباب الإمبراطور الألماني غليوم الثاني، عندما زارها في طريق عودته من دمشق يوم العاشر من تشرين الثاني ١٨٩٨م-١٣١٦م.

وعندما عاد الإمبراطور إلى بلاده، التمس من صديقه السلطان عبد الحميد أن يأذن لبعثة تنقيب ألمانية عن الآثار بالحفر في قلعة بعلبك وما حولها، فوافق السلطان.

وفي بداية سنة ١٣١٧#-١٨٩٩م قدم إلى بعلبك كل من: الدكتور كولدواي (***Dr.Koldeway***)[2]. والمهندس الرسام أندريا (***Andreae***).

وباشر العمل ووضعا خريطة للهياكل في بعلبك، وقدَّما للإمبراطور تقريراً عن خطة العمل والمبالغ اللازمة، فأمر بمباشرة الحفر على أن تتكفل حكومة بروسيا بالإنفاق على المشروع[3].

وفي شهر آب ١٩٠٠م-١٣١٨# قدمت بعثة ألمانية من كل من:

- العلَّامة أوتو بوشتاين (***O.Puchstein***).
- والمهندس بروتو شولس (***B.Schulz***).
- ومعاونه دانيال كرنكر (***D.Krenker***).
- والمستشرق موريس سوبرنهم (***M.Sobermheim***)[4].

وقد دامت عمليات الحفر والتنظيف وإعادة ترتيب الحجارة الواجب إبقاؤها في القلعة من أيلول ١٩٠٠م-١٣١٨# حتى تموز ١٩٠٣م-١٣٢١#. ثم تفرَّغ المهندسون لرسم أقسام القلعة بالحبر الأسود ثم عكفوا على إعداد تقريرهم. وقد تمكن الألمان من إزالة الأنقاض والتعدّيات على آثار بعلبك، وأظهروا معبد جوبيتر الكبير وآثار بعلبك الأخرى.

ووجدوا في قرية (نيحا) غربي بعلبك آثار هيكل يشابه هيكل بعلبك، كما وجدوا في جدار كنيسة الروم الأرثوذكس ختماً يمثل الإله جوبيتر «البعلبكي» كما وجدوا تمثالاً آخر في أطلال قرية «نبع اللجوج» شرقي بعلبك في جبال لبنان الشرقية، وهو النبع الذي جلبت مياهه إلى القلعة بقناة رومانية.

وقد أثبت البارون أوبنهايم كل الآثار المكتشفة ولاسيَّما السُّور المحيط ببعلبك. وقد تبين أن السور من آثار الرومان، وليس من آثار الفينيقيين، أما السور الفينيقي فقد طمست آثاره تماماً وقام عليه البناء الروماني ثم المسيحي والإسلامي[5].

وقد كانت الدكة التي تحمل هيكل جوبيتر، والذي اكتشف الألمان أنه هيكل باخوس، مطمورة تماماً، فكشفت وهي مبنية بالحجارة الضخمة غاية في الضبط والإتقان، وهذا الهيكل يعتبر من أجمل آثار بعلبك.

---

(١) مذكرات غليوم الثاني، القاهرة ١٩٢٢، ترجمة مجد الدين الخطيب وأسعد داغر، ص١٤٧.
(٢) روبرت يوهان كولداوي (١٨٥٥-١٩٢٥) وهو عالم آثار ومعماري ألماني، وينسب له اكتشاف مدينة بابل القديمة في العراق. (www.ar.wikipedia.org).
(٣) مجلة المشرق ١٩٠٤م - السنة السابعة - العدد الثالث، ص٩٧.
(٤) المصدر السابق ص٩٨.
(٥) المصدر نفسه، ٩٩-١٠٤.

وكان أمام باب الهيكل فسحة كبيرة يتقدمها درج عظيم، وبعده صفَّان من الأعمدة المضلَّعة، وبعدها الباب الكبير الذي كان آية في الروعة والإتقان. وكان هذا الباب قد انخفض نحو مترين بفعل الزلازل فرفعه الألمان إلى مستواه وظهرت نقوشه البديعة. وطول الهيكل من الشرق إلى الغرب ٣٥ متراً وعرضه عشرون، وقد نظّف الألمان كل الهيكل حتى أعادوه كما كان.

وقد اكتشف الألمان في بعلبك آثار القلعة التي بناها العرب لمضاهاة آثار بعلبك الرومانية، وكانت الحجارة الضخمة في هذه القلعة تعلو على أعمدة الهيكل، مما يدل على عبقرية العرب العمرانية، وقد تمت دراسة الآثار العربية ورسمت وحفظت.

وقد وجد الألمان في بعلبك آثاراً بيزنطية عليها الصلبان وبعض النقود النحاسية ونقوداً عربية كثيرة وسيوفاً ومعاول وسكاكين وصحوناً وأجراناً وزجاجات كانت توضع فيها المادة التي تكوِّن «النار اليونانية»[١] كما وجدوا كمية كبيرة من النبال والقنابل الحجرية التي تقذفها المنجنيقات كما وجدوا ثلاث كتابات عربية في القلعة بالخط الكوفي[٢].

وقد عُهد إلى الدكتور سوبرنهيم (***M.Sobermheim***) بجمعها.

ويقول (ميخائيل ألُّوف)[٣]: «وقد اجتمعت به لقراءتها على وجه الصحة ونسخها مع جميع الكتابات الموجودة في الجامع والأسوار، وقد نسخنا حوالي أربعين كتابة ستنشر كاملة. وكان في الجهة الغربية من المدينة هيكل جميل صغير مستدير هو هيكل الزهرة. فلما دخلت المسيحية إلى المنطقة حوَّله المسيحيون إلى كنيسة باسم القديسة بربارة. وبقي الهيكل إلى أواخر القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر ميلادي، عندما تهدم بفعل زلازل سنة ١١٧٣هـ-١٧٥٩م الشهير. وقد اشترى الألمان الأبنية المحيطة بالهيكل وهدموها ورفعوا الأتربة، ووجدوا تمثالاً للشمس على شكل امرأة من ورائها الشمس ووجدوا داخل الهيكل مدفناً للمسيحيين[٤].

وقد قام عالم الآثار أوبنهايم بك (***Obenhaimbek***) ١٣٦٦/١٢٧٧#-١٩٤٦/١٨٦٠م بالطواف في سورية والعراق وآسيا الصغرى بحثاً عن الكتابات العربية، ومُنح لقب «بيك».

كما قام ب.مايسنر (***P.Meisner***) ١٣٤٧/١٢٨٥#-١ بالت١٩٤٧/٨٦٨منقيب عن الآثار الآشوريَّة، ونشر خلاصة أبحاثه في لايبزيغ[٥] (***Leipzig***) سنة ١٣١١#-٨٩٣م ودرَّس اللغة البابلية والآشورية[٦].

وقام إرنست هرسفليد (***Ernest Herzfeld***) ١٣٦٨/١٢٩٧#-١٩٤٨/١٨٧٩م بالتنقيب

---

(١) النار اليونانية (النار الإغريقية): يطلق على سائل محرق استعمل كسلاح من قبل البيزنطيين في حروبهم البحرية منذ (٦٧٤م)، وحتى يومنا لا يعرف تركيبها بدقة، ولكن يرجح أنها كانت مزيجاً مركباً من عدو مواد سريعة الاشتعال كـ(الكحول - النفط - ملح الصخور - الكبريت - القار)، ويذكر المؤرخ البيزنطي ثيوفانس (***Theophanes***)، أن اختراع النار الإغريقية يرجع للمهندس الفينيقي (كالينيكوس) (***Callinicus***) من بعلبك وذلك سنة (٦٧٠م). (***www.ar.wikipedia.org***).

(٢) مجلة المشرق، المصدر السابق ١٦٠.

(٣) ميخائيل ألوف: ميخائيل بن موسى ألوف: من أهل بعلبك، وكان أمين آثارها، وله كتاب صغير في تاريخها القديم سماه (تاريخ بعلبك). (***www.ency.kacemb.com***).

(٤) مجلة المشرق،المصدر السابق ١٦١ والمقال بقلم ميخائيل ألُّوف.

(٥) لايبزيغ (***Leipzig***): هي ثاني أكبر مدن ولاية ساكسونيا شرق ألمانيا، تقع على بعد ١٥٠ كيلومتر جنوب برلين. (***www.ar.wikipedia.org***).

(٦) نجيب العقيقي، المستشرقون، القاهرة، ج٢، ص٤٠٦ وص٤٢٤.

طويلاً في «سرَّ من رأى» (سامراء) بالعراق واتفق مع النبيل الألماني فردريك ڤوان زاره (***Friedrich Besucht Fuan***) على الكشف عن آثار دجلة والفرات. ونقَّب في حلب: وله كتاب سامراء والرحلة الأثرية في بلاد دجلة والفرات. كما وضع كتاب «دمشق دراسة معمارية» ومؤلفه المهم: «كتابات حلب وآثارها..»[1].

ب- الحفريات في منطقة نهر الكلب:

نشط العلماء الآثاريُّون الألمان في التعرف آثار منطقة نهر الكلب، ومن أشهر هؤلاء العلماء:

- عالم الآثار المصرية الفرعونية: لبسيوس (***Lepoius***).
- والمهندس أربكام (***Erbakamm***).
- وعالم الهيروغليفية ڤايدنباخ (***Weidenbach***).

وقد اكتشفوا آثاراً مهمة نشرت في المجلات المتخصصة[2].

ويبدو اهتمام الإمبراطور بالآثار بوضوح، من خلال اتفاقية خط برلين – بغداد الحديدي. فقد جاء في المادة ٢٧: «تعفى الشركة صاحبة الامتياز من تقديم الطلبات إلى السلطات المختصَّة للحصول على ترخيص بالبحث والتنقيب عن الآثار».

وهذا يعني أن للشركة أن تمارس عمليات التنقيب عن الآثار بدون الحصول على إذن خاص، كما أن البعثات الأثرية الألمانية انتشرت في العراق قبل توقيع اتفاقية الخط بسنوات[3].

٣- المستشرقون الألمان وأبحاثهم:

قامت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر دراسات إسلامية واسعة في ألمانيا على يد عشرات المستشرقين الألمان الذين حققوا ونشروا أمهات كتب التراث العربي الإسلامي بأسلوب علمي راقٍ، نتيجة إعجابهم الكبير بالتراث الشرقي.

وقد أنشئت الجمعيات الثقافية الألمانية المتخصصة في جميع مجالات الحضارة العربية الإسلامية.

وقيما يلي ذكر لأهم هذه الجمعيات مع أشهر المستشرقين الألمان وأعمالهم في عهد الإمبراطور الألماني غليوم الأول، وغليوم الثاني، والسلطان عبد الحميد الثاني.

- ففي سنة ١٢٦٢#-١٨٤٥م أنشئت الجمعية الشرقية الألمانية، التي ضمت المستشرقين الألمان بهدف إحياء التراث الإسلامي.

وفي سنة ١٢٦٤#-١٨٤٧م ظهرت المجلَّة الشرقية الألمانية التي كانت متخصصة في نشر أخبار المطبوعات العربيَّة.

- ثم تأسست في استانبول المكتبة الإسلامية للمستشرقين الألمان، أسسها الدكتور هلموت رينير (***Helmut Renner***) وقد عنيت بنشر النصوص العربية كـ«الوافي بالوفيات» للصفدي، و«المخصص» لابن سيده وغيرها[4].

كما تأسست الجمعية الشرقية الألمانية للدراسات على يد المستشرق مارتن هارتمان (***Martin Hartmann***).

---

(١) نجيب العقيقي، المستشرقون، المرجع السابق، ج٢، ص٤٤٤.
(٢) عبد الرؤوف سنّو، المرجع السابق، ص٣٣١.
(٣) عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص١٣٧١.
(٤) نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٣٤٨.

وفي سنة ١٣١٦#-١٨٩٨م صدرت مجلة الجمعية الألمانية للدراسات الفلسطينية ومجلَّة معهد اللغات الشرقية في برلين التي أسسها المستشرق: زاخاو (***Zachao***).

وفي سنة ١٣١٨#-١٩٠٠م ظهرت مجلَّة «في سبيل فهم الشرق». وفي سنة ١٣٢٢#-١٩٠٤م تأسس متخف الفن الإسلامي في برلين وقد كتب على مدخله بالعربية. «متحف الفن الإسلامي» وإلى جانبه خريطة الوطن العربي. وصدرت سنة ١٣٢٤#-١٩٠٦م حولية جامعة بون (***Unversität Bonn***). ومحفوظات أوراق البردي ومجلة الإسلام[١]. ومجموعة علوم القرآن بإشراف المجمع العلمي الباڤاري (***Composite-bayerischen***) في ميونيخ[٢].

أشهر المستشرقين الألمان وأعمالهم:

- فون أبيل (*Von Abel*) ١٣١٨/١٢٨٠#-١٩٠٠/١٨٦٣م:

نشر ديوان أبي محجن سنة ١٨٨٧ والمعلَّقات السبع.

- سيمون ڤايل (*Simone Veil*): ١٣٠٧/١٢٢٣#-١٨٨٩/١٨٠٨م:

- ترجم ألف ليلة وليلة إلى الألمانية.
- وضع كتاباً عن الرسول الكريم في ثلاثة مجلدات.
- وترجم عشرات المخطوطات العربيَّة.

- ف.فستفيلد (*F.Vstfeld*): ١٣١٧/١٢٢٣#-١٨٩٩/١٨٠٨م:

نشر أكثر من مئتي مصنف عربي إسلامي.

- جيلدي مايستر (*Jelde-Meister*): ١٣٠٨/١٢٢٨#-١٨٩٠/١٨١٢م:

نشر «مروج الذهب» للمسعودي و«نزهة المشتاق» للإدريسي ١٣٠٣#-١٨٨٥م.

- ج.فتشتين (*C.Vtstein*): ١٣٢٣/١٢٣١#-١٩٠٥/١٨١٥م:

كان قنصلاً للإمبراطور فردريك الرابع في دمشق حيث أتقن العربية، وقام برحلات إلى حوران، حصل خلالها على العديد من المخطوطات العربية.

وباع لجامعة برلين ٢٠٠٠ مخطوط عربي.

واشترى مكتبة الأمير عبد القادر الجزائري في دمشق.

ونقَّب عن آثار قرطاجنة[٣].

- هنريخ كيابرت (*Heinrich Kiabert*):

نشر خرائط فلسطين وآسيا الصغرى ١٣٢٠#-١٩٠٢م.

- أ.فرموند (*A.Vermond*): ١٣٣٣/١٢٤٣#-١٩١٣/١٨٢٧م:

وضع كتاب «قواعد اللغة العربية» في القاهرة سنة ١٢٩٨#-١٨٨٠م والحكايات العربية، وكتاب دين بابل، ودين اليهود، ودين النصارى ١٣٠٠#-١٨٨٢م.

كما ألَّف المعجم العربي - الألماني سنة ١٣٠٥#-١٨٨٧م.

- ث. نولدكه (*W.Nöldeke*): ١٣٤٩/١٢٥٢#-١٩٣٠/١٨٣٦م:

هو أستاذ بروكلمان (***Carl Brockelman***) وزاخاو (***Zachao***) وياكوب (***Jakob***) وشواللي (***Chvalli***) ومن أجمل مؤلفاته:

- تاريخ النص القرآني.
- وديوان عروة بن الورد.

---

(١) نجيب العقيقي، المرجع السابق، ج٢، ص٣٥٠.
(٢) نجيب العقيقي، المرجع نفسه، ج٢، ص٣٥٣.
(٣) نجيب العقيقي، المرجع نفسه، ج٢ ص٣٧١.

- وحياة محمد عليه السلام.
- ومنتخبات الألماني للأصفهاني ١٣٠٨#-١٨٩٠م.
- وقواعد اللغة الفصحى ١٣٠٤#-١٨٩٦م وعشرات المؤلفات الأخرى.

- ج.فللهوزن (*C.Vllahozn*): ١٣٢٧/١٢٦٠#-١٩١٨/١٨٤٤م:

ومن أهم مؤلفاته:

- محمد عليه السلام في يثرب.
- تاريخ اليهود.
- تاريخ الدولة الأمويَّة[1].

- زاخاو (*Zachao*): ١٣٤٩/١٢٦٢-١٩٣٠/١٨٤٥م:

- أوفدته الحكومة الألمانية إلى سورية والعراق سنة ١٢٩٨#-١٨٨٠م.
- أسس معهد اللغات الشرقية في برلين ١٣٠٦#-١٨٨٨م ودرّس فيه طويلاً.
- وله كتاب «رحلة إلى سورية وبلاد الرافدين» ١٣٠١#-١٨٨٣م.

- كارل بروكلمان (*Carl Brokelman*): ١٣٧٦/١٢٨٥#-١٩٥٦/١٨٦٨م:

- أشهر المستشرقين الألمان.
- نشر سنة ١٣١٣#-١٨٩٥م كتاب الوفا في حقوق المصطفى للسمهودي.
- وتاريخ الأدب العربي. وهو أكبر مصنف من نوعه بالعربية.

(١) نجيب العقيقي، المرجع السابق ج٢، ص٣٨٧.

٦- الألمان ونشاطهم في التبشير

١- الألمان والإسلام:

وُجدت في ألمانيا، مثلما الحال في أوروبا، هيئات وجمعيات ومبشّرين، كان هدفهم الأوَّل الإطلاع على الإسلام، هذا الموقف لا يمثّل بالضرورة السياسة الرسمية الألمانية تجاه الدولة العثمانية التي كانت موطن المسلمين، والملاذ الآمن لهم تجاه الهجمات الأوروبية الشرسة نحو الشرق العربي سياسياً واقتصادياً ودينياً. وكانت هذه الجمعيَّات، أهلية في مُجملها، شديدة التعصب بدرجة تذكر بالحروب الصليبية الأولى.

أما عن موقف الدولة الألمانية الرسمي من هذه المنظمات والجمعيات، فإنها كانت تدعم بعضها، وتتجاهل بعضها الآخر رعاية لمشاعر السلطان عبد الحميد والمسلمين، الذين وجدوا في الإمبراطور غليوم الثاني «خليفة آخر للمسلمين» ورأى آخرون أن إسلامه «مسألة وقت».

وسوف نتناول فيما يلي جُهود المبشرين والمؤسسات التبشيرية الألمانية في سورية مع التركيز على فلسطين.

- المبشرون وأفكارهم:

ذكرت «مجلة الشرق المسيحي، التي تنشرها جمعيَّة التبشير الشرقية الألمانية إنه قد أزف الوقت الذي يزعزع فيه الإسلام من أركانه، ويُنشر الإنجيل بين الشعوب الإسلامية، وإن هذا الارتقاء التاريخي، وما نعمله في أرمينيا وسورية وروسيا. قد جعلنا ندعو مجلتنا: «الشرق المسيحي، وإرسالية التبشير الإسلامية».

يعني إنها والإسلام من العالم تماماً وعودة المسلمين إلى نقطة الصفر، نقطة البداية التي يبدؤون فيها بنشر دينهم من جديد.... أي أنهم صاروا أقلية...»[١].

وقال القسّ الألماني لسبيوس (***Lesbos***) سنة ١٣١٣#-١٨٩٥م: «إن الشرق يدعو الغرب لشدّ أزره، وعلينا تحرير الشرق بواسطة كنائس السيد المسيح، وتخليص الكنائس المسيحية من ظلم الإسلام، ونفتح طريقاً للسيد المسيح بإرجاع هذه الكنائس سيرتها الأولى. ثم يقول:

«هلموا إلى قلب العالم الإسلامي، لنحرز فوز الصليب على الهلال، فالإسلام هو العدو القديم للمسيحيين الشرقيين...»[٢].

وكان «شنلر» (***Schneller***) القسّ الألماني النشيط في فلسطين، يرى أن الإسلام عدو يجب القضاء عليه، وجاء بنظرية جديدة لتحقيق ذلك، عندما أعلن أن أسلوب التنصير عن طريق الحملات الصليبية العسكرية، أمر أثبت فشله تماماً، لأن المسلمين يتوحَّدون عندما يتعرَّضون للعدوان، وأما شنلر فقد رأى تنصير المسلمين من الداخل، بالوسائل السَّلميَّة وليس العسكريَّة، وتنبأ، كما تنبأ غيره، بقرب انحسار الإسلام وفي ذلك يقول:

«إن المحمَّدية التي جاءت إلى العالم بحد السيف، لن تستطيع أن تُصلح نفسها بل ستنهار...».

---

(١) ا.ل.شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي - ترجمة محب الدين الخطيب، بيروت ١٩٨٠، ص٤٣.

(٢) ا.ل.شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي، المرجع السابق ص٩٩.

وقد انفصل شنلر عن زميله شبتلر، وأنشأ في فلسطين «دار الأيتام السورية» التي تحدثنا عنها.

وكان عدد طلاب هذه الدار سنة ١٢٩٣#-١٨٧٦م يساوي ٢١٠ طالب وطالبة من الشام وفلسطين ومصر وأفريقيا وأرمينيا، من المسلمين والنصارى على حد سواء، وكان يُعمِّد في كل عام نحواً من أربعين من هذه الدار، وفيهم مسلمون[١].

وكان يخطط أن يزوِّج خريجي دار الأيتام، من خريجات مدرسة «طاليطا قومي» التي سنتحدث عنها، والتابعة لشمّاسات جمعية:.«الكيزر-زفرت» أي القيصر زفرت[٢].

ولم تكن أعمال شنلر ودار الأيتام والجمعيات التنصيرية الألمانية بخافية عن أعين المسؤولين في الدولة أو حتى النصارى من غير البروتستانت.

وقد أفتى «بطريرك الموارنة» «إلياس بطرس الحويك» بحرمان كل من يساعد البروتستانت أو يزورهم، أو يلبي لهم طلباً أو يساعدهم على البقاء أو ينتسب إلى معاهدهم أو مدارسهم[٣].

ويقول الألماني «جون لوريمر» (***Jon Lorimer***) إن كبير البروتستانت المدعو «ميلانكتون» (***Malancton***) أرسل إلى بطريرك القسطنطينية يوشافاط الثاني خلاصة عن أفكار البروتستانت لكنه تجاهلها واتهم البروتستانت بالهرطقة[٤]، حتى إن «أسعد الشدياق» أخ أحمد فارس الشدياق مات تحت التعذيب في بطريركية الموارنة بلبنان[٥].

ويقول والي سورية أحمد مدحت باشا في تقريره إلى السلطان عبد الحميد الثاني: «إن في سورية خليطاً من الأتراك والعرب والروم والموارنة والكاثوليك والبروتستانت والسريان والأرمن وغيرهم... وإنها منذ زمن بعيد معرَّضة للتدخل الخارجي من الدول الأجنبية...»[٦].

وفي سنة ١٣٠٢#-١٨٨٤م عمدت جمعيَّة بيت المقدس الألمانية إلى فتح عيادة طبية خاصة بها للتبشير بين المسلمين في الخليل، ثم فتحوا مدرسة للسبب نفسه، فأصدر المفتي فتوى بتحريم التعامل مع المدرسة والعيادة. فاضطرت إلى إغلاق أبوابها سنة ١٣٠٦#-١٨٨٨م.

وفي سنة ١٣١٦#-١٨٩٨م افتتح الإمبراطور غليوم الثاني أثناء زيارته إلى فلسطين داراً للأيتام على طريق الخليل[٧]، لمباشرة التنصير.

جذور التبشير الألماني

تأسست في انكلترا وألمانيا، بعد الثورة الفرنسية هيئات وجمعيات لتنصير اليهود، ثم توسعت هذه الجمعيات بعد اتحادها، في عملية التبشير البروتستانتي في الشرق.

---

(١) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين ص٦٣-٦٥.
(٢) عبد الرؤوف سنو، المرجع السابق، ص٦٩.
(٣) أرشيف استانبول، مجلس مخصوص، وثيقة ١٧٥١.
(٤) جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، ٥ مجلدات، دار الثقافة بالقاهرة ١٩٩٠م، ج٤، ص٣٣٢.
(٥) عبد الرؤوف عيسى، التنصير الأمريكي، مكتبة مدبولي بالقاهرة ٢٠٠٥م، ص٩٤.
(٦) عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، مرجع سابق، ص٣٥٥.
(٧) علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، المرجع السابق، ص٦١.

كانت فكرة استعمار فلسطين واستيطانها تهيمن على أفكار مؤسسي هذه الجمعيات.

ولقد قويت هذه الفكرة بعد انهيار الدولة العثمانية أمام جيوش محمد علي، وبعد إخراج جيوشه من الشام على يد الدول الأوروبية، تبيَّن أن الوقت قد حان ليس لاقتسام تركة الرجل المريض، بل لاقتسام الرجل المريض نفسه.

لذلك طلب «شبتلر» من وزير بروسيا المفوَّض في برلين السعي لإقامة مستعمرة بروتستانتية نموذجية في فلسطين، وقدم مذكرة إلى وزير الخارجية البروسيَّة تتضمن مشروعاً يحدد مستقبل الأراضي المقدسة على النحو التالي:

- فصل فلسطين عن بقية الولايات العربية في الدولة العثمانية وربطها بالدولة العثمانية مباشرة.
- وضع سكانها المسيحيين تحت حماية الدولة الأوروبية.
- تكون القدس عاصمة للأراضي المقدسة.
- وتصبح بيت لحم والناصرة مستعمرات مسيحية.
- تتولى فرنسا والفاتيكان حماية هذه الدولة....

لكن المشروع فشل بسبب رفض الكاثوليك الألمان حماية فرنسا والبابا..[١].

المستشفى البروسي في بيروت

وكان يسمَّى «خستخانة بروسية» وقد تأسس في جمادى الأولى ١٢٧٧ـ-١٨٦٠، وألحقت فيه مدرسة لتخريج الممرضات، وتخرَّجت منه بالفعل أعداد جيدة منهن ومعظمهن من السوريات، وقد قمن بالتدريس فيه بعد التخرج.

وممن عمل في هذا المستشفى البروفيسور «ڤان ديك» (***Van Dijk***) الذي نال أعلى وسام من الإمبراطور الألماني غليوم الثاني بسبب نشاطه التبشيري المتميز في المستشفى المذكور[٢].

ثم قام فؤاد باشا بإهداء هذا المستشفى قطعة أرض لبناء مستشفى جديد عليها، وسجلت الأرض في السجلات الرسمية على أنها هبة من الحكومة العثمانية[٣].

رهبنة شمَّاسات الكيزر زفرت

من أخطر وأخبث الجمعيات التبشيرية الألمانية في فلسطين على الإطلاق.

وقد تأسس أول منزل للشمَّاسات على نهر الراين تحت اسم: «**رهبنة شماسات الكيزر زفرت على الراين**»

على يد الراهب تيودور فليدنر (***T.Fliender***) قرب دسلدورف[٤] (***Düsseldorf***) وذلك سنة ١٢٥٢#-١٨٣٦م بهدف القيام بنشاط تبشيري نسائي خارج ألمانيا.

---

(١) علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، مرجع سابق، ص٩٠.

(٢) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص١٨١.

(٣) يسرى الحنفي، الإرساليات الأجنبية في بلاد الشام، رسالة ماجستير جامعة أم القرى ١٤١٢هـ، ص٤٠٥.

(٤) دوسلدورف (***Düsseldorf***): هي عاصمة ولاية شمال الراين، في غرب ألمانيا. (***www.ar.wikipedia.org***).

وفي سنة ١٢٦٨#-١٨٥١م وصل فيلدنر إلى القدس ومعه أربعة شمَّاسات، وأسَّس فيها مستشفى ومدرسة للبنات في منزل على جبل صهيون، كان يوجد فيه النزل البروسي.
وبعد خمسين عاماً كانت هذه الجمعية تدير خمس عشرة محطة تبشيرية في فلسطين تضم مدارس ومستشفيات ومؤسسات ظاهرها خيريّ، وتشرف عليها أكثر من مئة شمَّاسة[١].

وفي سنة ١٣٠٦#-١٨٨٨م دشَّن «كارل شيلشت» (***Carl Chelst***) راعي البروتستانت في القدس المستشفى الجديد للشماسات، وهو رابع مستشفى ألماني كبير في الدولة العثمانية بعد مستشفيات الآستانة والقاهرة والإسكندرية[٢]. ثم تولى هذا المستشفى عمليات التبشير على أحدث الأساليب وأخبثها كما سنرى.

مدرسة طاليطا قومي

في سنة ١٢٧٠#-١٨٥٣م وصلت إلى القدس الراهبة الألمانية «شارلوت بيلز (***Charlotte Pilz***)».

وكانت على درجة عالية من الدهاء والإصرار للأندفاع في التبشير مهما كان الثمن، ومهما كانت الطريقة، حيث تولت الإشراف على الراهبات على مدى خمسين عاماً، حتى عرفت المدرسة باسم شارلوطة عند الأهالي.

وقد قامت هذه الشمَّاسة ببناء مدرسة كبيرة في القدس سنة ١٢٨٥#-١٨٦٨م ضمَّت ٨٩ طالبة، منهن أربع بنات مسلمات.

وفي سنة ١٣٢١#-١٩٠٣م، بلغ عدد الطالبات ٥٢٣ طالبة: [٣٠٦ من الأرثوذكس. و٩٢ من البروتستانت. و١٩ بنت يهودية. و١٣ بنت أرمنية. و١١ حبشيَّة وقبطية. و٥٥ فتاة مسلمة][٣].

أما اسم المدرسة الغريب، فهو من اختراع الشماسات لأهداف مرسومة بعناية، فطاليطا هذه بحسب ما هو في الإنجيل فتاة ماتت فأحياها المسيح وقال لها: طاليطا قومي، فقامت. ولذلك اختير هذا الاسم لإثارة فضول الطالبات وإقناعهن مسبقاً بالدين المسيحي.

وخوفاً من الاصطدام بالأهالي قرَّر المسؤولون عن الإرساليات الألمانية البروتستانتية في فلسطين الابتعاد عن التنصير المكشوف، والعمل بمفهوم الشمولية أو المسيحية العالمية عن طريق تقديم خدمات اجتماعية يومية للسكان المحليين، وكسب الأتباع، وزرع «الإيمان» في قلوب السكان.

ومن أخطر ما ابتدعوه شعار الشماسات الجديد وتنصير المرأة عن طريق المرأة، وكان شعارهن المعلن: «تحرير المرأة العربية الجاهلة المهملة والمضطهدة من عزلته الاجتماعية التقليدية ومن عبوديتها المُهينة».

ورأت الشماسات في حجاب المرأة المسلمة إذلالاً لكرامتها فعملن على إقناع المسلمات بنزع الحجاب وتعليم المرأة، وأعدادها للعمل...

وهذا يعني تغريب الفتاة المسلمة (***Westernisation***) في تقاليدها وعاداتها، تمهيداً

---

(١) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، المرجع السابق ص٨٧-٨٨.
(٢) سنو، المرجع السابق ص٩٣.
(٣) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، المرجع السابق ص٩٣.

لتنصيرها على المذهب البروتستانتي[١].

ولمَّا لم تكن النتائج المرجوَّة من ذلك مشجّعة فقد رأت الشماسات أن السبب في ذلك يعود إلى أن البنات يتعلمن عند أهلهنّ قواعد الحياة الإسلامية الأصيلة، لذلك قررت الشماسات حجز البنات في المدارس لأطول مدة ممكنة وعدم السماح لهن بزيارة أهلهن على مدى عدة شهور[٢].

وقد أرغمت الشمَّاسات الأهالي، بمساعدة القنصليَّة الألمانية في القدس على توقيع عقود مع المؤسسة يتعهدون فيها إبقاء التلميذات داخل الدار لمدة سبع سنين كاملة.

ورغبة من الشمَّاسات بضمان أكبر عدد من المُنصّرات فقد كانت تقام علاقات اجتماعية مع الخريجات داخل دورهن.

وصارت الشماسات يقمن بزيارة المنازل ودعوة النساء إلى حفل هنا، ومناسبة هناك ولاسيما في أيام الميلاد ورأس السنة.

ومع نهاية القرن تمكنت راهبات «الكيزر زفرت» من إقامة شبكة من جمعية الشابات من الخريجات للاتصال بمن سبقهن[٣].

ثم أنهن خططن للعمل على استقطاب الفتيات اليتيمات اللائي لا أُسر لهن إطلاقاً. وقد نجح التنصير نسبياً معهن حيث كانت الشماسات يمنعنهن من الصوم في شهر رمضان لأنه عديم الفائدة، كما كن يطلبن منهن الصلاة ليسوع وحده لأن الصلاة لمحمد خطيئة.

وبذلك تمكنت الشماسات من تنصير عدد من اليتيمات وغيَّرن أسماءهن بأسماء مسيحية، وأمَّن لهن العمل داخل الأسر المسيحية، أو في مؤسسات التبشير[٤].

وفي المستشفى الخاص بالجمعية «جمعية الكيزرزفرت» تم تعيين قسيس عربي، لقراءة الإنجيل باللغة العربية، وكان يشارك في القداس كثير من المسلمين المرضى، للحصول على عناية الأطباء والممرضات، ولاسيما وأن حضور القداس كان اختيارياً.

وضمن المستشفى كان المرضى يرون من العناية والرعاية والخدمة ما لا يرونه في أي مكان آخر.

ويذكر ناشر مجلة «أخبار الشرق» أنَّ بعض المسلمين أصبحوا بعد فترة من الإقامة بالمستشفى مقتنعين بأن ما يحدث فيها هو الإيمان الصحيح وأن المسيح يهب قوَّة حياة أقوى من تلك التي يهبها محمَّد[٥].

وكانت خطة المستشفى تقوم على زرع أصَّحاء من المستشفى وسط المرضى المسلمين لإقناعهم بالمعتقدات المسيحية التي كانت سبب شفائهم.

وقد أكَّد (ديسلهوف) (***Disselhoff***) مدير جمعية الكيززفرت، «أن المستشفى هو حقل تبشيري هام وأن عدداً كبيراً من المسلمين تأثروا بالمعتقدات الإنجيلية، وأن بعضهم تنصروا وأن إحدى المنصَّرات صارت تعمل مبشِّرة بين جماعتها..[٦].

ولم يكن الأهالي بغافلين عما يجري في المدرسة أو المستشفى فقد حدث أن تنصَّر أحد الشبان المسلمين في المستشفى الألماني، فهاجم الأهالي القنصلية البروسية في القدس،

---

(١) سنو، المرجع السابق، ص٩٧.
(٢) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، المرجع السابق ص٩٨.
(٣) عبد الرؤوف سنو المرجع السابق، ص١٠٢.
(٤) عبد الرؤوف سنو، المرجع نفسه، ص٩٩.
(٥) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، المرجع السابق، ص١٠٠.
(٦) عبد الرؤوف سنو، المرجع نفسه، ص١٠١.

وقتلوا والد الشاب، الذي هرب بمساعدة الراهب غوبات.

وتنصَّرت امرأة مسلمة وعملت على تنصير ابنتها التلميذة في مدرسة «طاليطا قومي» عند شارلوطة، وعندما تحرك المسؤولون، تم تهريب الأم وابنتها إلى مصر بأسماء جديدة...

كما تنصَّرت ثلاث بنات في مدرسة شارلوطة، ونُقلن إلى لبنان، ثم عدن بأسماء مسيحية كل ذلك والشمَّاسات يُنكرن محاولاتهن للتنصير ولذلك صدر سنة ١٣٠٢#-١٨٨٤م إنذار إلى المدرسة بعدم استقبال أي فتاة مسلمة في المدرسة، وإلغاء جميع العقود السابقة، وقد هدد الأمر أولياء البنات بالسجن إذا هم أرسلوا بناتهم إلى المدرسة.

أما القنصلية الألمانية فكانت لا تتدخل في الأمر ولا تدعم الشمَّاسات أو تعارضهن، لكن المؤسسات التبشيرية الواسعة في ألمانيا، كانت تدعم بالمال كل الجمعيات التنصيرية في فلسطين[١].

ولكن بالنتيجة ....كل هذه المحاولات كان مصيرها الفشل ،وذلك بسبب التربية العربية والأسلامية المتأصلة بأهالي المنطقة ،وشدة تمسك مسلمين هذه المنطقة ،بعاداتهم وتقاليدهم ،ونبذهم لكل مافيه تغريب عن بيئتهم ودينهم .

نتائج حملات التنصير على المسلمين

ونضرب هنا مثلاً واحداً لما جرى في واحدة من المؤسسات التبشيرية وهو مستشفى «معونة المسيح» الذي هو أصلاً مأوى للمجذومين، أقيم عند بوابة صهيون في القدس، واختير له هذا الاسم للدلالة على قوَّة المسيحية وقدرته على شفاء المرضى. وكان المرضى المسلمون أو معظمهم يشاركون في القداس اليومي، كما كانوا يمارسون طقوسهم الإسلامية. وقد رأى القائمون على المأوى أن هذا يعدّ بحد ذاته نجاحاً كبيراً وهو تشكيك المسلم في عبادته. وقد صدر تقرير خطير عن هذا المأوى سنة ١٣٠٦#-١٨٨٨م جاء فيه: «إن مسلماً - متنصّراً - عاد ثانية إلى الإسلام عند احتضاره وقال للراهب الواقف فوق رأسه والذي كان يقرأ له من الكتاب المقدس. لقد خُلقت مسلماً وأريد أن أموت كذلك» فأجابه القسّيس: «إن الخلاص لا يكون إلا بالإيمان بيسوع».

واشتكى مريض آخر بأنه يمنع من قراءة القرآن وحاول ثالث أن يدحض ما جاء في الإنجيل فطُرد فوراً من المأوى.

ثم تدخل رئيس بلدية القدس وأقنع القنصل الألماني بالقدس، بطرد المبشّر العربي من المأوى، ومنع التبشير، فوافق القنصل مرغماً ومُنع التبشير[٢].

التبشير الكاثوليكي الألماني

بعد قيام «الرايخ الثاني» سنة ١٨٨#-١٨٧١م قامت في ألمانيا حملة شعواء ضد الكاثوليك وكنيستهم الألمانية، وكان بسمارك يقود الحملة تحت شعار «الكفاح الثقافي»...

وفي سنة ١٣٠٤#-١٨٨٦م انتهت الحملة وُمنعَت ملاحقة الرهبان الكاثوليك والمؤسسات الكاثوليكية في ألمانيا.

---

(١) عبد الرؤوف سنو، المرجع السابق، ص١٠٧.

(٢) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، الصفحات ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧.

وعندما زار الإمبراطور غليوم الثاني القدس سنة ١٣١٦-١٨٩٨م ألقى مدير المؤسسة الكاثوليكية الثقافية أمام الإمبراطور خطاباً أعرب فيه عن أمله في رغبة الكاثوليك بأن يكونوا تحت راية الإمبراطور في نشر مذهبهم في فلسطين، أسوة بالبروتستانت.

ووافق الإمبراطور على دعمهم وقدَّم لهم الأرض لبناء كنيسة نياحة العذراء كما دعم جميع مؤسساتهم في فلسطين[١]. وصارت جمعيَّة القبر المقدس تدعم المؤسسات الكاثوليكية ولاسيما رهبنة الفرنسيكان وراهبات القديس يوسف وتشجع الرحلات إلى الأراضي المقدسة[٢].

كما قامت الجمعية الألمانية للأراضي المقدسة ١٣٢٧/١٣١٣#-١٩١٨/١٨٩٥م والتي قررت مساعدة الألمان الكاثوليك في فلسطين ودعم مؤسساتهم ولكن نشاط الكاثوليك الألمان التبشيري كان أضعف بكثير من نشاط البروتستانت ثم انتهت آثار الفريقين ولم يتجاوز عدد الألمان في مؤسسات البروتستانت والكاثوليك عن بضع مئات...

---

(١) علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص٧٢.

(٢) قفر سلامة، أملاك الألمان في القدس، المؤتمر السابع لبلاد الشام عمَّان ٢٠٠٦، وفيه تفصيلات وافية عن كنيسة المخلِّص الكاثوليكية التي دشَّنها الإمبراطور غليوم في القدس سنة ١٨٩٨م.

نشاط الكاثوليك الألمان التبشيري

طالبت الجمعيات الألمانية الكاثوليكية بأن يكون لها دور في مناطق النفوذ الاستعماري الألماني.

وكانت هذه الجمعيات ترى أن الاستعمار بدون تبشير عمل غير محمود، لأن الإرسالية هي التي تقدّم «السند والدعم للنشاط السياسي الاستعماري الألماني فيما وراء البحار».

وكان الكاثوليك الألمان يرون أن الاستعمار هو ضرورة طبيعيَّة لألمانيا، وأن الكاثوليك ملزمون بجعل كنيستهم تشارك في هذا التحول والارتقاء...

وقال مولر (***Müller***)، عضو جمعيَّة الأرض المقدسة، بأن خطط الكاثوليك الألمان السعي إلى ملء كل المراكز الهامة في الشرق، وتأسيس مستوطنات ومدارس ومستشفيات وكنائس فيه...

وقال آخر: إنه لابد من شراء الأراضي في فلسطين لإقامة مستعمرات كاثوليكية عليها، وأن ذلك يمكن أن يؤدي إلى إيقاظ السكان المحليين من عطالتهم وتدريبهم على الفلاحة، ودعم الطابع الألماني في الأراضي المقدسة دعماً متيناً[١].

موقف الدولة العثمانية من «التبشير»

كان سوء الإدارة العثمانية، ينعكس على كل القرارات التي يتخذها المسؤولون في كل مجالات الإدارة، ولاسيما في موضوع التبشير أو التنصير.

وكان المبشِّرون أو المنصّرون، يعرفون ذلك جيداً، فكانوا يعمدون إلى التحايل على القوانين أو استخدام سلاح الرشوة الذي كان متفشياً في الدولة حتى في قصر يلدز، كما ذكر هرتزل.

ولذلك كان يصدر القرار، وبعد بضع سنين تكتشف الدولة أن الآخرين قد التفوا حوله، فتعمد إلى التعديل والتبديل، وفي تلك الأثناء يكون المبشرون قد حققوا ما أرادوه كاملاً.

وفي سنة ١٣٠٥#-١٨٨٧م تمّ إبرام اتفاقية بين القنصل الأمريكي في بيروت والدولة العثمانية، هذه خلاصتها:

- تقدم الإرساليات الأمريكية إلى السلطات العثمانية المحلية تقارير عن مناهج التعليم، ولوائح بأسماء المدرسين ونماذج عن الكتب المدرسية حتى يتم الترخيص بفتح مدرسة جديدة.
- ووافق القنصل الألماني في القدس على ذلك، وطلب من المؤسسات الألمانية، أن تحذو حذو المؤسسات الأمريكية، ورغم ذلك كله، وصلت أخبار مؤكدة عن انتشار عمليات التبشير في المؤسسات الأوروبية المختلفة في الدولة[٢].

والأغرب من ذلك، فقد كانت الدولة، وبعبارة أدق السلطان عبد الحميد نفسه كريماً ومتسامحاً مع الأجانب الراغبين في بناء كنيسة أو مدرسة أو مستشفى أو مقبرة أو مؤسسة وكان يشدد على المسؤولين بالالتزام التام بحماية الأجانب وقمع أي مخالفة أو اعتراض

---

(١) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص٢٠٣.

(٢) عبد الرؤوف سنو، المرجع السابق، ص٧٩.

من عند الأهالي.

وفي سجل الكنائس العربية في الدولة العثمانية نماذج كثيرة من «الفرمانات» التي توضح الفكرة.

ففي أحد الأوامر السلطانية إلى متصرف القدس، أمر بتمكين راهب الطائفة البروتستانتية في القدس المدعو: «يوردك» (***Jordjek***) من إنشاء مستشفى في القدس، مع التشديد على المتصرف «رؤوف باشا» بمنع أي اعتراض قد يظهر من الأهالي، بشرط ألا يسمح لأحدٍ من خارج الطائفة المذكورة بالعلاج في هذا المستشفى، والدعاية لها أو الضغط على الناس للدخول بالمذهب البروتستانتي[١].

وفي قرار آخر نقرأ الموافقة على بناء كنيسة للطائفة البروتستانتية في بيت جالا مع ثلاث غرف لتعليم الأطفال والبنات والتاريخُ ١٢ آذار ١٨٨٦م-١٣٠٤#[٢].

وفي وثيقة ثالثة نقرأ: «تقدّم المواطن الألماني «يورديك» (***Jordjek***) راهب الطائفة البروتستانتية بطلب للحصول على الموافقة السنية بمايلي:

أولاً - إنشاء مستشفى نعيم ١٦ غرفة في بيت جالا يستقبل الأهالي من بيت جالا وبيت لحم.

تثبيت شرائه لأرض مساحتها ٧ دونمات خارج بيت لحم تكون مقبرة للبروتستانت.

ونفقات البناء (١٠٠٠) ليرة ذهبية فرنسية تبرَّع بها الراهب المذكور.

ومن جهتنا لا يُوجد محذور من البناء على ألا يرغموا الناس على الدخول البروتستانتية[٣] ١٣ آب ١٨٨٧م-١٣٠٥#.

وفي وثيقة رابعة طلب من هيئة التدريس الداخلة ضمن المؤسسات الألمانية الخاصة بطائفة البروتستانت في قرية بيت ساحور للموافقة على إقامة مدرسة على قطعة أرض أميرية إيجارها السنوي ٧٥٠٠ غرش وأبعادها ٤٠×٢٠ متراً والارتفاع ١٠ أمتار. ولا يوجد مانع لدينا في ذلك والحذر من المخالفة[٤].

والوثيقة الأخيرة لبناء كنيسة وبرج الناقوس فوق الأرض على طريق الطاحون خارج يافا من الخواجا لورخ و الخواجه فرانك من رعايا دولة ألمانيا العظيمة. وقد صدر الأمر بالموافقة كالعادة[٥]...

وبذلك يتضح مما عرضناه أمران:

١-أن ألمانيا كدولة لم تسْعَ إلى تحقيق أية مطالب علنية أو سريّة في فلسطين منذ قيام الرايخ الأول سنة ١٢٨٨#-١٨٧١م وحتى نهاية عهد السلطان عبد الحميد الثاني.

٢-كما أنها لم تستغل المستعمرين الألمان في فلسطين لأغراضها السياسية، ولم تكن تدعمهم إلا في أضيق الحدود وضمن الاعتبارات الإنسانية، وكانت تتجاهلهم تماماً

---

(١) عبد الرحيم أبو حسين، الكنائس العربية في السجل الكنسي العثماني، عمان المصدر الملكي للدراسات الدينية ١٩٩٨م، وتاريخ الأسر ١٨٨٧، ص٥٧.

(٢) عبد الرحيم أبو حسين، الكنائس العربية، المرجع السابق، ص٤٩.

(٣) عبد الرحيم أبو حسين، المرجع نفسه، السابق ص٥٧.

(٤) عبد الرحيم أبو حسين، المرجع نفسه، ص٧٢.

(٥) المرجع نفسه، ص٧٣.

عندما كانوا يتمادون في طلباتهم[1]....

(١) علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص١٢٧.

ونختم الفصل بشهادة إنسان معاصر للسلطان عبد الحميد

وهو واحد من كبار الوطنيين في سورية: فارس الخوري[1]، المسيحي البروتستانتي والذي عاصر السلطان عبد الحميد الثاني، فقد نظم بحق هذا السلطان قصيدة طويلة بعد عزله، وانتقد سياسته الداخلية والخارجيَّة وأيَّد الاتحاديين كما فعل كثيرون غيره.

ثم لمَّا تبين له ما حل بالبلاد من هزائم وانتكاسات وعنصرية طورانية رهيبة ومن شعارات براقة زائفة قال موضحاً دور السلطان في المحافظة على فلسطين من اليهود.

«لم أندم في حياتي على شي ندمي على قصيدة كنت نظمتُها إثر إعلان الدستور العثماني، وهجوت فيها السلطان عبد الحميد الثاني، فلقد تأكد لي، بما لا يقبل الجدل، أن هذا الخليفة الإسلامي قد راح ضحية الصهيونية العالمية بمنعه هجرة اليهود إلى فلسطين، ووضعه نظام الجواز الأحمر لكل يهودي يدخل فلسطين زائراً، ومنعه إياهم من تملك الأراضي، وقد انتقلت الدسائس ضده من يهود الدونمه في سالونيك مركز اليهود الأساسي المتظاهرين بالإسلام[2]....».

---

(١) فارس الخوري (١٨٧٣-١٩٦٢): سياسي ومفكر وطني، ولد في قرية الكفير التابعة حالياً لقضاء حاصبيا، من أب وأم بروتستانيين، درس في الكلية الإنجيلية السورية (الجامعة الأمريكية في بيروت)، نظم الشعر وأولع فيه، تولى وزارات في العهد الفيصلي، أسس مع عبد الرحمن الشهبندر وعدد من الوطنيين في سوريا (حزب الشعب)، انتخب رئيساً للمجلس النيابي السوري عام ١٩٣٦، ومرة أخرى سنة ١٩٤٣، وتولى رئاسة مجلس الوزراء السوري، ووزير للمعارف والداخلية في سنة ١٩٤٤، انتخب عضواً في مجلس الأمن الدولي (١٩٤٧-١٩٤٨) وأصبح رئيساً له في آب ١٩٤٧، عندما كان يمثل سوريا في مجلس الأمن، ترأس الوفد الدولي إلى هيئة الأمم للدفاع عن القضايا العربية، من أقواله: «إن قضية فلسطين لا تحل في أروقة مجلس الأمن ولكنها تحل على ثرى فلسطين». توفي في ٢ كانون الثاني ١٩٦٢ في مشفى السادات بدمشق. (www.ar.wikipedia.org).

(٢) كوليت خوري، أوراق فارس الخوري، مؤسَّسة طلاس، ١٩٨٥م، ج١، ص١٦٦ وص٤٠٤.

الفصل الخامس

موقف الدول الكبرى من العلاقات العثمانية -الألمانية

أولاً – موقف الدول الكبرى من العلاقات العثمانية –الألمانية

أ- موقف إنكلترا

ب- موقف روسيا

ج- موقف فرنسا

د- موقف إيطاليا

ثانياً – انعكاسات العلاقات العثمانية –الألمانية

أ- على الدولة العثمانية

ب- على ألمانيا

ج- ألمانيا في الميزان

أولاً - موقف الدول الكبرى
من العلاقات العثمانية-الألمانية

أ- موقف إنكلترا:

كانت إنكلترا من أشدّ الدول عداءً للدولة العثمانيَّة على الإطلاق، وتعمل على محاصرتها وتقسيمها بصورة علنية، وذلك لأنها كانت أكبر دولة استعمارية، وكانت لها مصالح في المنطقة (مصر وطريق الهند)،وهذا ما فرض عليها الحالة العدائية مع الدولة العثمانية .

وعلى الرغم من أن السلطان منحها درة الدولة العثمانيّة وهي قبرص، فإنَّها مضت قدماً في نصب المكائد للسلطان والدولة العثمانية وهيَّأت كل الأسباب لاحتلال مصر ومنع التدخل العثماني فيها، وكأن مصر من ممتلكاتها.

كما أنها عمدت إلى سد الخليج العربي تماماً في وجه القوات العثمانية وأقامت دويلات تابعة لها هناك، ثم خططت للتدخل المباشر في قلب الجزيرة العربيَّة وأقامت فيها أمراء يحاربون الدولة العثمانية تحت ستار الدين والعقيدة الصحيحة، وكأنها كانت تريد لحبِّها في المسلمين، تنقية الدين الإسلامي من الشوائب والأفكار الضارة.

و سيطرت على عدن والكويت وقناة السويس جعلت الجزيرة العربية ولاسيما المقدسات الإسلامية تحت السيطرة التامة لها دون أن يستطيع السلطان عبد الحميد الثاني «حامي الحرمين الشريفين» التدخل للحماية.

وعندما بوشر بالخط الحديدي الحجازي وقفت إنكلترا تعارضه بشدَّة لأنه يربط بين المسلمين ويوحّدهم ويضاعف قوَّتهم، وهذا بحدّ ذاته جرأة كبرى ترتكبها الدولة والسلطان بحق بريطانيا العظمى، كما كانت بريطانيا تعلم تماماً أن جميع المسلمين في العالم بما فيه مستعمراتها، يأتمرون بأمر السلطان ويرونه خليفتهم.

ومن هذا المنطلق كانت بريطانيا تعارض تماماً كل ما من شأنه تقوية الدولة العثمانية وتدعيم مركز السلطان، وفي مقدّمة ذلك التقارب العثماني-الألماني، وما نجم أو سينجم عنه من مشاريع اقتصادية وعسكرية واتصالات وقوَّة للدولة العثمانية العدو التاريخي لبريطانيا.

وسوف نعرض فيما يلي مواقف بريطانيا التفصيلية من ذلك التقارب ومدى نجاحها أو فشلها في عرقلته.

كانت بريطانيا تساعد قطَّاع الطرق في اليونان وأرمينيا ومقدونيا، وتشدّ من أزر المعارضين للسلطان، وكان السلطان عبد الحميد الثاني يدرك ذلك جيداً، وكانت سياسته في مقاومتها تعتمد على:

أ- عدم المجابهة العسكريَّة مع بريطانيا بأي ثمن، ومن هنا لم يتدخل في مصر مع أنه صاحب السيادة الاسمية فيها.

ب- محاربتها بالأساليب السلميَّة وفي مقدمتها الجامعة الإسلامية، وتوطيد علاقته بألمانيا التي أصبحت القوَّة العسكرية الأولى في العالم.

وكان السلطان عبد الحميد الثاني يقول:

«إن روسيا وإنكلترا مثل فأرين ينخران في جسد أمتنا وإني أخاف من إنكلترا أكثر من جميع الدول، لأن الإنكليز لا يمكن أن يتخلوا عن شيء أمسكوا به ولو مرة واحدة... وإنهم يحاولون فصل العرب والأرمن والأرناؤوط عن الدولة»[١].

والأمر الذي كان يغيظ بريطانيا من السلطان هو رسوخ قدم السلطان عبد الحميد في الحكم ومحبة المسلمين له حتى في المناطق الواقعة تحت سيطرتها ولاسيما في مصر والهند.

وقد ازداد استياؤها من التقارب العثماني-الألماني ولذلك عمدت إلى استخدام سلاح ذو حدَّين وهو:

١- إثارة الأقليات والنعرات الطائفية الكثيرة في الدولة.
٢- والتشكيك في جدوى أو عرقلة أي مشروع اقتصادي تقوم به ألمانيا في الدولة العثمانية ولاسيَّما السكك الحديدية وقد شرحنا موقفها بجلاء من خلال حديثنا عن الخط الحديدي الحجازي[٢].

وذكر القنصل البريطاني في دمشق «ريتشارد وود» (***Richard Wood***) أن أعيان دمشق وعلماءها هم العقبة الأولى في وجه «الإصلاحات» ويعني بالإصلاحات الإملاءات الغربية على الدولة العثمانية والتي كانت السبب المباشر لحوادث الستين.

وعبَّر القنصل صراحة عن عدائه الشديد للشريعة الإسلامية وممثليها المسلمين[٣].

وقد وُضع تقريران في سنة ١٢٩٦#-١٨٧٨م تحت تصرف الحكومة البريطانية مفادها:

أ- أن السوريين مستائين من الحكم العثماني.
ب- وإنهم يتوقعون سقوط مصر تحت الحكم البريطاني.
ج- وإنهم يريدون أن ينعموا بمزايا الحكم البريطاني أسوة بمسلمي الهند ولذلك فإنهم يرحبون بالقوات البريطانية في بلادهم[٤].

وفي تموز سنة ١٨٧٨م-١٢٩٦# صدر تقرير ثالث من القنصل البريطاني في بيروت تحدَّث فيه عن «موجة الاستياء العامة» من الحكم العثماني.

وفي العام نفسه قام سكرتير السفارة البريطانيَّة في الآستانة: «إدوارد ملت» (***Edward Melet***) بجولة واسعة في سورية ولاسيَّما في حوران، وكان عمله الرئيسي فيها تحريض السكان على الحكم العثماني، وهو ما ذكره مدحت باشا بوضوح في تقاريره إلى السلطان عبد الحميد...[٥].

موقف بريطانيا من خط حديد بغداد

كان موقف بريطانيا من التقارب الألماني العثماني ولاسيَّما عند الإعلان عن خط حديد بغداد، موقفاً متحفظاً في بداية الأمر.

---

(١) سليمان قوجه باش، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص٣٠٤.
(٢) موفق بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ص١١٥.
(٣) ليندا شيلشر، دمشق في القرن ١٨ و١٩، ترجمة عمر الملاح ودينا الملاح، دمشق، ١٩٩٨، ص٦٧.
(٤) عبد الرؤوف سنو، النزعات الكيانية الإسلامية، بيروت ١٩٩٨، ص٦٨.
(٥) عبد الرؤوف سنو، المرجع السابق، ص٧١.

وكان باعتقاد بريطانيا أن النفوذ الألماني في الدولة العثمانية ،كفيل بإيقاف النفوذ الروسي فيها، وهو برأي البريطانيين أشد خطراً على مصالحها في المنطقة من النفوذ الألماني .

ولكن هذا الموقف سرعان ما تغيَّر عندما أدركت بريطانيا أخطار هذا المشروع والتقارب كله والتي يمكن إجمالها في هذه النقاط:

١- إن مشروع خط بغداد إذا تم سوف يصرف كثيراً من الناس عن العبور من قناة السويس وهذا سيؤثر على أسهمها التي كانت بريطانيا تحاول الاستئثار بها.
٢- كما يؤثر على خطوط الملاحة البريطانية في العراق.
٣- ويهدد الوجود البريطاني في الخليج إذا ساقت الدولة وألمانيا قواتهما العسكرية إلى حدود الكويت.
٤- كما أن الخطوط الملاحية الألمانية في الخليج عبر قناة السويس ستهدّد أمن الخليج.

ومما زاد قلق بريطانيا الوجود العسكري العثماني القوي في مسقط والبصرة والأحساء وشط العرب والعراق، لذلك بادرت إلى توقيع معاهدتها مع صديقها أمير الكويت سنة ١٣١٢#-١٨٩٩م[١].

وفي سنة ١٣١٠#-١٨٩٢م نشر لورد كيرزن (***Curzon***) كتابه: «فارس والمسألة الفارسيَّة»، وكان مما قال فيه: إنه يعتبر التنازل لروسيا عن ميناء في الخليج إهانة متعمَّدة لبريطانيا العظمى قد يؤدي إلى الحرب.

وكانت بريطانيا ترى في خط بغداد مشروعاً حسناً ففي سنة ١٣١٢#-١٨٩٩م أراد القيصر غليوم الثاني (***Wilhelm II***)، زيارة جدته، ملكة بريطانيا في لندن، والتقى هناك وزير المستعمرات تشامبرلن (***Chamberlain***) ومستشار الخزانة بلفور (***Balfour***) وأبدى الاثنان مساندتهما لألمانيا في خط بغداد، واستحسنا الفكرة، وذلك لعرقلة تقدم روسيا في الخليج والرافدين والأناضول[٢].

ومن واقع هذا التقارب البريطاني مع ألمانيا، أيَّدت ألمانيا بدورها بريطانيا في صراعها مع فرنسا حول حادث فاشودة في السودان سنة ١٣١١#-١٨٩٨م، كما أن ألمانيا سكتت متعمّدة عن الوجود البريطاني في مصر[٣].

وكانت بريطانيا تهوّن من شأن خط بغداد حتى أواخر القرن، ولا ترى فيه خطراً على مستعمراتها في الهند.

وفجأة أصبحت ألمانيا هي العدو الأخطر على بريطانيا وحاولت من جهتها التحالف مع فرنسا وروسيا ضد ألمانيا والدولة العثمانية معاً، ووقَّعت الاتفاق الودي سنة ١٣٢٢#-١٩٠٤م مع فرنسا، واتفاقاً مماثلاً سنة ١٣٢٥#-١٩٠٧م مع روسيا لتطويق ألمانيا والدولة العثمانية[٤].

ويقول نجيب عازوري بأن بريطانيا سيطرت على قبرص بعدما أقنعت السلطان بأن وجودها في قبرص يجعل الأسطول البريطاني قادراً على تحطيم أي وجود روسي في

---

(١) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية، ج٣، ص١٩٨١.
(٢) ألمانيا والعالم العربي، مجموعة باحثين، ص٤٠٢.
(٣) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانيَّة في فلسطين، ص٢٧٧.
(٤) عبد الرؤوف سنو، المرجع السابق ص٤٠٧. عزَّة آقبيق، تاريخ الخطوط الحديدية، المرجع السابق، ص٢١٧.

الدردنيل وخليج الإسكندرونة ووادي الفرات.

فإذا تحركت روسيا في الدردنيل فإن القوة الإنكليزية الأسطورية سوف تنهار.

ولذلك كانت خطة إنكلترا في القرن التاسع عشر وضع العقبات والحواجز أمام التوسع الروسي على الخط الممتد من الدردنيل والدانوب حتى بريطانيا.

وكان من واجب ممثل بريطانيا في الآستانة مراقبة نشاط روسيا في البلقان والأناضول ووادي الفرات وسورية وفلسطين[١].

ثم تبدل الحال وصار الوجود الألماني في الدولة العثمانيَّة والمشاريع الاقتصادية الألمانية تعني تقوية الرجل المريض وبداية للهيمنة الألمانية على المنطقة، ولذلك وقفت بريطانيا مع فرنسا وروسيا ضد الدولة العثمانيّة والإمبراطورية الألمانية وهو ما يعدّ السبب الأقوى لنشوب الحرب العالمية الأولى[٢].

ويقول السلطان عبد الحميد الثاني في تقييم عام لموقف بريطانيا منه ومن الدولة:

«إنهم يريدون أن يكون الخديوي - عباس حلمي - خليفة على المسلمين، وهو يوشك أن يكون كافراً.

تلقى العلم في جنيف، ثم أتمَّ دراسته في فيينا، فلابُدَّ أن يتعوَّد بعادات الغرب.

ولكن ليس من مسلم يعتزُّ بدينه يقبل أن يحكمه واحد من طراز الخديوي عباس حلمي أو أن يكون خليفة على المسلمين[٣]».

«ولا يستغربنَّ أحدٌ أن يقوم الإنكليز بتنصيب لورد كرومر إذا اقتضى الأمر خليفة على المسلمين».

وقد كتبت صحيفة (***Sotndart***) بصراحة أن جزيرة العرب يجب أن تكون تحت سيطرة الإنكليز، وعدن المقرّ العام للتخريب في الجزيرة، ويقول السلطان: ونحن نفضل رؤية أساطيل ألمانية وفرنسية في البحر الأحمر على أن نرى إنكلترا تنفرد بالسيادة هناك.

وعندما يمد الخط الحديدي سيتغيَّر الحال»[٤].

ويرى السلطان أنه إذا سيطر البريطانيون على منطقة البحر الأحمر، فإن خط بغداد سيكون في خطر.

ثم يقول:

«ولقد رُفع العلم الإنكليزي في الكويت سنة ١٣١٩#-١٩٠١م وقد استنكرنا هذا العمل بشدَّة.

أما ألمانيا فقد أعلنت مشاركتنا في رأينا تجاه هذه الأحداث، وأعلنت استنكارها...

لقد قتل الإنكليز المئات بوحشية غريبة في بوشهر من قبيلة علي بن علي...

لقد أقام الإنكليز القيامة خلال ثورات الأرمن... أما الدول الكبرى،فقد التزمت جانب الصمت مما يدل على انعدام معاني الرحمة في قلوب الغربيين...[٥].

لقد كانت بريطانيا تكاد تفرض انتدابها على الدولة العثمانية، ووصلت في جبروتها تجاه الدولة حداً لم تصله دولة أخرى.

---

(١) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربيَّة، مصدر سابق، ص١٠٣ وما بعد.

(٢) سليمان قوجة باشي، السلطان عبد الحميد، ص٤٣٥.. عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام، ص٤٧.

(٣) السلطان عبد الحميد، مذكراتي، ١٣٣.

(٤) المصدر نفسه، ١٣٥.

(٥) المصدر نفسه، ص١٤٢.

على سبيل المثال نذكر مسألة واحدة مشهورة عرفت بـ«حادثة جدة» شغلت العالم طويلاً.

وخلاصتها أنه كانت لأحد أهالي جدة المدعو: صالح جوهر، سفينة رفع عليها العلم البريطاني، لتحميه بزعمه، من الدول الأخرى، فنصحه أهل جدة بإنزال هذا العلم، ورفع العلم العثماني، ففعل ذلك وأنزل العلم البريطاني ورفع العلم العثماني، بوصفه مواطناً تابعاً للدولة العثمانية والسفينة ملكه.

فاغتاظ القنصل البريطاني في جدة، وهاجم السفينة وأنزل العلم العثماني وداسه بقدمه وشتم المسلمين ومقدساتهم.

فاستاء الناس في جدَّة لذلك وهاجموا «حي النصارى» في المدينة فهرب القنصل، فقتلوا نائبه والقنصل الفرنسي واثني عشر رجلاً من الأجانب، وانتشر الخبر في العالم الإسلامي، ووصل إلى دمشق فقامت التظاهرات فيها نصرة لأهل جدّة وفرحاً بإذلال الإنكليز.

ثم تدخلت بريطانيا لدى السلطان عبد المجيد وطلبت منه إطلاق يدها في جدّة، فإذن لها في ذلك، فشكلت محكمة في جدّة حكمت على ١٤ رجلاً بالإعدام ونفذ الحكم في الحال.

ولم يكتفِ القنصل البريطاني بذلك بل أراد إذلال السكان وطلب من الأمير «ابن عون» أمير مكة المكرمة أن يرافقه في زيارة البيت الحرام، إمعاناً منه في التشفي، وخوفه العاقبة، وأن حياته قد تتعرض للخطر، فخاف وتراجع عن الزيارة، هذا هو الموقف البريطاني من الدولة العثمانية، وهو يلخص كل المواقف الأخرى، حتى اليوم[١].

ولم تقف رغبة بريطانيا عند إسقاط السلطان عبد الحميد بل إنها شاركت بصورة فعلية في عدة محاولات للإطاحة به قبل سنة ١٣٢٧#-١٩٠٩م.

ففي سنة ١٣٢٠#-١٩٠٢م أعد طلعت بك وزملاؤه خطةً للإطاحة بالسلطان عبد الحميد عن طريق الاستعانة بالقوات العسكرية الموضوعة تحت إمرة رجب باشا في ليبيا.

وقد توجَّه الأمير صباح الدين وإسماعيل كمال إلى بريطانيا لاستلام المساعدات منها، وقد رحَّب لورد ساندرسون (***Sanderson***) بالفكرة وقررت بريطانيا إرسال أسطولها إلى سواحل استانبول بحجة الزيارة العادية، ووضعته تحت تصرّف «الثوار».

وقام علي حيدر، ابن مدحت باشا بالحصول على مبلغ ١٠،٠٠٠ ليرة ذهبية إنكليزية من لندن.

وبدوره قام اللورد كروم بمباركته لهذه «الثورة» وقال لإسماعيل كمال الذي التقاه في القاهرة: «إن هذه القضية قضيَّة بريطانيا أكثر من كونها قضيَّة تركيا، وإذا ما نجح هذا الانقلاب فلسوف يكون بمثابة ميلاد جديد لتركيا التي ستكون صديقاً لبريطانيا».

ومن سوء حظ بريطانيا وعشَّاقها أن الخطط الموضوعة نفذت بعناية فائقة إلا خطَّة واحدة وهي أنَّ رجب باشا لم يرسل أيُّ جندي من ليبيا[٢]...

يقول أرمينوس ڤامبيري (***Arminius Vambere***) الجاسوس الإنكليزي عن السلطان عبد الحميد الثاني: إن بريطانيا لن يتسنَّى لها اكتساب صداقة السلطان وودَّه، وقررت ضرورة الإطاحة به وعزله...

ثم يقول: إنه لزام علينا الإسراع في تفتيت الدولة العثمانية وتمزيق أوصالها. وعلى

---

(١) أحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، مصر، ١٨٨٧، ص٣٦٧، وفيه الحادثة مفصل تماماً.

(٢) سليمان قوجه، السلطان عبد الحميد، ص٥٤٥.

بريطانيا أن تتدخل فوراً لمد يد العون إلى العناصر المناوئة للسلطان عبد الحميد...
ولقد أوصيتُ في تقريري بأن تؤيد بريطانيا الجماعات الموجودة في السعودية الرابحة في يد الإنكليز[١]...

وعندما جاء السفير البريطاني الجديد إلى الآستانة، أقام علاقة وطيدة مع جماعة تركيا الفتاة، مما أدى إلى ازدياد نفوذ البريطانيين وشدة وطأتهم.

وقال السلطان عبد الحميد الثاني عن صديقه الحميم «أرمينوس ڤامبيري»: «لقد قام هذا الرجل بمساعدة بريطانيا بإقامة علاقة وثيقة مع المعارضين ثم شرع في النهاية يكثف من وطأة هجومه على شخصي... وقد أجمع أعداء الإمبراطورية على أنهم لن يستطيعوا القضاء على الدولة العثمانية دون القضاء على السلطان أولاً..

وقد أعلن ڤامبيري إهانته لي عياناً بياناً. ويقول: لقد اشتد عداء الإنكليز لنا منذ منحنا الألمان امتياز خط بغداد، واشتد عداء فرنسا أيضاً التي كانت تتعلق بأذيال السياسة الإنكليزية[٢].

وكان طريق العالم الكبير، من وجهة نظر بريطانيا، يمر من قبل الدولة العثمانية، وكان طريق الشرق، وطريق الحرير يمر من الأراضي العثمانية.

وكان معظم سكان الإمبراطوريَّة البريطانية في آسيا هم من المسلمين الذين يدينون بالولاء الحقيقي للسلطان عبد الحميد، وليس لبريطانيا[٣].

ولذلك لجأت بريطانيا إلى التقرُّب من الدولة العثمانية بحساب دقيق جداً، وفي الوقت نفسه لم تكفْ عن التخريب داخلها بإثارتها الأكراد والأرمن والعرب وصولاً إلى الهدف الأسمى وهو إسقاط السلطان عبد الحميد، آخر الخلفاء المسلمين الحقيقيين، ووضع سلطان جديد لا حول له ولا قوة.

وكان للتفوق العسكري العثماني الذي بدا واضحاً في حرب اليونان أثر قاتل على بريطانيا، إذ أثار هذا الانتصار مخاوف بريطانيا من عودة القوة العثمانية من جديد،ولذلك لم تغفل يوماً واحداً عن الدولة العثمانية أو السلطان عبد الحميد الثاني الذي كان يعلم تماماً بهذه النوايا الاستعمارية المدمّرة[٤].

وكانت بريطانيا تتحرك ضمن الدولة العثمانية من خلال الأرمن الذين أرادت بريطانيا أن تقيم لهم دولة في الأناضول، لكن السلطان عبد الحميد الثاني كان يعرف ذلك تماماً، ولذلك قال للإمبراطور غليوم الثاني: «إنني أفضل الموت على القيام بإصلاحات تجعل من الأناضول الشرقي منطقة ذات استقلال ذاتي»[٥].

ومن العوامل التي أهاجت أوروبا عموماً وبريطانيا خصوصاً ذلك الانتصار العثماني الهائل على اليونان، والذي جاء بعد سلسلة من الهزائم والنكسات التي منيت بها الدولة العثمانية من الحرب الروسية - العثمانية المشؤومة إلى تسليم قبرص إلى سقوط تونس ومن بعدها مصر[٦].

---

(١) سليمان قوجه، المرجع السابق، ص٥٠٨.
(٢) سليمان قوجه، المرجع نفسه، ص٥٠٩.
(٣) ***Yrd.Doç.Dr.Av. Faruk Yılmaz, imparatorluk döneminde Türk-Almaniliskileri-Ankara 2004, P.50-51.***
(٤) سليمان قوجه، المرجع السابق، ص١٢٦.
(٥) سليمان قوجه، المرجع نفسه، ص١١٩.
(٦) ***Kazim Karabekir, op-cit, P.228***

وكانت أوروبا تردد شعارها علناً وتسير على هداه وهو: «- إن ما أخذه الصليب من الهلال لا يمكن أن يعود إلى الهلال».

- وما أخذه الهلال من الصليب لابد أن يعود إلى الصليب». وهو ما يمكن تسميته بالحرب الصليبية الجديدة.

ولذلك عندما طالبت الدولة العثمانية بالاحتفاظ بمساحة من الأرض اليونانية على الحدود، قال لورد سالزبري في مجلس العموم: «لا سبيل إلى إعادة أي شيء إلى الهلال سبق له أن انتقل إلى الصليب».

لقد خرجت الدولة العثمانية منتصرة في الحرب اليونانية لكنها عوملت وكأنها دولة مغلوبة.

لقد كانت بريطانيا بالتحديد، وراء معاهدة استانبول في ٩ تشرين الثاني ١٣١٥#-١٨٩٧م التي قضت بانسحاب تركيا من الأراضي اليونانية، وتسليم كريت لليونان، وطرد أهلها المسلمين الذين جيء بهم إلى الأناضول ودمشق، وهكذا ظهرت بريطانيا بوجهتها القبيح الذي كانت تخفيه أو تظهره بحسب الظروف[١].

وكان في بريطانيا، كما في أوروبا كلها، رجال شرفاء منصفون ينظرون إلى الدولة العثمانية بدون تحيز أعمى، ولكنهم لا يؤثرون في سياسة بلادهم لأنهم قلة.

وهذا مايثبته قول السّير «ريتشارد وود» (***Richard Wood***) قنصل بريطانيا في تونس، وهو من المستشرقين المعتدلين، «بأن الدولة العثمانية حرصت على إرضاء رعاياها من النصارى واليهود، وإزالة الفروق بينهم وبين المسلمين، وتقليدهم المناصب الرفيعة وإعلاء شأنهم»، ثم يقول:

«ولا يخفى أن الباب العالي وجد في هذا السبيل مقاومة من الرعايا المسلمين، بل من الكنائس نفسها لما بينها من العداوات حتى صار النصارى يتعلمون من دولة إسلامية أهداف الدين من الحضّ على الرفق واللين والتساهل والصبر»[٢].

ومن الرجال الإنكليز الذين أنصفوا السلطان والدولة العثمانية المستر «كليف بجهام» (***Cliff bjaham***) المندوب العسكري في السفارة الإنكليزية في بطرسبورغ في كتابه: «مع الجيش العثماني في تساليا» الذي قال:

إذا كانت بريطانيا، بقوَّتها الهائلة تئن من ايرلندا، فكيف يكون السلطان الذي يقود دولة فيها خليط من الأجناس والأديان والمقاصد، لا يقدر عليها إلا الذي خلقها.

وإني بلسان الإنصاف أدعو كل إنكليزي أعماه الغرض أن يخصص وقتاً ليرى الدولة العثمانية على حقيقتها.

ثم يقول: كان بودّ الكثير ممن أعماهم الغضب من الإنكليز أن تستولي روسيا على الآستانة وتُنهي المسألة الشرقية ولكن خاب فألهم فهم على جانب عظيم من الجهالة والحمق، ألا يدرون أن البحر المتوسط يصبح تحت رحمة روسيا؟

إذا كانت بريطانيا لا تكفل السلام في بريطانيا فما بالك بالدولة العلية وعندها ما يماثل أضعاف ايرلندا من يونان وبلغار وأرمن وأفلاق وأكراد وأرناؤوط ودروز وشوام مع اليهود والعرب والشركس جميعهم يكرهون بعضهم، ومع ذلك تحكمهم الدولة بالعدل

---

(١) سليمان قوجه، المرجع السابق، ص٤٠٣.

(٢) عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في سورية، مرجع سابق، ص٣١٤.

والأمان وإن دولة كهذه تملك نظاماً أقوى من النظم الأوروبيَّة[1]...

وإن المذابح الأرمنية لم تكن مدبرة، بل كانت نتيجة خمسة أسباب أهمها التشهير بها في بلاد الإنكليز وسب السلطان الأعظم علناً، وسبّ دين الإسلام، وقد كان لذلك وقع سيء في قلوب المسلمين، ونتج عنه سقوط نفوذ بريطانيا في الدولة العثمانية.

كما أن السير «غراي» (***Gray***) سفير بريطانيا في الآستانة غير منصف في طلباته لحماية المسيحيين.

كما أن الضغط البريطاني على الدولة العثمانية أثار المسلمين ضد الأوروبيين، وكانت المذابح دفاعاً عن النفس لأنه لا يعقل أن يسمح السلطان للأرمن بأن يسودوا على المسلمين[2].

وأخيراً قامت بريطانيا بتدبير خلع السلطان عبد الحميد، وكانت تلك الضربة القاضية التي أدت إلى انهيار الخلافة والدولة العثمانية فيما بعد، وأنتجت الواقع المرير الذي تعيشه الأمة العربية والإسلامية اليوم من تجزئة وتشرذم كبيرين.

لقد قام التنظيم السريّ البريطاني بتنظيم قوة المعارضة العثمانية ودبروا معاً ما يعرف بحادثة ٣١ آذار ١٩٠٩، ونزل جيش الحركة بقيادة محمود شوكت باشا إلى شوارع استانبول وكانت السفارة البريطانية في الآستانة العقل المدبّر لكل ما حصل يوم ٣١ آذار وما قبله وما بعده.

وكان عميل البريطانيين الأول في الآستانة هو إسماعيل كمال، وهو أرناؤوطي متسلّط. وقد أوصله الإنكليز إلى رئاسة مجلس «المبعوثان» بعد أحداث تموز ١٩٠٨م-١٣٢٦#[3].

والخلاصة فإن بريطانيا لم تكن صديقة للعالم الإسلامي والعربي في أيّ وقت أبداً، ولكن كانت تحبُّ أن تبدو في أعين العالم الإسلامي دولة صديقةً، ولا زالت كذلك[4].وستبقى بريطانيا وغيرها،مهما غيرت من أقنعتها الاستعمارية الغادرة ،ذلك العدو الطامع المتربص ببلادنا والطامع في خيراتها ،والراغب في تقسيمها والسيطرة عليها مهما تغيرت الأزمان.

ب- موقف روسيا:

كانت روسيا هي العدو التقليدي الثاني للدولة العثمانية وكانت تحلم على مدى القرون بالسيطرة على استانبول أو القسْطنطينية تمهيداً للسيطرة على «أرثوذكس الشرق».

وكانت كنيسة روسيا تابعة لكنيسة القسطنطينية وبقيت كذلك حتى سنة ١٥٨٩ ثم أصبحت بطريركية مُوسكو التي أخذت على عاتقها مساندة الشعوب السلافية ضد الدولة العثمانية وسعت لنشر نفوذها على العالم الأرثوذكسي بكاملة، وقد اعتبرت نفسها «روما الثالثة» بعد روما الأولى، وروما الثانية أي القسْطنطينية[5].

---

(١) علي شاكر باشا، القول السديد في حرب الدولة العلية مع اليونان، القاهرة، ص٢١

(٢) علي شاكر باشا، المرجع السابق، ص١٨٣.

(٣) سليمان قوجه، المرجع السابق، ص١٦٥.

(٤) سليمان قوجه، المرجع نفسه، ص٢٨١.

(٥) ميشيل يتيم، تاريخ الكنيسة الشرقية، المكتبة البولسية، بيروت سنة ١٩٩٩، ص٢٧٧.

ومن جهة أخرى فقد بدأ النفوذ الفعلي الروسي في السلطنة العثمانيّة منذ معاهدة «كارلو فيتز» (***Karlo Witz***) التي وقعت مع بطرس الأكبر، والتي نصت على أن قيصر روسيا سيكون «وسيطاً» بين السلطان العثماني وبين رعاياه المسيحيين الأرثوذكس.

وصارت روسيا تغّلفُ مصالحها السياسية في الدولة العثمانية بغلاف ديني سمي بـ«الجامعة الأرثوذكسية» وكانت ترى نفسها مسؤولة عن جميع الأرثوذكس تجاه الدولة العثمانية.

ولذلك عمدت إلى إثارة البلقان واليونان حتى تصل إلى هدفها الأسمى وهو القسطنطينية[١].

وفي معاهدة «كوتشك قينارجة» (***Küçük Kaynarca***) سنة ١١٨٨#-١٧٧٤م، حصلت روسيا على حق تشييد كنيسة لها في الآستانة، يكون بطاركتها تحت حماية الوزير الروسي المفوَّض في الآستانة.

وقد كانت هذه المعاهدة، وتباين تفسير بنودها السبب الرئيسي في الخلافات العثمانية - الروسيَّة حتى قيام الثورة العظمى في روسيا ١٣٣٦#-١٩١٧م.

وجاءت حرب القرم ومعاهدة باريس ١٢٧٣#-١٨٥٦م ضربة قوية لروسيا، حيث أُلغيت في المعاهدة المذكورة الحماية الدينية الروسية على الأرثوذكس في المشرق العربي، لكن روسيا لم تيأس، وحاولت إيجاد دور لها، ولاسيما في فلسطين، حيث أسست سنة ١٣٠٠#-١٨٨٢م «الجمعية الفلسطينية الإمبراطورية الأرثوذكسية» التي عملت بالتنسيق مع رجال السياسة والدين على دعم النفوذ الروسي الديني والاقتصادي الروسي في فلسطين[٢].

لقد ذكر الإمبراطور غليوم الثاني أنه عندما كان في وزارة الخارجية تحت إمرة بسمارك قال له بسمارك إن هدفه الثابت هو عدم قيام أي تحالف بين روسيا وبريطانيا بأي حال من الأحوال، ولقد كانت هذه خطة بسمارك الأساسية وبناءً عليه فقد قال:

«قُلتُ لبسمارك لقد سنحت لنا الفرصة في الماضي، وما كان علينا في الحرب الروسية- العثمانية إلا أن ندع الروس يقتربون من الآستانة، حتى تهبُّ بريطانيا لصدّهم وستنشب الحرب بين الدولتين.

ولكننا بدلاً عن ذلك أجبرنا الروس على قبول معاهدة آياستيفانوس، واضطررناهم للتقهقر بعدما وصلت جيوشهم إلى أبواب القسطنطينية، ثم كانت معاهدة برلين سنة ١٢٩٦#-١٨٧٨م التي سلبنا فيها مكتسبات روسيا المنتصرة، وكانت النتيجة عداءً تاريخيًّا من الروس تجاهنا. وأكمل قائلاً: «في الواقع أنه منذ مؤتمر برلين انتهى التفاهم الروسي - الألماني، نهاية محزنة وحلَّ محله التقارب الروسي-الفرنسي وهو ما لم يدركه بسمارك وبذلك خرجت دولتان من الدول الصديقة لألمانيا وصارتا تعملان ضدناً»[٣].

ويقول: ولقد سمعت ذلك من الضباط البروسيين الذين كانوا يقاتلون في صفوف الروس في الحرب الروسية - العثمانية وأولهم الكونت «بفايف» (***Pfeif***)»[٤].

---

(١) روسيا وأرثوذكس الشرق، مجموعة باحثين، جامعة البلمند، لبنان، ١٩٩٨م، ص٢٣٨. و ***Kazim Karabekir, op-cit, P.299-300***.

(٢) روسيا وأرثوذكس الشرق، المرجع السابق، ص٢٤١.

(٣) مذكرات الإمبراطور غليوم الثاني ص١٠.

(٤) المصدر نفسه، ص١٠ و١١.

ويقول الإمبراطور الألماني: «لقد التقيت كبار الضباط الروس في «بريست ليتُوفسك» (***Brest Linowisk***) فقالوا: إن مؤتمر برلين كان غلطة قاتلة لألمانيا تجاه روسيا، فقد قضى على الصداقة القديمة التي كانت بيننا، وأزال الثقة بألمانيا من البلاط ومن الحكومة، ويشعر الجيش أن بسمارك جنى عليه جناية عظيمة بعد الحرب الدموية التي خاضت غمارها سنة ١٢٩٤#-١٨٧٧م، وأنه لابد أن ينتقم لنفسه، وهكذا فإنك تجدنا حلفاء هذه الجمهورية الفرنسية الملعونة الممتلئة بغضاً لكم والقائمة على أفكار مخرّبة قد تكون السبب في خراب هذا البيت المالك إذا وقعت الحرب بيننا وبينكم، وهذا ما حدث بعد ذلك»[١].

وذكر غليوم الثاني أنه في أثناء وجوده في «برست لينوفسك» (***Brest Linowisk***) أنه التقى القيصر الروسي «الكسندر الثالث»[٢] (***Alexander III***) وقد قال له:

«إذا أردتُ الآستانة فإني قادر على الاستيلاء عليها متى شئت بدون الحاجة إلى نصائح بسمارك وإذنه...»[٣]. ولكن السياسة الروسية تغيرت تجاه ألمانيا بعد وفاة القيصر الروسي الكسندر الثالث، وجلوس القيصر نيقولا الثاني[٤] على العرش، فلقد ذكر غليوم في مذكراته: أنه في سنة ١٣١٩#-١٩٠١م ألمح رئيس الوزراء البريطاني تشمبرلن إلى روسيا في محاولة منه لعقد اتفاق ضد ألمانيا، فاعتذر القيصر نيقولا عن ذلك بسبب أواصر القربى بين القيصرين الروسي والألماني والعلاقات التاريخية بين الجيشين الروسي والبروسي[٥]. ثم ما لبث أن عمدت بريطانيا إلى عقد اتفاق مع اليابان ونشبت على أثر ذلك الحرب بين روسيا واليابان وهزمت روسيا هزيمة نكراء جعلتها تنصرف تماما عن أمور الشرق وتحصر اهتمامها في الهند ومشاكل البلقان والآستانة وفارس[٦].

والمهم أن روسيا اتبعت مع الدولة العثمانية بعد مؤتمر برلين ١٣٩٥#-١٨٧٨م سياسة الحرب الباردة وإثارة القلاقل في بلغاريا وكريت[٧].

ومنذئذ صارت سياسة روسيا تجاه الدولة العثمانية تتبلور ضمن المحاور التالية:

(١)- سحب تأييد روسيا للأرمن، حتى لا تكون روسيا ألعوبةً بيد بريطانيا الداعمة للأرمن أبداً.

(٢)- المحافظة على الوضع الراهن في أوروبا حتى تنعم روسيا بالحرية المطلقة في البلقان والشرق الأوسط.

(٣)- إعداد الجيوش الروسية وتجهيزها تدريجياً كي تحقق هدفها في الوقت المناسب وهو احتلال القسطنطينية[٨].

---

(١) مذكرات الإمبراطور غليوم الثاني، ص١٩.

(٢) ألكسندر الثالث (***Alexander III***): من أسرة رومانوف (١٨٤٥-١٨٩٤) قيصر روسيا السابع عشر ما بين عامي (١٨٨١-١٨٩٤) خلفاً لأبيه ألكسندر الثاني. (***www.ar.wikipedia.org***).

(٣) مذكرات الإمبراطور غليوم الثاني، المصدر السابق، ص١٩.

(٤) نيقولا الثاني: آخر أباطرة روسيا، استمر حكمه من (١٨٩٤ عند وفاة والده ألكسندر الثالث حتى ١٩١٧ حين تنازل عن العرش لأخيه الدوق الأكبر ميخائيل ألكسندر فيتش، يتنسب إلى عائلة رومانوف الإمبراطورية، أعدم مع أسرته رمياً بالرصاص في ١٧ تموز ١٩١٧، بعد الثورة البلشفية في روسيا. (***www.ar.wikipedia.org***).

(٥) مذكرات الإمبراطور غليوم الثاني، ص٢١.

(٦) عازوري، المصدر السابق، ص٨٤.

(٧) محمد حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، دمشق، ١٩٩٠، ص١٤٧.

(٨) سليمان قوجه باشي، السلطان عبد الحميد، ص٢٩٦.

وعندما علم السلطان بهذه السياسة عمد إلى تغيير سياسته فوراً تجاه روسيا وكان يقول إن المتاعب والمصائب التي سببتها لنا روسيا في الماضي القريب لن تُمحى من الذاكرة، إنها أخطر وأكبر عدوٍّ مفزعٍ قريبٍ من حدودنا.

وعلى هذا الأساس عمد السلطان إلى استرضاء القيصر الروسي وإتحافه بالهدايا القيمة، وكان يرسل كلاً من فؤاد باشا وطورخان باشا إلى قصر القيصر الروسي على ساحل البحر الأسود.

وكان السلطان عبد الحميد الثاني يقول لابنته عائشة: «إني كنت لا أفوِّت أدنى فرصة لتقوية أواصر الود والصداقة مع القيصر الروسي من أجل حماية الدولة العثمانية من المخاطر المهلكة الآتية من روسيا»(١).

أما عن التقارب الألماني العثماني، فلم تكن روسيا مرتاحة إليه، كما أنها لم تكن ترتاح لأي تقارب مع أي دولة أخرى، طالما أنه يفيد الدولة العثمانية أو يقوِّيها. وقد وقفت موقف العداء تجاه هذا التقارب؛ لأنها ترى أن ألمانيا أخرت انهيار الدولة العثمانية بدعمها العسكري والفني لها. ولذلك أثارت المتاعب في وجه الدولة من الشرق والجنوب والغرب.

فمن الشرق، كانت روسيا منزعجة تماماً من التغلغل الملاحي الواسع لبريطانيا في الرافدين والخليج وبالقرب من إيران، الحليف التاريخي لروسيا.

وكانت بريطانيا ترى في العراق ما تراه فرنسا في سورية، وتعتبره بشكل أو بآخر من نصيبها، ولذلك وافقت على عروبة إقليم عربستان ودافعت عنها، بينما وقفت روسيا مع إيران لضم هذا الإقليم إليها.

ومن الجنوب، كانت تنتهز الفرص لإثارة القلاقل بين الأرمن، على الرغم من سياستها المعلنة بعدم استعدادها لمساعدة الأرمن أو إقامة دولة لهم على حدودها. ومن الغرب أثارت البلقان وغيرهم. وعندما حاولت اختراق الخليج تصدَّت لها بريطانيا بدون أن تكلف الدولة العثمانيَّة هذا العناء(٢).

وقد أثارت روسيا معركة صحفية عنيفة ضد مشروع سكة حديد بغداد.

ونشرت جريدة «نوڤويا ڤريميا» (***Novoye Vermya***) المشهورة في آب ١٩٠١م١٣١٩# مقالاً شديد اللهجة ضد المساعي الألمانية في السلطنة.

ومما قالت فيه: «إن سكة حديد بغداد ستعطي ألمانيا الأساس المادي الذي يمكنها فرض سيطرتها من هامبورغ إلى الكويت مما يؤدي إلى فصل العالم السلافي عن العالم اللاتيني».

وقد عرض البارون الروسي كابنيست (***G.Capnist***)، في سنة ١٣١٦#-١٨٩٨م مقترحات لإنشاء خط حديدي من طرابلس في لبنان إلى بغداد والبصرة والكويت، ولكن هذه المقترحات فشلت نتيجة معارضة بريطانيا التي كانت حريصة على منع تغلغل الروس في الخليج.

ومن جهة أخرى رفضت روسيا الهيمنة البريطانيَّة في الخليج والشرق الأدنى وقالت بأن أكثر من نصف سكان الخليج يتبعون الدولة العثمانية على الرغم من وجود مصالح بريطانية خاصة لا تحب روسيا المجادلة فيها.

---

(١) سليمان قوجه باشي، المرجع نفسه، ص٢٩٨.

(٢) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية، المرجع السابق، ج٣، ص١٣٥٩. و ***Kazim Karabekir, Tarih Boyunca, op-cit, P.161-162***.

ثم مارست روسيا ضغوطاً على الدولة لممارسة حقوقها في الخليج[١].

وفي مواجهة الخطر الألماني المحتمل والذي بدا واضحاً من تغلغل الألمان في الدولة العثمانية ولاسيما بعد نجاحها في الحصول على مشروع خط حديد بغداد عقدت روسيا مع بريطانيا معاهدة سان بطرسبورغ (***Saint Petersburg***) في ٣١/آب/١٩٠٧م-١٣٢٥# وكان من أهم ما جاء فيها: اقتسام الدولتين لأراضي إيران، وتمثل هذه المعاهدة مثالاً صارخاً لاغتيال حقوق سيادية لدولة كبيرة وهي الدولة العثمانية وتقسيم أراضيها دون علمها، وأهم آثار هذه المعاهدة أنها مكنت بريطانيا من السيطرة التامة على منطقة الخليج العربي بما في ذلك الساحل الشمالي للخليج حيث ميناء «بندر عباس» وقد أدى إلى تنامي معارضة بريطانية وروسيا لمشروع خط بغداد الألماني[٢]، لكن بعد سقوط السلطان عبد الحميد الثاني عقد الإمبراطور الألماني مع القيصر الروسي نيقولا الثاني اتفاق بوتسدام (***Potsdam***) ١٩/آب/١٩١١م-١٣٣٠# تراجعت فيه روسيا عن معارضتها للخط مقابل قيام روسيا بتمديد الخطوط الحديدية في بلاد فارس. وبعد عامين حذت بريطانيا حذو روسيا ووقعت اتفاقاً مع الدولة العثمانية في ٢٩/تموز/١٩١٣م-١٣٣٢# حول الخليج العربي الذي أصبح في حقيقة الأمر خليجاً بريطانياً[٣].

وقد ردَّت ألمانيا، منذ بدايات التقارب على روسيا فقد دعا البرلمان (***Bundesrag***) الألماني في برلين إلى وقفة مترابطة ضد العدوان الروسي على الأجزاء الأوروبيَّة من الدولة العثمانية، لوضع نهائي وأبدي لأطماع روسيا بالقسْطنطينيَّة.

وإن الذي يُغري روسيا بالسلطنة ليس تحرير الأرمن وإنما القيام بحرب دينية تتضمن السيطرة على الأماكن المقدسة في فلسطين التي يؤمها كل عام آلاف الحجاج الروس.

وكانت روسيا، كما فُهِمَ في ألمانيا، لا يمكن أن تقتنع بالوصول إلى البحر المتوسط وخليج الإسكندرونة؛ لأن شعبها سيطالبها بالزحف لاسترداد الأراضي المقدسة، وهي بدورها تفهم ذلك جيداً وتسعى إلى تطبيقه[٤]....

أما الإمبراطور غليوم الثاني: فلم يكن يقيم كبير وزن لروسيا ولا لأحلامها، وكان يرى أن بوسعه إن أراد امتلاك الأناضول قبل أن تتمكن روسيا من التحرك[٥].

ولم تكن روسيا بحاجة إلى ذريعةٍ محدَّدة لتبرير مواقفها العدوانية من الدولة العثمانية، ومع أنها استاءت من التقارب العثمانيِ-الألماني إلى حد كبير، فإن ذلك لم يزد من عدائها للدولة العثمانية؛ لأن عداءها قديم وعميق لا يحتمل الزيادة.

لقد عاشت روسيا منذ نشأتها تحت وطأة هاجس الخوف من الدولة العثمانية على حدودها، والعداء للمسلمين داخل بلادها.

وكان القياصرة يرون أن محاربة الإسلام والمسلمين في داخل روسيا جزءاً من محاربة العثمانيين والمسلمين.

ومن جهة أخرى كان هدفهم الأسمى الحصول على درَّة التاج العثماني وهي استانبول أو القسطنطينية، وبذلك تتحقق لروسيا السيطرة العسكرية والروحية على أراضي الدولة

---

(١) مجموعة باحثين، ألمانيا والعالم العربي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤م، ص٤٠١ وما بعد.
(٢) عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج٣، ص٢٢١، ٢٢٢.
(٣) الشناوي، مرجع سابق، ج٣، ص٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦.
(٤) لورنس أوليفانت، أرض جلعاد، ص٤٦٩.
(٥) نجيب عازوري، المصدر السابق، ص١٤١ وما بعد.

العثمانية، وسكانها من الأرثوذكس[١].

[وكانت كنيسة موسكو قد انشقت عن بطريرك القسطنطينية سنة ٩٩٨#-١٥٨٩م[٢]، وحمل متروبوليت موسكو لقب بطريرك.

وعندما جاء بطرس الأكبر[٣] ألغى بطريركية موسكو واستعاض عنها سنة ١١٣٤#-١٧٢١م بمجلس كنسي، فأصبحت الكنيسة آلة في يد القياصرة، وصار القيصر يملك السلطة السياسية والدينية][٤].

ومنذ عهد بطرس الكبير، صار العداء للدولة العثمانية شعار جميع القياصرة الذين كانوا يعزفون على وتر القومية الروسية وعلى وتر الكنيسة الأرثوذكسية لإثارة الروس ضد الدولة العثمانية أيًّا كانت مذاهبهم.

وإذا حصل تعديل في هذه السياسة، فهو تعديل مؤقت لأسباب خاصة، ثم يعود العداء الأبدي السياسي والأيدلوجي للدولة العثمانية كما كان، ولم تتغيَّر هذه النظرة إلا بعد سقوط حكم القياصرة سنة ١٣٣٦#-١٩١٧م.

ولقد كانت الدولة العثمانية من وجهة نظر روسيا حكومة وشعباً الدولة التي تحجب عنهم ضوء الشمس، لأنها تسيطر على المضائق، وعلى القسطنطينية باعتبار العثمانيين هم الورثة الشرعيون للإمبراطورية البيزنطيَّة.

وبدورها كانت الدولة العثمانية تقف في وجه التوسعات الروسية الاستعمارية والتي بدأت منذ عهد بطرس الأكبر وآتت ثمارها في عهد الإمبراطورة كاترين الثانية[٥] (***Catherine II***)[٦].

وممَّا زاد في حدَّة العداء العثماني-الروسي، أن روسيا كانت تؤلّبُ كلاً من النمسا وبولونيا والبندقية ورهبان مالطة والبابا على محاربة الدولة العثمانية ومحوها من الوجود تماماً.

والغريب أنه لم يكن هدف روسيا خاصة، وأوروبا عامة تحرير المسيحيين من حكم المسلمين، وإنما وضع المسلمين تحت رحمة أوروبا[٧]، بالإضافة إلى الأهداف والأطماع الاستعمارية في المنطقة.

وكان مبدأ «الجامعة الأرثوذكسية» في مقدمة أهداف روسيا.

ففي سنة ١٣١٣#-١٨٩٥م عرَّف جنرال روسي الجامعة الأرثوذكسية «بأنَّها رباط

---

(١) مجدي الصاخوري، سقوط الدولة العثمانية، ص١٠٢.

(٢) الكنيسة الروسية الأرثوذكسية لبطريركية موسكو، هكذا أصبح اسمها بعد أن انشقت عن بطريركية القسطنطينية، حيث اعتبر الروس الأرثوذكس موسكو بأنها روما الثالثة (بعد القسطنطينية روما الثانية)، وبأنها آخر حصن للعقيدة الأرثوذكسية الحقة، ففي عام ١٥٨٩ نال رئيس الكنيسة الروسية لقب بطريرك واضعاً نفسه بمرتبة بطاركة القسطنطينية، الإسكندرية، أورشليم. (***www.ar.wikipedia.org***).

(٣) بطرس الأكبر، أو بيتر العظيم أو بيوتر ألكسيغيتس رومانوف (١٦٧٢-١٧٢٥) قيصر روسيا الخامس، حكم روسيا من عام ١٦٨٢ خلفاً للقيصر فيودر الثالث وحتى وفاته عام ١٧٢٥، ويعتبر من أعظم من حكم روسيا على مدار تاريخها، وهو مؤسس مدينة بطرسبورغ والتي مثلت عاصمة لروسيا على مدى أكثر من قرنين من تاريخها، خلفه في الحكم زوجته الإمبراطورة كاترين الأولى. (***www.ar.wikipedia.org***).

(٤) المطران ميشيل يتيم، تاريخ الكنيسة الشرقية، ص٢٨١.

(٥) مجدي الصاخوري، سقوط الدولة العثمانية، ص١٠٣.

(٦) الإمبراطورة كاترين الثانية: (١٧٢٩-١٧٩٦): إمبراطورة روسيا الثانية عشر من ١٧٦٢ حتى وفاتها ١٧٩٦، وهي جدة كلاً من القيصر ألكسندر الأول والقيصر نيقولا الأول. (***www.ar.wikipedia.org***).

(٧) مجدي الصاخوري، المرجع السابق، ص١٠٤.

الأخوَّة الذي يجمعُ بين المسيحيين الأرثوذكس ويجعل الجيوش تحارب في سبيلها».

وقال: «أنا ابن كنيستي قبل أن أكون ابن بلدي. أنا أرثوذكسي يوناني ثم روسي في الدرجة الثانية. وإن الروس لا يساوون شيئاً إذا لم يكونوا وطنيين، لكنهم مسيحيُّون قبل أن يكونوا روساً...»[١].

وفي سنة ١٢٩٦#-١٨٧٨م عندما تم إنشاء بلغاريا الكبرى ،وأُنشأت الجامعة السلافية من روسيا إلى جانب الجامعة الأرثوذكسية، وصارت روسيا توظف هاتين الجامعتين لإفهام الدولة العثمانية المسلمة أنه لم يعد للإسلام سلطان على النصارى...[٢].

وكان السلطان عبد الحميد يُحاول إثارة الفتن بين روسيا وعدوَّتها التقليديَّة النمسا.

ولم يكتف بذلك بل إنه حاول إقامة تحالف أو تفاهم مع الدولة التي لم تخطر على بال أحد، وهي اليابان التي كانت دولة ناشئة وتجاور روسيا، ولذلك كان ابتهاج السلطان والمسلمين لا حدَّ له بهزيمة روسيا النكراء أمام اليابان سنة ١٣٢٣#-١٩٠٥م والتي خلدها الشعراء العرب في دواوينهم، وقال السلطان: «لقد سعدنا كثيراً بهزيمة روسيا وانتصار اليابان وهو ما نراه نصراً لنا...»[٣].

وكان أكثر ما يخشاه السلطان سيطرة روسيا ليس على المضائق والآستانة، لأن أوروبا لها بالمرصاد، وإنما سيطرتها على الأناضول وكان يقول: «إن الروس إذا استقروا في الأناضول، فإنهم سيوطّدون أقدامهم ومن الصعب إخراجهم».

ومن الغريب والطريف، أن قيصر روسيا والسلطان عبد الحميد كانا على تفاهم تام في أمور أخرى وفي مقدمتها محاربتهما للثورات والثوريين وأصحاب الدستور والحرية والمساواة لأن مصيرهما كان واحداً، وهو ما تحقق بعد حين...[٤].

وكان السلطان عبد الحميد الثاني يحاول جاهداً، كما هي سياسته، عدم الوصول مع أي دولة إلى نقطة اللاعودة، مهما كانت درجة العداء معها.

ومن هذا المنطلق، استغرب السلطان عبد الحميد الحملات الصحفية الروسية على ألمانيا وعلى الدولة العثمانيَّة عند توقيع اتفاق خط حديد بغداد.

وقال السلطان: «لو كانوا يعرفون، فإن مدَّ الخط المذكور بأيد ألمانيا أفضل لروسيا بكثير من أن تقوم بهذا العمل بريطانيا ذات الأطماع التي لا تنتهي.

فالألمان لا يفكرون إلا بالمنافع الاقتصادية، أما بريطانيا فالخوف الشديد منها أنها إذا استولت على الأرض يصعب عليها كثيراً أن تتركها، وليس في مصلحة روسيا أن تكون بريطانيا جارتها من الجنوب».

ويقول السلطان: «إنه لولا قضية المضائق، لكنَّا نحن وروسيا أفضل صديقين، فإن ثمة تشابه في الإجمال والتفصيل بين الإمبراطورية الروسية والإمبراطورية العثمانية»[٥].

ج- موقف فرنسا:

(١) روسيا وأرثوذكس الشرق، جامعة البلمند، ١٩٩٨م، ص٢٤٥.
(٢) روسيا وأرثوذكس الشرق، المرجع السابق، ص٢٤٦.
(٣) سليمان قوجه باشي، المرجع السابق، ص٢٩٩.
(٤) سليمان قوجه باشي، المرجع نفسه، ص٥٢٦.
(٥) السلطان عبد الحميد، مذكراتي، ص١٤٤.

كانت فرنسا ترى في السلطان عبد الحميد عدوًّا ومنافساً لها، وكانت تعدّ العدَّة للثأر من ألمانيا وهو اليوم الذي يبدو أنه لن يأتي أبداً، فلقد كانت شديدة التأثر من الضربة التي تلقتها من ألمانيا سنة ١٢٨٨#-١٨٧١م وكانت تسعى لجمع نفسها وبذل جهودها لتحقيق هذا الثأر.

وكانت تعارض بشدة الامتيازات التي حصلت عليها ألمانيا من السلطان، كما كانت تعارض أي تحالف ألماني عثماني، وكانت تتحين الفرص لإلحاق الضرر بالسلطان العثماني ودولته.

وكان السلطان عبد الحميد يقابلها الشعور نفسه، وذلك بسبب أطماعها المعلنة في سورية وأفريقيا، وتأييدها للمعارضة العثمانية.

وتفاقم الأمر بعد احتلالها تونس سنة ١٢٩٩#-١٨٨١م ومساعدتها الأرمن، وتراخيها الغريب أمام بريطانيا في مسألة مصر، مع أنها ربما كانت تستطيع إرسال قوات فرنسية إلى مصر، وتجبر بريطانيا إلى الانسحاب.ومحاولة الوقوف في وجه اطماعها في المنطقة.

وبالفعل فقد كانت باريس مركز المؤامرات على الدولة العثمانية، وذلك بعد احتوائها لأنصار تركيًّا الفتاة ثم الاتحاد والترقي، ومساعدتها للجمعيات المتمردة في مقدونيا ورعايتها لأسرهم في أوروبا.

وهكذا فإن فرنسا كانت في وضع لا تحسدُ عليه مع ألمانيا وتركيًّا، ولكنها، كما سنرى، كانت تحاول الإبقاء على شعرة معاوية مع الدولة العثمانية، وفيما يلي ذكر لمراحل تطور العلاقات العثمانية الفرنسيَّة، وموقف فرنسا من التقارب العثماني-الألماني بصورة مفصَّلة.

كانت فرنسا منذ سنة ٩٤٢#-١٥٣٥م[١] تتمتع بوضع خاص في الدولة العثمانيَّة من حيث الامتيازات لها ولرعاياها المسيحين الكاثوليك[٢].

وفي سنة ١٧٤٠[٣] وقعت معاهدة أخرى أكَّدت أهم المكتسبات الفرنسية في الدولة العثمانية، وكانت بداية لامتيازات أخرى طالبت بها الدول الأوروبية.

ووفقاً لمعاهدة (***Letters Patentes***) حيث ورد فيها المدة ٣٢ المتضمنة:

«إن المطارنة التابعين لفرنسا، وسائر الرهبان الذين يمارسون الديانة الفرنجيَّة-الكاثوليكية، ضمن حدود بلادهم من أي أمَّةٍ وأي نوع لن يتعرضوا لأي مضايقة بشأن ممارستهم مهام وظائفهم حيث يقطنون ضمن سيادتنا في أرجاء سلطتنا منذ أمد بعيد. وإن الحقوق التي حصلت عليها فرنسا تبقى محفوظة لها، وإنه لمن المسلَّم به ألا يحدث أدنى تبديل في الوضع الراهن للأماكن المقدسة[٤]....

وكانت ألمانيا ترى أن ثمة خطأ في كلمة واحدة في هذه المادة وهي وجود كلمة (***Nation***) بدلاً من (***Genre***) التي تعني الجنس وليس الأمَّة، وبذلك لا يحق لفرنسا إخضاع

---

(١) وهي المعاهدة التي عُرفت بمعاهدة الامتيازات أو معاهدة «الصداقة والتجارة الفرنسية العثمانية» وعقدت بين الملك الفرنسي فرانسوا الأول والسلطان سليم القانوني.

(٢) ***Roger Owen, The Middle East in the world Econmy-London, 1993, P.23-24***. حتى الصفحة ***43*** يتكلم الباحث في هذه الصفحات عن امتداد النفوذ الفرنسي في الدولة العثمانية منذ ١٥٣٥ حتى عام ١٩١٤، وخاصة في منطقة بلاد الشام.

(٣) معاهدة بلغراد ١٧٤٠م وفيها اعترف السلطان العثماني لفرنسا بحق حماية الكاثوليك في الدولة العثمانية.

(٤) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص٢٧٢.

الرعايا الألمان الكاثوليك لسيطرتها...

ثم لجأت فرنسا إلى البابا الذي أعلن في تموز ١٨٩٨م-١٣١٦# موافقته على إنشاء لجنة دوليَّة للدفاع عن امتيازات فرنسا في الشرق، وأكد على هذه الحقوق التقليدية.

ومن جهة أخرى، وقعت فرنسا مع الخديوي إسماعيل اتفاقية تستثنى فيها المؤسسات الكاثوليكية المشمولة بحماية فرنسا من مسألة الخضوع لسلطة المحاكم الدولية التي كانت قد أنشئت في مصر.

وقد صرَّح القنصل الألماني العام معقباً على تلك الاتفاقية بأن الحكومة الألمانية لا تعترف بحماية مطلقة لأي دولة على المؤسسات الكاثوليكية في الشرق، وتحتفظ لنفسها بكامل الحقوق تجاه رعاياها الألمان العاملين في المؤسسات الفرنسية، وترى أن هذه الاتفاقية لا تعني الكاثوليك الألمان في مصر(١).

ومن جهة أخرى كانت فرنسا بحسب موقعها وحضارتها وسمعتها العسكرية العالية منذ أيام نابوليون، وسيطرتها على الجزائر وغيرها، تعدُّ أسطورة عسكرية وحضارية في العالم.

وكانت ترى منذ أيام الحروب الصليبيَّة أن لها بالشرق علاقة خاصة متميّزة تشبه الحماية أو الوصاية أو الحقوق التاريخية.

وعندما حصلت على الامتيازات الكثيرة من السلطان سُليمان القانوني صارت الدولة الأولى في الآستانة، وصارت سفارتها ضمن الدولة العثمانية، وازدادت هذه الأهمية مع تزايد ضعف الدولة العثمانية.

ولم تقابل فرنسا هذه الامتيازات بأي تقرب للدولة العثمانية لمساعدتها أو الوقوف في وجه الدول الطامعة فيها، بل إنها وقفت بكل قوتها وراء محمد علي باشا في مصر حتى اللحظة الأخيرة. ثم بادرت إلى احتلال الجزائر وألحقتها بها مباشرة ومارست فيها أسوأ أنواع الإرهاب العرقي والديني وكانت الجزائر بمثابة الدرع الجنوبي المهم للدولة العثمانية مكَّنها في بعض الفترات من السيطرة على الملاحة في البحر الأبيض المتوسط ولذلك كانت هزيمة فرنسا أمام القوات الألمانية ١٢٨٧#-١٨٧٠م فرحة كبرى في كل العالم الإسلامي والدولة العثمانية، فانهارت هيبتها العسكرية وصارت دولة من الدرجة الثانية، ومن هنا نستطيع أن نفهم موقفها من التقارب الألماني-العثماني.

وقد عبَّر السفير الألماني في الآستانة البارون «هانز فيلد» (***Hansfeld***) سنة ١٢٩٨#-١٨٨٠م في تقرير بعث به إلى برلين عن هذه الحقيقة بالقول:

«لقد انتهى أمد النفوذ الفرنسي بانتهاء نابوليون الأوَّل(٢) (***Napoleon Bonaparte***) وإذا كان النفوذ الإنكليزي قد حل محلَّه منذ عهد رئيس الوزراء الإنكليزي الماكر اللورد بالمرستون(٣) (***Lord Palmerston***)، فإنه انتهى بدوره إبَّان عهد اللورد غلادستون(٤) (***Lord***

---

(١) عبد الرؤوف سنو، المرجع السابق، ص٢٧٣.

(٢) نابليون الأول (***Napoleon Bonaparte***): هو قائد عسكري وحاكم فرنسا وملك إيطاليا وإمبراطور الفرنسيين عاش خلال أواخر القرن الثامن عشر حتى أوائل عقد العشرينيات من القرن التاسع عشر (١٧٦٩-١٨٢١). (***www.ar.wikipedia.org***).

(٣) هنري بالمرستون (***Lord Palmerston***) (١٧٨٤-١٨٦٥): سياسي إنكليزي ووزير خارجية بريطانيا من (١٨٢٠-وحتى ١٨٤١) وساعد اليونان وبلجيكا على نيل استقلالهما، ووقف ضد محمد علي باشا والي مصر في توسعاته (١٨٣٩-١٨٤١)، ترأس الوزارة مرتين من ١٨٥٥ حتى ١٨٥٨، ومن ١٨٥٩ وحتى ١٨٦٥، واجه حرب القرم ببراعة وساعد على استقلال إيطاليا دبلوماسيته المشهور رفعت مقام بريطانيا بين الدول. (***www.ar.wikipedia.org***).

(٤) وليم غلادستون (***William Ewart Gladstone***): سياسي بريطاني (١٨٠٩-١٨٩٨)، تولى رئاسة الوزراء

(***Gladstone***).

وطلب من القيصر سرعة التحرك لملء الفراغ[1]...

وقد عبَّر السلطان عبد الحميد عن رأيه في فرنسا عندما قال: لقد منحنا للإمبراطور غليوم الثاني حق حماية الكاثوليك التابعين للكنيسة الألمانية في فلسطين فبدأت فرنسا بالصراخ والعويل.

يجب على الفرنسيين أن يعرفوا أن عهد فرانسوا الأوَّل وغيره قد ولَّى وانقضى، ولم تعد فرنسا وحدها هي حامية الكاثوليك.

والألمان أنفسهم لا يرضون بحماية الفرنسيين لهم، ولا يقبلون حامياً لهم إلا بلدهم.

وإن الفرنسيين الآن – ١٣١٦#-١٨٩٨م - يبدون أبعد عن قلوبنا مما كانوا سابقاً، وقد يكون استيلائهم على تونس نصيب في ذلك[2].

وكان بسمارك منذ سنة ١٢٩٢#-١٨٧٥م يحض فرنسا على احتلال تونس، وقال للفرنسيين في مؤتمر برلين ١٢٩٥#-١٨٧٨م: خذوا تونس إن كنتم ترغبون .

وفي سنة ١٢٩٨#-١٨٨٠م قال: «إننا لا يُمكن إلا أن نبتهج عندما تضع فرنسا يدها على المغرب»[3].

ولم تترك فرنسا لغيرها، الانفراد بالدولة العثمانية، وإنما بادرت إلى استخدام «حقها التاريخي» في سُورية الطبيعية.

ومن هذا المنطلق فتحت المدارس والجامعات والجمعيَّات الدينية وراهبات الناصرة، وكانت قمَّة أعمالها جامعة القديس يوسف في بيروت التي كانت منارة روحية لأحباب فرنسا في الشرق العربي.

وكان هم فرنسا الأول تشكيك السوريين عمُوماً بالسلطنة والسلطان والعقيدة، ونشر «الحضارة الفرنسيَّة» مكانها[4].

وكأن سلاح فرنسا الرئيسي في الشعوب العثمانية رفعُ الشعارات الجديدة مثل شعار الحريَّة والإخاء والمساواة، والحكم الدستوري وقيام الأحزاب والجمعيات، من أجل بذر بذور الشحناء والتباغض والخصام بين أبناء الوطن الواحد حتى يسهل دخول فرنسا بوصفها دولة «محرِّرة». وهو ما تحقق بالكامل في عهد السلطان عبد الحميد الثاني[5].

وكانت هزيمة فرنسا النكراء أمام بروسيا في شتاء ١٢٨٧#-١٨٧٠م وتتويج الإمبراطور غليوم الثاني في قلب باريس في كانون الثاني سنة ١٢٨٨#-١٨٧١م واحتلال الألزاس واللورين، ضربة قاضية لفرنسا.

وقد حاول بسمارك من جهته إلهاء فرنسا عن ألمانيا ودفعها دفعاً لاحتلال المغرب

في بريطانيا أربع مرات من ١٨٦٨ إلى ١٨٧٤، ثم من ١٨٨٠ وحتى ١٨٨٥، وبعدها لمدة عام ١٨٨٦، وآخر مرة استلم الوزارة وعمره (٨٢ عام) من ١٨٩٢حتى ١٨٩٤، وهو بذلك يكون أكبر من تولى هذا المنصب في تاريخ بريطانيا.

في أثناء وزارته الثانية (١٨٨٢) غزت بريطانيا مصر واحتلتها، ونقل عنه قوله: (ما دام هذا القرآن في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق. (www.ar.wikipedia.org).

(١) أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص٣٠٧.

(٢) السلطان عبد الحميد، مذكراتي، ص١٢٥.

(٣) أوروبا من ١٧٨٩م حتى أيامنا، مجموعة مؤلفين ٣ مجلدات، باريس، مكتبة العويدات، بيروت، ١٩٩٥م، ج٣، ص٣٢٣.

(٤) جيرارد دو جورج، دمشق عبر العصور، دار قتيبة، دمشق، ٢٠٠٧، ص٥٩٩.

(٥) أكمل الدين أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، المرجع السابق، ص٢٧٥.

العربي، بينما كانت فرنسا تحاول الخروج من الموقف الذي لا تحسدُ عليه والذي وضعها بسمارك فيه[1].

ولم تكن في وضع يسمح لها بالثأر ومحو عار الهزيمة أو استعادة الألزاس واللورَّين، بل إنها كانت تخشى دائماً هجوماً ألمانياً جديداً عليها.

وكان بسمارك حريصاً على عدم تحالف فرنسا مع أي دولة أخرى، وحتى يتم ذلك عقد هو ما يعرف بـ«معاهدة الأباطرة الثلاثة» سنة ١٢٩٩#-١٨٨١م لمدة ثلاث سنين والتي ضمت إمبراطور ألمانيا وروسيا والنمسا - المجر.

وفي هذه المعاهدة تعهدت روسيا بعدم مهاجمة ألمانيا إذا نشبت الحرب بينها وبين فرنسا، حتى ولو كانت ألمانيا هي البادئة بالحرب. وكان ذلك انتصاراً كبيراً لألمانيا.

ثم جددت المعاهدة سنة ١٣٠٢#-١٨٨٤م وانضمت إليها إيطاليا[2].

وقد حاولت فرنسا الخروج من السرداب الذي دفعها إليه بسمارك فتقربت من إيطاليا عن طريق اتفاقية اقتصادية تطورت في تشرين الثاني سنة ١٩٠٢م-١٣٢٠# إلى اتفاق سياسي تعهدت إيطاليا بموجبه بالوقوف على الحياد، إذا وقعت الحرب بين ألمانيا وفرنسا.

وهكذا نجحت فرنسا في خلخلةِ التحالف الثلاثي الموقَّع سنة ١٣٠٢#-١٨٨٤م.

وفي سنة ١٣١٠#-١٨٩٢م وقعت فرنسا معاهدة مع روسيا في «٨ آب» وضمنت بهذه المعادة أن تنجدها روسيا بحوالي ٨٠٠،٠٠٠ جندي روسي إذا هاجمتها ألمانيا، مقابل ١٣٠،٠٠٠ جندي فرنسي تدفع بهم فرنسا لمساعدة روسيا إذا هاجمتها ألمانيا أو النمسا - المجر.

وهكذا خرجت فرنسا من السرداب الذي دفنت فيه على مدى ربع قرن، وصار بإمكانها الدخول في حلبة التنافس على الدولة العثمانية كما كان الحال قبل حرب السبعين[3].

ألمانيا وفرنسا وجهاً لوجه

كانت فرنسا قلقة من النشاط الكاثوليكي الألماني في فلسطين؛ لأن ذلك يعد تحدياً مباشراً لحقوقها التاريخية في المشرق العربي.

ثم جاء تأسيس «جمعيَّة فلسطين للكاثوليك الألمان» فكان القشَّة التي قصمت ظهر البعير.

وعلى أثر ذلك كتب القنصل الفرنسي في بيروت إلى حكومته يقول: «علينا الحذر من جانب ألمانيا...

فللمرة الأولى يظهر العنصر الكاثوليكي الألماني في سورية. فإن راهبات «بوروميه (***Boromeh***)» قد أسَّس لهن بمساعدة حكومة برلين مركزاً، وهن يأملن في أن يؤسَّسن مراكز في أنحاء مختلفة من منطقة الجليل إن لم يكن في سورية ذاتها.

فبالنظر إلى قيام التنافس الذي يمكن اعتباره عملاً غير ودّي بالنسبة لفرنسا؛ لأنه يتناقض مع بنود اتفاقية دولية رسمية، فإن علينا أن نحافظ في مؤسساتنا أكثر من أي وقت مضى....»[4].

وفي هذا الصدد يقول المارشال الألماني: «فون بيبرشتاين (***Von Bieberstein***)» في

---

(١) أوروبا من ١٧٨٩ حتى أيامنا ١٩٩٥م، مرجع سابق، ج٣، ص٣١٨.
(٢) أوروبا من ١٧٨٩ حتى أيامنا ١٩٩٥م، المرجع نفسه، ج٣، ص٣٢١.
(٣) أوروبا من عام ١٧٨٩ حتى أيامنا، المرجع نفسه، ج٣، ص٣٣٢.
(٤) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، ص١٩٦.

رسالة إلى المستشار الألماني «هو هنلوهه (***Hohenlohe***)»[١]:

«وإن محاربة النفوذ الفرنسي في مسائل الكنيسة الكاثوليكية للروم الكاثوليك الذين يعيشون في تركيا هو أحد مهام السياسة الألمانية في تركيا، وبفضل نفوذنا السياسي في تركيا فنحن الوحيدين الذين يُمكننا وضعنا من تشجيع عملية التفتيت الذي تجد الحماية الفرنسيَّة نفسها فيه بسرعة مدهشة.

وإذا ما تمكنت ألمانيا من إزاحة الحماية الفرنسية المطلقة في الشرق، فإن هذا سيرفع بشكل كبير من سمعتنا في أعين الشرقيين...»[٢].

وكتب بولوف[٣] (***Bernhard Von Bülow***) وزير الخارجية الألمانية إلى الإمبراطور غليوم الثاني: «إنه من المفيد عموماً دعم كل ما يمكن بواسطته تقويض هيبة فرنسا في المشرق من جهة، وإذكاء الخصام الذي بدأ يظهر بين الألمان والكاثوليك الفرنسيين في المسائل الشرقية من جهة أخرى.... »[٤].

وكانت فلسطين هي من أكثر المناطق الساخنة بين الألمان والفرنسيين في الدولة العثمانية لأنها كانت المحك الحقيقي لوضع ألمانيا وفرنسا في الدولة.

وحدثت سنة ١٢٩٨#-١٨٨٠م صدامات دامية بين أعضاء جمعية الهيكل الألمانية في فلسطين، ورهبان الكرمل المتمتعين بالحماية الفرنسية الذين استعانوا بالفلاحين العرب لمهاجمة المستوطنين الألمان(نتيجة للتنافس بين الدولتين ألمانية وفرنسا على النفوذ في المنطقة).

وفي سنة ١٣٠٦#-١٨٨٨م أعلمت الخارجية الألمانية القنصل الألماني في القدس بأن جميع الألمان الموجودين في الشرق لهم حق التمتع بالجنسية الألمانية سواء كانوا رهباناً أو غير ذلك[٥].

وحاولت فرنسا رفع علمها على مؤسسة راهبات «بورومیه (***Boromeh***)» الألمانيات، إلا أنهن رفضن ذلك ورفعن العلم الألماني في تموز ١٣١٠#-١٨٩٢م كما سبق ذكره.

ثم أعلن «الباب العالي» أنه يقف إلى جانب ألمانيا فيما يتعلق برفع العلم الألماني على مؤسسة الراهبات، وكان أكثر من أن تحتمله فرنسا، لكنها قبلت به راغمة[٦].

ويقول نجيب عازوري إن لفرنسا في الشرق إرساليات ومصالح لا تحصى.

فلها المدارس والملاجئ والمستوصفات والمستشفيات ورؤوس الأموال والمشاريع ولاسيما في السكك الحديدية.

ولها أهم الأشياء التي لا يمكن لأحد منافستها فيها وهو حماية رعاياها الكاثوليك المتمسكين بها ولذلك فإن مركزها في سورية ولبنان وفلسطين والعراق يتحدى كل منافسة[٧].

---

(١) الأمير شلودفيغ (***Honhenlohe***): (١٨١٩-١٩٠١) سياسي ألماني، تولى منصب المستشارية في الإمبراطورية الألمانية الثالثة من ١٨٩٤ حتى ١٩٠٠. (***www.ar.wikipedia.org***).

(٢) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين، المرجع السابق، ص٢٨٧.

(٣) برنارد فون بولوف (١٨٤٩-١٩٢٩): سياسي ألماني، أمير ورجل دولة، شغل منصب مستشار الإمبراطورية الألمانية في الفترة (١٩٠٠-١٩٠٩). (***www.ar.wikipedia.org***).

(٤) عبد الرؤوف سنو، المرجع السابق، ص٢٨٧.

(٥) عبد الرؤوف سنو، المرجع نفسه، ص٢٧٢.

(٦) عبد الرؤوف سنو، مرجع سابق، ص٢٧٤.

(٧) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص١٢١.

١- فهناك ٤٥٠،٠٠٠ ماروني مع بطريرك وثمانية مطارنة.
٢- و١٥٠،٠٠٠ من الروم الكاثوليك مع بطريرك و١٤ مطراناً.
٣- و٦٠٠٠٠ كاثوليكي لاتيني.
٤- و٧٠،٠٠٠ كلداني كاثوليكي.
٥- وبطريرك لاتيني في القدس.
٦- و٢٠٠٠٠ عربي على الطقوس اللاتينية.
٧- ورئيس أساقفة في بغداد.

أي ٧٥٠،٠٠٠ «محميّ فرنسي» و٥ بطاركة و٣٧ مطراناً وثلاثة رؤساء أساقفة.

ولقد عاملت فرنسا هؤلاء بمنتهى الحب والصداقة وساعدتهم واحترمت طقوسهم[١].

وقد وصلت العلاقات الفرنسية-العثمانية سنة ١٣١٩#-١٩٠١م إلى الطريق المسدود، ونقلت وكالات الأنباء في ذلك العام أنباء انقطاع العلاقات السياسية بين الدولة العلية وفرنسا.

ويقول فرح أنطوان[٢] صاحب مجلة الجامعة إن أحد المراسلين في الآستانة شرح له السبب في ذلك، وهو في جملته نتيجة المنافسة الألمانية الشديدة.

ففي عام ١٣١٠#-١٩٠٢م: كانت مبيعات فرنسا في الدولة ٦٠ مليون فرنك.

١- فهبطت سنة ١٣١١#-١٨٩٣م إلى ٥٦ مليون فرنك.
٢- وفي سنة ١٣١٢#-١٨٩٤م أصبحت ٥٣ مليون.
٣- وفي سنة ١٣١٣#-١٨٩٥م أصبحت ٥١ مليون.
٤- وفي سنة ١٣١٤#-١٨٩٦م صارت ٤١ مليون.
٥- وانخفضت سنة ١٣١٤#-١٨٩٧م إلى ٣٩ مليون فرنك.

أي أن قيمة المبيعات الفرنسية في الدولة انخفضت إلى ١١% من قيمة المبيعات الأوربيَّة.

بينما بلغت مبيعات ألمانيا سنة ١٣١٤#-١٨٩٧م حوالي ٤٠ مليون فرنك بعد أن كانت بضعة ملايين[٣].

وأما سبب تراجع فرنسا وتقدم ألمانيا، فيعود إلى اعتماد المعامل الفرنسيَّة في ترويج بضاعتها على سماسرة وعملاء من إيطاليا واليونان وألمانيا، وهؤلاء يرفعون السعر فيقل الطلب على البضائع الفرنسية.

أما المعامل الألمانية فإنّها ترسل عملاء مختصين بطرق ترويج البضائع.

ولهم فوق ذلك شركة كبرى تدعى: شركة التصدير لها فروع في مصر والآستانة واليونان وسالونيك وإزمير ومرسين وبيروت وحلب ودمشق ويافا وحيفا وبروسة[٤]

---

(١) نجيب عازوري، المصدر السابق، ص١٢٢.

(٢) فرح أنطون (١٨٧٤-١٩٢٢): أديب وروائي وكاتب مسرحي وصحفي لبناني، ولد في طرابلس لبنان، أصدر مجلات «الجامعة العثمانية ١٨٩٩» و«الجامعة»، كما كان محرراً في صحيفة «صدى الأهرام»، وأنشأ مع أخته روز =

= أنطون مجلة «السيدات»، وسافر إلى أمريكا سنة ١٩٠٧، وأصدر في نيويورك «الجامعة» مع نقولا حداد، ورجع مصر ١٩٠٩ حيث كتب في الصحف التالية (اللواء، الأهالي، البلاغ) وألف روايات ومسرحيات من مثل «أبو الهول يتحرك»، و«الفراعنة ساهرون». (www.ar.wikipedia.org).

(٣) أنطون فرح، مجلة الجامعة، الإسكندرية، السنة الثالثة، أيلول، ١٩٠١م، جمادى الأولى ١٣١٩ ص٨٧ وما بعد.

(٤) بورصة أو بروسة (*Bursa*): هي رابع أكبر مدينة تركية تقع شمالي غربي البلاد بين مدينتي استنبول وأنقرة، وكانت عاصمة لولاية بورصة أيام العثمانيين، وتشتهر أن فيها أضرحة السلاطين العثمانيين

(***Bursa***)، تعرض على التجار بضائعها التي يحملون نماذج منها؛ لأن الشرقيين لا يشترون شيئاً قبل رؤيته.

ومن ناحية أخرى، كانت المعامل الألمانية تصنّع بضائع رخيصة الثمن خصيصاً لتصدرها إلى الشرق بناء على طلبات مسبقة من التجار.

أما المعامل الفرنسية فإنها تريد من الشرقي أن يخضع لذوقها ،ويقول فرح انطون: «بناءاً على قول الفرنسي الذي روى ذلك: مسكينة يا فرنسا أذكر أنه لم يكن أحد في القرن السادس عشر يقدم على الاتجار مع فرنسا إلا بواسطتنا، والآن فقد تخطانا الجميع[١].

وقد حاولت فرنسا تحسين صورتها لدى السلطان ذلك أنه بعد تعيين المسيو «كونستاس (***Constance***)» سفيراً لجمهورية فرنسا في الآستانة، بدأت العلاقات الفرنسية-العثمانيّة بالتحسن بعد التدهور السريع الذي كانت عليه.

ويقول السلطان عبد الحميد الثاني بهذا الصدد: «إن السفير المذكور يسعى لإعادة الهيبة إلى بلاده، وقد اتصل بضباطنا وبشيخ الإسلام وبعددٍ من الوزراء[٢]،إن الفرنسيين يخشون من صداقتنا مع الألمان، ولو أمعنَّا النظر في صُلب الموضوع لرأينا أن هناك صراعات ومبارزات بين: المسيو كونستاس، والبارون مارشال «فون بيبرشتاين» الألماني، كل منهما يسعى إلى إفشال جهود الآخر، وهذا أمر يسرّنا، واليوم يبذل السفير الفرنسي كونستاس جهداً عظيماً لمصلحة بلاده، ولقد استطاع التوسع في نشر الثقافة الفرنسية والحصول على بعض الامتيازات، ولقد أخطأنا عندما ألغينا امتياز فرنسا في السواحل حيث برزت لنا مشكلات البريد والصحة العامة والديون العمُوميَّة...»[٣].

وكما ذكرنا مراراً فإن السلطان كان شديد الحرص على إرضاء جميع الدول المعنية بالمسألة الشرقية وبخاصة فرنسا.

ولقد حاول إشراكها بشكل أو بآخر بمدّ الخطوط الحديدية في الدولة ولاسيما في إقليم الشام إلا أنها كانت مترددة، وقد جاء ردّها على عروض السلطان برسالة من سفيرها في الآستانة إلى وزارة الخارجية في باريس.

وجاء في الرد: «إن فرنسا ترحب بمدّ خط حديد بغداد، لكنه يستحيل عليها المشاركة فيه ما لم يكن لها وضع خاص مساوٍ تماماً لأوضاع الدول الأخرى».

وإن الفرنسيين لا يستطيعون الافتراق عن الروس والإنكليز، ولا يمكن بناء خط بأموال الفرنسيين وغيرهم، ويبقى تحت إدارة الألمان الصرفة، ويبقى للآخرين دور ثانوي[٤].

ولم يتم اتفاق فرنسا النهائي مع الدولة إلا سنة ١٣٣١#-١٩١٢م.

د- إيطاليا:

في صيف ١٢٨٣#-١٨٦٦م نشبت الحرب بين بروسيا والنمسا، وكانت نصراً ساحقاً لبروسيا وقائدها مولتكه[٥] (***Möltke***)، ولم تستمر الحرب أكثر من ثلاثة أسابيع استطاعت

الأوائل، والعديد من المعالم والمباني العثمانية الهامة. (***www.ar.wikipedia.org***).

(١) مجلة الجامعة، المرجع السابق، ص٩٢.

(٢) السلطان عبد الحميد، مذكراتي، ص١٣١.

(٣) السلطان عبد الحميد، مذكراتي، ص١٣٩.

(٤) موفق بني المرجة، صحوة الرجل المريض، المرجع السابق، ص١١٧.

(٥) هيلموت فون مولتكه (***Helmuth Von Möltke***): قائد بروسي (من ١٨٠٠ حتى ١٨٩١) تولى رئاسة أركان

خلالها بروسيا أن تذهل العالم بانتصاراتها وخططها العسكرية، التي أصبحت مشهورة في أوروبا.

أما حليفة بروسيا إيطاليا، فإن جيشها سرعان ما سُحق يوم ٢٤ تموز ١٨٦٦ في سهل لومبارديا أمام النمسا في معركة كستوزا[١] كما مُني الأسطول الإيطالي الذي كان متفوقاً على الأسطول النمساوي، مني بهزيمة نكراء في معركة «ليزا» البحرية، ولولا وقوف بسمارك إلى جانب إيطاليا، لانهارت إيطاليا تماماً بعد هاتين الهزيمتين وسيطرت النمسا على البندقية وما حولها، وقد طلب منها بسمارك إعادتها إلى إيطاليا بشرط توقيع الصلح، فأعادتها، وأدى ذلك إلى استياء عام في إيطاليا بوصفه إعانة بالغة لها لعجزها عن استرداد البندقية بقوّتها، وليس بواسطة بروسيا[٢].

هذه هي صورة إيطاليا عندما تم إعلان قيام الإمبراطورية الألمانية عقب هزيمة فرنسا المروّعة في حرب السبعين. وكانت إيطاليا قد ارتقت إلى مصاف الدول الكبرى ولو نظرياً في التجارة والصناعة والعلوم والآداب، كما أنها من أكثر الدول الأوربية تحرراً ومنها خرج الكتّاب المتحررون دعاة المحبة الدستورية واستقلال الشعوب (الأوربية طبعاً)، وكان الأدباء والساسة الإيطاليون يوحون لأنصار تركية الفتاة وحلفائهم من العرب بأن إيطاليا ستقف معهم إن هم ثاروا ضد السلطان حتى ينالون حريتهم وسوف تساندهم مع بريطانيا وفرنسا ولكنها لم توافق بين هذه الدعوة وبين دعواها في ليبيا[٣].

لقد كانت إيطاليا دولة فتية على الساحة الأوربية وحديثة عهد بأمور الاستعمار والتحالفات والمعاهدات، ولم تكن لها وجهة نظر محددة ثابتة من الدولة العثمانية سواء قبل التقارب العثماني - الألماني أو بعده، وكانت إيطاليا آخر دولة أوربية تشارك في المسألة الشرقية وكانت ترى بوضوح ما حققته بريطانيا وفرنسا وروسيا وألمانيا من مكاسب على حساب الرجل المريض فأرادت أن تعوض ما فاتها من الغنائم، ولم تظهر أنيابها الاستعمارية إلا بعد احتلال فرنسا لتونس سنة ١٢٩٩#-١٨٨١م، وكانت تونس وطرابلس الغرب من المناطق التي أصبحت إيطاليا ترى فيها ما رأته فرنسا في سورية والصهيونية في فلسطين والإنكليز في مصر والخليج. فادعت كما أدعى الآخرون أن لها «حقوقاً تاريخية» في طرابلس الغرب وحقوقاً أخرى في ألبانيا[٤] وتريشا والبوسنة[٥]

الجيش البروسي (الذي صار الجيش الألماني بعد تأسيس الإمبراطورية الألمانية ١٨٧١) من ١٨٥٧ إلى ١٨٨٨:

- قاد الجيش البروسي إلى النصر في معركة كونيغ غراتس (***König grätz***) ضد النمسا في الحرب النمساوية البروسية ١٨٦٦.
- قاد الجيش البروسي إلى النصر في معركة سيدان عام ١٨٧٠ ضد الفرنسيين (الحرب البروسية الفرنسية).
- أعطي لقب غراف (كونت) عام ١٨٧٠، ثم رقي إلى رتبة مارشال في العام التالي.
- تقاعد من رئاسة الأركان عام ١٨٨٨.
- هو عم هيلموت فون مولتكه رئيس أركان الجيش الألماني في بداية الحرب العالمية الأولى. (***www.ar.wikipedia.org***).

(١) معركة كستوزا: جرت سنة ١٨٦٦ خلال حرب الاستقلال الإيطالية الثالثة في عملية توحيد إيطاليا.

(٢) أوروبا في القرن ١٥ و٢٠ مجموعة مؤلفين، القاهرة، ١٩٥٠، ص٥٠٢.

(٣) نجيب عازوري، المصدر السابق، ص١٥١.

(٤) ألبانيا (بالألبانية ***Shqipëri***): هي إحدى دول إقليم البلقان الواقع جنوب شرق أوربا. (***www.ar.wikipedia.org***).

(٥) البوسنة: تقع جنوب شرق أوربا وهي مناطق ودول البلقان تقع معظمها في كرواتيا الحديثة. (المرجع

و«دالماسيا»[1] التي تعد ميراثها التاريخي منذ أيام روما وأباطرتها، وأما السلطان فكان يرى في ألبانيا والأرناؤوط حلفاء أقوياء له في وجه اليونان ومقدونيا[2].

وكما ذكرنا، فقد نجح بسمارك بضم إيطاليا إلى معاهدة الأباطرة الثلاثة، روسيا وألمانية والنمسا-والمجر وذلك سنة ١٣١٢#-١٨٩٤م وضمن بذلك حيادها في حال نشوب حرب ألمانية-فرنسية من جديد[3].

ولكن فرنسا عادت ونجحت في توقيع معاهدة مع إيطاليا سنة ١٣٢٠#-١٩٠٢م، تعهَّدت فيها إيطاليا بالوقوف على الحياد في حال نشوب حرب فرنسية-إلمانية[4].

ولم يُلق السلطان بالاً لمطامع إيطاليا، ثم تقصَّى الأمر من جهاز «الخفية»[5] فكانت المعلومات كالتالي:

١- إن للإيطاليين بمدارسهم ومصارفهم ومؤسساتهم الخيرية التي يقيمونها في الولايات العثمانية هدفاً واضحاً هو الاستيلاء على:
- طرابلس الغرب وملحقاتها.
- وألبانيا.
- ومناطق الأناضول المطلَّة على البحر المتوسط مثل إزمير واسكندرونة وأنطاليا[6].

ولذلك بادر السلطان إلى إرسال ١٥،٠٠٠ جندي إلى ليبيا.

وممَّا دفع السلطان إلى اتخاذ جانب الحذر تجاه إيطاليا أن تنظيمات تركيا الفتاة كانت مستوحاة من غاريبالدي والكاربوناري الإيطاليين.

كما أن الجماعات السريَّة الإيطالية الإرهابية كانت متعاونة مع مثيلتها الفرنسية في إثارة القلاقل في الدولة على جميع المستويات تمهيداً لإسقاط السلطان وتحقيق أهدافها وهو ما تحقق فعلاً في عهد الاتحاد والترقي سنة ١٣٣١#-١٩١٢م[7]. كما هو معروف وتركت ليبيا لمقارعة الإيطاليين وجهاً لوجه. والغريب أن حكومة الاتحاد والترقي سحبت القوات العثمانية من ليبيا قبل سقوطها بيد إيطاليا.

وكما كان لفرنسا أطماع في سوريا، فقد كانت إيطاليا تطمع بجارتها المترامية الأطراف «ليبيا» أو كما كانت تعرف بطرابلس الغرب وبرقة وبنغازي.

ولذلك ثارت إيطاليا واحتجت على انتزاع فرنسا تونس من حصتها، وبادرت إلى الارتماء في أحضان ألمانيا لمساعدتها على تحقيق أهدافها الاستعمارية مما أدى إلى دخولها في حلف الأباطرة الثلاثة كما ذكرنا[8].

ولم تكن إيطاليا معنية بالتقارب الألماني-العثماني، لأنها كانت مثل النمسا- المجر،

السابق).

(١) دالماسيا: تقع على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي. (المرجع السابق).
(٢) نجيب عازوري، مصدر سابق، ص١٥٠.
(٣) أوروبا منذ ١٧٩٨ حتى أيامنا، المرجع السابق، ج٣، ص٣٢٨.
(٤) المرجع نفسه ج٣، ص٣٣٢.
(٥) جهاز الخفية: جهاز الأمن والتجسس، وقد نشط هذا الجهاز كثيراً في عهد السلطان عبد الحميد الثاني.
(٦) محمد حرب، المرجع السابق، ص١٣٩
(٧) سليمان قوجه باشي، المرجع السابق، ص٥٢٥.
(٨) أوروبا، المرجع السابق، ص٣٢٥.

حليفة لألمانية، وكانت أهدافها التي كانت تطالب فيها في أفريقيا، وكما قال رئيس وزرائها ماتزيني: «إن شمال أفريقيا ميراث إيطالي...».

ولذلك رسمت إيطاليا خططاً هادئة وسلمية، للوصول إلى هدفها من الدولة العثمانية وهو احتلال ليبيا.

وقد تجلَّت هذه السياسة على النحو التالي:

١- إنشاء المدارس والمصارف والمشافي في طرابلس.

٢- اعتراف الدول بحقها في طرابلس.

٣- إعلان الحرب واحتلال طرابلس[١].

وهو ما تحقق، ولكن بعد إسقاط السلطان عبد الحميد[٢].

---

(١) محمد حرب، المرجع السابق،ص ١٣٨.

(٢) وأخيراً قال السلطان عبد الحميد الثاني، «إن ملك إيطاليا «أمبرتو» هو صديقه، وقد مات بقنبلة موقوتة فصار ابنه عمانوئيل ملكاً مكانه، وكانت العلاقات بيننا وطيدة، والصداقة قائمة، وكانت زوجته، ابنة أمير الجبل الأسود، وكنت أعتني بهذا الأمير وأمنحه راتباً». عائشة عثمان أونلي، والدي السلطان عبد الحميد، المصدر السابق، ص١١٩.

ثانياً – نتائج التقارب العثماني-الألماني

كانت سياسة «تحقيق التوازن » هي الشعار الثابت والمعلن للسلطان عبد الحميد تجاه الدول الأوربية.

وكان حريصاً على استغلال الخلافات العميقة فيما بينها حتى لا تتفق عليه.

١- فقد جعل فرنسا تقف وجهاً لوجه تجاه إيطاليا في ليبيا.

٢- وجعلها خصماً عنيداً للإنكليز عندما احتلوا مصر.

٣- كما أخذ يعمل على إثارة النعرات بين الصرب والجبل الأسود ورومانيا.

ومن جهة أخرى، كان يقيم صداقات حميمة مع قيصر روسيا وملوك ورؤساء أوروبا، وسفرائهم في الآستانة، بل وجواسيسهم مثل ڤامبيري (***Vampiri***) الجاسوس الإنكليزي الذي تعاطف تماماً مع السلطان وكان يكرم السفراء ويدعوهم إلى مائدته ويقدم لهم الهدايا الفاخرة.

وأفضل مثال على هذه السياسة ما أحاط به الإمبراطور غليوم الثاني في زيارته، ممَّا جعله صديق السلطان المعجب به وبشعبه.

ونظراً لعدم وجود خلفية عدائية متأصلة عند الإمبراطور الألماني تجاه السلطان عبد الحميد فإن هذا الإكرام الذي قوبل به في السلطنة جعل الإمبراطور الحليف القوي للسلطان بدون كتابة اتفاقات أو معاهدات، وهو ما دفع بالسلطان عبد الحميد إلى الاستخفاف أحياناً بمثلّث الشر: بريطانيا وروسيا وفرنسا. كما حدث عندما سحق تمرُّد الأرمن رغم احتجاج ساسة الإنكليز وحلفائهم[١].

وقد قال السلطان لابنته عائشة: «إن الإمبراطور غليوم الثاني شخصية رقيقة محبوبة، وهو يستهدف قوة ألمانيا العسكرية، وأنا في علاقتي معه كنت أحسب حساب الدول الأخرى ولا أفعل ما يغضبها، وكنت في نفس الوقت الذي أبدي احترامي له أبدى الاحترام نفسه لإمبراطور روسيا، إن موقعنا الجغرافي يقتضي منا ذلك»[٢].

أ– على الدولة العثمانية:

كان هذا التقارب فرصة جديدة، وربَّما أخيرة، للدولة العثمانية لاسترداد نشاطها وقوَّتها بعد أن كادت تنهار بفضل الهزائم العسكرية والأزمات الاقتصاديَّة وتربّص أوروبا وعملائها في الداخل بالدولة.

وكان السلطان عبد الحميد الثاني قد رأى في ألمانيا المزايا التالية:

أ- إن تقرُّبه منها سوف يخفف عن الدولة من حدة الهجمة الأوروبية ويعرقل إلى حين، المطامع الأوروبية فيها، وقد يلغيها تماماً.

ب- وكان العالم الإسلامي عموماً معجباً بكل ما هو ألماني ويرى في ألمانيا والجيش الألماني والصناعة الألمانيَّة والأفكار الألمانية شيئاً رائعاً، وبقيت هذه النظرة عند غالبية العرب حتى سقوط هتلر، وكان السلطان عبد الحميد بدوره يدرك ذلك

---

(١) سليمان قوجه، المرجع السابق، ص٣٩٦.

(٢) عائشة عثمان أوغلي، والدي السلطان عبد الحميد، دار البشير-عمان، ١٩٩١، ص١١٨.

كله ولاسيما البحرية الألمانية والنهضة الشاملة السريعة في ألمانيا.

ج- وكان يرى أن ألمانيا من أقلّ الدول طمعاً أو اهتماماً بالدولة العثمانية، لاسيما في أيام الإمبراطور غليوم الثاني.

وكان يقول: «إني كنت أرى بوضوح أن ظهور ألمانيا كفيل بزعزعة التوازن الأوروبي، فقد كانت قوة ألمانيا تزداد بسرعة ودهشة. وكان الروس يحسبون حساباً لقياصرة ألمانيا بحكم القرابة»[١].

وقال السلطان في ألمانيا: «هناك أشياء مشتركة بين دولتنا في نظام الحكم:

- لا سبيل إلى حصول مصادمات عسكرية بيننا لعدم وجود حدود مشتركة.
- ثم إني معجب بالقوة العسكرية الألمانية والصناعة الألمانية.
- وإن جيشنا وسلاحنا سيتطور كثيراً بالمساعدة الألمانية وسيتعزز موقف ألمانيا في بلادنا وتحصل على امتيازات اقتصادية[٢].

وأما الثمن الذي دفعه السلطان مقابل ذلك فهُو ثمن زهيد مثل توزيع بعض الأراضي هنا وهناك أو تقديم الهدايا والمجاملات للإمبراطور غليوم الثاني[٣].

وكما كان يقول: «إني لم أعد أي دولة بشيء، ولم أُخلف وعدي»[٤].

وكان السلطان يتعامل مع الإمبراطور غليوم الثاني وحكومته معاملة ودية، لا ينقصها الحزم الدائم.

وكان الإمبراطور موقناً بقيام حرب عالميَّة، وكان يطمع أن تكون الجبهة الشرقية لألمانيا وهي أراضي الدولة العثمانية في أوروبا وآسيا مفتوحة أمام الألمان، وهذا يعني ببساطة دخول الدولة الحرب مع ألمانيا.

ويقول السلطان: «إن ما لم يستطع الإمبراطور ذكره في زيارته سنة ١٣٠٧#-١٨٨٩م، ذكره صراحة في زيارته الثانية سنة ١٣١٦#-١٨٩٨م عندما طلب مني إعداد اجتماع سري بينه وبيني، وفي ذلك الاجتماع قال:

«هل ستقفون إلى جانبنا إذا شُنّت الحرب في أوروبا يا حضرة السلطان:

فردَّ السلطان، الذي كان يتوقع هنا السؤال: أنت صديق عزيز علينا، ولكن ليس من سلطتي الآن أن أُجيبك عن سؤالك إجابة شافية وسأفكر في الأمر مليًّا.

وقد دفع السلطان عرشه ثمناً لهذا الموقف؛ لأن الألمان الذين كانوا يدربون الجيش العثماني الثالث اعتمدوا عليه في الإطاحة بالسلطان، وهذا يؤكد حقيقة مهمَّة وهي أن الدولة العثمانية حصلت على الكثير من ألمانيا من دون أن تفقد سيادتها واستقلالها[٥].

ويقول السلطان عبد الحميد: «إن بيننا وبين الألمان شبهاً في الصفات جعلتنا نميل نحوهم. فالهدوء والحيطة والصبر على المشاق هي الصفات المميزة للشعبين، والجرأة والاستقامة واللطف والكرم هي صفات الألمان مثلما هي صفاتنا.

هناك أسباب جعلتني أميل نحو الألمان وإن لم ترض فرنسا، ولو لم يكن شيء لهذا الميل سوى شخص الإمبراطور غليوم لكفى.

---

(١) يوسف عمر، أسباب خلع السلطان عبد الحميد، ص٦٦.
(٢) سليمان قوجه باشي، السلطان عبد الحميد، ص٣٠٥.
(٣) يوسف عمر، المرجع السابق، ص٦٩.
(٤) سليمان قوجه باشي، المرجع السابق، ص٢٩٣.
(٥) سليمان قوجه باشي، المرجع نفسه، ٥١٦-٥٢٠.

إنه رجل تحبه النفس وتثق به، فهُو جدير بالإعجاب.

والألمان أساساً أقرب إلى النفس من الفرنسيين؛ لأنهم قوم شرفاء صادقون نشيطون ومخلصون في عملهم.

والفرنسيون قوم يُحبون أن يعملوا لكنهم لا يثبتون على أعمالهم ثبات الألمان، يضيعون وقتهم في سياسات لا تستقر على قرار.

والألمان إذا بدؤوا بأمرٍ بحثوا فيه وسبروا أغواره وعرفوا مداخله ومخارجه بعكس الفرنسيين[١].

ويقول نجيب عازوري: رأينا في حيفا ويافا مستعمرين ألمان، أتوا فقراء منذ بضع سنين يمتلكون حالياً عقارات تبلغ قيمة بعضها حوالي ٣٠٠،٠٠٠ فرنك وهم يتأقلمون بسرعة وسهولة ويشتغلون كثيراً وينتجون بكثرة...[٢].

وكان السلطان يرى أن ألمانيا من أقلّ الدول انتفاعاً بانحلال السلطنة، وأن اندفاعها بتنفيذ المشاريع الاقتصادية في السلطنة، ولاسيَّما في الأناضول يعطي ألمانيا حق الدفاع عن الدولة من أي خطر، ولاسيما خطر الدب الروسي.

لقد كان الهدف الرئيسي لألمانيا في السّلطنة هو الاقتصاد والمشاريع الاقتصادية[٣].

بالإضافة إلى تحقيق مكاسب سياسية مهمة من خلال التحالف مع الدولة العثمانية وهذا ما تجلى في الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣/١٣٣٨#-١٩١٤/١٩١٨م).

ب- مكاسب السلطان من تحالفه مع ألمانيا:

إن من أهم مكاسب السُّلطان من تحالفه غير المعلن مع ألمانيا ذلك النصر المدوي الذي حققته الدولة العثمانية بالجنود المسلمين والخبرة الألمانيَّة،في حربها على اليونان ١٣١٥#-١٨٩٧م.

لقد كان السلطان يقتفي أثر محمد علي باشا الذي وظَّف الخبرة العسكرية الفرنسية لتحقيق انتصاراته الكبرى في جزيرة العرب وعلى الدولة العثمانية نفسها.

لقد تواترت عليه برقيات التهنئة من ملوك العالم وأمرائها وأعيانها وشعرائها.

وقد كتب (***Vonder***) رئيس الوفد العسكري الألماني الذي درب الجيش العثماني يقول: «كان هذا النصر سبباً في تغيير الفكرة التي شاعت في أوروبا بخصوص الخطط المزعومة لتقسيم الدولة العثمانية وتمزيق أوصالها كما طُوي الاصطلاح الأدبي الشائع المعروف باسم الرجل المريض في الغفلة والنسيان.

لقد كان انتصار السلطان بمثابة زيادة في رد اعتباره داخل بلاده نفسها وأوهن عزيمة المناوئين له من جماعة الاتحاد والترقي. والشيء العظيم الذي حصل بعد عام واحد قدوم الإمبراطور غليوم الثاني إلى صديقه السلطان عبد الحميد، وإعلانه من دمشق وعلى ضريح صلاح الدين أنه صديق للسلطان وللـ٣٠٠ مليون مسلم من رعاياه الذين عليهم أن يثقوا بألمانيا صديقة مخلصة للسلطان والمسلمين»[٤].

وقد قوَّم السلطان هذا النصر فقال: رغم عدم الحصول على مكاسب من أرض اليونان

---

(١) السلطان عبد الحميد، مذكراتي ص١٢٢.

(٢) نجيب عازروي، يقظة الأمة العربية، الطبعة الأولى، باريس، ١٩٠٥، المؤسسة العربية للنشر، ١٩٨٠، ص١٤٢.

(٣) محمَّد كمال الدسُوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، المرجع السابق، ص١٤٠.

(٤) سليمان قوجه باش، المرجع السابق، ص٤٠٥.

فإننا أصبحنا أصحاب هذا النصر العظيم...

لقد أزال هذا النصر قناع السخرية والتحقير والازدراء. لقد كان الأعداء الذين كانوا يعاملونني حتى أمد قريب وكأنني رجل منبوذ، يتسابقون الآن على زيارة حاكم الإمبراطورية العثمانية التي تأبى الضيم ولا تهاب الموت، ولما أخفقوا في القضاء عليه واجتثاث جذوره باتوا الآن يطرونه ويتملّقونه ويتزلفون إليه.

وكان الإمبراطور غليوم الثاني ينظر إلى الدولة العثمانية على أنها دولة واهية غير ذات قيمة، ولكن عندما تحقق الانتصار العظيم الخاطف على جميع الجبهات رأى أن الدولة العثمانية جديرة بالتحالف معها.

ليس ذلك فحسب بل إن ملك إيران مظفّر شاه قدم إلى استانبول ليعرض إخلاصه وولاءه للسلطان عبد الحميدالثاني وظهرت صوره في صحف العالم وهو ينحني لتقبيل يد السلطان[1].

ومن المكاسب غير المنظورة التي حققتها السلطنة من زيارتي الإمبراطور غليوم الثاني، نذكر أموراً طريفة عديدة منها:

١- تثبيت مركز السلطان عبد الحميد بين رعاياه وبين المسلمين من الصين حتى الأطلسي، وقد بدا ذلك واضحاً في انتصاره على اليونان، الذي سبق أن تحدثنا عنه.

وأمراً آخر، هو أن الصحف العثمانية ذكرت، ولاسيما عند الزيارة الثانية للإمبراطور سنة ١٣١٦#-١٨٩٨م، أن السلطان عبد الحميد هو أرفع رتبة من الإمبراطور العظيم غليوم الثاني؛ لأنه هو الذي سأل السلطان الحضور إلى الآستانة، بدون دعوة مسبقة من السلطان، كما أن السلطان لم يرد على زيارة الإمبراطور الأولى بزيارة لبرلين، وهذا يؤكد المكانة السامية التي يتمتعُ بها السلطان في العالم.

وأمر ثالث وهو أن الصحف الأوربية والصحف الموالية للغرب في مصر، كانت تنشر ما يقال عن السلطان عبد الحميد في أوروبا، مثل وصفه بقاطع طريق من الدرجة الأولى، أو تسميته بالسلطان الأحمر، ولذلك كان حضور أعظم إمبراطور في أوروبا إلى الآستانة والاستقبال الحافل الذي قوبل به، قد وحَّد المسلمين من حوله، ورفع منزلته في أعينهم وهو ما تجلَّى بوضوح حتى في البلاد الواقعة تحت الاحتلال البريطاني والفرنسي مثل الجزائر وتونس ومصر وغيرها[2].

جـ ما خسره السلطان في هذا التحالف:

حاول الإمبراطور غليوم الثاني في زيارته الثانية للسلطان عبد الحميد معرفة رأيه في موضوع التحالف الألماني - العثماني بعبارة أدق موقف الدولة العثمانية من ألمانيا، إذا قامت الحرب في أوروبا.

ولقد قال للسلطان بوضوح: «هل ستقفون إلى جانبنا إذا شنَّت الحرب في أوروبا يا حضرة السلطان؟ وإن هذه الحرب لا مناص منها؟ فرد عليه السلطان:

ليس من سلطتي الآن أن أُجيبك عن سؤالك إجابة شافية، ويمكنني أن أفكر في الأمر ملياً وفي اللحظة التي تضطرنا الظروف لذلك[3].

ولما سقطت هيبة الألمان من عين السلطان عبد الحميد بسبب إصرارهم على التحالف معهم، التفت الألمان وفي مقدمتهم رئيس الوفد العسكري الألماني في الدولة كولتز

---

(١) سليمان قوجه، المرجع السابق، ص٤٠٦.
(٢) نجيب عازوري، المصدر السابق، ص١٤٢.
(٣) سليمان قوجه، المرجع السابق، ص٥١٨.

(***Goltz***) الذي اهتم في الفترة الطويلة التي قضاها في الدولة بغرس فكرة الإعجاب بالألمان في نفوس الشبان الأتراك الذين قاموا في النهاية بعزل السلطان.

وهذا هو الثمن الذي دفعه السلطان في تقرُّبه من ألمانيا: لقد قوَّى الدولة العثمانية وأنقذها من التقسيم والانهيار، ثم انهار هو نفسه[١].

ب- على ألمانيا:

اعترف الإمبراطور (غليوم الثاني) صراحة في مذكراته بأنه كان يقاتل في صفوف روسيا في الحرب الروسية- العثمانية ١٢٩٥#-١٨٧٨م ضباط وعساكر من بروسية[٢].

وقد تبدَّل موقفه من الدولة العثمانية بعد الزيارة الأولى للآستانة سنة ١٣٠٧#-١٨٨٩م، وهو يقول في ذلك: «بعد عودتي من الآستانة سنة ١٣٠٧#-١٨٨٩م أعربت للبرنس – بسمارك - بناء على طلبه، عمَّا شعرت به في الآستانة من السعادة.

وقد دُهشت عندما أبدى احتقاره الشديد للدولة العثمانية ورجالها ولكل ما له علاقة بها، فحاولت أن أُغيّر رأيه في ذلك عبثاً.

وقبل زيارتي لروسيا عرض علي أن أقدم لروسيا الآستانة والدردنيل معها هدية لروسيا حتى لا تتعب نفسها باحتلالها[٣].

ولم تكن ألمانيا قبل عهد الإمبراطور غليوم الثاني شديدة الاهتمام بالدولة العثمانية.

وكان بسمارك لا يجشّم نفسه مشقة فتح كيس البريد الآتي من الآستانة[٤].

وكان في ألمانيا من يرى أن سلامة ألمانيا ليست في الدولة العثمانية، ولكن من السيطرة على البحار والتصدّي للأساطيل البريطانية.

كما كان هناك تيّار ألماني يرى أن المصير النهائي للسلطنة هي أن تصبح محميَّةً ألمانيةً[٥].

وكانت نظرة «الاستعماريين» الألمان تنطلق من أنَّ الأناضول تستوعب ٧٠ مليوناً من السكان ويقيم فيها ما دون المليونين وألمانيا أحق بهذه الأراضي، وقال أحد الألمان:

«لكي تتحقق سلامة الإمبراطورية الألمانية يجب أن نمدّ أيدينا إلى جنوب أوروبا من خلال الدولة العثمانية، ثم نسيطر على الأناضول والرافدين ونصل إلى الهند...[٦].

وعندما نجحت الحكومة الألمانية في التقارب النسبي من الدولة العثمانية في المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية، ظهرت في ألمانيا أصوات استعمارية عالية من بعض الفئات والجمعيات والسياسيين، مثل قولهم:

- «من هامبورغ إلى البصرة».
- «ومن برلين إلى بغداد».
- «ومن بحر الشمال إلى خليج فارس»[٧].

---

(١) سليمان قوجه، المرجع السابق، ص٥٢٠.
(٢) الإمبراطور غليوم الثاني، المذكرات، ص١١.
(٣) الإمبراطور غليوم الثاني، المذكرات، ص١٦.
(٤) مجموعة باحثين، ألمانيا والعالم العربي، ص٣٨٤.
(٥) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية، ص١٤٢.
(٦) ***Tarih boyunca… P.147***
(٧) ألمانيا والعالم العربي، ص٣٨٥.

ونشر الألماني المتطرف «جروته (*Grothe*)» كتاباً بعنوان سكة حديد بغداد سنة ١٩٠٢ لخصّ فيه «المطالب الاستعماريَّة لاتحاد عُموم ألمانيا» وحاول أن يجتذب إليها الرأي العام الألماني مطالب بصراحة بالسير على خطا فرنسا وبريطانيا، وكان مما قال:

«إن من مصلحة تركية أن تمنح شركة السكك الحديدية الحق في أن تقوم بإنشاء مزارع ومستعمرات قرب الخطوط الحديدية»[١].

ج- ألمانيا في الميزان:

هناك من يرى أن مطالب «اتحاد عموم الألمان» المطالبة باستعمار "الشرق الأدنى "تدل على السياسة الاستعمارية الباطنة لألمانيا.

والواقع أن الكتَّاب الليبراليين المعتدلين والتيارات اليسارية الديمقراطية الاشتراكية في ألمانيا كانت تعارض مطالب «الاتحاد» معارضة شديدة.

وقد أصدر «روروباخ (*Rohrbach*)» الكاتب الكبير عدة نشرات عارض فيها مطالب عموم ألمانيا ووصفها بأنها حمقاء من الناحية السياسية، وهاجم النوايا الاستعمارية عند بعض الألمان وقال إنها ستلحق الأضرار بالمصالح الألمانية في المنطقة[٢]وقال:

وقال إن على ألمانيا مساعدة الدولة العثمانية الحاضرة وإنه لا يجوز إرسال الفلاحين الألمان إلى الأراضي المستصلحة في العِراق، بل تكفي الأموال الألمانية والخبرة الألمانية.

كما هاجمت الكاتبة «روزا لوكسمبورغ (*Rose Luxmburg*)» السياسة الاستعمارية الألمانية عموماً، وخصوصاً في الشرق الأدنى[٣].

وبعد «الانفتاح» الألماني، أو الاندفاع الألماني نحو الشرق (*Drong nach Osten*) أصبحت ألمانيا الدولة الأولى في علاقاتها بالدولة العثمانية، وخاف السلطان من هذا الاندفاع ولاسيّما أنه كان أمراً جديداً تماماً على الدولة العثمانية لم تشهده من قبل.

ولذلك بادرت ألمانيا إلى تطمين الدولة العثمانية وإزالة مخاوف السلطان عبد الحميد من اجتماع الدول الغربية بهذا الكم والكيف وقراراتهم تجاه الدولة العثمانية ولاسيما عند توقيع اتفاق خط بغداد[٤].

وأفهمت ألمانيا العثمانيين، أنه على أثر انحسار الدور الفرنسي وكراهية السلطان للإنكليز حصل فراغ في الدولة العثمانية تقدمت ألمانيا لملئه.

وفي سنة ١٣٠٩#-١٨٩١م طلب المستشار الألماني «كابريـڤي (*Kapriwi*)» وضع تقرير عن المستعمرات الألمانية في الأناضول وفلسطين فجاء الجواب كما يأتي:

إن المستعمرات الهيكلية الألمانية في فلسطين لا تقدم لنا مثالاً مشجعاً للاستعمار، لأن المستعمرين الألمان يعادون السكان وهؤلاء يعادونهم وإذا كان الألمان المقترح توطينهم في آسيا الصغرى، فسيواجه قناصلنا التذمر الدائم من السلطات المحلية، وتدخل الباب العالي المستعر لدى سفارتنا في الآستانة، وقد يدمر علاقاتنا الطيبة مع السلطان بدلاً من أن ينمّيها، والمستعمرات في فلسطين خير مثال على ذلك.

ثم قدم مدير الدائرة الاستعمارية في وزارة الخارجية الألمانية تقريراً هائلاً خلاصته

---

(١) ألمانيا والعالم العربي ، ص٣٨٩.
(٢) ألمانيا والعالم العربي، ص٣٩١.
(٣) المرجع نفسه، ص٣٩٢.
(٤) علي محافظة، العلاقات الألمانية-الفلسطينية، ص٢٣.

أن توطين الألمان في الدولة العثمانية مشروع اقتصادي فاشل[1].

وكانت ألمانيا تردد باستمرار بأنه ليس من وراء مشروعاتها الاقتصادية في السلطنة أهداف استعمارية أبداً، وإنما هي مصالح اقتصادية وفنية بهدف دعم السلطنة ومنع انهيارها.

وفي السبعينات من القرن التاسع عشر بات سقوط الدولة أمراً وشيك الوقوع بعد الانهيار الاقتصادي الواسع، ولمحت روسيا وبريطانيا إلى احتمال تقسيم الإمبراطوريَّة، وكان رأي القيصر حتى من قبل توليه الحكم أنه ينبغي تقوية الدولة العثمانية بالإصلاحات المناسبة وليس بالتقسيم[2].

وكان الاقتصاديون الألمان حريصين على تماسك الدولة العثمانية لضمان نجاح مشروعاتهم الاقتصادية، فيها.

وعندما كانت تتعالى أصوات الألمان المطالبين بتحويل الدولة العثمانية إلى مستوطنات ألمانية، كانت الدولة تكذبهم وتعارض مشروعاتهم[3].

وقد ذهب المؤرخون ورجال الإعلام مذاهب شتى في توضيح أو تفسير موقف الإمبراطور غليوم الثاني من السلطنة والسلطان والإسلام.

والمسألة ببساطة أنه نظر إلى المسألة بعين الحكم العدل المنصف البعيد عن الهوى، وهو ما لم تفهمه أوروبا لأنها لم تضع الأمور في نصابها، ولم تكن راغبة بذلك.

وحصل في دمشق أن ألقى أحد شباب النصارى كلمة في دار البلدية بدمشق بحضور الإمبراطور، فقال الإمبراطور لوزيره: إن المسيحيين في بلاد الدولة أحسن حالاً من الأيرلنديين في بريطانيا. والمسلمين في الهند وروسيا واليهود في الجزائر.

والمسلمون أكثر رغبة في مسالمة النصارى مما يصفهم الواصفون وهذا الرأي الواضح هو الرأي الصحيح، وهو ما لم يفهمه الآخرون حتى اليوم.

ولذلك نشرت صحف أوروبا نصّ خطابه في القدس وقالت إن الإمبراطور أراد أن يحذر أوروبا ويختم الجامعة الإسلامية بخاتمه وهو ما حببه إلى جميع المسلمين.

ويقول فرح أنطون صاحب جريدة الجامعة العثمانية: «لقد كانت ألمانيا أقرب دول العالم إلى إنصاف دولتنا العثمانية لقد كره الإمبراطور أن يكون من جملة النسور الطامعة في افتراس الدولة العثمانية»[4].

ولم تسعَ الحكومة الألمانية إلى تحقيق أي مطلب سرّي أو علني في فلسطين منذ قيام الرايخ الثانية سنة ١٢٨٨#-١٨٧١م حتى نهاية الحكم العثماني سنة ١٣٣٧#-١٩١٨م.

كما أنه لم يصدر عنها لليهود وعد رسمي مماثل لتصريح بلفور كما أنها لم تستغل المستعمرين الألمان لأغراضها السياسية في البلاد[5] فبريطانيا هي كانت الدولة الأسبق والأقوى آنذاك.

يقول نجيب عازوري: إن الألمان على العموم قوم شرفاء ودعاة رزينون ولقد خاف اليهود منهم ومن مستعمراتهم فأقدموا على شراء الأراضي في فلسطين للحدّ من

---

(١) ألمانيا والعالم العربي، ص٣٩٥.
(٢) المرجع السابق، ص٣٩٣.
(٣) المرجع نفسه، ص٣٩٥.
(٤) مجلة الجامعة العثمانية-نيسان ١٨٩٩م ص١٨ و١٩ بقلم فرح أنطون.
(٥) علي محافظة، العلاقات الألمانية-الفلسطينية ص١٢٧.

انتشارهم[1]....

كانت أهداف ألمانيا الحقيقية في الدولة العثمانية تتركَّز حول الأناضول وطرق المواصلات بحيث يصبح بإمكانها السيطرة التامة على الأراضي الممتدة من سواحل بحر الشمال حتى سواحل الخليج العربي.

وكانت ترى في الأناضول «سلَّة غذاء» كبرى لها وللسلطنة في آن واحد حلًّا لمشكلة زيادة السكان الكبيرة في ألمانيا، وكما قيل عن الألمان فقد كانوا من أكثر الشعوب قدرة على الاستعمار في العالم كما ثبت من مستعمراتهم في فلسطين حتى إنهم أصابوا اليهود بالهلع وهم سادة الاستيطان والاستعمار.

وحتى تزيل ألمانيا حاجز الخوف والتردد والقلق عند السلطان بخصوص نواياها في السلطنة، فقد اهتمت ظاهرياً بمسائل ثانوية لا تعنيها كثيراً، مثل تعمير بعض الكنائس وبناء بعض المستعمرات والمشافي والمدارس في لبنان وفلسطين ودمشق، وذلك من أجل كسب مودة السلطان وبطانته ولتعويد الموظفين والمسؤولين العثمانيين، بل والسكان أيضاً على طريقة العمل والحياة الألمانيَّة[2].

وقد استغلَّت الدبلوماسية الألمانية تناقضات الباب العالي مع الدول الأوربية بمهارة عالية.

وقد أشار الدبلوماسيون الألمان إلى ما فعلته بريطانيا من خلال قبرص ومصر، واحتلال فرنسا لتونس، وقيام روسيا بضمّ قارص وأردهان وتحرير البلقان، وأكدت الدبلوماسية الألمانية بأن ألمانيا هي الدولة الوحيدة التي ليست لها مصلحة في إضعاف الدولة العثمانية أو اغتصاب أراضيها، واستخدم الألمان جميع الوسائل لتخويف السلطان من أوروبا ومخططاتها ضد الدولة.

وفي ثمانينات القرن التاسع عشر حصل انقلاب في السياسة العثمانية، ومالت من الاتجاه الإنكليزي القديم إلى الاتجاه الألماني الجديد.

وقد دُشن هذا التقارب بالزيارة الثانية للإمبراطور الألماني (غليوم الثاني) التي أعلن فيها أنه المدافع عن الإسلام[3].

ومن الأمور التي حاول الإمبراطور تحقيقها مع السلطان عبد الحميد، كانت إدارة أملاكه الإمبراطورية الخاصة.

ولقد كان للسلطان في فلسطين والأردن وصور وعكا وبئر السبع والرافدين أراضٍ شاسعة تشكل خمس أراضي الإمبراطورية العثمانية الصالحة للزراعة.

وقد زاد الألمان أن الإشراف على هذه الأملاك وإداراتها وتطويرها. يساعدهم على تثبيت سلطانه في الدولة العثمانية، ويحببهم بالألمان أصدقاء السلطان الأوفياء.

وبعد استشارة المحيطين بالسلطان رفض السلطان هذا الحرص لأنه أدرك أهداف ألمانيا منه، وكان رفضه مهذباً عندما قال: «بكالوم» (***Backlems***)، أي سنفكر التي تعني تأجيلاً طويلاً للطلب الألماني[4].

أمَّا حقيقة موقف الإمبراطور غليوم الثاني من الاستعمار ومن السلطان عبد الحميد ومن الإسلام ومن المسيحية مسألة دقيقة للغاية.

---

(١) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص١٤٢.
(٢) نجيب عازوري، المصدر السابق، ص١٤٢.
(٣) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، موسكو، ١٩٧١، ص٣٨٧.
(٤) سليمان قوجه باشي، المرجع السابق، ص٤٠٥.

ومن خلال ما عرضناه من المصادر خلصنا إلى ما يلي:

- إن الإمبراطور رجل مسيحي متمسك بدينه بشدَّة متناهية شأنه شأن ملوك روسيا وبريطانيا وغيرهم.

وفي خطابه في كنيسة المخلّص بالقدس يوم ٣١ تشرين أول ١٨٩٨ قال بصراحة:

«إن حضوري إلى القدس الشريف كان لكي تطأ أقدامي الأرض التي داسها سيدنا وربنا يسوع المسيح، والتي مات فيها ثم قام وصعد منها إلى السَّماء...

يجب علينا أن نشهر دين المسيح الحقيقي ليكون نوراً على منارة، ينير كل مكان وكل زمان....

وإني سأستمر على هذا الدين الحق والمبادئ القويمة التي تسلمتها من آبائي وأجدادي، وإن إيماني ثابت على الصخرة الأزلية، التي هي السيد المسيح، وإني سأبقى متمسكاً بالكلمة التي تأسست مملكته عليها وهي الإيمان الحقيقي بالرب يسوع المسيح حسبما هو مبين في إنجيله وإن سأجاهد لمجد الرب وخير الكنيسة[1].

فالإمبراطور إذن مسيحي متديّن والفرق بينه وبين الآخرين من حكام أوروبا الطغاة، أنه كان حريصاً على حريَّة الأديان لدى الجميع، ولاسيما المسلمين، وكان يحترم مقدساتهم وعقيدتهم، ويدافع عنها كما يدافع عن عقيدته.

ليس هذا فحسب، بل إنه رأى في الجامعة الإسلامية وتقوية الدولة العثمانية أمراً مشروعاً طبيعيًّا وليس دليلاً على تعصب المسلمين كما تقول بريطانيا.

لقد كانت ألمانيا في عهد غليوم الثاني تحديداً دولة شريفة تحترم المسلمين ودولتهم وخليفتهم وأبطالهم دون أن تكون لها مطامع في بلادهم، وإنما هي المصالح المشتركة، وهو ما لم تفهمه دول أوروبا وأمريكا حتى اليوم. وهذه هي خلاصة الموقف الألماني وقيمته باختصار.

(١) خليل سركيس، رحلة الإمبراطور غليوم الثاني، دار القادري، دمشق، ١٩٩٧، ص٦٢.

الخاتمة

ومع نهاية هذا البحث عن العلاقات الألمانية - العثمانية، يمكننا القول: أن الدولة الألمانية لم تكن بالفعل تلك الدولة الصديقة الحقيقية كما اعتقد العثمانيون وعلى رأسهم سلطانهم (عبد الحميد الثاني) فلقد كانت الأهداف الاستعمارية، هي الأهداف الحقيقية من وراء توطيد هذه العلاقات وتقويتها، فألمانيا كانت قد وصلت متأخرة إلى ساحة الاستعمار الدولي وأرادت أن تحصل على مكان لها بين الدول العظمى من الناحية السيادية ومن الناحية الاستعمارية ورأينا كيف أن بسمارك سعى لأن تكون ألمانيا هي صمام الأمان في الحفاظ على السلم الدولي في أوربا وكذلك سعى من بعده الإمبراطور الألماني (غليوم الثاني) لكي يجعل من ألمانيا دولة قوية عظمى من جميع النواحي (الاقتصادية والسياسية والعسكرية) وبما أن الدولة العثمانية كانت الأضعف بين الدول الكبرى في تلك المرحلة وكانت أيضاً ممتلكاتها من أفضل وأهم المناطق المطموع بها والمتنازع عليها من قبل الدول الاستعمارية الكبرى (فرنسا - انكلترا - روسيا) فلذلك سعى الإمبراطور الألماني، لتمتين علاقاته مع هذه الدولة المتهالكة وأن يظهر صداقته لها في وقت كانت تظهر معظم الدول الأوروبية عدائها الشديد للعثمانيين وطمعها بممتلكاتها، حتى أن كثير من هذه الدول قامت باقتطاع أراضي عثمانية واستولت عليها في تلك الفترة الزمنية، فكانت هذه هي الفرصة التي استغلها الإمبراطور الألماني من أجل الدخول إلى الدولة العثمانية بصورة الصديق المعين والمسعف للدولة العثمانية وسلطانها وإنقاذهما من السقوط.

وكان أن نجح هذا الإمبراطور لحد ما في كسب ودّ وصداقة السلطان (عبد الحميد الثاني) وكذلك محبة الشعوب الإسلامية الذين تحكمهم الدولة العثمانية وخاصة بعد زيارته الثانية إلى دمشق والقدس وخطبته المشهورة هناك.

هذا بالنسبة لألمانيا وإمبراطورها، أما بالنسبة للدولة العثمانية وسلطانها (عبد الحميد الثاني)، فلقد كانت الدولة تعيش في تلك المرحلة أسوأ أيامها، ولم يكن أمام السلطان عبد الحميد الثاني إلا أن يقبل أي يد تُمد له بالمساعدة والعون حتى لو كانت هذه اليد مشكوك في صدق نواياها، وفي كثير من الأحيان استطاع عبد الحميد أن يكشف النوايا الخبيثة للألمان من وراء إقامتهم علاقات مع دولته الشبه منهارة، وقد حاول في أكثر المواقف أن يظهر للألمان فهمه وكشفه لهذه النوايا والوقوف في وجه أطماعهم ومشاريعهم الاستعمارية في بلاده.

وأما إذا حاولنا أن نبين من هو المستفيد الأكبر من الطرفين (الألماني-العثماني) في إقامة هذه العلاقات، فقد كان الألمان بحكم ضعف الدولة العثمانية فهي لم تستطع الحفاظ على نفسها حتى أمام هذا المستعمر المتخفي بزي الصديق.

واستطاع الألمان أن يكونوا هم الطرف الأقوى والأكثر استفادة من هذه العلاقات من جميع النواحي وخاصة (الاقتصادية والعسكرية والسياسية) وكانت نتائجها كارثية على الدولة العثمانية حيث نجح الألمان في جر الدولة العثمانية وأخذها إلى حرب عالمية انتهت بتقسيم الدولة العثمانية وسقوط الخلافة في النهاية (١٩٢٣) بينما بالرغم من خروج ألمانيا مهزومة في هذه الحرب إلا أنها نجحت في أن تعود أكثر قوةً من قبل وتصبح هي القوة الوحيدة والعظمى والمسيطرة في القارة الأوربية على يد زعيمها هتلر، طبعاً بغض النظر

عن النتائج الكارثية التي جلبها هتلر على دولته ألمانيا فيما بعد.

هذا بالنسبة لتأثير العلاقات الألمانية-العثمانية على الدولة العثمانية وألمانيا، أما بالنسبة لتأثيرها على الوطن العربي فلقد كان تأثيرها سلبياً إلى حدٍ كبير، وخاصة بالنسبة إلى فلسطين والاستيطان اليهودي فيها.

فبالرغم من محاولات الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد الثاني منع استيطان اليهود في فلسطين ووضع العراقيل الكبيرة في وجه اليهود، وبالرغم من عدم الدعم العلني والصريح للإمبراطور الألماني «غليوم الثاني» لليهود ولاستيطانهم فلسطين، إلا أنه بصورة أو بأخرى أدت ألمانيا واليهود الألمان على الأخص دوراً بارزاً في جلب وتثبيت أولى المستوطنات اليهودية في فلسطين.

وقد شكلت هذه المستوطنات النواة الحقيقية للاستيطان اليهودي والهجرات التي تلاحقت إلى المنطقة فيما بعد وأدت إلى تشكل الكيان السرطاني المزعوم (إسرائيل).

ولا يستطيع المحلل والباحث أن يتصور أن هذه التجمعات اليهودية الألمانية الأولى التي جاءت إلى فلسطين ونجحت في إنشاء مستعمرات لها هناك، لم تكن مدعومة أو بعيدة عن الدعم الرسمي من قبل الحكومة الألمانية في ذلك الوقت فهي بطريقة أو بأخرى نجحت في الحصول على الدعم المادي والمعنوي والتأييد المطلق لها في الاستمرار في بناء مستعمراتها داخل فلسطين.

وقد رأينا أثناء البحث كيف كانت تتعالى الأصوات بين حين وآخر من قبل الرأي العام الألماني وحتى بعض الشخصيات السياسية البارزة في الحكومة الألمانية من أجل دعم هذه المستوطنات وتقديم العون المادي لها، وتأمين الغطاء السياسي لها والقانوني من قبل الإمبراطورية الألمانية، وكيف طُلب في كثير من الأحيان من «بسمارك» والإمبراطور الألماني «غليوم الثاني» فيما بعد في أن يساعد اليهود في الحصول على الموافقات القانونية لبناء مستوطنات لهم في فلسطين داخل القدس وفي مناطق متفرقة من فلسطين.

ورأينا كيف التقى هرتزل بالإمبراطور الألماني وطلب منه رسمياً دعم اليهود في قضيتهم المزعومة وأن يتوسط لهم لدى صديقه السلطان عبد الحميد الثاني في أن يسمح لليهود بالهجرة إلى فلسطين، وشراء الأراضي من أجل إقامة وطنهم القومي فيها.

وما كان رفض الإمبراطور الألماني محبةً في السلطان وكرهاً في اليهود، بل كانت خطوة دبلوماسية منه أراد منها التأكيد على صداقته مع السلطان العثماني ودعمه له ومحبته للمسلمين في العالم كله، حتى ظنه الكثيرون - من ساذجي العالم العربي والإسلامي - أنه صديق حقيقي لهم. وفي كثير من الأحيان أدعى بعضهم وأشاع أن الإمبراطور الألماني قد تحول إلى الدين الإسلامي.

وفي الحقيقة لم تكن هذه هي الصورة الحقيقية لمشاعر الإمبراطور ومواقفه من الدولة العثمانية وسلطانها وأتباعه من المسلمين، بل كان الهدف الحقيقي له هو الحصول على شعبية كبيرة لدى هؤلاء البسطاء من أجل أن تكون ألمانيا دولة عظمى وكبرى في العالم، ومن أجل أن يضرب مصالح كلٍ من فرنسا وانكلترا اللتان تسيطران على مناطق كثيرة في العالم معظم شعوبها من المسلمين.

وفي نهاية الأمر على الرغم من كل التحليلات والتأويلات والأبحاث التي حاولت أن تفسر وتعطي الأسباب الحقيقية والأيادي الخفية وراء زرع «إسرائيل» في قلب الوطن العربي فحقيقة وجود هذا الكيان الغاصب ما زالت قائمة إلى الآن.

وخلاصة الأمر أن هذا العدو لن يخرج من بلادنا حتى تتوحد كلمتنا نحن العرب جميعاً وتتوحد رايتنا تحت راية واحدة وتحت قيادة واحدة وفي ذلك الوقت فعلياً نستطيع اقتلاع «إسرائيل» من جذورها من منطقتنا وكل أتباعها معها إلى الأبد ويعود الحق المسلوب إلى أصحابه.

ولكن هيهات هيهات أن يتم ذلك في هذا الوقت العصيب والزمن الأسود على أمتنا العربية والإسلامية، فالوطن أصبح أوطان وأصبح لفلسطين إخوان وأخوات (العراق-سوريا-مصر-ليبيا...) فغدونا فرقاً وفرقاً حتى داخل الوطن الواحد ودعوتنا أننا نبني ونحرر ونحن بأيدينا ندمر ونخرّب.

قائمة المصادر

١- الوثائق:

- وثائق الأرشيف العثماني في استانبول.
- الوثائق المحفوظة بدار الوثائق بدمشق.

٢- المذكرات:

- مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني (مذكراتي السياسية، ١٨٩١-١٩٠٨)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٥، ١٩٨٦.
- مذكرات الإمبراطور غليوم الثاني، ترجمة أسعد داغر ومحب الدين الخطيب، القاهرة، ١٣٤١#-١٩٢٢م.
- مذكرات تيودور هرتزل، ترجمة أنيس صايغ، (يوميات هرتزل)، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٨.
- مذكرات خالد العظم، تحقيق أكرم العلبي، دمشق، ٢٠٠٥.
- مذكرات مدحت باشا، تعريب: يوسف كمال حتاته، مصر، ط١، ١٩٠٦.

٣- المصادر العربية:

١) آصف يوسف بك، سلاطين آل عثمان، ترجمة: بسام عبد الوهاب الجابي، دمشق، دار البصائر، دمشق، ط٣، ١٩٨٥.
٢) إبراهيم الأسود، الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية، تقديم: خيري الذهبي، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٨.
٣) إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية (التحفة الحلبية)، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٨#-١٩٨٨م.
٤) أحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، مصر، ١٨٨٧.
٥) تيودور هرتزل، الدولة اليهودية، ترجمة وإصدار مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
٦) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت، ١٩٦٠.
٧) سليم فارس، كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، مطبعة الجوائب، بالآستانة العلية، ط١، ١٩٢٥م.
٨) س. موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة عصام محمد الشماط، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٢م.
٩) شكيب أرسلان، تاريخ الدولة العثمانية، حققه حسن السماحي السويدان، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
١٠) شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، ثلاث مجلدات، القاهرة، ١٩٣٣.
١١) عائشة عثمان أوغلي، والدي السلطان عبد الحميد، دار البشير-عمان، ١٩٩١.
١٢) عبد العزيز، العظمة، مرآة الشام، دار الفكر، دمشق، ط٢، ٢٠٠٢م.
١٣) محمد فريد بك، تاريخ الدولة العليَّة، تحقيق: إحسان حلاق، ط٩، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٣م.
١٤) محمد كردعلي، خطط الشام، بيروت، ٦ أجزاء، ١٩٧٠م

١٥) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، الطبعة الأولى في باريس ١٩٠٥، المؤسسة العربية للنشر، ١٩٨٠.
١٦) نعمة الله نوفل، الدستور العثماني، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٨٨٣.

٤- المراجع العربية:

١) أ.آدو بواهن، تاريخ أفريقيا العام (المجلد السابع) أفريقيا في ظل السيطرة الاستعمارية (١٨٨٠-١٩٣٥) صدر عن منظمة الأمم المتحدة، اليونسكو، ١٩٩٠.
٢) أ.ج.جرانت وهارولد تمبرلي، أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرون ١٧٨٩م-١٩٥٠)، ترجمة بهاء فهمي، ود.أحمد عزت عبد الكريم،.مؤسسة سجل العرب، دار الحمامي للطباعة، القاهرة، ط٦، د.ت.
٣) ا.ل.شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي - ترجمة محب الدين الخطيب، بيروت ١٩٨٠.
٤) أحمد حامد القضاة، نصارى القدس، مركز الوحدة للدراسات العربية، ٢٠٠٧.
٥) أحمد حسين، موسوعة تاريخ مصر، ٥ أجزاء، مؤسسة دار الشعب، القاهرة.
٦) أحمد سعيد البرجاوي، الإمبراطورية العثمانية، الأهلية للنشر، بيروت، ١٩٩٣م، د.ط.
٧) أحمد طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، منشورات جامعة دمشق، ط٥، ١٩٩٧م.
٨) أحمد عابورة، الخط الحديدي الحجازي، ط٢، دمشق ١٩٩٦.
٩) أحمد كوندز وسعيد أوزتورك، الدولة العثمانية المجهولة والكتاب.
١٠) أحمد نوري النعيمي، الدولة العثمانية واليهود، الدار العربية للموسوعات، بيروت ٢٠٠٦م.
١١) إسماعيل، سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، ت: حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت، د.ط، ١٩٨٨م.
١٢) أكرم العلبي، خالد العظم، دمشق ٢٠٠٥.
١٣) أكمل الدين، أوغلي، الدولة العثمانية (تاريخ وحضارة)، ت: صالح سعداوي صالح، اسطنبول، ١٩٩١م، مجلدان، د.ط.
١٤) ألبرت حوراني وفيليب خوري وماري ويلسون، الشرق الأوسط الحديث (الجزء الثاني التحولات في المجتمع والاقتصاد ١٧٨٩-١٩١٨)، ترجمة: الدكتور أسعد صقر، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٥.
١٥) ألكزاندر شولس، تحولت جذرية في فلسطين (١٨٥٦-١٨٨٢) دراسة حول التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، نقله عن الألمانية د.كامل جميل العسلي، عمان، ١٩٨٨.
١٦) آمنة أبو حجر، موسوعة المدن العربية، دار أسامة، ط١، ٢٠٠٣.
١٧) أمين أبو بكر، ملكية الأراضي في متصرفية القدس، عمان، ١٩٩٦م.
١٨) أونك غولصوي، الخط الحديدي الحجازي، استانبول، ١٩٩٤.
١٩) برون، جفري، الحضارة الأوروبية في القرن التاسع عشر (١٨١٥-١٩١٤م)، ت: عبلة حجاب، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، نيويورك ١٩٦٣م.
٢٠) توفيق برو، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، منشورات جامعة حلب، (١٤١١هـ - ١٩٩٠م).

٢١) ثريا الفاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، ترجمة حاتم الطحاوي، مراجعة عامر الأيوبي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.
٢٢) جلال يحيى، التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، الإسكندرية، مصر، المكتب الجامعي الحديث، ١٩٨٣م.
٢٣) جورج أنطونيوس، اليقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ط٨، ١٩٨٧.
٢٤) جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، ٥ مجلدات، دار الثقافة بالقاهرة ١٩٩٠م.
٢٥) جون لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، قطر ١٩٧٠م.
٢٦) جيرارد دو جورج، دمشق عبر العصور، دار قتيبة، دمشق، ٢٠٠٧.
٢٧) حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٩٩.
٢٨) خليل أنيالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية (١٦٠٥، ١٩١٤) ت: دكتور قاسم عبده قاسم، دار المدار الإسلامي، مجلدان، بيروت، ٢٠٠٧.
٢٩) خليل سركيس، رحلة الإمبراطور غليوم الثاني، دار القادري، دمشق، ١٩٩٧.
٣٠) خير الدين الزركلي، الأعلام، ط١٤، دار العلم للملايين.
٣١) رنوخان بيير، تاريخ العلاقات الدولية في القرن التاسع عشر (١٨١٥-١٩١٤)، ترجمة: جلال يحيى، الإسكندرية، دار المعارف، د.ت.
٣٢) روبير شنرب، تاريخ الحضارات العام في القرن التاسع عشر، نقله إلى العربية يوسف داغر وفريدم داغر، منشورات عويدات، بيروت.
٣٣) روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، جزآن، ت: بشير السباعي، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ١٩٩٣.
٣٤) زينب عصمت راشد، تاريخ أوربا الحديث في القرن التاسع عشر، دار الفكر العربي، جزآن، القاهرة، د.ت.
٣٥) سليمان قوجه باشي، السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة، عبد الله إبراهيم، دار مروة، القاهرة ٢٠٠٨.
٣٦) سمير عبده، اليهود السوريين، دار حسن ملص للنشر، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠٠٣.
٣٧) سهام، هنداوي، تاريخ دمشق في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ط١، دار رسلان، دمشق، ٢٠٠٩.
٣٨) سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
٣٩) سيف الدين الكاتب، أطلس التاريخ الحديث، دار الشروق، لبنان بيروت، ط٢، (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).
٤٠) سيف الله آرباجي، السلطان عبد الحميد الثاني (مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية)، ط١، دار النيل، مصر، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.
٤١) شوقي أبو خليل، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٥.
٤٢) شوقي عطا الله، تاريخ العالم العربي الحديث والمعاصر (منذ الفتح العثماني للعالم العربي حتى الوقت الحاضر)، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٩٨.
٤٣) شوكت باموك، التاريخ المالي للدولة العثمانية، بيروت، ٢٠٠٥م.
٤٤) عبد الباسط بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، المدينة المنورة ٣ مجلدات، ١٩٩٣م.
٤٥) عبد الرحمن أبو عرفة، الاستيطان في فلسطين، عمان، ١٩٨٦.

٤٦) عبد الرحيم أبو حسين، الكنائس العربية في السجل الكنسي العثماني، عمان المصدر الملكي للدراسات الدينية ١٩٩٨م.
٤٧) عبد الرؤوف سنو، ألمانيا والإسلام في القرن التاسع عشر والعشرين، دار الفرات، ط١، ٢٠٠٧.
٤٨) عبد الرؤوف سنو، النزعات الكيانية الإسلامية، بيروت، ١٩٩٨.
٤٩) عبد الرؤوف عيسى، التنصير الأمريكي، مكتبة مدبولي بالقاهرة، ٢٠٠٥م.
٥٠) عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، أربعة أجزاء، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٨٦، وطبعة ٢٠٠٥.
٥١) عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية/١٨٦٤-١٩١٤م/، دار المعارف بمصر، القاهرة، د.ط، /١٩٦٩/.
٥٢) عبد العزيز، رمضان، تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ثلاثة أجزاء، ١٩٩٧.
٥٣) عبد الفتاح أبو عليه، وإسماعيل، أحمد ياغي، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، ط٣، (١٤١٣هـ، ١٩٩٣م).
٥٤) عبد القادر حمود القوطاني، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون، ط١، ٢٠٠٨.
٥٥) عبد الكافي الصطوف، وراغب العلي وطليعة الصياح، دراسات في تاريخ أوروبا في العصر الحديث، منشورات جامعة دمشق، (١٤١٩هـ -١٩٩٨م).
٥٦) عبد الكريم النقيب، آباء الحركة الصهيونية، دار الجيل، عمان ١٩٨٧.
٥٧) عبد الكريم رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، منشورات جامعة دمشق، ط٦، /١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م/.
٥٨) عبير الشيخ، السياسة الألمانية تجاه القضية الفلسطينية وتطورها (١٩٤٩-٢٠٠٨)، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٢م.
٥٩) عزّة آقبيق، تاريخ الخطوط الحديدية في بلاد الشام، دمشق ٢٠١٠م.
٦٠) علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (١٧٩٨-١٩١٤م)، ط٣، بيروت، الشركة الأهلية، ١٩٨٠.
٦١) علي المحافظة، الحركات الفكرية في عصر النهضة (في فلسطين والأردن)، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧.
٦٢) علي المحافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية (١٨٤١-١٩٤٥)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨١.
٦٣) علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م.
٦٤) علي شاكر باشا، القول السديد في حرب الدولة العلية مع اليونان، القاهرة.
٦٥) عمر عبد العزيز عمر، تاريخ أوربا الحديث (١٨١٥-١٩١٩)، دار المعرفة، مصر، ٢٠٠٠.
٦٦) عمر فاروق يلماز، السلطان عبد الحميد خان الثاني (من خلال الوثائق)، ترجمة طارق عبد الجليل، دار نشر عثمانلي، استانبول، ومكتبة النيل، مصر، ٢٠٠٠.
٦٧) فاروق عثمان أباظة، آغا خان ومهمته في مصر في بداية الحرب العالمية الأولى (دراسة وثائقية)، دار المعارف، د.ت.
٦٨) فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني (رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية)، ط١، دار المدار الإسلامي، لبنان، بيروت، ٢٠٠٣.

٦٩) فايت، فالنتين، تاريخ الألمان، ترجمة: د.أحمد حيدر، الأبجدية للنشر والتوزيع، دمشق، والمركز الثقافي الألماني، معهد غوته، دمشق، ط١، ١٩٩٤.
٧٠) فيليب دوطرَّازي، تاريخ الصحافة العربية، ٤ مجلدات، بيروت، ١٩١٣.
٧١) كمال الدسوقي، تاريخ ألمانيا، دار المعارف المصرية، القاهرة، د.ت، ص٩٩،.
٧٢) كوليت خوري، أوراق فارس الخوري، مؤسَّسة طلاس، ١٩٨٥م.
٧٣) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث ، موسكو ١٩٧١.
٧٤) لورنس أوليفانت، أرض جلعاد (رحلات في لبنان وسوريا والأردن وفلسطين ١٨٨٠)، ترجمة: د.أحمد عويدي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٤.
٧٥) ليندا شيلسر، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ترجمة: عمرو الملاح، ودينا الملاح، دمشق، ١٩٩٨.
٧٦) ماري سركو، تطور دمشق في عهد السلطان عبد الحميد (١٢٩٣-١٣٢٥#/١٨٧٦-١٩٠٩م)، رسالة دكتوراه - جامعة دمشق ٢٠٠٦.
٧٧) متين هولاكو، الخط الحديدي الحجازي، دار النيل، القاهرة، ٢٠١١.
٧٨) مجدي الصاخوري، سقوط الدولة العثمانية، دار الصحوة للنشر، ١٩٩٠.
٧٩) مجموعة باحثين، روسيا وأرثوذكس الشرق، جامعة البلمند، لبنان، ١٩٩٨م.
٨٠) مجموعة مؤلفين، ألمانيا والعالم العربي، تعريب: مصطفى ماهر، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤م، والبحث المنقول بقلم د.هانس رُويمر.
٨١) مجموعة مؤلفين، أوروبا من ١٧٨٩م حتى أيامنا، ٣ مجلدات، باريس، مكتبة العويدات، بيروت، ١٩٩٥م.
٨٢) مجموعة مؤلفين،أوروبا في القرن ١٥ حتى ٢٠، القاهرة، ١٩٥٠.
٨٣) محمد الأحمد، الحضارة الأوروبية (الحديثة والمعاصرة)، جامعة دمشق، ٢٠٠٧-٢٠٠٨.
٨٤) محمد الأمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، أربعة أجزاء، دار صادر بيروت، د.ت.
٨٥) محمد الدقن، سكة حديد الحجاز الحميدية، القاهرة، ١٩٨٥.
٨٦) محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٢٠٠٣م.
٨٧) محمد الصلابي، السلطان عبد الحميد الثاني وفكرة الجامعة الإسلامية، المنصورة، دار اليقين، د.ت.
٨٨) محمد الناصر النفراوي، التيارات الفكرية السياسية في السلطنة العثمانية (١٨٣٩-١٩١٨)، ط١، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، تونس، ٢٠٠١.
٨٩) محمد علي أورخان، السلطان عبد الحميد الثاني (حياته وأحداث حياته)، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط١، (١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م).
٩٠) محمد عيسى صالحية، مدينة القدس السكان والأرض (العرب واليهود) (١٢٧٥-١٣٦٨هـ=١٨٥٨-١٩٤٨م)، مركز الزيتونة للدراسات، بيروت-لبنان، ٢٠٠٩.
٩١) محمد قنديل البقلي، المختار من تاريخ الجبرتي، جزآن، ط٢ الهيئة العامة للكتب الإسكندرية، (١٤١٣ـ-١٩٩٣م).
٩٢) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، القاهرة، ١٩٧٦م.
٩٣) محمد كمال الدسوقي، تاريخ أوروبا الحديث، مطبعة النهضة الجديدة، د.ت.
٩٤) محمد وحيد، القول المفيد في حكم السلطان عبد الحميد، دار النيربين، دمشق، الطبعة الأولى (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).

٩٥) محمود علي عامر، الدولة العثمانية، تاريخ ووثائق دار الرحاب، دمشق، ط١.
٩٦) محمود علي عامر، قاموس اللغة العثمانية (عثمان-عربي)، دار الصفدي، دمشق، ط١، ٢٠٠٠.
٩٧) مصطفى عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني، ط٣، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣.
٩٨) ممدوح الزوبي، الطرق الصوفية (ظروف النشأة وطبيعة الدور)، الأهالي للطباعة والنشر، سوريا، دمشق، ط١، ٢٠٠٤.
٩٩) الموسوعة العربية، ٢٥ جزء، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
١٠٠) الموسوعة الفلسطينية، بيروت ١٩٩٠ بحث للدكتور عبد الكريم رافق.
١٠١) موفق بني المرجة، صحوة الرجل المريض، ط١، الكويت ١٩٨٤م.
١٠٢) ميشيل يتيم، تاريخ الكنيسة الشرقية، المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٩٩.
١٠٣) نجيب العقيقي، المستشرقون، ٣ مجلدات، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٤.
١٠٤) نزار قازان، سلاطين بني عثمان (بين قتال الأخوة وفتنة الإنكشارية)، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
١٠٥) نينل ألكسندروفنا دولينا، الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية، ترجمة: أنور محمد إبراهيم، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩.
١٠٦) هانس روبرت رويمير، ألمانيا والعالم العربي، ت: دكتور مصطفى ماهر، دار صادر، بيروت، د.ت.
١٠٧) هدى درويش، العلاقات التركية اليهودية (وأثرها على البلاد العربية منذ قيام يهود الدونمه ١٦٤٨م إلى نهاية القرن العشرين)، جزآن، ط١، دار القلم، دمشق، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
١٠٨) وليام لانجرت، موسوعة تاريخ العالم، ترجمة: محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة العربية، ١٩٨٠.
١٠٩) يسرى الحنفي، الإرساليات الأجنبية في بلاد الشام، رسالة ماجستير جامعة أم القرى ١٤١٢هـ.
١١٠) يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ط٢، بيروت، دار النهار، ١٩٨٠م.
١١١) يوسف عمر، أسباب خلع السلطان عبد الحميد، عمان، ٢٠٠١م.

المقالات والبحوث:

١) علي إحسان خبر: «ردود فعل حول رحلة الإمبراطور غليوم الثاني إلى بلاد الشام»، بحث مقدم في المؤتمر الدولي حول بلاد الشام في العهد العثماني، وزارة الثقافة سورية، دمشق، ٢٦-٣٠ أيلول ٢٠٠٢.

٢) مصطفى قجار: «مطالعات حول رحلة الإمبراطور غليوم الثاني إلى بلاد الشام (١٨٩٨)»، بحث مقدم في المؤتمر الدولي حول بلاد الشام في العصر العثماني، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٥.

٣) كمال عبد الفتاح: «النمو الاقتصادي لفلسطين في الفترة العثمانية المتأخرة»، بحث قدم في المؤتمر الدولي حول بلاد الشام في العهد العثماني، دمشق، ٢٠٠٥م.

٤) عز الدين فوده: «الصراع الدولي حول فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى صدور وعد بلفور»، مجلة البحوث والدراسات العربية، العدد الأول، آذار، ١٩٦٩م.

٥) سعيد الأفغاني، «كانت الصهيونية هي خالعة السلطان مقوضة المملكة العثمانية»، مجلة العربي، ١٩٧٢، العدد ١٦٩.

٦) محمد موفاكو: «البكتاشية»، مجلة العربي، آذار، ١٩٧٧، العدد ٢٢٠.

٧) هلموت مايشر ***Helmut Mejcher Tubingen: «Scme Aspects of the German Baghdad Railway Policy»*** نشرته مجلة المؤرخ العربي التي تصدرها الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب في بغداد، العراق، العدد الأول، ١٩٧٥.

٨) أمين عبد الله محمود: «الهجرة اليهودية الأولى إلى فلسطين المرحلة المبكرة (١٨٨١-١٨٨٤)»، مجلة اليرموك، المجلد ٥، العدد ٣، ١٩٨٣، الكويت.

٩) ***Dr.Tufan Buzpınar: «II.Abdülamid Döneminin ilk Yıllarında Filistin̓da Yahudi Iskani Girişinleri (1879–1882)». Tükiye günlüğü/30/Eylül-Ekim-1999.***

١٠) علي المحافظة: «النشاط التبشيري الألماني في فلسطين»، دراسات تاريخية، حزيران، ١٩٨٠.

١١) عبد العزيز محمد عوض: «فلسطين في أواخر العهد العثماني (ملامح اجتماعية واقتصادية)»، مقال مصور من مكتبة الأسام (***Isam***) في استانبول.

١٢) نوفان رجا الحلود: «كتب الرحالة الأوربيين عن فلسطين والأردن المحفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات (قائمة بيبلوغرافية)».
- دراسات، المجلد الثالث عشر، العدد الأول، ١٩٨٦، (مصور عن مكتبة الأسام (***Isam***))

١٣) مقال بعنوان: «جلالة السلطان عبد الحميد خان» بقلم الأستاذ اللغوي فميري الرحالة المجري (١ آب ١٨٩٠ الموافق ١٥ ذي الحجة سنة ١٢٠٧)، مجلة المقتطف، الجزء (١٠)، ١٨٩٠، القاهرة.

٥- الدوريات:

القديمة:

١) مجلة المقتطف.

٢) عصر السلطان عبد الحميد الثاني، مجلة دورية، أصدرتها مكتبة الهاشمية بدمشق (العدد ١٥).

٣) الجوائب.
٤) الاعتدال.
٥) المشرق.
٦) الفرات.

الحديثة:

١) مجلة الأجيال.
٢) مجلة دراسات تاريخية.
٣) مجلة العربي.
٤) مجلة الفيصل.
٥) مجلة المعرفة.
٦) مجلة اليرموك.
٧) مجلة المؤرخ العربي.
٨) مجلات تركية أكاديمية.
٩) مجلة مجمع اللغة العربية.
١٠) مجلة جامعة دمشق.

٦- المصادر والمراجع الأجنبية:

*I- **Barkar and Edward: Syria and Egypt under the last five sultans of Turkea.***

*II- **Bein Herzela Bein: Theodor Herzel, Translated by Samuel Phialdalphia 1999.***

*III- **Bernard Lewis: The Jews of Islam, New Jersey 1987.***

*IV- **Caesar E.farrh: abdullhamid II and the Muslim world, ISAR Foudation, Istanbul, 2008.***

*V- **D.Mehmet Ali Beyhani: II Abdülhamid Dönemi (Turkler.12) Ankara 2002.***

*VI- **Dr.Hüseyin Özdemir: Abdülhamid, in listin cığlığ-Istanbul, 2001.***

*VII- **H.Bayram Soy, Wilheim II, Weltpolitik and Abdülhamid II, Hacettepe university, institute of social sciences, Turkey, 2009.***

*VIII- **Ilber or tayli: iki dost hükümdar (Sultan II Abdülhamid-Kaiser II Wilhelm, Llisaraylar, Iastanbul: 2010, Avrupa kültür baskenti.***

*IX- **Ilber or tayli: Osmanli Imperator luğu'nda Alman Nüfuzu Bogozici Universites ikütüphanesi, Istanbul, 2003.***

*X- **Kazim Karabekir, Tarih boyunca (Türk-Alman ilişkileri), Emre Yayinlari-cumhuriyet Tarihi serisi, (36), Cemberlitaş-Istanbul.***

*XI- **Jacob Barnai: The Jews in Palestine in the Eighteenth century the university of Alabama Prcss, 1992.***

*XII- **Kazim Karabekir, Tarih boyuncac Türk-Alman ilişkileri), Istanbul, 2001.***

*XIII- **Kemal öke, II Abdülhamid-Siyonistler-ve-Filistin. Meselesi, Istanbul, 1981.***

XIV- Moshe maoz, Ottoman Reform in Syria and Palestine(1810–1861) Oxford, London1968.

XV- Orhan Koloğlu: Avrupa Kiskacida Abdülhamid, istanbul, 1998..

XVI- Roger Owen, The Middle East in the world Econmy-London, 1993.

XVII- Süleyman Kocabaş: Alman Kapanı (Almanyånin=nasıl sömürgesive-eyaleti yapılacaktık?) (1883–1918), Istanbul, 2005.

XVIII- Theodore S.Hamerow: OT Tovan Bismarcka Historical Assessments. O.C.Heathand Company, Boston, 1962.

XIX- Theodore S.Hamerow: The Ageof Bismark, Newyork, 1973.

XX- Yrd.Doc.Dr.Av. Faruk Yilmaz, imparatorluk döneminde Türk-Almaniliskileri, (Goltz Paşånin Hatıratı)-Ankara 2004.

٧- المواقع الإلكترونية على الشابكة

قاموس الكتاب المقدس - مجمع الكنائس الشرقية، موقع إلكتروني *st-takla.org/books/freecopticbooks.....holy didionarg.*

www.al-a7rar.net.
www.alnabanews.com.
www.ar.wikipedia.org
www.arab-ency.com ،encylopedia.
www.ency.kacemb.com
www.uaecion.net
http//wikipedia.org.
http;//www.discorer-syria.com/newa/735.